رواية

نيكوس كازانتزاكيس

زوربا اليوناني

ترجمة: نور الدين محمود
مراجعة: محمد الجيزاوي

عصير الكتب

زوربا اليوناني

الكتاب: زوربا اليوناني

المؤلف: نيكوس كازانتزاكيس

ترجمة: نور الدين محمود

مراجعة وتحرير: محمد الجيزاوي

التدقيق اللغوي: نرمين عياد

تنسيق داخلي: ضياء فريد

الطبعة الأولى: يناير 2021

رقم الإيداع: 2021/2405

I.S.B.N: 978-977-85810-6-5

المدير العام: محمد شوقي

مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس

00201150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع الحقوق محفوظة ©

عصير الكتب للنشر والتوزيع

ترجمة: نور الدين محمود

مراجعة وتحرير: محمد الجيزاوي

مقدمة المحرر

دومًا ما كنتُ أعتقدُ أن الله اختصَّ كلَّ أُمّةٍ بما لم يختص به غيرها، فجعلَ للعربِ الشعرَ والمروءة العجيبة، واختصَّ المصريين بخفة الظل والصبر الطويل، وجعل للأفارقة الفرح وطبول السرور، ومنحَ الرومان عقلًا يسنُّ أبدع القوانين، أما اليونان فقال لها: الفلسفة لكِ دون كل الأمم.

وها نحن أولاء نقف بين يدي آخر فلاسفة اليونان العظماء نيكوس كازانتزاكيس، ذاك الذي سرَت فيه روح أسلافه الأوائل، منذ هيراقليطس العظيم الذي قال: «**لا أحد ينزل النهر مرتين، لأنه في كل مرة تغمرك مياهٌ جديدة**». وكأن مقولة جَدِّه تجاوزت الأحقاب والأزمان لتستقر في يد كازانتزاكيس هدية خالصة، ليثبت للعالم أنه لا أحد حقًّا ينزل النهر مرتين، وأن الحياة تسير بكبر وخيلاء لا حدود لهما، تجر الإنسان وتدفعه إلى مصيره المحتوم؛ الفناء. فأدرك فيلسوفنا الأديب، أن العماة فقط هم مَن يظنون أن النهر لا يتغير، وأن الحياة ثابتة، فقدَّم لهم أسطورته الإنسانية الخالدة في رواية «**زوربا اليوناني**» ليثبت لهم أن لا شيءَ يدوم، لا شيءَ يتكرر، ولا شيءَ يظل ثابتًا.

في روايته المعجزة، يحمل كازانتزاكيس قنديلَ فيلسوفٍ يوناني قديم آخر هو «**ديوجين**» ليفتش معه عن الإنسان في وضح النهار. حاملًا آلام الإنسان المعاصر، الذي ألقاه قدره في أتون عالم مضطرب، تكتنفه الحروب، وتطحنه رحى الاقتصاد، والقوانين، والعادات، والعقائد، والمعتقدات. فصرخ كازانتزاكيس عَبْر بطله زوربا في إنسان العصر: انهض واقتحم النهر ألف مرة، لتعيش حياتك لحظة بلحظة، تعيشها إنسانًا من لحمٍ ودم، تعيشها بروحك الفوّارة وأحلامك البريئة، ومخاوفك الكبرى، دون أن تكترث لأحكام عقلك الباردة البليدة.

يأخذنا كازانتزاكيس من أيادينا ليقول لنا: انظروا إلى زوربا. انظروا وتعلَّمُوا.

زوربا ذاكَ الإنسان البدائي الذي يقلب الطاولة، ويرفس القواعد، ليقدم لنا رؤية إنسانية خالصة حول الحرية وحقيقتها، المرأة ولغزها، الصداقة ورقّتها،

الحرب وقسوتها، الإنسان وجوهره، في معزوفةٍ أدبيةٍ عزّ الزمانُ أن يأتي بمثلها.

وإن مَن ينظر في حياة كازانتزاكيس سيبصر بدقة أن روايته لم تكُن سوى انعكاسٍ لحياة فيلسوفنا الأديب نفسه. فهي تدور حول ثلاثة أبطال أساسيين: زوربا، الفِطرة. والكاتب، العقل. وستافرداكي، الواجب.

ليصدمنا بحقيقة هذه الأفكار الثلاثة التي تصطرع داخل الإنسان وتتنازع: فطرته وعقله وواجبه.

وحول هذه التساؤلات الكبرى وعلى رحاها دارت روايتنا، لتعكس مراحل حياة كازانتزاكيس نفسه، فإن شخصية «**ستافرداكي**» الذي يذهب إلى القوقاز ليستنقذ قومه اليونانيين، هو نفسه كازانتزاكيس في شبابه حين تطوّع في الجيش اليوناني وقاتل في البلقان، ثم أصبح مسؤولًا عن تأمين الغذاء لقرابة ١٥ ألفَ يوناني وعن إعادتهم من القوقاز إلى وطنهم الأم في اليونان. أما شخصية «**الكاتب**» الذي يخضع للعقل وحده، ويتقيد بمنطق الأشياء وقواعدها، فهي المرحلة التالية من شباب كازانتزاكيس حيث درس القانون بقواعده وقيوده وحدوده، ليسافر بعد ذلك إلى باريس ليكمل بناء عقله البارد بدراسة الفلسفة، حيث تأثر بأفكار نيتشه الغضوب المتمرد، ثم بأفكار بوذا الحكيم الصبور. أما شخصية «**زوربا**» بطل الرواية المطلق في ثوب البدائي الصعلوك الإنساني، فهي المرحلة الأخيرة من حياة كازانتزاكيس، حيث ساحَ في أرض الله مُتنقلًا بين الدول والممالك، مفتشًا عن الإنسان، ليكتشف أن الأديان والأوطان والمُثل والقواعد ما هي إلا حدودٌ قاسية، عزلت الإنسان عن الإنسان، فسعى سعيه وبذل جهده ليعيد للبشر بشريتهم، ويستنقذهم من نعراتهم القبلية والعقائدية ليجتمعوا على كلمة سواء، كلمة الإنسان الحر. حيث تنقّل من اليونان إلى فرنسا، وروسيا، وإيطاليا، وإسبانيا، وتشيكوسلوفاكيا، وقبرص، ومصر، والصين، واليابان. تارةً يؤمن بشيوعية لينين ثم ينقلب عليها مع شيوعية ستالين. تارةً مع المسيحية السماوية، ثم أخرى مع الإنسانية المجردة، تارةً مع نيتشه وأخرى برفقة بوذا. حتى استقر في نهاية المطاف على أن سبيل النجاة لن يتحقق إلا في إنسانية الإنسان الفرد، الحر، مُنزهًا عن كل الثوابت والقواعد.

وإنه لمن العجب أنه كما تخيل بطل روايته «**زوربا**» وهو يموت رافضًا تلقينه كلمات الموت على يد القساوسة، انتهت حياة كازانتزاكيس بنفس نهاية بطله الأسطوري، وكما مات زوربا بلا طقوس كنسية، كذلك مات كازانتزاكيس. فبعد موته بألمانيا نُقِلَ جثمانه إلى أثينا، فرفضت الكنيسة الأرثوذكسية تشييعه هناك! ثم تكتمل المعجزة القدرية ويختلط الراوي بروايته، ويُدفَن في أرض جزيرة «**كريت**» التي دارت عليها الرواية بأكملها. ليرقدَ في الأرض التي أحبَّها واختارها مسرحًا لحكايته العظيمة.

وقد نُقِشَت على قبره تلك الكلمات الأخيرة له: «**لا آملُ في شيءٍ.. لا أخشى شيئًا.. أنا حرٌّ**».

المحرر

محمد الجيزاوي

القاهرة، ديسمبر ٢٠٢٠

I

في مرفأ «بيريه» وعندما كنت متوجهًا لأستقل المركب إلى «كريت» هناك التقيتُ به لأول مرة. كان الصباح يتنفس، والسماء تمطر، والريح تحمل رذاذ الموج إلى المقهى الصغير. أبواب المقهى كانت مغلقة، والمكان يعج برواده الذين يُراكم زفير أنفاسهم البخار على الأبواب الزجاجية في جوٍّ يعبق بالعفونة، بينما يجلس في زاوية المقهى أربعة أو خمسة من البحّارة منذ البارحة، وقد التفّوا بملابسهم القاتمة، المصنوعة من وبر الماعز، يشربون القهوة، يدخنون وينظرون إلى البحر الهادر عبر الزجاج المغبش بضباب الأنفاس. والأسماك في البحر قد التجأت إلى الأعماق بانتظار هدوء العاصفة عند سطح الماء، ومثلها كان البحّارة والصيادون ينتظرون بدورهم هدوء العاصفة، حتى تصعد الأسماك إلى سطح الماء وتلتقط الطُّعم.

فُتح باب المقهى الزجاجي ودخل منه عاملٌ قصير القامة، أسمر اللون، حاسرَ الرأس، حافي القدمين، وقد صُبغ بالأوساخ من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.

- هاي! كوستاندي! كيف هي الأمور معك؟

هكذا هتف بحّارٌ عجوز يرتدي سُترة زرقاء. وأجابه المدعو كوستاندي بعد أن بصق على الأرض:

- ماذا تعتقد؟ البار في الصباح والمنزل في المساء. صباح الخير أيها البار.. ومساء الخير أيها المنزل! هذه هي الحياة التي أعيشها، السأم والبطالة.

ضحك بعضُ الحضور، وشتم بعضٌ آخر وهم يهزون رؤوسهم. وقال رجل متفلسف له شارب طويل:

- هذا العالم سجن مؤبد. نعم، إنه سجن مؤبد عليه اللعنة.

ودلف عبر زجاج المقهى القذر شعاع أزرق شاحب، انعكس على الأيادي والأنوف وجباه الحاضرين، ثم تسلل إلى البار وأضاء الزجاجات الفارغة. فأطفأ صاحب المقهى الضوء الكهربائي وهو نصف نائم، ومد يديه بحركة

متكاسلة كأنه يصافح ضوء النهار الجديد. وبعد مدة من الصمت قال البحّار العجوز متنهدًا:

- تُرى ماذا جرى للكابتن ليموني؟ كان الله في عونه!

ونظر بغضبٍ إلى البحر ثم صاح:

- لعنك الله مِن بحرٍ أثيمٍ، مُخرِّبٍ للبيوت صانِعٍ للأرامل.

ثم عضَّ على شاربه الرمادي. كنت جالسًا في زاوية المقهى، وقد طلبت كأسًا ثانية من الشراب، كنت أقاوم النعاس والتعب وكآبة الفجر، لكني قاومت الرغبة في النوم، وجلست أنظر من خلال الزجاج إلى المرفأ الذي بدأ يضج بالحركة، وبصفارات البواخر، وصياح سائقي العربات. لوحة تعيسة من البحر والمطر والرحيل، وعيناي مُعلقتان على مقدمة باخرة سوداء كبيرة، كانت لا تزال مغمورة بظلام الليل القاتم، وكانت السماء تمطر، حتى إنه باستطاعتي مشاهدة خيوط الماء المنهمر وهي تربط السماء بالوحل.

نظرتُ إلى الباخرة السوداء وتجسدت كآبة الذكريات الماضية. دَفَعَتِ الأمطارُ بصورة وجه صديقي الحبيب، هل كانت السنة الماضية؟ في عالمٍ آخر؟ البارحة؟ متى كانت حين نزلت إلى هذا المرفأ بالذات لأقول له وداعًا؟ لقد كانت السماء تمطر ذاك الصباح أيضًا، وفي تلك المرة كان قلبي مثقلًا، تمامًا شأنه اليوم.

كم هو مؤلم أن نفترق ببطء عن أحبابنا، الانقطاع دفعة واحدة والعودة إلى الوحدة، أفضل.

في ذلك الصباح المُمطر لم يكُن باستطاعتي ترك صديقي (وقد علمت لماذا فيما بعد، ولكن للأسف كان ذلك بعد فوات الأوان). صعدتُ معه إلى ظهر المركب، ودخلت إلى مقصورته المزدحمة بالحقائب المُبعثرة، وحدقتُ إليه لمدة طويلة، حين كان منشغلًا بالنظر إلى أشياء أخرى، كأني كنت راغبًا أن أُدوِّن ملامحه في مخيلتي: عيناه المضيئتان بالأزرق، وجهه الفنيّ، وملامحه الذكية، وفوق ذلك يداه الأرستقراطيتان وأصابعهما الطويلة النحيلة. وحين فاجأني وأنا أحدق إليه بشوق، ارتسمتْ على وجهه تلك الابتسامة الساخرة، التي يلجأ إليها حين يريد أن يخفي انفعاله، نظرَ إليَّ وقد فَهِمَ! ثم سألني ساخرًا:

- إلى متى؟

- ماذا تعني بـإلى متى؟

- إلى متى ستبقى على عادة مضغ الورق والتلوث بالحبر؟ لماذا لا تأتي معي إلى القوقاز؟ هناك الألوف من أبناء جلدتنا، وهم في خطر عظيم. تعال لننقذهم.

ثم راح يضحك كأنه يهزأ من نبله، وقال:

- ربما لن نقدر على إنقاذهم، لكننا سننقذ أنفسنا بمحاولة مساعدتهم، أليس هذا ما كنت تعظ به: «**إن الطريقة الوحيدة لتخليص نفسك، أن تناضل لتخليص الآخرين**». حسنًا أيها المُعلم، إلى الأمام، أنت ممتاز في إلقاء المواعظ، فلماذا لا تأتي معي؟

لم أجب بشيء، وفكرت بأراضي الشرق الساحرة، وأم الآلهة العجوز، وصراخ بروميثيوس المُسمّر إلى الصخر، هناك على هذه الصخور نفسها كان عرقنا مُسمّرًا، وكان ينادي ويصرخ! كان ينادي طالبًا المعونة من أبنائه، وكنت أسمع النداء، وكأن الألمَ حلمٌ، والحياة مأساة آسرة، يُثْبَّت فيها مَن يأخذ حصته من العمل، في مسرح الحياة.

ودون أن ينتظر جوابًا مني نهض صديقي وصفّرت الباخرة مُعلنة عن الإقلاع للمرة الثالثة، ومدَّ يده إليَّ محاولًا إخفاء انفعاله بابتسامته الساخرة.

ثم قال:

- إلى المُلتقى يا «**عث**» الكتب.

ارتجف صوته، وشعر بالخجل لأنه لم يتمكن من السيطرة على عواطفه، فقد كانت الكلمات الرقيقة والدموع والحركات المضطربة، كل ذلك يبدو له ضعفًا لا يجوز للرجل أن يقع فيه.

نحن الذين كنا مولعين ببعضنا أشد الولع، لم نتبادل كلمة من كلمات العطف أو الحب، لقد جرحنا وخدشنا بعضنا بعضًا كأننا قطط متوحشة.

هو الذكي الساخر المُتمدن، وأنا الهمجي.. تمرّن هو على ضبط النفس وإخفاء كل العواطف تحت ستار السخرية، بينما كنت أنا أنفجر بضحكتي الوحشية البلهاء.

لقد كنت أحاول دومًا أن أَخفي انفعالي وعواطفي بكلمة قاسية، لكني شعرت بالخجل، لا ليس بالخجل بالضبط، ولكن الارتباك، وأمسكت بيده ولم أقوَ على تركها، فنظر إليَّ مدهوشًا:

- هل أنت مُتأثر إلى هذا الحد؟!

وأجبته بهدوء:

- نعم.

- لماذا؟ ما الذي قررناه؟ ألم نتفق على ذلك منذ سنين؟ ماذا يقول اليابانيون الذين تحبهم: «**فودوشيم!**».. سَكِينة، اطمئنان، وعلى الوجه قناع يبتسم، وما يدور خلف القناع، لنا وحدنا.

أجبته: «**نعم**» وأنا أحاول جهدي ألَّا أورط نفسي بعباراتٍ طويلة؛ إذ لم أكُن واثقًا من أني قادرٌ على منع صوتي من الارتجاف.

ودوي صوت صفارة الباخرة مُعلنًا طرد الزوار من مقصورة لأخرى. كان المطر ينهمر خفيفًا، والجو مشحون بكلمات الوداع الرقيقة، والقُبلات الطويلة، والتأوهات، والتوصيات اللاهثة الخاطفة. وتهافت الأمهات على الأبناء، والزوجات على الأزواج، والأصدقاء على الأصدقاء، كأنهم سيفارقونهم إلى الأبد. كأن هذا الفراق يذكرهم بالفراق الآخر.. الفراق الكبير. وتردد صوت الصفير من مقدمة السفينة إلى مؤخرتها مثل أجراس الجنائز، فارتعدتُ. مال صديقي نحوي وقال بصوت خفيض:

- تبدو مُتشائمًا!

- نعم.

- هل تؤمن بهذه الهواجس؟

وأجبته مؤكدًا:

- كلا.

- إذن؟!

ولم يكُن هناك مِن «**إذن**» فلم أكُن أؤمن بها، لكني كنت خائفًا.

لمس صديقي ركبتي برفق، كما اعتاد أن يفعل عندما يغلبه الحماس في نقاشنا، عندما أحثه على اتخاذ قرار يعارضه، فيستمع ويرفض، وفي النهاية يقبل ويلمس ركبتي كأنه يقول بِفعْلِه هذا: «**حسنًا.. سأفعل بحق ما بيننا من صداقة**».

ورمش صديقي مرتين أو ثلاثًا، وحدق إليَّ مرة أخرى، لقد فهم أني منفعلٌ وحزينٌ، فتردد في إخفاء اضطرابه بالسخرية والضحك كعادتنا؛ وقال:

- حسنًا! أعطني يدك، إذا قُدِّر لأحدنا أن يجد نفسه في خطر الموت...

وتوقف كأنه شعر بالخجل. نحن الذين كُنا نهزأ لسنوات من هذه النزوات الغرائبية للنباتيين والمتصوفة ومستحضري الأرواح! وسألته محاولًا أن أحزر:

- حسنًا؟

- لننظر إليها كأنها لعبة، إذا قُدِّر لأحدنا أن يجابه خطر الموت، فليفكر في الآخر بشدة، ليحذّره حيثما كان.. اتفقنا؟

قال ذلك محاولًا أن يضحك لكن الابتسامة جمدت على شفتيه.

- اتفقنا!

وأضاف صديقي مسرعًا، خوفًا من أن يكون قد أفصح عن عواطفه:

- مع العلم بأني لا أؤمن إطلاقًا بفكرة التخاطر، وما شابه.

وطمأنته متمتمًا:

- لا بأس، لكن...

- حسنًا جدًّا، والآن لندع الموضوع عند هذا الحد، اتفقنا؟

- اتفقنا.

كانت هذه كلماتنا الأخيرة. وتصافحنا بحرارة ومشيت مسرعًا دون أن أنظر إلى الخلف كأني كنت مطاردًا. وشعرت برغبة في إلقاء نظرة أخيرة على صديقي، لكني تمالكت نفسي وقلت: «**لا تنظر إلى الخلف! تقدم!**».

*

كان الضوء ينتشر رويدًا، والصباحان يبدوان متدخلان، وظهر لي وجه صديقي واضحًا عندما وقف لمدة طويلة تحت المطر، وهو حزين ساكن.. انفتح باب المقهى ودخل رجلٌ قصير القامة، مقوس الساقين ذو شارب كث يتدلى حول جانبيْ فمه. وتعالت أصوات الفرحة:

- أهلًا، كابتن ليموني!

تعاظمَ الضوء، وأخذ الكابتن مسبحته، وراح يطقطق بها بعصبية، بينما انزويت أنا في مقعدي، كنت أحاول ألَّا أرى وألَّا أسمع، محاولًا أن أستعيد تلك الصورة التي كانت تذوب مبتعدة عني، لو أتمكّن من أن أعيش مرة أخرى هذه اللحظة من الغضب الذي تملكني، حين قال لي صديقي «**عث الكتب**»! وتذكرت أن كل القرف من الحياة التي كنت أحياها قد تجسد في هذه الكلمات، كيف تمكنت أنا الذي كنت أحب الحياة أن أدفن نفسي بين أكداس الكتب والأوراق الملطخة بالحبر! لقد ساعدني صديقي في ذلك اليوم، يوم الفراق، على الرؤيا بوضوح أكثر. فشعرت بالسكينة، والآن بعد أن علمت سرّ حزني، ومصدر شقائي، فباستطاعتي التغلب عليه بسهولة. لم تَعُد أحزاني متفرقة، فقد تجسدت، وأصبحت تحمل اسمًا، لذلك أصبح بإمكاني مقارعتها بسهولة أكثر.

لقد أثر هذا التعبير عليَّ وتسلل في أعماق نفسي، حاولت البحث عن حجة لأترك الورق والكتابة، وأحيا حياة أكثر مغامرة وحركة. لقد أصبحت مستاءً من حمل هذه الحَشَرَة البائسة مضافة إلى اسمي. وقد سنحت لي الفرصة لذلك منذ شهر، فقد استأجرت منجمًا في جزيرة كريت، في مواجهة بحر ليبيا، وسأذهب اليوم إلى هذا المنجم القديم لأعيش مع رجال بسطاء، عمال وفلاحين، بعيداً عن جنس «**عث الكتب**».

وأعددت العدة للسفر، كأن هذه الرحلة تُخفي وراءها معاني كثيرة. فقد عزمت على تغيير طريقتي في الحياة وقلت لنفسي: «**إلى اليوم يا نفسي وأنتِ تقبعين في الظل، مكتفية به، والآن، سأقودك إلى الحقيقة الحية**».

وعندما انتهيت أخيرًا وفي ليلة سفري بينما كنت أقلب أوراقي عثرت على مخطوطة لم تنتهِ بعد. وأخذتها بيدٍ مشدودة. منذ سنتين كانت الرغبة كامنة في أعماق نفسي، رغبة قوية جامحةً، رغبة أشعر بها وهي تأكل أحشائي كل لحظة، تنمو وتنضج وترفسني في صدري، تطلب أن تخرج إلى الوجود، والآن

لم يَعُد بإمكاني أن أطرحها. لم أعُد أجرؤ على ذلك! لقد فات الوقت لهذا الإجهاض النفسي.

وبينما كنت ممسكًا بالمخطوطة تلك، ظهر أمامي وجه صديقي الساخر، فقلت بصوت مرتفع بعد أن شعرت بألم السخرية: «**سآخذها معي، سآخذها، لا تضحك!**». ولففت المخطوطة بعناية وحملتها.

وعاد إلى مسمعي صوت الكابتن ليموني، وقورًا قاسيًا، وأصغيتُ إلى حديثه الذي كان عن العفاريت التي تتسلق صاري مركبه في أثناء العاصفة وراحت تلحسها، قال:

- لقد كانت لزجة، إذا لمسها إنسان يشعر بالنار تحرق يديه. لكني لم أخف، لقد ملست شاربي ونظرت إليها في الظلام وأنا أشع كالعفريت، وكما قلت لكم، لقد طغى البحر على مركبي وأغرق شحنتي، وتبلل الفحم وثقل، وبدأ مركبي يميل، ولكن في هذه اللحظة ترفّق الله العظيم ورأف بي، وأرسل عاصفة حطمت أخشاب الأبواب، وانزلق الفحم إلى البحر. وخف وزن المركب من حمولته، وعاد إلى وضعه السابق، وبذلك كُتِبت لي النجاة.

أخرجت من جيبي نسخة صغيرة من كتاب «**دانتي**» رفيق سفري، أشعلت غليوني واستندت إلى الجدار مسترخيًا، ترددت بين أبيات دانتي وفي أيها ألقي بنفسي؟ في قاع الجحيم؟ أم في شعلة المَطْهَر؟ أم أرتقي إلى وادي أمل البشرية وفردوسها السامي؟ كان بوسعي أن أختار، وعندما كنت أمسك بكتاب دانتي غمرتني البهجةُ وشعورٌ بالحرية، فالأشعار التي سأختارها هذا الصباح سيظل إيقاعها يتردد في روحي طيلة النهار. انحنيت لأحدد مِن أين أبدأ، إلا أنه لم يكُن لدي وقت؛ إذ شعرت بالانزعاج فجأة، فرفعت رأسي، لا أدري كيف، لكني شعرت أن عينيْن تخترقان جمجمة رأسي من الخلف، والتفتُّ مسرعًا باتجاه الباب الزجاجي، وقد ومضتْ في رأسي فكرة مجنونة: «**سأرى صديقي مرة ثانية**» كنت مُهيأً لاستقبال المعجزة، لكنها لم تحدث. فقد رأيتُ رجلًا غريبًا يبدو في الستين من عمره، طويل القامة بالغ النحافة، يلصق أنفه بزجاج باب المقهى وقد جحظتْ عيناه وهو ينظر إليَّ، حاملًا صرة صغيرة تحت ذراعه. أكثر ما أثارني فيه.. نظرته المتلهفة، وعيناه الحادتان، الساخرتان، القلقتان، أو هكذا بدت لي على كل حال، وما أن تقابلت نظراتنا

وتأكد له أني الشخص الذي يبحث عنه، حتى فتح الباب بقوة واندفع إلى الداخل مارًّا بين الطاولات بخُطى سريعة، وتقدم نحوي ووقف قرب طاولتي ثم قال:

- أنت على سفر؟ إذا كنت مسافرًا فأخبرني إلى أين؟

- نعم، إني مسافر إلى كريت، ولكن لماذا تسأل؟

- هل تأخذني معك؟

ونظرت إليه باهتمام، كان له خدان مجوفان، وفك صلب قاسٍ، ووجنتان ناتئتان، وشعر رمادي مُجعّد، وعينان يتطاير منهما الشرر.

- لماذا؟ وماذا أفعل بك؟

هز بكتفيه وقال:

- لماذا، لماذا! ألا يستطيع المرء أن يتوقف عن قول: لماذا؟ أريد السفر معك من أجل لا شيء، فقط من أجل اللذة، لأن المرء يريد ذلك! خُذني معك كطباخ مثلًا، إن باستطاعتي أن أطبخ حساءً لم تذُق مثله في حياتك.

أخذتُ أحدق إليه وأنا أضحك، أعجبني هذا المخلوق وكلماته القاطعة، كما أعجبني حديثه عن الحساء، وقلت في نفسي: ليس ثمة ضرر في أن آخذه معي. يبدو أنه قد جاب البحار طويلًا، فهو أشبه بالسندباد البحري.. وقد نال اهتمامي حقًّا.

قطع شرودي وهو يهز برأسه الضخم قائلًا:

- بماذا تفكر؟ هل توازن الأمر في نفسك؟ هيا أيها الصديق اِعتمد الأمر، واتخِذ القرار.

كان هذا الأخرق الطويل، يقف فوق رأسي، وقد تعبتُ من النظر إلى أعلى لأكلمه، أغلقت كتاب دانتي وقلت:

- اجلس الآن وخُذ قدحًا من الميرمية.

- الميرمية! كأسٌ من «**الروم**»، تنفعني أكثر.

تناول كأسَ الروم الذي أخذ يرتشفه ببطءٍ، ويحتفظ بكل جرعةٍ في فمه قليلًا ليستمتع بمذاقه. فقلت في نفسي يبدو أنه شهواني وخبير بالخمور. ثم سألته:

- ما نوع العمل الذي تتقنه؟

- كل الأعمال، بالأرجُل والأيدي والرأس. جميعها.

- أين كنت تعمل في السابق؟

- في منجم، فأنا خبير في عمل المناجم. كما أني خبير في المعادن، أنا أعرف كيف أجد العروق، أحفر الأنفاق، وأهبط إلى الحفر العميقة بلا تردد. كنت مشرفًا على العمال، وكان الأمر يسير بشكلٍ جيد، ولم أشكُ من شيء. ولكن الشيطان تدخل في عملي، في يوم السبت الماضي جاء صاحب المنجم ليفتش على العمال، فأمسكت به وأوسعته ضربًا.. هـكذا.. دون أن أكون سكرانَ، نعم شربت لكن لم أسكر، كنت بين بين.

- ولكن لماذا؟ وماذا فعل لك لتضربه؟

- لم يفعل شيئًا، لا شيءَ على الإطلاق. حتى إنها كانت المرة الأولى التي أراه فيها. بل كان يوزع علينا السجائر حينها.. مسكينٌ.

- ثم ماذا؟

- ألا تفعل شيئًا غير طرح الأسئلة؟ حسنًا.. لقد خطر لي ذلك، هذا كل ما في الأمر. هل تعرف قصة زوجة الطحان؟ حسنًا، فلا يُمكنك تعلُّم الإملاء مِن مؤخرتها، مؤخرة زوجة الطحان هي العقل البشري.

لقد قرأت كثيرًا عن مفهوم العقل البشري، وكان هذا هو أعجبها! وقد راقني. نظرت إلى رفيقي الجديد بمزيد من الاهتمام، كان وجهه مليئًا بالتجاعيد، كأن العواصف والأمطار قد نحتته، وقد أعجبني تحليله للأمور ثم سألته:

- وماذا تحمل في صرتك هذه؟ طعام، ملابس، أم معدات؟

رفع صديقي بكتفيه ثم ضحك وقال:

- إنك تبدو أعقل من هذا! أرجو المعذرة لقولي.

وضرب على صرته بأصابعه الطويلة القاسية وقال:

- كلا، إنها السانتوري.

- السانتوري؟ وهل تعزف عليها؟

- نعم، عندما أكون مفلسًا، أذهب إلى الحانات ثم أعزف عليها، وأنشد بعض الأغاني المقدونية القديمة، ثم أبدأ بجمع النقود من الزبائن في قبعتي، فتمتلئ بعد قليل بالنقود.

- ما اسمك؟

- «**ألكسيس زوربا**»، وفي بعض الأحيان يدعونني «**مجرفة الفرّان**» لأني طويل القامة وجمجمتي مسطحة تشبه الكعكة. وأحيانًا يدعونني «**مضيع الوقت**» لأني كنت أبيع البذر المحمص في وقت من الأوقات. وهم يدعونني أيضًا «**عفن الزرع**» لأني أسبب المشكلات أينما حللت. كل شيء يذهب إلى الكلاب، لي أيضًا ألقاب كثيرة، ولكن سأدعها لفرصة أخرى.

- وكيف تعلمت العزف على السانتوري؟

- عندما كنت في العشرين من عمري، سمعت عزفًا على السانتوري لأول مرة في أحد الاحتفالات القروية، هناك عند قدم جبل الأوليمب، فبُهِرت به حين سمعت النغم، وبقيت ثلاثة أيام دون طعام. وسألني والدي رحمه الله: «**ماذا جرى لك؟**» فقلت له: «**إني أريد أن أتعلَّم العزف على السانتوري**». فقال لي: «**ألا تخجل من نفسك، هل أنت غجري، هل تريد أن تتحول إلى عازف؟**». فأجبته: «**نعم، أريد أن أتعلَّم العزف على السانتوري**». وكنت قد ادخرت بعض النقود لكي أتزوج عندما يحين الوقت. فقد كنت لا أزال فتيًّا ودم الشباب لا يزال يجري حارًّا في عروقي، وأريد الزواج، أنا الغبي المسكين! وهكذا دفعت كل ما ادخرته من مال ثمنًا لشراء السانتوري. وهربت بعد ذلك إلى سالونيك حيث قابلتُ رجلًا تركيًّا يُدعى «**رستب أفندي**». كان معلمًا ماهرًا للعزف على السانتوري، وألقيت بنفسي عند قدمه. فسألني: «**ماذا تريد أيها الرومي الصغير؟**». فقلت له: «**أريد أن أتعلَّم العزف على السانتوري**». فقال: «**حسنًا ولكن لماذا ألقيت بنفسك على قدمي هكذا؟**» فقلت: «**لأني لا**

أملك مالًا لأدفعه لك». فقال بتأثّر: «**أنت مغرم بالسانتوري إلى هذا الحد؟**». أجبته: «**نعم**». فقال: «**حسنًا، يمكنك البقاء يا ولدي فأنا لست بحاجة إلى المال**». وبقيت عنده سنة أتعلَّم العزف، وهو لا بد أن يكون قد مات الآن، رحمه الله. وإذا كان الله تعالى يسمح بدخول الكلاب إلى جناته، فلعلّه يفتح أبواب الجنة لرستب أفندي. ومنذ أن تعلَّمت العزف على السانتوري وأنا أشعر بالسعادة والانشراح. وعندما أعزف، لا أسمع شيئًا مما يقولونه لي، وإذا سمعت فلا يمكنني الكلام. ولا فائدة من المحاولة، فأنا لا أستطيع.

- ولكن لماذا يا زوربا؟

- أووه! ألا ترى؟ إنه الهوس المحموم، نعم إنه الهوس.

وفُتح باب المقهى من جديد، وسمعت هدير البحر، وكانت أيدينا وأرجلنا متجمدة من شدة الصقيع، فانزويت أكثر إلى الركن الدافئ، وتلفّحت بالمعطف ونعمت بدفء المكان، وقلت في نفسي: «**إلى أين سأذهب؟ فأنا على أحسن حال هنا، ليت هذه اللحظة تدوم لسنين طويلة**». ونظرت إلى الرجل الغريب الذي أمامي، وهو يحدق إليَّ، عيناه صغيرتان سوداوان وفي بياضهما شعيرات دموية حمراء، ينظر إليَّ كأنه يستنطق أعماقي، قلت له:

- حسنًا؟ استمر.

فهز زوربا كتفيه وقال:

- دعك من الكلام الآن، هل تعطيني سيجارة؟

قدمت له سيجارة، فأخرج من جيبه قدّاحة وفتيلة وأشعل السيجارة، ثم أغمض عينيه بسرور وانتشاء، فسألته:

- أمتزوج؟

أجابني غاضبًا:

- ألستُ رجلًا؟ ألستُ رجلًا؟ أقصدُ أعمى، شأني شأن الجميع، لقد سقطتُ على رأسي في الفخ وتزوجت، وأصبحت ربَّ عائلة، وبنيت بيتًا، وأصبح عندي أطفال ومشكلات. ولكن شكرًا للرب على السانتوري.

- وهل كنت تعزف في البيت لتنسى همومك؟

- من الواضح أنك لا تعرف العزف على آلة موسيقية، في البيت تكمُن كل مشكلاتك: الزوجة.. الأولاد.. ماذا نأكل؟ كيف سندبر أمر الملبس؟ وما الذي سيحل بنا؟ يا للجحيم. كلا، لكي تعزف السانتوري يجب أن تكون في حالة جيدة، يجب أن تكون صافيًا، فإذا ما أغرقتني زوجتي بمثل هذه الأسئلة فكيف يمكنني العزف؟! وإذا كان أولادك جائعين، يصرخون، حاول عند ذلك أن تعزف السانتوري! فعقلك يجب أن يكون عند السانتوري، لا عند أشياء أخرى، هل فهمت؟

فهمتُ أن زوربا هو الرجل الذي كنت أنشده منذ مدة طويلة، دون أن أجده. قلبٌ حي، وفمٌ ضخم شَرِه، ونفسٌ كبيرة قاسية لم تعكرها الأيام. إن معاني الكلمات مثل الفن، والحب، والطهارة، والعاطفة، كل هذه المعاني أظهرتها لي تلك الكلمات البسيطة التي تفوه بها هذا الرجل العامل.

ونظرت إلى يديه اللتين تستطيعان الإمساك بالمعول والسانتوري، يدان متحجرتان، مشققتان، مشوهتان. وباعتناء بالغ ورقّة كاملة، كأنهما تخلعان ثياب امرأة، فتحتْ يداه الصرة وسحبتْ منها السانتوري، الذي صقلته السنون، كان مليئًا بحزمة من الأوتار، مزدانًا بالنحاس والعاج وعلى رأسه شرّابة حمراء من الحرير، ثم راحت تلك الأصابع الطويلة تداعبه بعطف، كأنها أيدٍ تداعب وجه امرأة. ثم أعادت وضعه ولفّته باعتناء بالغ، كأنه جسد محبوبة تخاف عليه من البرد.

- هذا هو سانتوري العزيز.

تمتم بذلك وهو يضع الصرة باعتناء على الكرسي. كان البحّارة يقرعون الكؤوس ويضحجون. وربّت البحّار العجوز على كتف الكابتن ليموني وهو يقول:

- قل الحقيقة يا كابتن، ألست خائفًا، إن الله أعلم بعدد الشموع التي نذرتها للقديس نيقولا.

وقطب الكابتن حاجبيْه الكثيفيْن:

- أقسم لكم، إني عندما رأيتُ الموت يقترب مني، لم أفكر بالقديسة العذراء، ولا بالقديس نيقولا، بل التفت نحو سالاميس، وفكرت بزوجتي وصحت قائلًا: «**آه، كاثرين، لو أني الآن معك في الفراش**».

وانفجر البحّارة في الضحك، وشاركهم الكابتن ليموني ضحكهم هذه المرة وهو يقول:

- يا للإنسان، إنه لحيوان عجيب، يخيم شبح الموت فوق رأسه بينما أفكاره تحوم هناك، لا في أي مكان آخر. تبًّا له من خنزير.

وصفق الكابتن بيديه، وطلب دورًا آخر من الشراب لرفاقه.

كان زوربا يستمع إلى الحوار بأذنيْن كبيرتيْن، والتفتَ إليهم، ثم قال:

- هناك أين؟! ماذا يقول هذا الرجل؟

ولكنه فَهِمَ فجأة، وهتف بإعجاب:

- مرحًا يا صديقي، الآن فهمت، إن هؤلاء البحّارة يعرفون السر. وأغلب الظن لأنهم مُعرّضين ليلًا نهارًا للموت.

وأشار بقبضته في الهواء وقال:

- حسنًا، لا علينا منهم، ولنَعُد الآن إلى عملنا. هل سأبقى أم لا؟ قرر بسرعة.

فقلت وأنا أغالب نفسي كيلا ألقي بنفسي بين ذراعيه:

- موافق يا زوربا.. تعال معي إلى كريت، فلديَّ منجم هناك. وباستطاعتك مراقبة العمال، وفي المساء سنتمدد على الرمال، أنا في هذا العالم وحدي، لا زوجة، ولا أطفال، ولا كلب. سنأكل ونشرب معًا. وستعزف أنت السانتوري.

- نعم، بشرط إذا كنتُ في مزاج يصلح للعزف، يجب أن تفهم ذلك، سأعمل لك أي شيء تريده، فأنا رجلك المطيع. ولكن السانتوري هذا شيء آخر. إنه حيوان وحشي، وهو بحاجة إلى الحرية. فإذا كنتُ مستعدًا للعزف سأعزف، وربما أنحني أيضًا وأرقص (الزيمباكيكو) و(الهاسابيكو) و(البنتوزالي) ولكن دعني أخبرك من الآن، يجب أن

أكون مستعداً لذلك. لنفهم ذلك بوضوح. وإذا أرغمتني، فسينتهي كل شيء في التو، فأنا فيما يتعلق بهذه الأمور، رجل.

- رجل؟ ماذا تعني رجل؟

- أعني حرًّا.

وطلبتُ كأسًا من الروم، فطلب زوربا كأسًا أخرى أيضًا.

وقرعنا الكؤوس، وكان الصباح قد أشرق، وسمعنا صفارة المركب وأشار الحمّال الذي نقل حقائبي إلى المركب. وقلت وأنا أنهض:

- هيّا، وليكن الله معنا.

- ... والشيطان.

أضاف زوربا، ثم انحنى والتقط صرته ووضعها تحت ذراعه، وفتح الباب وسبقني بالخروج.

*

٢

البحر، وطراوة الخريف، والجزر السابحة في النور، والمطر الناعم الذي أضفى حجابًا شفافًا على العُري الأبدي لجزر اليونان، كم هو سعيد الرجل الذي يمخر عباب بحر إيجة قبل وفاته.

كم هي عديدة مسرّات الحياة، نساء، وفواكه، وآراء. ولكن أن تشق عباب هذا البحر الهادئ وفي فصل الخريف لهي سعادة لا ينالها قلب الإنسان حتى في نعيم الفردوس. فهذا هو المكان الوحيد الذي يُمكن للإنسان أن ينتقل فيه، من الواقع إلى الخيال بيُسر، حيث تنكمش الحدود، وتنبثق من صواري السفن أغصان وثمار. عندما يكون المَلأ هنا في اليونان إنها المعجزة بعينها!

وعند الظهر انقطع المطر، وبددت الشمس حجب الغيوم، وأطلت علينا برأسها ناعمة رقيقة مغسولة، لتداعب بأشعتها صفحات الماء. وقفتُ على رأس السفينة وغاصت روحي في نشوة المعجزة الخالدة التي بدأت تتكشف على مدى الأفق البعيد.

كان على ظهر المركب، يونانيون خبثاء، أولئك الشياطين الأذكياء، ذوو العيون المشعة والعقول التي تتقن فن المساومة الطويلة على البضائع التافهة، رجال أنقياء صادقون، وآخرون شرسون يقطرون سُمًّا. أول ما يرغب به المرء عند رؤيتهم أن يمسك بهذا المركب من طرفيه ويغرقه في البحر، ثم يهزه جيداً ليغسل عنه كل هذه الحيوانات التي قذَّرته، رجال، وفئران، وقمل. ثم يعوّمه من جديد بعد أن أصبح نظيفًا فارغًا.

ولكن في بعض الأحيان كان يجتاحني شعورٌ بالشفقة، شفقة بوذية، باردة كالاستنتاجات المنطقية. شفقة ليست على الرجال فقط، بل على الحياة كلها بكفاحها، وصراخها، وآمالها التي لا تدرك أن كل شيء ليس إلا محاولة لتحقيق الأحلام من العدم! عاطفة نحو اليونانيين، ونحو المنجم الفحمي، ونحو مخطوطتي الناقصة عن بوذا، وعلى ذلك الخليط من النور والظلام الذي يزعج صفاء الجو، كنت أختلس النظر إلى زوربا المنهك شاحب الوجه، وقد قبع في مجلسه على ظهر المركب على كومة من الحبال عند مقدمة المركب. كان يشم ليمونة ويصغي إلى صراخ الركاب وشجارهم بأذنيه

الكبيرتين، كان بعضهم مع «**الملك**» وبعضهم مع «**فينيزيلوس**» وزوربا يتابع حديثهم ويهز برأسه الضخم ويبصق ويتمتم قائلًا:

- هؤلاء الحطام، ألا يخجلون من أنفسهم؟

- ماذا تعني بكلمة «**حطام**» يا زوربا؟

- كل هؤلاء الملوك، الديمقراطيات، النواب، المُرائين!

إن الحوادث المعاصرة لم تكُن لزوربا سوى أمور قديمة، فهو قد ابتعد عنها وتجاوزها. وبالتأكيد كان التلغراف، والبواخر، والمراكب، والأخلاق السائدة، والدين، بالنسبة إليه كالبنادق القديمة الصدأة. فتفكيره قد تقدم بسرعة تجاوزت تقدُّم العالم.

كانت الحبال تتشقق على الصواري، والشواطئ تتراقص، والنساء المسافرات أصبحت وجوههن أكثر اصفرارًا من الليمون، لقد ألقين بأسلحتهن: المساحيق، والمشدات، ودبابيس الشعر، والأمشاط، وشحبت شفاههن، وأظافرهن تحولت ألوانها إلى الأزرق، وبدأت العجائز الثرثارات يفقدن حُليهن ويتساقط عنهن الريش المستعار والشرائط الحريرية والجفون الاصطناعية، حتى إن الناظر إليهن بالإجمال يشعر بالتقزز، والرغبة في التقيؤ.

وشحب وجه زوربا بدوره واصفر لونه ثم اخضر، وانطفأت عيناه المتقدتان. ولم يَعُد إلى تألقه الأول إلا في المساء، حين أشار إليَّ ليُريني دولفينيْن كانا يقفزان ويسابقان المركب، وصاح قائلًا:

- دلافين!

ولاحظت لأول مرة أن نصف إبهام يده اليسرى مقطوع، فارتعدت وسألته:

- ماذا جرى لإصبعك يا زوربا؟

وأجابني وقد بدا عليه الاستياء لأني لم أنظر إلى الدلافين.

- لا شيء!

- هل أصابته آلةٌ حادة؟

- لماذا تقحم الآلات في كل شيء! قطعته بنفسي.

- بنفسك، ولماذا؟!

- أنت لا يمكنك الفهم أيها الرئيس! سبقَ وأخبرتك أني قمت بأعمال عديدة، ومنها صناعة الفخار، وقد أحببت هذا العمل لدرجة الجنون. هل يمكنك أن تتصور ماذا يعني أن تأخذ حفنة من الطين وتخلق منه ما تريد؟ فررررر! ثم تضرب العمود الدوّار، ويدور الطين معه، بينما تقول لنفسك سأصنع جرةً، سأصنع صحنًا، سأصنع قنديلًا، والشيطانُ يعلم ما يمكنني أن أصنع أيضًا! هذا هو ما يجعلك رجلًا: الحرية!

ثم سكتَ ونسيَ البحر ولم يَعُد يقضم الليمونة، وعاد الصفاء إلى عيونه.. فسألته:

- حسنًا، وماذا عن إصبعك؟

- لقد كانت تزعجني، تعوق عملي على العمود الدوّار، وتفسد عليَّ مشاريعي، وذات مرة أمسكت بفأس صغيرة...

- ألم تشعر بالألم؟

- كيف لم أشعر بالألم؟! هل تعتقد أني جذع شجرة! إني إنسانٌ، قد تألمت، ولكن كما قلت لك، كانت تقف في طريقي، فقطعتها!

هدأ البحر قليلًا عند غياب الشمس وانقشعت الغيوم، فبدت نجمة السماء لامعة برّاقة، ألقيت نظرة على البحر ورحت أفكر: «**كيف نحب إلى هذا الحد، ثم نأخذ فأسًا، ثم نقطع، ثم نتألم...**» لكني أخفيت اضطرابي وأردفت قائلًا محاولًا الابتسام:

- إنها لطريقة سيئة يا زوربا! إنها تذكرني بالأسطورة الذهبية التي تقول إن ناسكًا رأى يومًا امرأة جميلة أحدثت في نفسه اضطرابًا وأحس بالغواية، فتناول فأسًا...

صاح زوربا مقاطعًا:

- كم هو أحمق، يقطع ذلك! هذا المسكين ليس عقبة!

- كيف! بل هو عقبة كبيرة.

- أمام ماذا؟

- أمام ولوجك ملكوت السماء!

وحدجني زوربا بنظرة ساخرة وهو يقول:

- أيها الغبي، بل هو مفتاح الجنة.

ثم رفع رأسه وحدق إليَّ كأنه يريد معرفة رأيي في الحياة التالية، بملكوت السماء، والنساء، والنساك، لكنه لم يتمكن من الوصول إلى شيء فهز برأسه الضخم واستطرد قائلًا:

- إن الخصيان لا يدخلون السماء.

ولاذ بالصمت، فذهبت إلى مقصورتي وأخذت كتابًا ورحت أقرأ.

ذهبت لأستلقي في مقصورتي وأخذت المخطوط. كان بوذا لا يزال يشغل تفكيري، قرأت الحوار الذي دار بين بوذا والراعي، ذاك الحوار الذي كان قد ملأ عقلي لبضع سنوات بالسَكينة والأمن.

الراعي: طعامي مُعَد، فقد حلبت نعاجي، وباب كوخي موصد، وناري موقدة، فلتمطر السماء كيفَ شاءت.

بوذا: لم أعُد بحاجة إلى طعام أو حليب. الرياح ملاذي، وناري مطفأة. وأنت أيتها السماء تستطيعين أن تمطري قدر ما تشائين.

الراعي: لديَّ ثيران، عندي أبقار. لديَّ مروج أبي، وثور يُعَشِّرُ أبقاري، فلتمطر السماء كيف شاءت.

بوذا: لا يوجد لديَّ ثيران ولا أبقار، ولستُ أملك مروجًا. لا أملك شيئًا، ولا أخشى شيئًا. وأنت أيتها السماء تستطيعين أن تمطري كيف تشائين.

الراعي: عندي راعية طيعة ومخلصة، وقد اتخذتها زوجة منذ سنوات، أسعد معها عندما أداعبها في الليل. فلتمطر السماء كيف شاءت.

بوذا: عندي روح حرة وطيعة، ولسنوات دربتها وعلمتها أن تسعدني، وأنت أيتها السماء تستطيعين أن تمطري كيف تشائين.

كان صدى هذين الصوتين لا يزال يتردد في داخلي، وعندما غلبني النعاس هبت الريح من جديد وكانت الأمواج تتكسر على زجاج كوة المقصورة السميك، وأنا أتمايل مثل خيطٍ من الدخان بين نومي واليقظة، ثم هبت عاصفة قوية، واختفت المروج تحت الماء وغرقت العجول والأبقار والثور، وجرفت الريح سقف الكوخ وأطفأت النار، وانطلقت شهقة من المرأة،

وسقطت ميتة في الوحل، وأخذ الراعي يبكي ويولول. لم أسمع ما يقول، لكنه كان يجهش بالبكاء. وبدأت أغرق في النوم بعمق، وأنزلق في أعماق الماء مثل سمكة.

وعندما استيقظت في صباح اليوم التالي كانت الجزيرة الممتدة قد أصبحت عن يميننا، مزهوة متوحشة، والجبال الوردية الشاحبة تبتسم من خلال ضباب شمس الخريف، ومن حول المركب كان البحر الأزرق لا يزال ثائرًا هائجًا، وكان زوربا المُلتحف بغطائه الرمادي ينظر محدقًا إلى جزيرة كريت، وعيونه تنتقل من الجبل إلى السهل، تتبع الشاطئ وتتفحصه، كأنه قد شاهد جميع الأراضي والبحار مرات سابقة ويتمتع برؤيتها مرة ثانية، دنوت منه واضعًا يدي على كتفه وقلت:

- زوربا أعتقد أن هذه ليست المرة الأولى التي تأتي فيها إلى كريت! أنت تحدق إليها كأنك صديق قديم.

تثاءب زوربا كأنه ضَجِر، وشعرت أنه لا يرغب في الكلام. فابتسمت وقلت له:

- حديثي يُضجِرك، أليس كذلك؟

- ليس هذا بالضبط، لكن الكلام صعب.

- صعب! لماذا؟

لم يجبني على الفور، وأجال بنظره على الشاطئ مرة أخرى، لقد نام ليلته على ظهر المركب، كان شعره الرمادي المُجعّد يقطر بالندى، والشمس المُشرِقة تُضيء تجاعيد وجهه ورقبته، حرك شفتيْه المتدليتيْن مثل شفتيْ تيس، وهو يقول:

- في الصباح أجد صعوبة في فتح فمي، صعوبة كبيرة، اعذرني!

ومرة أخرى راح في صمت عميق، وعاد ينظر إلى كريت، ورن جرس طعام الإفطار، وبرزت وجوهٌ من المقصورات لنساء مترنحات شُعْثًا، تفوح منهن رائحة القيء الممزوجة برائحة الكولونيا، وأعينهن مذعورة بلهاء.

وكان زوربا يجلس أمامي وهو يشرب فنجان القهوة، ويغمس فيه كسرة الخبز التي مسحها بالزبدة والعسل، ثم يأكلها. أشرق وجهه بعد ذلك واطمئن

قليلًا، وبدا فمه كأنه أصبح مرنًا، فأشعل سيجارًا وراح يستنشق وهو أشد ما يكون من التلذذ، ولاحظت أنه أصبح مستعدًا للحديث، ومِن ثَم قال:

- تسأل هل هذه هي المرة الأولى التي آتي فيها إلى كريت؟

ثم أغمض عينيه قليلًا وراح ينظر إلى جبل إيدا الذي يمتد وراءنا، واستطرد قائلًا:

- كلا، إنها ليست المرة الأولى، ففي عام ١٨٩٦ أصبحت رجلًا ناضجًا تمامًا، وكان شاربي وشعري لا يزالان بلونيْهما الحقيقييْن، سوداويْن مثل لون الغراب، وكنت لا أزال في مُقتبل العمر، ألتهمُ المُقبلات أولًا عندما أَسكرُ ثم أتناول الطعام. نعم، فقد استمتعت إلى أقصى حدود الاستمتاع. لكن الشيطان تدخل وأنشب الثورة في كريت. في تلك الأيام كنت بائعًا جوالًا، أبيع الخضروات مُتنقلًا من قرية إلى أخرى في مقدونيا، وعوضًا عن المال كنت أستبدلُ بما أبيعه الجبنَ والصوف والزبدة والأرانب والذرة. ثم أعود وأبيع هذه الأشياء وأكسب ربحًا مضاعفًا. وفي كل قرية أحل بها ليلًا، كنت أعرف أين سأنام، ففي كل قرية كنت أجد قلب أرملة رحيم عطوف، كنت أقدم لها مشطًا أو مِكبًّا من الخيطان أو وشاحًا أسود اللون لأجل المرحوم. ثم أنام معها بعد ذلك! ولم يكُن ذلك يكلفني كثيرًا. كلا، بل لم يكُن يكلفني مطلقًا أيها الرئيس، ولكن كما قلت سابقًا لقد تدخل الشيطان، وهبّت كريت لتحمل السلاح، وقلت لنفسي فلتذهب بمصيرها إلى الجحيم! ألا تقدر هذه «**الكريت**» اللعينة أن تتركنا في سلام؟ ثم وضعت جانبًا أمشاطي وحملت بندقيتي وتوجهت لأنضم إلى الثوار في كريت.

ثم صمت زوربا. وبدأنا السير في خليج مستدير، رملي، هادئ، كانت الأمواج تنتشر دون أن تتكسر، تاركة خيطًا رفيعًا من الزَبَد على طول الشاطئ، وانقشعت الغيوم وتألقت الشمس ولاحت أطراف الجزيرة بوضوح. التفتَ زوربا نحوي وحدجني بنظرة ساخرة وقال:

- الآن، أعتقد أيها الرئيس، أنك تتصور أني سأقدم لك كشفًا بكم رأسٍ تركيةٍ قد قطعتُ، وكم أُذنٍ وضعتها في الكحول! فهذه هي العادة في كريت. حسنًا، ولكني لن أَفعل. فأنا لا أحب أن أفعل ذلك، لأني أراه

أمرًا مُخزيًا. أي ثورةٍ هذه، وما هذا الجنون؟ اليوم بعد أن أصبح عقلي راجحًا، صرت أُسائل نفسي قائلًا: ما هذا الجنون الذي تملكنا لكي نلقي بأنفسنا على رجل آخر، لم يؤذِنا بشيء، ثم نعضه ونقطع أنفه ونمزق أذنه، ونبقر بطنه؟ وفي الوقت نفسه نطلب من الله العظيم أن يساعدنا! هذا يعني أننا نطلب من الله أن يقوم هو أيضًا بقطع آذان الناس وأنوفهم! ولكن في ذلك الوقت، كان دمي لا يزال حارًّا في عروقي، وما كان باستطاعتي الوقوف والتساؤل والتفحُّص؛ إذ يجب على المرء لكي يفكر تفكيرًا عادلًا وشريفًا، أن يكون هادئًا، مُسنًا، ودون أسنان! فعندما يكون المرء عجوزًا لا أسنان له، يكون باستطاعته القول بسهولة تامة: لعنكم الله، أيها الأولاد، فمن العار أن تعضوا! ولكن حين تكون له أسنانه الاثنان والثلاثون، يكون الإنسان متوحشًا كالحيوان، نعم أيها الرئيس كالحيوان المفترس آكل لحوم البشر.

وهز برأسه ثم تابع:

- وهو يأكل الخراف أيضًا، والدجاج والخنازير، ولكنه إذا لم يأكل لحم البشر تبقى معدته خاوية.

ثم أضاف وهو يحرك لقمةً في فنجان قهوته:

- إن معدته لا تشبع! والآن ما رأيك أنت أيها العلّامة؟

ولكنه لم ينتظر الجواب بل أكمل قوله وهو يحدق إليَّ:

- ماذا يمكنك أن تقول؟ فكما أرى أن سيادتك لم تشعر بالجوع مطلقًا، ولم تقتل قط، ولم تسرق، ولم تزنِ. ماذا تعرف من هذا العالم إذًا؟! عقل بريء، وجلد لم يرَ أشعة الشمس.

قال جملته الأخيرة بكثير من الاحتقار، مما جعلني أشعر بالخجل من يدي الناعمتين، ووجهي الشاحب، وحياتي الخالية من لطخات الدم والوحل. ثم قال وهو يمسح بيده الخشنة على الطاولة:

- حسنًا.. حسنًا. هناك ما أودُّ أن أسألك إياه، أعتقد أنك قرأت مئات الكتب، وربما تعرف الجواب!

- قُل لي يا زوربا، ما هو؟

- إن هناك معجزةً تحدث أيها الرئيس. معجزةٌ مضحكة تُحيّرني. إن كل هذه النذالات، وهذه الخدع القذرة، والسرقات والمجازر التي قمنا بها نحن الثوار، كل هذه جاءت بالأمير جورج إلى كريت. وجاءت بالحرية!

ثم نظر إليَّ بعينين ملؤها الدهشة وقال:

- إنها أحجبة عظيمة، فإن أردنا الحصول على الحرية في هذا العالم القذر، يجب أن نقوم بهذه الجرائم، وهذه الخدع القذرة، أليس كذلك؟ لو أخبَرتُكَ عن هذه الجرائم المريعة لوقف شعر رأسك! ولكن ما نتيجة كل ذلك؟ الحرية! وبدلًا من أن يزيلنا الله بصاعقة من عنده؛ إذ به يمنحنا الحرية! إني لا أفهم حقًّا!

ونظر إليَّ كأنه يطلب العون، وقد لاحظت أن هذه المعضلة قد شغلته وآلمته، ولم يتمكن من كشف سرها. ثم سألني بقلق:

- هل تفهم أنت أيها الرئيس؟

كيف أفهم، وماذا أقول له؟! فإما أن هذا الذي ندعوه إلهًا غير موجود، وإما أن تكون هذه الأفعال التي ندعوها جرائم واغتيالات، ضرورية للكفاح من أجل حرية العالم.

وحاولت أن أجد له طريقًا أسهل لأشرح له الأمر:

- كيف تستطيع الزهرة أن تنمو وتعيش وسط السماد والقذارة؟ افترض لنفسك يا زوربا أن هذه الأقذار هي الإنسان، وأن الزهرة هي الحرية.

فصاح زوربا وهو يضرب الطاولة بقبضة يده ويقول:

- وماذا عن البذرة؟ لكي تنبت الزهرة يجب أن يكون هناك بذرة. فمَن الذي وضع بذرة كهذه في جوفنا؟ ولماذا لا تنبت البذرة هذه زهورًا طيبةً شريفة؟ لماذا تحتاج إلى الدم والأوساخ؟

فهززت رأسي قائلًا:

- لا أعلم!

- فمَن يعلم؟

- لا أحد.

وصاح زوربا في يأسٍ وهو يرمق ما حوله بنظرات متوحشة:

- إذًا ماذا تنتظر مني أن أفعل بالقوارب والمحركات وربطات العنق؟

وتمايل اثنان من المسافرين الذين كانوا يحتسون القهوة على مائدة مجاورة، ورهفوا آذانهم لسماع ما نقوله. واشمأز صديقي منهما وقال لي بصوت خفيض:

- لنغيّر الموضوع، فعندما أفكر في ذلك الأمر أشعر برغبة في تحطيم كل ما تقع عليه يدي من كراسي أو قناديل أو حتى رأسي بالحائط. ثم أضطرُ إلى دفع قيمة ما هشمته أو الذهاب إلى طبيب ليربط لي رأسي. وإذا كان الله موجودًا فهذا أسوأ بكثير، لأنه سينظر إليَّ من أعالي السماء وينفجر بالضحك.

وحرك يده فجأة كأنه يريد أن يتخلص من ذبابة مزعجة، ثم قال:

- لا بأس، فكل ما أردت قَوْله لك: إن المركب المَلَكي جاء مزدانًا بالأعلام وابتدأ إطلاق المدافع، وحين وضع الأمير رجله على أرض كريت.. هل سبق لك أن رأيت شعبًا بأسره أصبح مجنونًا لأنه رأى حريته؟ أظن أن الإجابة هي: كلا. آه، أيها الرئيس، إذًا فقد خُلقتَ أعمى، وستموت أعمى. فإذا قُدِّر لي أن أعيش ألف سنة، حتى لو أن كل ما تبقى مني عبارة عن قطعة لحم حية، فلن أنسى ما رأيته ذلك اليوم! وإذا قُدِّر لكل واحد منا أن يختار جنته في السماء حسب ذوقه –وهذا ما يجب أن يكون، فهذا ما أدعوه جنة– سأقول للإله العظيم: «**يا إلهي، لتكُن جنتي جزيرة كريت الملأى بالأعلام والزينات، ودع هذه اللحظة التي وطئت بها أقدام الأمير جورج أرض كريت تستمر قرونًا طويلة، وهذا كفى**».

وعاد زوربا إلى الصمت مرة أخرى، ورفع شاربه، ثم ملأ كأسًا من الماء البارد وشربها دفعة واحدة. فسألته:

- ماذا جرى في كريت يا زوربا، أخبرني!

فأجابني منزعجًا:

- لن أكلف نفسي العبارات الطويلة، انظر، هأنذا أكررها لك: إن هذا العالم غامضٌ جداً، والإنسان ليس إلا وحشًا كاسرًا. «**وحشٌ عظيمٌ وملاكٌ حارسٌ**». كان أحد أولئك الثوار الأنذال قد جاء معي من مقدونيا، اسمه يورغا وكان يدعونه «**المجرم**» خنزير شرس، هل تعلم! لقد بكى أمامي. فسألته: لماذا تبكي أيها الكلب؟ لماذا تبكي أيها الخنزير؟ ولكنه لم يُجب. بل ألقى بيديه حول عنقي وراح يبكي كالأطفال، ثم تناول صرته ووضعها على حجره بعد أن أفرغ منها القطع الذهبية التي نهبها من الأتراك، ثم ملأ قبضته بالقطع وألقى بها في الهواء! هل تفهم أيها الرئيس، هذه هي الحرية!

ونهضت إلى ظهر المركب لأستنشق هواء البحر. وفكرت في نفسي: «هذه هي الحرية، أن تهوى شيئًا وتجمع قطعًا من الذهب، وفجأة تتغلب على هواك، فتمسك بكنزك وتلقي به أدراج الرياح. لتحرر نفسك من عاطفة معينة، وتأسركَ عاطفة أسمى، لكن أليس هذا نوعًا آخر من العبودية؟ أليست العبودية أن تضحي بنفسك من أجل فكرة معينة، من أجل عِرقٍ معين، أو من أجل الله؟ أم أنه كلما ارتفع الرمز طال حبل العبودية؟ وعندئذ يمكننا الاستمتاع واللهو في أرجاء أوسع، ونموت دون أن نصل إلى نهاية الحبل. هل هذا ما ندعوه الحرية؟

وعند المغيب شارفنا على الشاطئ الرملي ورأينا الرمال البيضاء الصافية، وأشجار الخروب والتين، والتل الصغير الأجرد الذي يشبه وجه امرأة تستريح، وتحت ذقنها وحول رقبتها تمر عروق الفحم الرمادية.

كانت نسمات الريح الخريفية تهب، والغيوم المتقطعة تمر في السماء لتغلف الأرض بالظلال. وغيوم أخرى تظهر وتهدد الشمس التي احتُبِست وراءها، ووجه الأرض يُضيء ويظلم كوجهٍ حي مُنزعج.

وتوقفتُ للحظة على الرمل ونظرتُ، كانت الوحدة القُدسية تمتد أمامي، حزينة ومدهشة، كالصحراء. وبرز الشعر البوذي من الأرض وتلمّس طريقه إلى أعماق نفسي: «**متى سأنزوي في الوحدة أخيرًا، وحدي دون رفاقٍ، ودون فرحٍ أو حزنٍ، وبيقين مُقدس بأن كل شيء ليس إلا حلمًا؟ متى أتبين أن جسدي ليس إلا مرضًا وجريمة، حياة وموت. حرًا دون خوف وبسعادة، متى أعتزل دون شهوات في الجبل، في الغابات؟ متى؟ متى؟ آه متى؟**».

وتقدم زوربا نحوي وهو يحمل السانتوري تحت ذراعيه بخُطى قلقة، فقلت له محاولًا إخفاء اضطرابي:

- هناك تقع مناجم الفحم!

ودون أن ينظر إلى حيث أشرت أجابني بهزة من رأسه.

- فيما بعد، فهذا ليس الوقت لذلك أيها الرئيس. يجب أن ننتظر حتى تتوقف الأرض. إن العاهرة لا تزال تموج كظهر المركب، ليأخذها الشيطان. تعالَ لنذهب إلى القرية.

ثم أخذ يتقدم بخُطى واسعة.

وتراكض اثنان من الصبية ليحملا الحقائب. وفي الكوخ حيث نقطة الجمرك جلس أحد الموظفين يدخن (النارجيلة)، حدجنا بطرف عينه بنظرات ثاقبة، ثم ألقى نظرة سريعة على الحقائب، وتحرك قليلًا كأنه يريد الوقوف، لكنه وجد أن ذلك سيأخذ منه المزيد من المشقة، فاكتفى بأن أشار إلينا قائلًا: «**أهلًا بكم**». وتقدم أحد الصبية وقال لي بلهجة ساخرة:

- إنه ليس كريتيًّا، إنه شيطان كسول.

- أليس الكريتيون شياطين كسالى؟

فقال الكريتي الصغير:

- إنهم كذلك.. بلى، ولكن بطريقة مختلفة.

- هل القرية بعيدة؟

- على بُعد طلقة بندقية مِن هنا. انظر وراء البساتين في الوادي. إنها قرية جميلة يا سيدي، تحوي الكثير من كل شيء –شجر خرنوب، لوبيا، زيت، نبيذ–، وهناك على الرمال نبتَ الخيار مبكرًا، وكذلك البطيخ. إن هواء إفريقيا هو الذي ينضجها مبكرًا، فإذا نِمتَ بأحد البساتين فإنك تسمع صوت طقطقتها وهي تنضج وتكبر.

كان زوربا يتقدمنا ورأسه ما زال منحنيًا، فصحت به قائلًا:

- ارفع رأسك يا زوربا، فقد اجتزنا المخاطر الآن، ولم يَعُد هناك من داعٍ للخوف.

تقدمنا مسرعين، وكانت الأرض مكسوة بالرمال والصدف، وتترامى هنا وهناك بعض أشجار التين.

كان الجو ثقيلًا، والغيوم تتجمع وتقترب، والريح تهدأ، اقتربنا من شجرة تين ضخمة، فتوقف أحد الولديْن وأشار إلى الشجرة وهو يقول:

- هذه تينة «الآنسة».

تعجبت من كلمته، فقد كان لكل شجرة أو صخرة في أرض كريت قصة محزنة. سألته:

- ولماذا تُدعى تينة الآنسة؟

- في الأيام السالفة، أيام أجدادنا، وقعت إحدى بنات الأعيان في غرام راعٍ فقير، فرفض والدها هذه العَلاقة، وراحت ابنته تبكي وتصرخ وترجو والدها الذي لم يلِن! وفي أحد الأيام اختفت مع الراعي الشاب. وظلوا يبحثون عنها، يومًا، ويومين، وثلاثةً، وأسبوعًا، ولكن دون جدوى! وأخيرًا فاحت رائحة عفونة، فتتبعوا الرائحة، فوجدوا العاشقيْن تحت شجرة التين متعانقيْن، متعفنيْن... هل تفهم؟ لقد عثروا عليهما بسبب رائحة العفونة.

وانفجر الصبي بضحكة مُجلجلة. وتناهت إلى أسماعنا ضوضاء القرية القريبة، سمعنا أصوات نباح الكلاب، وصياح النسوة والديوك. وشممنا رائحة العنب من القدور التي يقطر منها العرق. وصرخ الغلامان:

- هذه هي القرية.

وما أن اقتربنا من التلة، حتى لاحت لنا القرية الصغيرة، وبانت لنا كأنها تتسلق سفح الوادي. كانت البيوت الصغيرة متقاربة متلاصقة، نوافذها مشرعة كأنها بقع سوداء. كل البيوت كانت مبنية من الكلس الأبيض الناصع والحجارة. ولحقت بزوربا وقلت له:

- لا تنسَ يا زوربا أن تتصرف بلياقة، فقد دخلنا القرية الآن. تصرّف كرجال الأعمال. فأنا المدير وأنت ناظر الأعمال. إن الكريتيين لا يأخذون الأمور بسهولة، فما أن تقع أعينهم عليك، حتى يبحثوا عن شيء ظاهر بك، ويطلقون عليك لقبًا معينًا، حيث لا يمكنك بعد ذلك

التخلّص من هذا اللقب، وستظل بعدها تجري كالكلب الذي علقت بذيله مقلاة.

أمسك زوربا بشاربه، وغاب في التأمُّلات، وأخيرًا قال:

- اسمع أيها الرئيس إذا كانت هناك أرملة في القرية، فلا لزوم للخوف، وإذا لم يكُن...

وفي هذه اللحظة وما أن دخلنا القرية، تقدمت منا امرأة فقيرة بأسمال بالية، ومدت يدها نحونا. ولاحظتُ أن لها شاربًا أسود، وصاحت بزوربا كأنها تعرفه:

- مرحى، يا أخي. هل لك روح أيها الأخ؟

وتوقف زوربا، وأجابها:

- نعم، لي روح.

- إذن أعطِني خمس ليرات.

أخرج زوربا حافظة مُهترئة ونفحها بشيء من المال قائلًا «**خذي**».

افترَّتْ شفتاها عن ابتسامة حريرية، وأضاف قائلًا:

- إن الحياة هنا ليست غالية على ما أظن. إن الروح تساوي خمس ليرات.

عندما اقتربنا من ساحة القرية، أسرعت كلاب القرية نحونا، وانحنت بعض النسوة من الشرفات يراقبننا، وأخذ بعض الصبية يقلدون مشيتنا، وكثير من العيون ترقبنا، ورأينا دكانًا كُتبَ على مدخله: «**مقهى وجزارة الحِشمَة**».

- لماذا تضحك؟

سألني زوربا. ولكني لم أجد وقتًا لأجيبه، فقد خرج من باب الدكان خمسة أو ستة عمالقة يرتدون سراويل زرقاء، لها أحزمة حمراء وصاحوا بنا:

- أهلًا بالأصدقاء! تفضلوا بالدخول وخذوا كأسًا من العرَق. إنه لا يزال حارًّا من القِدر.

ولعق زوربا شفتيه وقال:

- ما رأيك أيها الرئيس هل نشرب كأسًا؟

شربنا كأسًا أحرقت أمعاءنا. وقدم لنا صاحب المقهى –اللحّام، وهو رجل عجوز جليل– كرسييْن. فسألته عن مكان نأوي إليه. فصاح أحدهم:

- اذهبا إلى مدام هورتنس.

وتساءلت بدهشة:

- هل هي فرنسية؟

- لقد جاءت مِن مكان لا يعلم إلا الشيطان ما هو، وطافت في جميع الأرجاء، ثم استقرت هنا وأسست فندقًا صغيرًا.

وقال أحد الأولاد:

- وهي تبيع الحلوى أيضًا.

وأضاف أحدهم:

- وتتزين وتصبغ وجهها، وتضع شريطة حول عنقها، ولديها ببغاء.

وهتف زوربا:

- أأرملة هي؟

لم يجبه أحدٌ، فأعاد زوربا السؤال؟

- أهي أرملة؟

فأمسك صاحب المقهى لحيته الرمادية وعبث بها وقال:

- كم عدد الشعرات في لحيتي هنا أيها الصديق؟ إنها ترملت بعدد شعرات لحيتي. هل فهمت؟

- نعم، فهمت.

أجاب زوربا وهو يلعق شفتيه.

- ويمكنها أن تجعل منك أرمل. انتبه لنفسك أيها الصديق.

هكذا صاح أحد الرجال. وتقدم صاحب المقهى حاملًا صينية عليها الخبز والجبن وهتف قائلًا:

- هيا، دعوهما وشأنهما، وسوف أستضيفهما عندي.

فقال رجل مُسن:

- كلا، أنا سأستضيفهما، فأنا ليس عندي أطفال، وبيتي كبير.

فأجابه صاحب المقهى وهو ينحني فوق الرجل ويقول:

- أرجو المعذرة أيها العم، فأنا سبقتك بالكلام.

- إذن خُذ الآخر وسآخذ أنا العجوز.

وصاح زوربا غاضبًا:

- مَن تقصد بالعجوز؟

وقلت له وأنا أُهدِّئ مِن روعه:

- لن نفترق، سنذهب معًا إلى مدام هورتنس.

كانت السيدة هورتنس امرأة بدينة قصيرة القامة، شعرها باهت اللون، تتلوى في مشيتها، استقبلتنا مادَّة ذراعيها. وعلى ذقنها (خال) تتدلى منه شعيرات طويلة، وتربط حول عنقها شريطة حمراء، وخدودها المتغضنة مصبوغة بلون بنفسجي. قالت لنا مُرحبةً:

- أهلًا، أهلًا وسهلًا.

وأجبتها ببشاشة وأنا أُقبِّل يدها:

- كم أنا سعيد بمعرفتك مدام هورتنس، إننا نريد سريريْن يا سيدتي، ودون براغيث.

- دون براغيث! ليس هنا من براغيث على الإطلاق.

وتقدمتنا وهي ترفس الحجارة بقدمها القصيرة المكتنزة، وكانت تلبس جوربًا أزرق طويلًا، وتنتعل حذاءين مشقوقين عليهما عقدة صغيرة من الحرير. ولحق بها زوربا وعيناه تكادان تأكلانها، وهو يهمس لي:

- انظر! انظر أيها الرئيس كيف تتلوى في مشيتها كالنعجة ذات الإلية المشحمة.

وعضَّ على شاربه بعصبية وعيناه مسمرتان على أرداف السيدة وقال:

- همم، إن هذه الحياة العاهرة لا تضن أبدًا بالمفاجآت.

٣

كان فندق مدام هورتنس يتألف من حُجرات قديمة للحَمَام جُمِعَت مع بعضها بعضًا. الحجرة الأولى كانت دكانًا لبيع الحلوى والسجائر والفستق، والشموع، والعلكة. وأربع غرف ـأو أكواخـ متلاصقة تتألف منها غرف النوم. وفي الخلف كان المطبخ، وغرفة الغسيل، وقن الدجاج والأرانب. وكانت عيدان القصب الكثيفة مغروسة حول المكان في الرمل الناعم.

رائحة البحر كانت تعبق بالمكان، مع روائح البراز والبول. لكن الرائحة تتغير حين تمر مدام هورتنس بين وقت وآخر، كأن أحدهم وضع طستًا للحلّاق تحت أنفك.

وما أن هيأت لنا الغرف والأسِرّة حتى انطرحنا عليها دون حراك، ولم نستيقظ إلا في صباح اليوم التالي.

كان هذا هو يوم الأحد والعمال سيصلون في الغد من القرى المجاورة ليبدؤوا العمل في تمام التاسعة، لذلك فقد وجدت أمامي بعض الوقت لأقوم بجولة على الشاطئ الذي ساقتني إليه الأقدار. كان الفجر يكاد يلوح عندما خرجت متعرفًا على الأرض والهواء. صعدت إلى تلة مجاورة، وأجلت نظري إلى منظر الصخور الجرانيتية والكلسية القاسية، وأشجار الخرنوب القاتمة، وأشجار الزيتون الفضية وأشجار التين والدوالي. والبحر يهجم على الشواطئ كأنه يأكلها، والرمال مستسلمة أمامه وخامدة.

كان المنظر كما بدا لي شبيهًا بالنثر الجيد، المصوغ بعناية فائقة، بسيطًا خاليًا من الزخارف المصطنعة، قويًّا، وصارمًا. لقد كان معبرًا عن كل ما هو ضروري بطريقة سهلة، لم يكُن متباهيًا ولم يكُن مصطنعًا، فهو ينطق بكل شيء بطريقة قاسية صارمة. لكن الليونة كانت بادية من خلال أشجار البرتقال والليمون التي تعطر الهواء برائحتها الذكية. ومن بعيد كان البحر الخالد يبدو كالشعر الذي لا ينفد.

- كريت، كريت.

قلت متمتمًا، وقلبي ينبض بالبهجة!

ونزلت من التل الصغير، ورحت أمشي قريبًا من ماء البحر. فرأيتُ صبايا صغارًا يسرن في طريقهن إلى الدير لسماع القداس عند ساحل البحر.

وما أن ظهرت لهن حتى توقفن عن السير، وأصبن بذعر شديد وتشبثن ببعضهن بعضًا، وعلمت فيما بعد أن رؤية رجل غريب كانت تخيفهن. فعلى طول الساحل الكريتي كانت القراصنة في القرون الغابرة يقمون بغزوات مفاجئة، ويخطفون النساء والأطفال، يربطونهن بأحزمتهم الزرقاء الغليظة ويلقون بهن في السفينة ويبيعونهن في الجزائر والإسكندرية وبيروت.

ورحت أنظر إليهن مبتسمًا بعد أن تكاتفن مع بعضهن بعضًا وسرن كالطود الذي لا يمكن اختراقه، تلك العادة الحربية القديمة، التي ظهرت الآن بقوة الضرورة. وعندما اقتربن مني انتحيت جانبًا، وتبسمتْ لهن ثم ألقيت عليهن تحية الصباح فأضاءت وجوههن بالاطمئنان، وشعرن بأن الخطر الذي يخشينه منذ قرون قد انتهى، وأنهن ولدن في عصرنا الذي يسوده الأمن، فتبعثر الرتل المُتلاحم المُتحفز للمعركة، وتمنين لي يومًا طيبًا، وتابعن مسيرهن.

وأشرقت الشمس عن سماء صافية، وجلستُ بين الصخور كطائر نورس، أتأمل البحر أمامي، شعرت بالقوة تدب في جسدي، ورحت أجول بمخيلتي كالموج الهادر أمامي، مطاوعًا خاضعًا دون مقاومة لنغمات البحر. شعرت بالانقباض وانطلقتْ من أعماقي أصوات متضرعة. وعلمتُ مَن الذي يدعوني، فأينما أكُن بمفردي أشعر بنداء شيطاني يطلبني من داخلي، تجتاحه المخاوف وهو يدعوني لأنقذه.. وعلى الفور فتحت كتاب دانتي، رفيقي في حِلّي وترحالي، لكي أطرد من داخلي ذاك الشيطان الخائف. رحت أقلب الصفحات، أقرأ سطرًا هنا، وسطرًا هناك، أو مقاطع شعرية مستحضرًا أنشودة كاملة من الذاكرة، ومن بين هذه الصفحات المتقدة كانت الأرواح اللعينة تظهر لي وهي تجأر، وفي وسط الصخور، تلوح لي أرواح جريحة تريد أن تتسلق سفح جبل شديد الانحدار. وفي الأعلى، كانت الأرواح المباركة تتحرك بين الحقول الزمردية مثل يراعات رائعة، ورحت أطوف من أكثر الرُّبى علوًّا إلى أكثرها انخفاضًا، بين أبيات الشعر القدري الرهيب؛ وأخذت أطوف بحرية في أرجاء الجحيم والمطهر والفردوس، كأني أطوف في بيتي أنا، عانيت، انتظرت، ذقت طعم السعادة، وجرفتني أبيات الشعر الرائعة، وفجأة أغلقت كتاب دانتي، وأخذت أتطلع إلى البحر، فرأيت طائر نورس

يلامس بصدره سطح الماء، يعلو ويهبط مع ارتفاع الموج وهبوطه، مستسلمًا له، مستمتعًا باسترخاء ولا مبالاة. ثم ظهر عند حافة الماء، شاب حافي القدمين وقد لفحته الشمس، ينشد أغاني الحب، وربما كان يفهم الألم الذي تُعبّر عنه، لأن صوته أصبح شجيًّا مثل صوت ديك صغير، لمئات السنين، كانت أشعار دانتي تُغنَّى في بلاد الشاعر، كما كانت أغاني الحب تُهيِّئ الفتيان والعذارى للحب، مثلما كانت أشعار «فلورنتين» الحماسية تُهيِّئ الشباب الإيطاليين ليوم خلاصهم، ومن جيل إلى جيل، كانوا جميعهم يتعلقون بروح الشاعر، لذلك حولوا عبوديتهم إلى حرية.. تناهى إليَّ صوت ضحكة ورائي، وعلى الفور هويت من ذرى دانتي الشاهقة، وتطلعت حولي، وفجأة سمعت صوت رفيقي زوربا يناديني من الخلف، فاستدرت لأجده منتصبًا وهو يضحك ويقول:

- ما هذه الألعاب أيها الرئيس؟! لقد كنت أبحث عنك منذ ساعات، ولكن كيف أستطيع مشاهدتك في هذا المخبأ؟

وعندما لم أجب عن تساؤله، استطرد قائلًا:

- لقد مضى نصف اليوم، والدجاجة المطبوخة قد نضجت، وستذوب المسكينة بعد قليل.

قلت:

- نعم، أعرف ذلك، ولكني لا أشعر بالجوع.

- لا تشعر بالجوع! ولكنك لم تأكل شيئًا منذ الصباح. إن لجسدك حقًّا ويجب أن تشفق عليه، أعطِهِ شيئًا ليأكله، إنه حمارك الصغير، فإذا لم تُطعمه تركك في منتصف الطريق.

الحقيقة أني أحتقر ملذات الجسد منذ سنوات، ولو كان ممكنًا لأكلت في الخفاء كأني أقوم بعمل مُخجل. لكني قلت لزوربا كيلا يثرثر:

- حسنًا، سآتي.

ذهبنا إلى القرية بعد أن مرت الساعات الطوال بين الصخور، كما تمر الساعات بين العشاق كالبرق الخاطف. وسألني زوربا مترددًا:

- هل كنت تفكر بالمخيم؟

- وهل تعتقد أني كنت أَفكر بسواه؟ ففي الغد سنبدأ العمل، لذلك يجب أن أقوم ببعض الحسابات.

- وما نتيجة حساباتك؟

- بعد ثلاثة أشهر يجب أن نستخرج عشرة أطنان من الفحم، لنغطي مصاريفنا.

نظر إليَّ زوربا بتلهف وقال:

- وما أخذك إلى شاطئ البحر لتقوم بتلك الحسابات، بحق الشيطان؟ أرجو المعذرة أيها الرئيس لسؤالي هذا، ولكني لا أفهم. فعندما أضطر إلى مقارعة الأرقام أشعر بأني بحاجة إلى أن أحشر نفسي في جوف الأرض، كيلا أرى أحدًا، فإذا رفعت نظري ورأيت البحر، أو شجرة، أو امرأة حتى لو كانت عجوزًا، عند ذلك تطير خنازير الأرقام كأن لها أجنحة، وأضطر إلى مطاردتها.

- تلك مشكلتك أنت يا زوربا، فأنت لا تستطيع التركيز.

- ربما تكون على حق أيها الرئيس. فهذا متوقف على نظرتك للأمور. فهناك حالات لا يتمكّن حتى سليمان الحكيم... اسمع، سأعطيك مثلًا، في ذات يوم بينما كنت مارًّا في قرية صغيرة، رأيت رجلًا عجوزًا يبلغ التسعين من العمر، يزرع شجرة اللوز، فسألته: «**هل تزرع شجرة لوز يا جدي؟!**» فالتفت إليَّ وهو محني وقال: «**يا بني أنا أعمل كأني لن أموت أبدًا**». فقلت له: «**وأنا أعمل كأني سأموت في أي لحظة**». والآن، برأيك مَن كان منا على صواب أيها الرئيس؟

ونظر إليَّ نظرة المنتصر وقال:

- ها! هل أحرجتك!

وبقيت ملتزمًا الصمت. فهناك ممران متساويان قد يؤديان إلى القمة نفسها.

أن تعمل كأن الموت غير موجود، أو أن تعمل متوقعًا الموت في كل لحظة، هما أمران ربما كانا متشابهيْن. ولكن عندما سألني زوربا هذا السؤال لم أستطع الإجابة على التو. وقال لي زوربا هازئًا:

- حسنًا لا بأس، لا تغضب أيها الرئيس فلن تستطيع مجادلتي. ولنتكلم عن أشياء أخرى. فأنا الآن أفكر بالدجاجة والأرز. لنأكل الآن، ومِن ثَم نرى، فلكل شيء وقته المحدد، الآن أمامنا الأرز فلنفكر به، وغدًا سيكون المنجم أمامنا فنفكر بأمره. لا حلول وسط، أفهمت؟

وعدنا إلى القرية، كانت النسوة يجلسن أمام البيوت والمُسنون يستندون إلى عصيهم، بينما تجلس امرأة عجوز تحت شجرة تفلِّي حفيدها من القمل، وعندما وصلنا إلى المقهى المجاور رأينا شيخًا يبدو عليه الأسى يقف بانتظارنا. إنه «**مافراندوني**»، كبير وجهاء القرية الذي استأجرنا منه المنجم، فقد جاء في الليلة الماضية إلى مدام هورتنس ليأخذنا إلى بيته وقال لنا:

- إنه من العار أن تظلا في الفندق، كأنه لا يوجد رجال في القرية.

كان متأثرًا وكانت كلماته متزنة تناسب مركزه المحترم في القرية.

وعندما رفضنا طلبه شعر بالاستياء، لكنه لم يلح، وقال لنا وهو يغادر الفندق:

- لقد قمت بواجبي، وأنتم أحرار.

وبعد قليل أرسل إلينا شيئًا من الجبن، وسلة من الفواكه، وجرة من العرق.

وقد قال لنا الخادم الذي أحضرها:

- الكابتن مافراندوني، يرسل تحياته، ويقول لكما: قليل من اليد وكثير من القلب!

ورأينا عُمدة القرية فاقتربنا منه وألقينا عليه التحية، وحيّانا واضعًا يده على صدره:

- أتمنى لكما حياة طويلة.

وتمتم زوربا معلقًا:

- إنه لا يحب كثرة الكلام، ويبدو بوقفته، كالقضيب العجوز.

قلتُ:

- لكنه يعتد بنفسه، وهذا يعجبني.

وما أن رأتنا مدام هورتنس حتى صاحت مرتبكة وهرولت إلى المطبخ.

وأسرع زوربا إلى وضع الطاولة على الشرفة تحت ظل الشجرة، وجاء بالخبز، ثم نظر إليَّ بعد أن انتهى من إعداد الطاولة لثلاثة أشخاص وقال:

- هل رأيت أيها الرئيس؟

- نعم، رأيت أيها الفاسق العجوز!

ثم قال وهو يلعق شفتيه:

- إن الدجاجة العجوز هي التي تصنع المرق الجيد! وخذها نصيحة مني.

ثم راح يدمدم بأغاني الحب القديمة وهو يهرع متممًا تجهيز المائدة:

- هكذا يجب أن نعيش أيها الرئيس، يجب أن نستمتع بكل دقيقة نعيشها، إني أستمتع الآن كأني سأموت بعد دقيقة. وأنا أسرع بذلك كيلا يدركني الموت قبل أن أحصل على الدجاجة.

وسمعنا صوت مدام هورتنس وهي تقول: «**إلى المائدة**».

قدمت لنا القِدر، ثم وقفت مدهوشة، فقد رأت الصحون الثلاثة ورمقت زوربا وكسا وجهها الاحمرار الشديد، ولمعت عيناها الصغيرتان.

وهمس زوربا بصوت خفيض:

- لقد بدأت الحرارة تدب في سراويلها.

ثم نظر إليها وقال لها بكثير من اللياقة والأدب:

- يا جنية الأمواج الجميلة، لقد غرقت سفينتنا وألقى بنا البحر في مملكتك. فأرجو أن تشرفينا يا عروسة البحر، وتشاركينا الطعام.

وفتحت الغانية العجوز ذراعيها وضمتهما إلى صدرها، كأنها تريد أن تضمنا نحن الاثنين إليها، ثم تمايلت بعظمة ولامست زوربا ولامستني وأسرعت عائدة إلى غرفتها. وظهرت بعد قليل ترتدي أجمل ما لديها من الثياب: فستانًا مفتوحًا عند الصدر، وقد وضعت بين نهديها وردة متفتحة، وأحضرت معها قفص الببغاء الذي علقته على غصن الشجرة أمامنا. وبعد أن أجلسناها بيننا، رحنا نلتهم الطعام التهامًا دون أن ننبس بكلمة واحدة، فقد كان الحيوان داخلنا يأكل ويتغذى ويشرب الخمر، والطعام الذي نزدرده يتحول بسرعة إلى دم، والعالم من حولنا يبدو أجمل، والسيدة التي تتوسطنا

أخذت تبدو أصغر مع كل لحظة تمر، وتجاعيد وجهها بدأت تزول وتُمحى.. بينما الببغاء المُعلق على الشجرة ينظر إلينا، فبدا لنا كأنه رجل غريب قد سحره هذا المنظر، وفجأة رأينا الأغصان قد امتلأت بعناقيد العنب.

وكانت عينا زوربا تدور في محجريهما، ثم فتح ذراعيه كأنه يريد أن يعانق العالم كله، ثم صاح مدهوشًا:

- ما الذي يحدث أيها الرئيس؟! فما أن نشرب كأسًا من النبيذ حتى يبدو العالم وقد فقد صوابه. ومع هذا فالحياة كلها خمر ونبيذ. قل لي بشرفك، هل هذه عناقيد متدلية فوق رؤوسنا، أم هي ملائكة؟ أنا لا أعلم حقًّا.. أم هي لا شيء مطلقًا، لا دجاجة، ولا جنية، ولا كريت! قل لي أيها الرئيس، تكلم كيلا أفقد عقلي.

ولاحظت أن زوربا بدأ يشعر بالانتشاء، وراح ينظر إلى مدام هورتنس. كانت عيناه تغتصبها، تصعدان إلى جسدها وتدخلان إلى صدرها المنتفخ وتتحسسانه، وكأنهما يدان. وكانت عينا السيدة الصغيرتان تلمعان من السرور، فقد باتت تستمتع بما تسمع، بعد أن شربت عدة كؤوس من النبيذ.

وبدا كأن شيطان الخمر قد رجع بها إلى الوراء، إلى أيام الصبا الجميلة. ثم نهضت وقد عاد إليها لطفها وبشاشتها ورغبتها، ثم أغلقت باب الحديقة الخارجي كي تمنع الأعين الفضولية للقرويين «**المتوحشين**» كما كانت تدعوهم، وأشعلت سيجارة وراحت تنفث دخانها بهدوء واستمتاع.

في أوقات كهذه تتفتح أبواب المرأة جميعها، ويستريح حرسها، والكلمة الطيبة تصبح قوية كقوة الذهب أو الحب. وهكذا أشعلت غليوني وقلت تلك الكلمة الطيبة:

- مدام هورتنس. أنتِ تذكرينني بسارة برنار، عندما كانت صغيرة، لم أكُن للحقيقة أتوقع رؤية أناقة كهذه، وعظمة كهذه، ولياقة كهذه وجمالٍ كهذا الجمال. كيف فعلها شكسبير؟

- شكسبير؟ أي شكسبير؟

- الذي أرسلك إلى هنا بين هؤلاء المتوحشين.

وطارت بتفكيرها إلى أيام الغناء والمسرح، وجالت به في المقاهي والمسارح من باريس حتى بيروت، وعلى طول سواحل الأناضول، وكأنها

تذكرت فجأة: لقد كان ذلك في الإسكندرية، وفي مسرح كبير عامر بالثريات، والمقاعد الفخمة، والرجال والنساء، والظهور العارية، والعطور، والأزهار.

وسألت من جديد وقد أخذتها رعشة الكبرياء:

- أي شكسبير؟ هل هذا الذي يدعونه أيضًا عُطيل؟

- نعم، هو نفسه. أي شكسبير إذن ألقى بك على هذه الصخور بين المتوحشين، أيتها الزهرة البيضاء؟

ونظرت حولها وكانت الأبواب مغلقة، والببغاء نائم، والأرانب تتبادل الحب، وكنا وحدنا. وراحت تفتح لنا قلبها كأنها تفتح أمامنا صندوقًا عتيقًا مملوءًا بالطِيب، وأوراق الرسائل الصفراء، والثياب القديمة.

كانت تنطق بعض الكلمات باليونانية وأخرى بالفرنسية، وراحت تخلط بينها، ولكننا تمكّنا من فهمها بوضوح. وفي بعض الأحيان كنا نجد صعوبة قصوى في إخفاء ضحكاتنا، وفي بعض الأحيان كنا ننفجر في البكاء، فقد شربنا كثيرًا من النبيذ. وقالت السيدة:

- حسنًا، إن السيدة التي تنظران إليها الآن، لم تكُن مغنية عادية في الحانات، كلا، فقد كنت فنانة شهيرة، وكنت أرتدي ثيابًا داخلية من الحرير الخالص. ولكنه الحب...

وتنهدت تنهيدة عميقة، وأشعلت سيجارة ثانية من زوربا وقالت:

- لقد أحببت أميرالًا. بعد أن أصبحت كريت مرة أخرى ولاية ثائرة، وأساطيل الدول العظمى بدأت ترسو في مرفأ (سورا) وبعد أيام قليلة رسوت أنا الأخرى هناك. آه يا للحظ! لو رأيتم هؤلاء الأميرالات الأربعة.. الإنكليزي، والفرنسي، والإيطالي، والروسي. جميعهم متلفّحون بالذهب، والأحذية اللامعة، والقبعات المريشة كالديوك تمامًا. ويا لتلك اللحى الكثّة الحريرية الداكنة، والشقراء، والرمادية، والحمراء. وما أطيب رائحتهم! كل واحد منهم كانت له رائحته المميزة، فهكذا كنت أُميز بينهم في الظلام، إنجلترا كانت تتميز برائحة الكولونيا، وفرنسا برائحة البنفسج، وروسيا برائحة المسك، وإيطاليا، آه! إيطاليا المشغوفة بالعطر. يا إلهي، يا لهذه اللحى. كنا

نلتقي عدة مرات على ظهر سفينة القيادة، ونتحدث عن الثورة. كانت بذلاتهم مفتوحة، وكان ثوبي الحريري يلتصق بجسدي، فقد كانوا يصبون عليه الشمبانيا، كان ذلك كله في الصيف كما تعلم، وكنا نتحدث عن الثورة بجدية، وكنت أنا أرجوهم ألا يطلقوا مدافعهم على الكريتيين المساكين، ونحن نشاهدهم بالمنظار على الصخور قرب «**كايني**» ضئيلين كالنمل، يرتدون قمصانًا زرقاء وأحذية صفراء، وهم يصرخون ويصيحون. وكان معهم علم.

وفجأة سمعنا صوتًا خلف قضبان القصب، وتوقفت المجاهدة العجوز عن الكلام، مذعورة. ورأينا بين القضبان عيون الأطفال الخبيثة تراقبنا، فقد شعر أطفال القرية بوجودنا وراحوا يتلصصون علينا، وحاولت المغنية القيام عن الكرسي. ولكنها لم تتمكن من القيام، فقد أكلت وشربت كثيرًا، فعادت إلى الجلوس وهي تتصبب بالعرق، وأخذ زوربا حجرًا فتفرق الأولاد وهم يصيحون.

- استمري يا جميلتي. استمري يا كنزي!

كذلك قال زوربا واقترب بكرسيه منها.

- وقلت للأميرال الطلياني، فقد كنت قد ألفته أكثر من الآخرين، أمسكت بلحيته وقلت له: «**كانافارو، أرجوك يا كانافارو العزيز، لا تفعل بوم، بوم! أرجوك!**». كم من المرات كانت هذه المرأة الجالسة أمامكم تنقذ حياة الكريتيين من موت محتم! كم من المرات كانت المدافع جاهزة للانطلاق، وكنت أهرع لأمسك بلحيته وأرجوه ألا يفعل بوم! بوم! ولكن مَن الذي شكرني على ما فعلته من أجلهم؟ وبدلًا من الوسام انظروا إلى ما حصلت عليه.

كانت مدام هورتنس غاضبة أشد الغضب لجمود الرجال، وضربت على الطاولة بقبضة يدها الطرية. ومد زوربا يده إلى ركبتيها المنفرجتين وأمسك بهما بعطف مصطنعٍ وصاح:

- يا بوبولينتي، بحق السماء لا تفعلي بوم بوم!

- ارفع يديك، أيها العجوز.

كذلك صاحت به السيدة الطيبة. وأضافت بعد قليل:

- مَن تظنني؟

وحدجته بنظرة غاضبة. فقال زوربا:

- إن الله موجود في السماء، لا تزعجي نفسك يا بوبولينتي، فنحن هنا يا حبيبة لا تخافي.

ورفعت عروس البحر العجوز عينيها إلى السماء، ورأت ببغائها الأخضر يغط في النوم، وقالت بصوت حنون:

- كانافارو، كانافارو.

وما أن سمع الببغاء صوت سيدته حتى فتح عينيه وأمسك بقضبان القفص وردد قولها: كانافارو، كانافارو.

- حاضر!

كذلك صاح زوربا وهو يضع يده من جديد على تلك الركبتين اللتين خدمتا كثيرًا، كأنه يريد امتلاكهما. واستدارت المغنية العجوز على كرسيها وفتحت فمها الصغير من جديد لتقول:

- وأنا أيضًا حاربت ببسالة لقد حاربت صدرًا بصدر، لكن الأيام العصيبة جاءت، وتحررت كريت بعد أن تلقت الأساطيل الأوامر بالانسحاب. «**ولكن ما الذي سأصير إليه؟**» كذلك قلت وأنا أمسك باللحى الأربعة. «**أين ستتركونني؟ لقد تعودت على العظمة، وعلى الشمبانيا، والدجاج، لقد اعتدت على البحارة الصغار وهم يؤدون لي التحية العسكرية حين أمر أمامهم، سأصبح أرملة، أربع مرات يا سادتي الأعزاء...**» ولكنهم سخروا مني! هكذا هم الرجال. لقد أشبعوني بالليرات الإنكليزية والإيطالية، والروبلات والفرنكات التي وضعتها في جواربي وقميصي وحذائي. وفي الليلة الأخيرة بكيت كثيرًا، حتى إن القُوّاد الأربعة أشفقوا عليَّ، فملأوا المغطس بالشمبانيا، ووضعوني به ثم شربوا منه على شرفي وسكروا. وبعد ذلك أطفأوا النور.. وفي الصباح استيقظت على رائحة العطور الممزوجة تفوح في الغرفة، رائحة البنفسج والكولونيا وغيرها... لقد كنت ممسكة بالدول الأربع الكبرى، إنكلترا، فرنسا، روسيا، إيطاليا، على ركبتي، نعم أمسك بهم هنا على ركبتي. وفعلت هكذا معهم.

ثم راحت مدام هورتنس تهز بيدها كأنها تلاعب طفلًا صغيرًا على ركبتيها ثم قالت:

- هكذا! هكذا... وعند انبلاج الفجر راحت المدافع تنطلق في الهواء. وأقسم إن ذلك كان على شرفي. نعم أطلقوا المدافع، وجاء زورق صغير أبيض ليقلني إلى الشاطئ.

ثم تناولت منديلها وراحت تمسح دموعها وتبكي، وهتف زوربا:

- أغمضي عينيكِ يا بوبولينتي، أغمضي عينيكِ. فأنا هو كانافارو!

وصرخت السيدة الفاضلة:

- ارفع يديك، لقد قلت لك ذلك، انظر إلى نفسك، أين شارتك الذهبية؟ والقبعة، واللحية المعطرة؟ آه! آه!

ثم ضغطت على يد زوربا وراحت تبكي من جديد.

لقد بدأ الطقس يبرد، وساد الصمت حولنا، وكان البحر من وراء القصب يتنهد. وسادت الطمأنينة والهدوء أخيرًا، سكنت الريح والشمس غرقت في الأفق لتنام، ومرَّ من فوقنا غرابان يصفقان بأجنحتهما، كأن قطعة من الحرير قد تمزقت، ربما كان قميص المغنية. وهمهم زوربا بعطف وهو يضغط بركبتيه على ركبتيها:

- يا بوبولينا لا تضطربي، ليس هناك من إله أو شيطان. ارفعي رأسك الصغير، واسندي خدك على يدك، وانشدي لنا أغنية، وليذهب الموت إلى الجحيم!

لقد كان زوربا يشتعل بالشبق. فارتمى على صدرها، وهي تنظر مرةً نحوي ومرة نحو زوربا لتعرف مَن منّا كانافارو، وعيونها قد احمرت بأثر البكاء والخمر، وزوربا يفتل شاربه بيده اليسرى، بينما يده اليمنى تنساب على المغنية المنتشية، وكلماته تنطلق متقطعة وعيناه واهيتان. لم يكُن يرى هذه العجوز المطلية بالمساحيق التي تجلس أمامه، بل كان يرى فيها «**الجنس الأنثوي**» بأجمعه، كما كان يدعو المرأة. لقد اختفت الفردية، وانمحى الوجه، سواء أكان فتيًّا أم هرمًا، جميلًا أم بشعًا، فهذه اختلافات لا أهمية لها. فقد كان يؤمن أن خلف وجه كل امرأة يقف وجه أفروديت المقدس الغامض. هذا هو الوجه الذي كان يراه زوربا، ويحدثه ويشتهيه. أما مدام هورتنس فلم

تكُن سوى قناعٍ شفافٍ سريع الزوال، يمزقه زوربا ليقبل الشفاه الخالدة. وعاد صوته المتضرعً الهامسً يقول:

- ارفعي عنقكِ الناصع، يا كنزي، ارفعي العنق الأبيض وانشدينا بأغنية جميلة؟

ووضعت المغنية العجوز يدها على خدها، وراحت تنشد أغنية من أغنياتها القديمة، وهي تنظر إلى زوربا، فقد كان من الواضح أن اختيارها قد حُسِم، وصاحت بأغنيتها المكررة ألف مرة بصوت متهدج:

عند نهاية عمري..

لماذا اِلتقيتُك..

وقفز زوربا، وأحضر السانتوري، وجلس متربعًا على الأرض ثم صاح بأعلى صوته:

- آه، آه، خُذي سكينًا واقطعي به عنقي يا بوبولينتي.

وعندما بدأ الليل يقترب، وبدأت النجوم تتألق في السماء، وبعد أن ملأت النشوة نفسها، ابتدأت مدام هورتنس تتقلب وتلتصق بزوربا برفق ودلال، وتتنهد وتنادي، ونظر إليَّ زوربا مشيرًا، ثم همس بقوله:

- لقد بدأت النار تشتعل في سراويلها، فكُن لطيفًا، واتركنا وحدنا.

٤

استيقظت عندما أسفر الصبح فوجدت زوربا أمامي، جالسًا طاويًا ساقيه عند طرف السرير يدخن وهو غارق في تأمُّل عميق، عيناه متورمتان ومسمرتان على زجاج النافذة، مادًّا عنقه مثل طير جارح. كنت قد انسحبت ليلة البارحة مبكرًا، وتركته وحده مع الجنية العجوز بعدما قلت له: «**إني ذاهب يا زوربا، تمتع جيدًا يا فتاي، وتشجع**». فقال لي: «**إلى اللقاء أيها الرئيس، واتركنا الآن لنسوّي القضية جيدًا**». وقد بدا لي أنهما سوَّيَا القضية جيدًا، فقد سمعتُ في الليل أصواتًا مكتومة وهزات في الغرفة المجاورة. وبعد منتصف الليل دخل زوربا إلى غرفتنا عاري القدمين وانطرح على السرير بكثير من الهدوء حتى لا يوقظني. ولكنه الآن لا يزال غارقًا في نشوة الليلة الفائتة، مستسلمًا بهدوء إلى شعاع الشمس المتسلل من زجاج النافذة.

بدأت القرية تفيق من نومها، ودبّت الحركة في الأزقة ممتزجة بأصوات الديوك والخنازير، والحمير، والناس. وخطر لي أن أقفز من سريري وأصرخ «**هيا يا زوربا فلدينا اليوم كثير من العمل**» لكني كنت أشعر أنا الآخر بسعادة كبيرة في الاستسلام هكذا دون حراك، منتظرًا تسرب الفجر الرائع. ففي هذه اللحظات الساحرة تبدو الحياة خفيفة كالغبار. وتبدو الأرض كأنها تتكون من الريح كالغيوم المتموجة الطرية.

نظرت إلى زوربا وهو يدخن، فشعرت برغبة في التدخين أنا الآخر، أمسكت بغليوني وحدقت بكثير من الشجن، كان غليون إنكليزي الصنع، أهادنيه صديقي القديم، كان ذلك منذ سنوات، وتذكرت قوله حين منحني هديته تلك: «**خُذ هذا الغليون، واترك السجائر التي تدخن نصفها ثم ترميها، حبك لا يدوم لها سوى دقيقة كأنها عاهرة. أنصحك أن تدخن الغليون فهو كالزوجة الوفية، تعود إلى بيتك، فتجده دومًا بانتظارك، تشعله، وتتأمَّل دخانه الصاعد في الهواء، وتتذكرني...**».

ما زلت أذكر، كان الوقت حينها ظهرًا، وكنا في أحد متاحف برلين، حيث كان صديقي يودّع لوحته العزيزة «**المحارب**» للرسام رامبراندت، نظر صديقي إلى اللوحة متأملًا المحارب شديد البأس، ضامر الوجنتين، ماضي العزم، وخوذته البرونزية، وقال: «**إذا ما تمكنت يومًا من القيام بعمل جدير بالرجل، فسأكون مدينًا له هو!**».

كنا في صالة المتحف مستندين إلى عمود، وأمامنا تمثال من البرونز لفارسة عارية تمتطي حصانًا بريًّا متوحشًا. وحط عصفور على رأس التمثال والتفت صوبنا، وهز بذيله، وأطلق لحنًا هازئًا، ثم طار في سبيله. ارتعدت وأنا أنظر إلى صديقي وسألته:

- هل سمعت العصفور؟ لقد خلتُ أنه قال لنا شيئًا، ثم طار في سبيله.

وابتسم صديقي وأجابني بمثل من أمثالنا العامة:

- إنه عصفور.. دعه يغني. إنه عصفور.. دعه يتكلم.

كيف تعود الذكرى هذه اللحظة عند طلوع الفجر عند شاطئ كريت، تعود إلى مخيلتي مع هذا المثل الحزين لتملأ روحي بالمرارة.

وضعت قليلًا من التبغ في غليوني وأشعلته، إن كل شيء في هذا العالم له معانٍ خفية، الرجال، الحيوانات، الشجر، النجوم. إنها جميعها تبدو كالرموز الهيروغليفية، وسعيدٌ هو مَن يدركها ويحل رموزها ليكشف عن خفاياها.. ويا لتعاسته أيضًا، فعندما يراها لن يدرك لها معنى، فهو يعتقد أنها بشرٌ، وحيوانات، وأشجار، ونجوم. ولكن بعد مرور السنين وبعد فوات الأوان، يفهم معناها الحقيقي.

المحارب ذو الخوذة البرونزية، وصديقي المستند إلى العمود، والنور المتدفق في تلك الظهيرة، والعصفور الذي قال لنا شيئًا ثم رحل، كل هذه الرموز كان لها معنى خفي، هكذا أفكر اليوم. لكن ما هو؟!

ورحت أتابع الدخان المتصاعد من الغليون، وتندمج به روحي، وتتلاشى معه في الحلقات الزرقاء المتراقصة. ومر وقت طويل كنت أحس دون العودة إلى المنطق وبيقين لا يوصف، بحقيقة هذا العالم، وتفتحه وزواله.

وأطلقت زفرة هادئة أسقطتني من أفكاري الشاردة، فنظرت إلى ما حولي.. إلى هذا الكوخ الخشبي الحقير، وهذه المرآة الصغيرة المعلقة على الحائط والمنعكس عليها شعاع الشمس، فبدت عيونها تقدح بالشرر. وكان زوربا لا يزال جالسًا على حافة السرير، يدخن بهدوء مُديرًا لي ظهره!

ومرت أحداث الأمس بمخيلتي، رائحة البنفسج والكولونيا، والمسك، والببغاء الذي بدا كرجل تحوّل إلى ببغاء، يضرب قفصه بجناحيه مناديًا حبيبًا

قديمًا، وسفينة قديمة لا تزال الوحيدة الباقية على قيد الحياة، لتقص أقاصيص الحرب والمعارك البحرية القديمة.

استدار زوربا عندما سمع صوت زفرتي. وتمتم قائلًا:

- لقد أسأنا التصرف، لقد أسأنا التصرف أيها الرئيس. لقد سخرتَ منها، وكذلك فعلت أنا، وقد رأتنا. وهذه الطريقة التي غادرتنا بها دون أن تنبس بكلمة رقيقة واحدة. يا للعار! هذا سلوك غير مهذب أيها الرئيس، وليست هذه طريقة حسنة للتصرف، اسمح لي أن أقول لك إنها امرأة على كل حال. أليس كذلك؟ مخلوقة ضعيفة خائفة. وقد أحسنتُ صنعًا حين بقيت لأواسيها.

- ما تعني بقولك يا زوربا؟ هل تعتقد حقًّا أن جميع النساء ليس في عقولهن شيء سوى هذا؟

- نعم أيها الرئيس، فليس في عقولهن شيء آخر، أصغ إليَّ الآن، لقد رأيت الكثير من النساء، وفعلتُ كل شيء.. وأقول لَك إن المرأة لا تكترث إلا لهذا، إنها مخلوق مريض مشاكس.. إذا لم تقل لها إنك تحبها وتشتهيها، فإنها ستبكي.. وربما حين تُخبرها ذلك تقول لك إنها لا تريدك إطلاقًا.. بل ربما تحتقرك، وربما تشمئز منك، لكن هذه مسألة أخرى.. فإن على جميع الرجال الذين يرونها أن يشتهوها.. هذا ما تريده تلك المخلوقة المسكينة، لذلك فالأجدر أن تحاول إرضاءها. فأنا مثلًا كانت لي جدة تبلغ الثمانين من عمرها. إن قصة حياتها حكاية بذاتها، لكن لا علينا من هذا الآن.. وكانت تسكن قريبًا من منزلنا صبية نضرة كالوردة، اسمها كريستالو. وفي كل يوم سبت عند المساء، كنا نحن الشباب نذهب إلى الحانة لنحتسي كأسًا من الَخمر ونتنشي، ثم نضع زهرة وراء أذننا، ويأخذ ابن عمي قيثارته ونذهب لنتنزه. يا للحب.. يا للعاطفة! كنا نخور كالجاموس.. كلنا كنا نريدها، وكل يوم سبت كنا نتوجه لها كقطيع واحد، ليقع اختيارها على جاموسة منا. حسنًا.. هل تصدق هذا أيها الرئيس؟ يا له من لغز! إن في النساء جرحًا لا يلتئم أبدًا. كل الجروح تُشفى، إلا هذا. لا تعتمد كثيرًا على ما تقرأه في كتبك.. إنه لا يلتئم أبدًا. انظر.. قد أصبحَت جدتي في الثمانين، ومع ذلك فالجرح لا يزال مفتوحًا.

كانت العجوز المتصابية تأخذ فُرشاتها نحو النافذة، وتتناول مرآتها الصغيرة وتحاول تسريح ما تبقى من القش على رأسها، وتنشره على فِرقين فوق جمجمتها، ومِن ثَم تختلس نظرات سريعة حولها، خوفًا من أن يشاهدها أحد، وإن اقترب أحد منها تندفع إلى الوراء لتستكين بهدوء وتدّعي النوم. ولكن كيف كانت تستطيع النوم؟ فإنها بانتظار مناجاة الحب تحت شرفتها وهي في الثمانين من عمرها.. هل ترى الآن هذا اللغز المجهول في المرأة أيها الرئيس؟ إن هذا يدفعني الآن للبكاء. أما في ذلك الوقت فقد كنت تافهًا ولم أفهم هذا. وهذا ما كان يدفعني للسخرية. وفي أحد الأيام غضبت منها، لقد كانت توبخني لأني كنت أجري خلف الفتيات، وعندها صحت في وجهها دون مواربة وبكل صرامة: لماذا تدلكين شفتيْكِ بورق الجوز كل سبت، وتسرحين شعرك. أتظنين بأننا نتنزه من أجَلك؟ إننا نأتي من أجل كريستالو.. أما أنت فلستِ إلا جيفة نتنة.

هل تصدق أيها الرئيس؟ في ذلك اليوم فقط عرفت ما هي المرأة. دمعتان كبيرتان طفرتا من عينيْ جدتي، وانكمشت في زاويتها مثل كلبة، وراحت ذقنها ترتجف. وصحت «**كريستالو**» واقتربت منها أكثر لكي تسمعني بوضوح: «**كريستالو، كريستالو**»... إن الشبان حيوانات متوحشة، ليسوا من المخلوقات الإنسانية، ولا يفهمون شيئًا.

عندها رفعت جدتي ذراعيها النحيلتين نحو السماء وصاحت «**عليك اللعنة من أعمق أعماق قلبي**». ومنذ ذلك اليوم بدأت صحتها تتلاشى وتتدهور.. وبعد شهرين كان يومها قد بدأ يقترب. وبدت أيامها معدودة. وعندما كانت تحتضر شاهدتني، هسهست مثل سلحفاة، ومدت يديها الناحلتين وحاولت أن تمسكني بأصابعها وقالت: «**أنت مَن قتلتني. فليلعنك الله يا ألكسيس، ويجعلك تعاني كل ما عانيته أنا**».

وابتسم زوربا وتابع:

- آه. إن لعنة العجوز قد أصابت هدفها.

وراح يصلح من حال شاربه وتابع قائلًا:

- إني في الخامسة والستين الآن، ولو عشت إلى المائة فلن أصبح حكيمًا. سأظل أحمل المرآة الصغيرة في جيبي، وسأبقى أجري خلف

النساء.

وابتسم ثانية، ورمى سيجارته من النافذة ومد ذراعيه قائلًا:

- لي أخطاء كثيرة، إلا أن هذه الخطيّئة هي التي ستقتلني.

وقفز من سريره وصاح:

- لقد تحدثنا كثيرًا يجب أن نبدأ العمل.

وارتدى ثيابه، وانتعل حذاءه بمثل لمح البصر وخرج.

وبرأس مُنْحَنٍ رحت أستعيد كلمات زوربا. وفجأة لمعت في رأسي مدينة مغطاة بالثلوج. كنت في معرض لأعمال «**رودان**». وتوقفت لأنظر إلى يدٍ برونزية ضخمة «**يد الله**» كانت اليد نصف مفتوحة. وفي نصف الراحة كانَ يوجد رجل وامرأة متعانقان بنشوة، وجاءت فتاة واقتربت مني، كانت تبدو مضطربة، وراحت تنظر إلى ذلك العناق الأبدي بين الرجل والمرأة، كانت نحيلة أنيقة. وكانت طبيعتي عدم البدء بالحديث. ولكن لا أدري ما الذي دفعني لأن ألتفت نحوها وأسالها:

- بماذا تفكرين؟

فتمتمت بسرعة:

- آه.. لو نستطيع أن نهرب!

- وأين نذهب؟ يد الله في كل مكان، لا سلام. هل يحزنك عناقهما؟

- كلا.. فالحب هو أكبر متعة في الوجود. أو أظن ذلك. لكن عندما رأيت تلك اليد البرونزية الآن، فكّرت بالهرب.

- أتفضلين الحرية؟

- أجل.

- ولكن ماذا لو أن طاعتنا لتلك اليد هي ما تجعلنا أحرارًا؟ ماذا لو أن كلمة «**الله**» ليس لها هذا المعنى الذي تضفيه عليها الجماهير؟

نظرت إليَّ بقلق وبدت عيناها رماديتيْن، وشفتاها جافتيْن مُرّتين وقالت:

- إني لا أفهم.

ثم ابتعدت وهي خائفة، واختفت. ومن ذلك الوقت لم أفكر بها إطلاقًا. ولكن لا بد وأنها ظلّت تعيش في داخلي، واليوم على هذا الشاطئ المهجور ظهرت من جديد شاحبة نحيلة من أعماق كياني.

نعم لقد أسأت التصرف. إن زوربا على حق. فاليد البرونزية كانت حجة، والاتصال الأول قد تم، والكلمات اللطيفة قد قيلت، وكان من الممكن أن نتعانق دون أن نشعر، ونتحد بهدوء في اليد البرونزية. لكني قفزت فجأة من الأرض إلى السماء. فارتعشت الفتاة وهربت.

كان الديك العجوز يصيح في باحة حديقة السيدة هورتنس. وأنوار الصباح الجديد قد بدأت تزحف عبر النافذة الصغيرة. تركت الفراش، وكان العمال قد بدؤوا يغدون حاملين معاولهم ومجارفهم، وراح يتناهى إلى مسامعي صوت زوربا يصدر الأوامر، وقد انغمس في العمل بسرعةٍ فائقة، كرجل يصدر الأوامر ويتحمل المسؤولية.

مددت رأسي من النافذة الصغيرة، وشاهدته واقفًا هناك. كان عملاقًا بين ثلاثين من العمال النحفاء، القساة السمر. يده ممدودة تأمر بقسوة، وكلماته مختصرة ودقيقة، في صلب الموضوع.

وبعد قليل أمسك بعنق فتى صغير كان يتقدم متمتمًا بصوت خفيض.

فصاح زوربا:

- هل عندك شيء لتقوله؟ هيا قُله بسرعة، وبصوت عالٍ، فأنا لا أحب الدمدمة، يجب أن تكون مستعدًا للعمل وإلا فعُد إلى الحانة.

عندها ظهرت السيدة هورتنس بشعر مشعث، وخدين غائرين، لأنها لم تضع المساحيق على وجهها، ترتدي ثوبًا طويلًا قذرًا، وتنتعل زوجًا من الأحذية الطويلة المهترئة، وسعلت سعالًا قاسيًا، ذاك الذي تتميز به المغنيات العجائز، كأنه نهيق حمار. توقفت ونظرت نحو زوربا بكل فخر وكبرياء، وأغمضت عينيها، وسعلت من جديد، كي تلفت انتباهه، ومرت بقربه تهز ردفيها بإثارة مصطنعة، حتى إن أكمامها الواسعة كادت تلمسه.. لكنه لم يكلف نفسه مشقة النظر إليها، وأخذ قطعة من خبز الشعير وقبضة من الزيتون وصاح بالعمال:

- الآن أيها الرجال. باسم الله، ارسموا علامة الصليب.

وسار بعيدًا يتقدم الرجال بخط طويل، نحو الجبال. لن أصف هنا العمل في المنجم... فإن هذا يحتاج إلى صبر طويل، وليس لديَّ الكثير منه. بَنَيْنَا كوخًا قرب البحر من القصب والخيزران وبقايا صفائح البنزين، يستيقظ زوربا عند الفجر، يتناول معوله، ويذهب إلى المنجم قبل العمال، ويحفر نفقًا جديدًا، وحين يكتشف عرقًا من الفحم يرقص من الفرح، لكنه بعد يومين أو ثلاثة يتوه عن العرق، فيصيح ويرمي نفسه على الأرض، ويرفع رجليه، ويلوح بهما نحو السماء، كأنه يسخر أو يهزأ منها ويتحداها.

كان يعمل بكل إخلاص دون أن يستشيرني. ومنذ اليوم الأول تحولت المسؤولية من يدي ليتسلمها هو بكامل الشجاعة، كان دوره أن يتخذ القرار وأن يضعه قيد التنفيذ، وكان دوري أن أتحمل العواقب. لكنّ هذه التدابير لم تزعجني، لأني أدركت بأن هذه الشهور ستكون أسعد أيام حياتي، وشعرت بأني أشتري سعادتي بثمن زهيد.

كان جدي لأمي، يسكن في إحدى قرى جزيرة كريت، اعتاد أن يحمل كل ليلة فانوسًا، ليدور في شوارع القرية علّه يصادف أحد الغرباء، فيصطحبه إلى المنزل، ليقدم له الطعام والشراب، ومن ثم يجلس فوق أريكته المعتادة، ويشعل غليونه التركي، ويلتفت نحو ضيفه الذي حان الوقت ليرد له الجميل، ويقول له بلهجة واثقة قاسية:

- هيا.. تكلم.

- أتكلم.. عن ماذا أيها الأب موستيورجي؟

- ماذا تكون؟ مَن تكون؟ مِن أين أتيت؟ حدثني عن المدن والقرى التي زرتها، كل شيء، حدثني عن كل شيء. هيا تكلم!

ويبدأ الضيف بالحديث دون هدف، ويخلط بين الحقائق والأساطير، بينما يكون جدي جالسًا بهدوء فوق أريكته يدخن غليونه، يصغي لضيفه بكل جوارحه، متابعًا له في جميع أسفاره، وإن أعجبه حديث الضيف يقول له:

- سوف تبقى يوم غد أيضًا. لن ترحل، فما زال لديك أشياء كثيرة لتقصّها عليَّ.

لم يترك جدي قريته قط، ولا حتى إلى كانديا أو كانيا، وكان يقول: «**لماذا أذهب إلى هناك؟ إن بعض أهالي كانديا وكانيا يمرون من هنا، وهكذا فكانديا وكانيا يأتون إليَّ. فلماذا أذهب أنا إليهم؟!**».

وأنا على هذا الشاطئ الكريتي أتبع عادة جدي. أنا أيضًا قد وجدت ضيفي بعد أن بحثت عنه مع قنديلي، ولن أدعه يرحل بالطبع، نعم هو يكلفني أكثر من مجرد عشاء لكنه يستحق. كل مساء أنتظر عودته من العمل وأجلس أمامه لنلتهم الطعام، وعندما يحين الوقت ليرد لي الضيافة أقول له: «**تكلم**»، وأدخن غليوني وأصغي. هذا الضيف قد شاهد العالم بأسره وخبر الروح البشرية، وأنا لا أَمِلّ الإصغاء إليه أبدًا.

- تكلم يا زوربا.. تكلم.

وعندما يبدأ حديثه تبدو أمام ناظري «**ماسيدونيا**» تمتد في الفسحة التي بين زوربا وبيني، بجبالها وغاباتها وسيولها وثوارها ونسائها اللاتي يعملن بجد، ورجالها ذوي الأجسام الضخمة. وأيضًا جبل آنوس بإبراشياته الواحدٍ والعشرين ومصانع الأسلحة، وسكّانه العاطلين عن العمل. وعندما ينهي زوربا حديثه عن الرهبان يهز رأسه ويغرق بالضحك قائلًا:

- ليحفظك الله أيها الرئيس من مؤخرات البغال ورؤوس الرهبان.

كل مساء يأخذني زوربا عبر اليونان، بلغاريا والقسطنطينية. فأغمض عيني.. وأرى.

قد جاب كل سهول البلقان وعاينها بعينيه الصغيرتين اللتين تبصران كل شيء، كأنهما عينا صقر، كثيرًا ما كان يفتحهما بدهشة وتعجُّب أمام أشياء اعتدنا نحن أن نمر عليها دون أن نلتفت، نمر أمامها بكل بساطة. أما زوربا فهو يراها بشكل مختلف، تقفز أمامه كأنها ألغاز مخيفة.. عندما يشاهد امرأة تمر أمامنا يتوقف بذهول ويتساءل:

- يا لهذا اللغز المُحيّر! ما هذه المرأة؟ ما سر المرأة؟ لماذا تدير رؤوسنا؟ هيا أخبرني.. أنا أسألك ما معنى هذا؟

ويستجوبني بهذه الطريقة، وبمثل هذا الذهول، كلما لمح رجلًا، أو شجرة مزهرة، أو قدحًا من الماء البارد.. إن زوربا يرى يوميًّا كل هذه الأشياء وكأنه يراها لأول مرة.

بالأمس كنا جالسين قرب الكوخ عندما عبَّ كأسًا من الخمر والتفت نحوي مذعورًا قائلًا:

- ما هذا السائل الأحمر أيها الرئيس، أخبرني؟ جذع يابس يُنبِت أغصانًا، ثم تتدلى منه العناقيد كأنها الزينة، ويمر الوقت وتنضج تحت الشمس، وتصبح بحلاوة العسل، وعندئذ ندعوها عنبًا. ثم ندوسه بأرجلنا ونُقَطِّر عصيره ونضعه في براميل الخشب، فيختمر من تلقاء نفسه، ونفتح البراميل في عيد القديس يوحنا السكير، فإذًا هو خمر! ما هذه المعجزة؟! وعندما تشرب هذا السائل الأحمر ينتفخ دماغك، فتشعر بأن روحك تكبر، تكبر وتعظم داخل جسدك العجوز، حتى إنك تصبح قادرًا على تحدي الله للقتال. أخبرني أيها الرئيس كيف حدث هذا؟

لم أجب، وشعرت وأنا أصغي لزوربا بأن العالم يتكشف لي من جديد، وعاد بِكرًا، كل الأشياء الباهتة قد عادت إلى تألقها لحظة خرجت من بين يدي الله. الماء، والنسوة، النجوم، والخبز. كلها عادت إلى أصلها المُحير، والدوامة الإلهية عادت لتدور من جديد في الجو.

لهذا كنت كل مساء أتمدد على الشاطئ بانتظار زوربا، فأراه يخرج بقوة من باطن الأرض بجسده المكسو بالوحل والأقذار، وعبر خطواته الواسعة التي أراها من بعيد، كنت أستطيع أن أشاهد كيف كانت نتيجة العمل اليوم من طريقة سيره، من انتصاب رأسه عاليًا، أو انخفاضه، ومن حركات يديه المتأرجحتين.

أول الأمر كنت أرافقه لأراقب العمال، كنت أجهد نفسي في محاولة تغيير مجرى حياتي، لأخلق لنفسي حياة جديدة. لأعرف ولأحب الطبيعة الإنسانية التي وقعت بين يدي. لأختبر وأشعر بالمتعة التي انتظرتها طويلًا، لا مجرد كلمات أقرأها أو أكتبها، بل مع رجال على قيد الحياة.

ورسمت بعض الخطط الرومانتيكية، لو نجح مشروع التنقيب عن الفحم سوف أنظّم نوعًا من الحياة الاجتماعية الجديدة، حيث نشترك في كل شيء، سنأكل جميعًا الطعام نفسه، ونرتدي اللباس نفسه، كأننا إخوة في رهبانية. وخُلِقت في رأسي أفكار جديدة، نواة لحياة جديدة.

ولكني لم أكُن قد قررت بعد أن أفاتح زوربا بمشروعي، لقد كان ينزعج من ذهابي ومجيئي بين صفوف العمال. أسأل وأتدخل، ودائمًا أقف بصف العمال.

عندها يقلب زوربا شفتيه قائلًا:

- أيها الرئيس ألن تذهب في نزهة بعيدًا عن هنا. ألا ترى الشمس والبحر هناك؟!

في بادئ الأمر كنت أصر على البقاء، وأظل أسأل وأثرثر. أردت أن أعرف قصة حياة كل رجل. كم لديهم من أبناء يعيلونهم، وكم من الأخوات يجب أن يزوجوهن، ماذا عن آبائهم الضعفاء؟ أسألهم عن أمراضهم وكل ما يقلقهم. وحينها كان زوربا يقول لي بغضب:

- لا تنبش في تاريخ حياتهم أيها الرئيس. سوف تندفع نحوهم بقلبك الرقيق، وسوف تحبهم أكثر مما يجب، وبما يضر هذا بمصلحتك ومصلحتهم. ومهما يفعلون ستختلق لهم الأعذار، وعندئذ فلتساعدنا الآلهة. فسوف يهملون عملهم، ويفعلون ما يحلو لهم، وعندها فليساعدنا الله أيضًا، يجب أن تدرك هذا جيدًا: عندما يكون الرئيس قاسيًا سيحترمه العمال ويعملون بجد، وعندما يكون ناعمًا يتركون كل شيء عليه، ويضعون الرسن في عنقه ويمضون وقتًا طيبًا. هل تفهم هذا؟

في إحدى الأمسيات بعد انتهاء العمل، رمى بمعوله في الظل وصاح قائلًا بعد أن نفد صبره:

- أيها الرئيس أرجوك لا تتدخل في أي شيء. أنا أبني بسرعة وأنت تهدم بالسرعة نفسها.. والآن ما هذا الذي كنت تتحدث فيه مع العمال؟ اشتراكية وهراء؟ واعظٌ أنتَ أم رأسمالي؟ يجب أن تختار.

ولكن كيف أستطيع أن أختار؟ لقد كنت أحاول جهدي أن أجمع بين الأمرين. لأجد طريقة تجمع بين هذين التناقضين ولأنجح في الحصول على الحياة في الأرض وملكوت السماوات، كان هذا ما يدور بداخلي منذ سنوات، حتى منذ الأيام الأولى لطفولتي، عندما كنت لا أزال في المدرسة. حيث كنت قد نظمت مع أقرب أصدقائي جمعية سرية تُدعى «**المجتمع**

الودي» هذا كان الاسم الذي أطلقناه عليها، وداخل غرفة نومي المغلقة، أقسمنا اليمين لنكرس حياتنا من أجل محاربة الظلم، وكم انهمرت دموع غزيرة فوق وجوهنا عندما أقسمنا اليمين، وأيدينا فوق قلوبنا.

مبادئ صبيانية! ولكن يا لتعاسة من يسخر منها عندما يسمعها. وعندما شاهدت ما صار إليه أعضاء هذه المنظمة من أطباء مدعين، ومحامين غشاشين، وأصحاب محلات لصوص، وسياسيين دجالين، وصحافيين خونة؛ غاصَ قلبي. إن مناخ هذه الأرض قد أصبح فظًّا وقاسيًا، أجوَد البذور لا تنمو، تندثر تحت الأرض وبين الشوك. أستطيع أن أرى اليوم بكل وضوح أني لم أنضج بعد، ولكن ليتمجد اسم الربّ. أشعر بأني لا أزال مستعدًا لأقوم ببعض المعارك «**الدون كيشوتية**».

*

كنا أيام الآحاد نُحضِّر أنفسنا بكل عناية وكأننا شابّان يُحضِّران نفسيهما للزواج، نحلق ونرتدي قمصانًا بيضاء، ونتوجه بعد الظهيرة لرؤية السيدة هورتنس، كانت كل يوم أحد تذبح لنا طيرًا. كثيرًا ما كنا نجلس ثلاثتنا لنأكل ونشرب، وتمتد يد زوربا الطويلة إلى صدر السيدة المضياف ليمتلكه، وعندما يحل الليل نعود إلى شاطئنا، كانت الحياة تبدو بسيطة ومليئة بالنوايا الحسنة، تمامًا كالسيدة هورتنس.

وذات أحد وبينما كنا عائدين من وليمتنا الممتعة، قررت أن أخبر زوربا بمشاريعي. أصغى إليَّ ممسكًا رأسه، ضاغطًا عليها، ليحتمل حديثي بصبر. لكنه من وقت لآخر كان يهز رأسه الضخم بغضب ظاهر. كلماتي الأولى جعلته يصحو من سُكره.. وطردت الخمر من رأسه. وعندما انتهيتُ نزعَ بعصبية شعرة أو شعرتين أو ثلاثة من شاربه وقال:

- اعذرني لما سأقوله أيها الرئيس. ولكن لا أعتقد بأن عقلك قد اكتمل بعد، كم تبلغ من العمر؟

- خمسٌ وثلاثون سنةً.

- إذًا فهو لن يكتمل أبدًا.

وانفجر مقهقهًا. وشعرت بأني قد لُسِعت، وصحت به:

- ألا تؤمن بالإنسان؟

- لا تغضب أيها الرئيس! فأنا لا أؤمن بأي شيء. فلو كنت أؤمن بالإنسان لآمنت بالله، ولكنت آمنت بالشيطان أيضًا. وهذه هي المشكلة، حيث تختلط الأشياء وتلتبس، وتسبب لي كثيرًا من التعقيد والإزعاج.

وخيّم عليه الصمت، وانتزع قبعته وحك رأسه بقسوة وشد شاربه، كأنه يريد أن ينتزعه من مكانه. كان يريد أن يقول شيئًا، لكنه منع نفسه ونظر إليَّ من زاوية عينه، ثم نظر إليَّ ثانية، وقرر أن يتكلم، وصاح ضاربًا الأرض بعصاه بقسوة:

- الإنسان ليس إلا بهيمة كبيرة. لكن سعادتك لا تدرك هذا أبدًا. إذ يبدو أن كل شيء كان سهلًا بالنسبة إليك. اسألني أنا، فأجيبك بأنه بهيمة، فإن كنت قاسيًا معه سوف يخافك ويحترمك، وإن كنت لطيفًا معه فسوف ينتزع عيونك.. احفظ المسافة بينك وبينهم، ولا تقوِّ الرجال هكذا.. لا تتمشَّ بينهم وتقول بأننا متساوون، وأن لنا الحقوق نفسها، وإلا سوف يدوسون على حقوقك أنت. سوف يسرقون خبزك، ويتركونك تموت جوعًا. احفظ مركزك أيها الرئيس من أجل الخير الذي أتمناه لك.

- ولكن ألا تؤمن بأي شيء؟

- كلا، لا أؤمن بأي شيء. كم مرة يجب أن أكرر هذا! أنا لا أؤمن بأي شيء أو بأي شخص، فقط بزوربا وحده. ليس لأن زوربا أفضل من غيره. كلا، فهو بهيمة كغيره. ولكن لأن زوربا هو الوحيد الذي يقع تحت سُلطتي، والوحيد الذي أعرفه. أما الباقون فكلهم أشباح، أقول لك عندما أموت، فسوف يموت كل شيء معي. كل العالم الزوربي سوف يغوص إلى الأعماق.

فقلت ساخرًا:

- يا لها من أنانية!

- نعم، لكن لا أستطيع معها شيئًا. الأمور هكذا، آكل الفاصولياء، فأتحدث عن الفاصولياء، وأنا زوربا فأتحدث عن زوربا.

لم أقل شيئًا. كلمات زوربا لسعتني كالسوط، لقد أدهشتني قوته، لاحتقاره الرجال إلى هذا الحد، وبالوقت نفسه رغبته في العيش والعمل معهم. أما أنا فيجب أن أصبح ناسكًا أو أزخرف رؤوس الرجال بريش مزيف حتى أستطيع أن أتحملهم.

التفت زوربا نحوي وتحت ضوء النجوم استطعت أن أرى ضحكته حتى أذنيه، وقال وهو يتوقف فجأة:

- هل أغضبتك أيها الرئيس؟

لم أرد عليه. كنا قد وصلنا إلى الكوخ، وهو ينظر نحوي بعطف وحنان، وشعرت بأن عقلي يوافق زوربا، لكن قلبي ما زال يقاوم، يريد الانطلاق والهروب بعيدًا عن البهيمية، ويفسح لنفسه طريقًا بعيدًا عنها. عندما وصلنا قلت:

- أنا لا أشعر بالنعاس، اذهب أنت يا زوربا لتنام.

كانت النجوم تلمع في السماء، والبحر يلعق الأصداف فتتلألأ، ولمعت إحداها بقوة وأضاءت تحت منارتها الصدفية، حيث كان الندى يقطر من شعر الليل الداكن. تمددت على وجهي، مأخوذًا بالسكون دون أن أفكر بأي شيء. كنت وحيدًا بين الليل والبحر، وكان عقلي مثل صَدَفة أضاءت منارتها، استقرت على أرض الشاطئ الداكنة، وراحت تنتظر. والنجوم تسافر وتدور، والساعات تمضي، وعندما نهضت كنت قد قررت دون أن أعلم الخطة المزدوجة، التي عليَّ أن أتبعها على هذا الشاطئ: أن أهرب من بوذا، وأخلص نفسي من الكلمات الماورائية، وأحرر نفسي من القلق الذي لا طائل منه. أن أقوم باتصالات مباشرة مع الرجال، وابتداءً من هذه اللحظة ودون تأخير. وقلت لنفسي: «**ربما لم يفُت الأوان بعد**».

٥

«العم أناغنوستي، المُختار السابق، يُحييكما ويسأل إن كنتما تهتمان للمجيء إلى منزله لتناول الطعام، إن البيطري سوف يمر بالقرية ليخصي الخنازير، والسيدة كيرا ماروليا، زوجة المختار سوف تقوم بطبخ هذه «الأعضاء» خِصِّيصَى لكما، إنها أكلة لذيذة جداً. كما يصادف اليوم أيضًا عيد ميلاد حفيدهما متياس ويمكنكما أن تحضرا وتتمنيَا له عيداً سعيداً وسنواتٍ عديدةً».

إنه من المفرح جداً أن تدخل إلى بيت أحد الفلاحين الكريتيين. فكل شيء في البيت يوحي بالنظام الأبوي الصارم: المدفأة، قنديل الزيت، الجِرار المصفوفة على الأرض، الكراسي القليلة، الطاولة. وعلى الشمال عندما تدخل تشاهد فتحة في الجدار، حيث توجد جرة من الماء البارد. وفي العوارض الخشبية تتدلى خيطان السفرجل، والنباتات كالنعنع والزعتر، والفلفل الأحمر. وفي أقصى نهاية الغرفة سلم أو بضع درجات خشبية تقودك نحو دهليز طويل، حيث يوجد سرير كبير، وفوقه الأيقونات المقدسة مع مصابيحها، يبدو المنزل فارغًا، لكنه يحوي كل ما تحتاج إليه. بالحقيقة إن الضروريات التي يحتاج إليها الإنسان قليلة جداً.

كان يومًا رائعًا تحت أشعة شمس الخريف، جلسنا أمام المنزل في الحديقة تحت شجرة زيتون تتدلى منها الثمار، وعبر الأوراق الفضية كان البحر يبدو هادئًا تمامًا، وبعض الغيوم كانت تمر من حين لآخر في مواجهة الشمس، لتضفي على الأرض مسحة حزن، تليها مسحة أخرى من الفرح، كما لو أنها تتنفس. وفي آخر الحديقة الصغيرة وداخل زريبة مغلقة كانت الخنازير المخصية تئن من الألم، وتصم آذاننا، وكانت رائحة الأعضاء المشوية التي تعدها السيدة كيريا ماروليا تصل إلى أُنوفنا. دار حديثنا حول الأشياء الخالدة، مواسم الذرة، الكروم، المطر. كان علينا أن نرفع أصواتنا لأن المختار السابق سمعه ثقيل. لكنه كان يصف ضعف سمعه بأن لديه «**أذنًا متكبرة**». هذا العجوز الكريتي يعيش حياة صادقة وآمنة، كشجرة في وادٍ أمين. قد وُلِدَ وشب وتزوج ورزق أبناءً، وأُتِيحَت له الفرصة لرؤية أحفاده، بعضهم مات، إلا أن الآخرين لا يزالون على قيد الحياة، وهكذا اطمئن على استمرار نسله.

يستعيد العجوز بدقة ذكرى الأيام السالفة: الأحكام التركية، أقوال والده، والمعجزات التي كانت تحدث في تلك الأيام، لأن النساء كُن مؤمنات يخفن الله. قائلًا:

- انظرا إليَّ، أنا العم أناغنوستي، الذي يتحدث إليكما.. لقد كانت ولادتي معجزة، نعم كانت معجزة. عندما أخبركما كيف حدث هذا سوف تُدهشَان، وستقولان: «**ليرحمنا الله**» وتذهبان إلى دير السيدة مريم العذراء وتشعلان شمعة لها.

ورسم إشارة الصليب وبصوت ناعم، وبطريقة لطيفة، بدأ برواية قصته:

- في تلك الأيام كانت هناك سيدة تركية تعيش في قريتنا، لعنة الله عليها، وذات يوم حَمَلَت اللعينة، وكانت على وشك أن تضع طفلًا. مددوها على الأريكة، وظلّت تصرخ من الألم لمدة ثلاثة أيام، كأنها بقرة، لكنّ الولد لم يخرج. عندها اقتربت منها إحدى صديقاتها عليها اللعنة أيضًا، ونصحتها قائلة: «**ظافر هانم، يجب أن تسألي الأم ماري لتساعدك**». هكذا كان الأتراك يُسمُّون مريم العذراء، ليتمجد اسمها. فأجابتها المرأة: «**أنا أدعو هذه؟ لماذا أدعوها؟ أفضّل الموت على ذلك**». فزادت حدة آلامها، واستمر الحال ليوم آخر. إذن ما العمل؟ لم تستطع أن تتحمل المزيد من الآلام، وبدأت تصرخ بأعلى صوتها «**أيتها الأم ماري.. أيتها الأم ماري**». ولكن دون جدوى. ولم تتوقف الآلام ولم تضع الطفل. فقالت لها صديقتها: «**ربما لا تفهم ماري اللغة التركية**». عندها صاحت الكلبة: «**يا عذراء الروم.. يا عذراء الروم**». فعادت الآلام تتضاعف. وعادت صديقتها لتقول: «**إنكِ لا تنادينها بالطريقة الصحيحة، ولذلك فهي لا تأتي للمساعدة**». عندها صاحت تلك الكلبة الكافرة: «**أيتها العذراء القديسة**». عندها وبسرعة انساب الطفل كشعرة من الوحل. حدث هذا يوم أحد، ويوم الأحد التالي كانت والدتي تعاني الآلامَ هي الأخرى، عندها صرخت والدتي المسكينة: «**أيتها العذراء القديسة، أيتها العذراء القديسة**». لكنها لم تضع طفلها. وكان والدي جالسًا في وسط الباحة، لا يستطيع أن يأكل أو يشرب بسبب آلامها، عندها شعر والدي بالغضب من السيدة العذراء، وقال: «**أترون لقد نادتها تلك الكلبة التركية وجعلتها تضع طفلها بسرعة**». وفي اليوم الرابع لم يستطع والدي أن يصبر أكثر من هذا. فأخذ عصا الحقل وتوجه نحو دير السيدة

العذراء. وعندما وصل إلى هناك ودون أن يرسم إشارة الصليب بسبب غضبه الشديد، صفع الباب، وتوجه رأسًا إلى المذبح وصاح قائلًا: **«انظري أيتها السيدة العذراء، إن زوجتي كرينيو.. أنتِ تعرفينها.. أليس كذلك؟ من المفروض أن تعرفيها، فهي تأتي لكِ بالزيت كل سبت وتضيء مصباحك. إنها تعاني الآلامَ، ثلاثة أيام بلياليها، وقد نادتك. ألم تسمعيها؟! إذا لم تسمعيها فأنتِ طرشاء.. لو كانت ظافر هانم هي مَن نادتك لكنت لبيتها بسرعة. لكنّ زوجتي، كرينيو، المسيحية.. لا تسمعينها! تعلمين لو لم تكوني السيدة العذراء لكنت لقنتكِ درسًا بعصاي هذه»**. ودون زيادة أي كلمة، ودون أن ينحني لها، أدار ظهره لها وهمَّ بالذهاب. ويا لعظمة الرب، وباللحظة نفسها علا صرير من المذبح، وكأن السيدة العذراء تذوب. اتركاني أخبركما هنا إن كنتما لا تعرفان.. إن العذراء ترسل هذا الصوت عندما تَهِمُّ بصنع إحدى المعجزات. وعندها فَهِم والدي، واستدار بسرعة وركض راسمًا إشارة الصليب، وهو يصيح: **«لقد أخطأت بحقكِ أيتها السيدة العذراء، لقد تفوهت بأشياء كثيرة كان يجب ألّا أقولها»**. وما كاد أن يصل إلى القرية حتى سمع الخبر العظيم: تمنَّ له عيشًا سعيدًا يا كوستاندي.. لقد وضعت زوجتك طفلًا ذكرًا. وهذا الطفل هو أنا. أناغنوستي العجوز. لكني ثقيل السمع، لقد أهان والدي السيدة العذراء ودعاها بالطرشاء. ولا بد أن العذراء قالت: **«إذن أنت تدعوني بالطرشاء، أليس كذلك؟ سوف أجعل ابنك أطرش، لأعلمك كيف تهينني»**.

ورسم العم أناغنوستي إشارة الصليب، وتابع قائلًا:

- فإن هذا ليس مُهمًّا، ليتمجد اسم الربّ.. كان بمقدورها أن تجعلني أعمى أو أحدب أو... أو أن تجعلني ـ ليحفظني الله ـ امرأة. ليس الطَرَشُ شيئًا بجوار هذا.. إني أنحني لقداستها.

وملأ الكؤوس ورفع كأسه قائلًا:

- لتكن في عوننا.

- نخب صحتك أيها العم أناغنوستي. نتمنى أن تعيش مائة عامٍ لترى أحفاد أحفادك.

وجرع العجوز كأسه دفعة واحدة ومسح شاربه بظهر يده وقال:

- كلا يا ولدي.. إن هذا كثير لتتمناه. لقد شاهدت أحفادي وهذا يكفي، ويجب ألَّا نسأل أشياء غير معقولة. لقد اقتربت ساعتي، لقد أصبحت عجوزًا أيها الأصدقاء، لقد فرغت عظامي، ولم أَعُد أستطيع أن أنجب أطفالًا.. فلماذا أعيش؟

وملأ الكؤوس ثانية، وتناول من حزامه بضع جوزات، وبعض أكواز التين المجففة، ملفوفة بورق الغار، واقتسمهم معنا جميعًا، وقال:

- لقد منحت كل ما أملك لأطفالي. ولقد أصبحنا فقراء جدًّا.. نعم فقراء جدًّا. ولكن لا أشتكي، فعند الله كل ما نحتاج إليه.

عندها صاح زوربا في أذن العم أناغنوستي قائلًا:

- الله عنده كل ما تحتاج إليه أيها العم أناغنوستي! ربما الله عنده كل شيء، ولكن ليس عندنا نحن، فالعجوز البخيل لا يمنحنا شيئًا.

لكن العجوز صاح بقسوة:

- لا تحقره هكذا.. فهو مسكين يعتمد علينا. ألا تعلم؟!

في هذه اللحظة دخلت الجدة أناغنوستي بهدوء حاملة الأعضاء المُحتَفَى بها على طبق خشبي، وحاملة أيضًا دورقًا كبيرًا من النبيذ الأحمر، ووضعتهم أمامنا على الطاولة، ووقفت بقربنا بيديْن مُسدلتيْن، وعينيْن منخفضتيْن.

شعرت بقرف من تذوق هذه «**الأعضاء**»، لكني لم أستطع أن أرفض تجربتها. كان زوربا يراقبني بطرف عينه بسخرية، وقال:

- إنه ألذ طعام يمكن أن تذوقه طوال حياتك أيها الرئيس. لا تقرف.

وابتسم أناغنوستي، وقال:

- إنها الحقيقية. جربها وسترى، يذوبون في الفم بسرعة. عندما زارنا الأمير جورج في الدير الذي فوق الجبل. أعدّ الرهبان مأدبة ملكية من أجله. وقدموا للجميع اللحم، ما عدا الأمير حيث قدموا له طبقًا من الحساء. فتناول ملعقتيْن وراح يحرك الحساء وقال متعجبًا: «**ما هذا؟ فاصولياء.. فاصولياء بيضاء؟!**». فأجابه رئيس الدير قائلًا: «**جربها يا صاحب السعادة. وسوف نتكلم عنها فيما بعد**». فتناول الأمير ملعقة وتذوق الحساء مرة ومرتين، وبلحظات قليلة التهم الطبق ولعق شفتيه، وقال: «**يا له من**

طبق لذيذ! يا لهذه الفاصولياء! إن طعمها كالنخاع تمامًا». فأجابه رئيس الدير ضاحكًا: «إنها ليست فاصولياء يا صاحب السعادة. لقد خصينا جميع الديوك التي في الجوار».

وغرق العجوز مقهقهًا، وشَكَّ أحد هذه الأعضاء بشوكته، وقال:

- افتح فمك. إنه طبق الأمراء.

وفتحت فمي ووضع «العضو» في فمي، وملأ الكؤوس من جديد وشربنا نخب حفيده الأكبر. ولمعت عينا أناغنوستي. فسألته قائلًا:

- ما الذي تتمناه لحفيدك في المستقبل أيها العم أناغنوستي. أخبرنا لنتمنى له ذلك.

- ما الذي أتمناه! أتمنى أن يسير في الطريق القويم، وأن يصبح رجلًا صالحًا وربّ عائلة، وأن يُرزَق بأبناء وأحفاد، وأتمنى أن يكون أحد أولاده مثلي تمامًا. حتى يقول العجائز: «ألا يشبه العم أناغنوستي، رحمه الله كان رجلًا طيبًا».

ومِن ثَمّ صاح دون النظر نحو زوجته:

- ماروليا، مزيدًا من الخمر. املئي الدورق ثانية.

عندها فُتِحَ باب الزريبة بضربة قوية من الداخل، واندفع خنزير إلى الحديقة. فالتَفت زوربا نحوه قائلًا بشفقة:

- إنه يتألم. يا له من حيوان مسكين.

- بالتأكيد. افترض أنهم فعلوا هذا بك، ألن تتألم؟!

فقفز زوربا عن الكرسي، ودمدم مذعورًا:

- ليقطع الله لسانك أيها العجوز الأصم.

وراح الخنزير يمشي أمامنا، وينظر إلينا بغيظ وغضب. فقال العم أناغنوستي، الذي قد بدأت روحه تنتشي بفعل النبيذ:

- وربّي، إنه يعرف أننا نأكل خصيته.

ولكننا واصلنا أكل الخصية بهدوء وكأننا من آكلة لحوم البشر، وتابعنا شرب النبيذ الأحمر. حيث كنا نحدق عبر أوراق الزيتون الفضية تجاه البحر

الذي غيرت الشمس الغاربة لونه إلى الوردي، وعندما نزل الليل غادرنا منزل العجوز. بدا زوربا منتشيًا بفضل النبيذ الذي احتساه، كما بدا راغبًا في الكلام، فسألني:

- ما الذي كنا نقوله أول أمس أيها الرئيس.. ألم تكُن تقول بأنك تود لو تفتح عيون الناس؟ حسنًا، اذهب وافتح عينيْ العم أناغنوستي. لقد شاهدت كيف تقف امرأته وهي تنتظر أوامره، كأنها كلبة مطيعة. اذهب إليه وأخبره بأن النساء لهن الحقوق نفسها كالرجال تمامًا، وأنه من الوحشية أن تأكل أعضاء الخنزير وهو يئن من الألم أمامك، وأنه من السذاجة والجنون أن نرفع الشكر لله لأنه يملك كل شيء، بينما نحن نشتغل حتى الموت. ما الذي سيفيد العم أناغنوستي من هذه الإيضاحات الفارغة، سوف تسبب له الكثير من الإزعاج، وما الذي ستستفيده الجدة أناغنوستي من هذا أيضًا؟ سوف تشعل النار في البيت وتبدأ المشكلات العائلية، وتحاول الدجاجة أن تصير ديكًا، ويبدأ الزوجان بالتشاحن. دع هؤلاء الناس أيها الرئيس، ودع عيونهم مغمضة. ولنفترض بأنك فتحت أعينهم، فما الذي سيرونه؟ بؤسهم! دع عيونهم مغلقة، ودعهم يغرقون في أحلامهم.

وصمت لحظة وحك رأسه، ثم تابع كلامه:

- إلا، إلا إذا...

- إلا ماذا؟

- إلا إذا استطعت عندما يفتحون أعينهم، أن تجعلهم يرون عالمًا أفضل من هذا الذي يعيشونه الآن. فهل تستطيع ذلك؟

أربكني.. كنت أدرك تمامًا ما الذي سيتهدم، ولكن لم أكُن أعلم ما الذي سيُبنَى فوق الأنقاض. ولا أحد يعرف، مهما كانت درجة يقينه.

رحت أُفكر، هذا العالم القديم صامد ومتين، نستطيع أن نراه ونلمسه، نعيش فيه مكافحين ونعمل بجهد كل لحظة، أما عالم المستقبل فهو لم يُولد بعد، ولا تستطيع لمسه، سائل وضبابي، مصنوع من الأنوار التي تصنعها الأحلام، إنه ليس إلا غيومًا تدفعها الرياح العنيفة، الحب، التخيلات،

الحظ، الله.. إن أعظم نبي على الأرض لا يستطيع أن يمنح أكثر من الكلمة، وكلما كانت الكلمة حاسمة، كان النبي عظيمًا.

ونظر زوربا إليَّ بخبث وسخرية وهو يبتسم. فصرخت فيه:

- نعم أستطيع أن أريهم عالمًا أفضل.

- حقًّا؟ إذن دعنا نسمع شيئًا عنه.

- لا أستطيع أن أشرحه لك، فلن تفهم ما أعنيه.

- هذا يعني أنه ليس لديك شيء. لا تظن أني غبي أيها الرئيس. وإذا قيل لك ذلك فقد خدعوك. ربما أنا جاهل كالعم أناغنوستي، ولكني لست غبيًّا مثله. وما دمت أنا لن أفهم، فما الذي تنتظره من هؤلاء المساكين أن يفهموه؟! وماذا عن الناس الذين هم مثل العم أناغنوستي في هذا العالم، هل ستريهم ظلمات جديدة؟ إنهم قد استطاعوا أن يتدبروا أمرهم حتى الآن. لديهم أبناء وأحفاد أيضًا، والله يجعل أولادهم صُمًّا أو عُميانًا ومع ذلك يقولون «**ليتمجد اسم الرب**» ويشعرون أنهم مرتاحون في بؤسهم. إذن دعهم كما هم ولا تقل شيئًا.

خيّم عليَّ الصمت، ومررنا قرب حديقة. توقف زوربا لبرهة وتنهد، دون أن يقول شيئًا. لا بد أن السماء قد أمطرت في مكان ما، لأن رائحة الأرض الرطبة كانت تعبق في الأرجاء، والنجوم الأولى قد بدأت تتجلى، والقمر الجديد يلمع في السماء بلونه الأصفر المخضر، وخيمت العذوبة على السماء.

ورحت أفكر أن هذا الرجل لم يدخل المدرسة، وعقله لم يتخبط في مشكلات، إلا أن لديه كل الحكمة. فقد تفتح عقله وقلبه وأصبح أكبر، دون أن يفقد ذرة من شجاعته البدائية. وكل المشكلات التي نجدها معقدة بلا حل، يحسمها هو بضربة سيف واحدة، تمامًا مثل مواطنة الإسكندر الكبير.

من الصعب عليه أن يفقد هدفه، لأن قدميْه مثبتتان بالأرض بفضل ثقل جسده الكبير. إن المتوحشين الأفارقة، يقدسون الثعابين لأنها تجثم بكامل جسدها على الأرض، فتعرف كل أسرارها. تعرفها ببطنها وذيلها وبرأسها. إنها على اتصال دائم بالأرض. وهذا ينطبق تمامًا على زوربا. ونحن معشر المثقفين لسنا إلا طيورًا فارغة الرأس تحلّق في الهواء.

أصبحت النجوم تتضاعف في السماء وتتجمع مثل جيش من المتوحشين القساة، تنظر من أعلى وتسخر دون رحمة من الإنسان. لم نعد للحديث ثانية، نحدق كلانا إلى السماء بخوف ورعب. وكل لحظة تزداد النجوم وتشع ليمتد الحريق.

وصلنا أخيرًا إلى الكوخ. لم يكُن لديَّ رغبة في الطعام، جلست على صخرة بقرب البحر، وأشعل زوربا النار وتناول طعامه، وكان على وشك المجيء بقربي لكنه غيّر رأيه في آخر لحظة، وعاد إلى الكوخ وتمدد فوق سريره وغرق في النوم.

كان الهدوء الشديد يهيمن على البحر، وتحت النجوم المتوهجة ترقد الأرض دون حراك، لا نباح كلاب ولا صوت عصافير. كان صمتًا مخيفًا خَطِرًا، كأنه مُشكّلٌ من آلاف الصرخات البعيدة العميقة، حتى إننا لم نستطع أن نسمعها. كنت أسمع هدير الدم يضرب أوردتي وشرايين عنقي.

رحت أفكر أنها أنشودة النمر، تلك التي تتردد هناك في الهند عندما يرخي الليل سدوله، وترتفع الأصوات بأغنية حزينة رتيبة مؤلمة وبصوت مخيف، أُنشودة هادئة متوحشة كأنها تثاؤب حيوان مفترس، أُنشودة النمر!

عندها يرتجف قلب الإنسان ويبحث عن مخرج، وينظر برعب عظيم.

وبينما كنت أفكر بهذه الأنشودة، بدأ قلبي يمتلئ شيئًا فشيئًا، وبدأت الحياة بالعودة إلى أذني، وعلا صوت السكون، كأن الروح قد تشكلت من هذه الأنشودة، وصارت تحاول الهروب من الجسد لتصغي.

انحنيت وملأت راحتي بماء البحر ورطبت جبيني ورأسي، فشعرت بالراحة. ومن أعماق وجودي كانت ثمة صرخات تتجاوب بتوعّد ونفاد صبر. كان النمر في داخلي يزمجر.. ومرة واحدة ملأ هذا الصوت أذني، إنه صوت بوذا. ورحت أسير بسرعة على حافة الماء، كما لو أني أحاول الهرب منذ مدة. عندما أكون وحيدًا في الليل، ويصبح الصمت مخيفًا، أسمع هذا الصوت. بادئ الأمر حزينًا مؤلمًا، ومن ثَمّ يبدأ بالغضب موبخًا آمرًا، ويبدأ برفس صدري كأنه جنين قد حان وقت مغادرته الرحم.

لا بد وأنه كان منتصف الليل؛ إذ إن الغيوم السوداء قد تجمعت في السماء، وبدأت قطرات ثقيلة من المطر تنهمر فوق يدي، لكنني لم أعرها أي

اهتمام، كنت غارقًا في جو محرق، أشعر بأن لهيبًا يخرج من الخصلتيْن المتدليتيْن على صدغي. لا بد وأن الوقت قد حان. رحت أفكر والعجلة البوذية تحملني بعيدًا. لقد حان الوقت لأحرر نفسي من هذا الجنين المعجزة.

عدت بسرعة إلى الكوخ وأشعلت القنديل، وعندما وقع النور على زوربا تحركت جفونه، وفتح عينيه، وراح يراقبني وأنا منكب على الورق غارق في الكتابة. دمدم بشيء لم أستطع أن أفهمه، وعاد واستدار نحو الحائط، وغرق في النوم من جديد. كنت أكتب بسرعة، وعلى عجلة، كان بوذا مستعدًا تمامًا في داخلي، أراه بوضوح وهو ينساب من عقلي كأنه شريط حريري مليء بالرموز، ينسال بسرعة وأنا أبذل أقصى جهدي للحاق به. وأخذت أكتب، كان كل شيء سهلًا بسيطًا. لم أكن أكتب بل كنت أنسخ، كأن عالمًا كاملًا كان أمامي مؤلفًا من: الحنان، المعارضة، الهواء، قصور بوذا، نساء المقصورات، العربة الذهبية، والمصادمات المصيرية الثلاثة: مع الرجل العجوز، مع الرجل المريض، ومع الموت، الهرب، حياة التصوف، والخلاص، وإعلان النجاة. كانت الأرض مغطاة بأزهار صفراء، والفقراء والملوك يرتدون أثوابًا زعفرانية اللون، الصخور، الأشجار، واللحم. كل الأشياء بدت خفيفة.

وتحولت الروح إلى بخار، والبخار إلى روح، والروح إلى لا شيء..

بدأ التعب يسيطر على أصابعي، ولكن لا لن أستطيع أن أتوقف. الرؤيا كانت تمر بسرعة وتختفي، وكان عليَّ اللحاق بها.

وعندما طلع الصباح وجدني زوربا غارقًا في النوم فوق المخطوط.

٦

كانت الشمس قد ارتفعت عندما استيقظت. شعرت أن أصابع يدي اليمنى قد تصلبت بسبب الكتابة لتلك المدة الطويلة، مرّت العاصفة البوذية فوقي وتركتني متعبًا فارغًا.

انحنيت لألتقط الصفحات المبعثرة على الأرض، لم تكُن لدي القوة أو الرغبة حتى لمجرد النظر فيها، كما لو أن ذلك الخيال الآسر كان مجرد حلم، وأتمنى ألَّا أراه سجين الكلمات، حتى لا أصبح ذليلًا لها.

أمطرت السماء بهدوء وسَكِينة، وأضرم زوربا النار في الموقد قبل مغادرته الكوخ، ومكثت جالسًا على ركبتي، مادًّا يدي فوق النار بلا أكل، صامتًا أصغي إلى صوت رذاذ المطر الذي يتساقط على مهلٍ. لم أكن أفكر بأي شيء. كأن عقلي أرادَ أن يخلد إلى الراحة متقوقعًا فوق أرضٍ مبللة، كان باستطاعتي أن أسمع دمدمة حركة الأرض، وانهمار المطر، ونمو الحبوب. كما كنت أشعر بأن الأرض والسماء قد اتحدتا كما في الأزمنة الماضية كرجل وامرأة، لينجبا الأطفال. استطعت أن أسمع هدير البحر أمامي على طول الشاطئ، كأنه وحش مزمجر يمد لسانه ليطفئ عطشه.

شعرت بسعادة حقيقية، لم أكُن أشعر بهذا دائمًا، لكنه عندما يمضي الوقت، نشعر فجأة ودون مقدمات كم كنا سعداء. لكني فوق الشاطئ الكريتي كنت أمر بتلك السعادة وأختبرها بكل تفاصيلها.

كان هذا الخضم الظامئ، ذو اللون الأزرق الداكن، يمتد حتى شواطئ إفريقيا، ما تهب منه ريح جنوبية حارة، وفي الصباح كان البر يرسل رائحة كرائحة البطيخ الأحمر، وعند الظهيرة يغطيه الزبد ويهدأ، وتبدو أمواجه الخفيفة كأنها صدور تعلو وتهبط، وعند الغروب يتنفس الصعداء ويتحول لونه إلى الوردي، ولون النبيذ والباذنجان والأزرق الداكن. بعد الظهر أمضي وقتي وأنا أملأ كفي بالرمل ذي اللون الجميل، ومِن ثَم أدعه ينساب من بين أصابعي دافئًا وناعمًا. إن اليدين هما ساعة رملية – تنساب حياتنا من بين أصابعنا وتضيع إلى الأبد. تضيع وأنا أحدق إلى الخِضَم، وأصغي لزوربا وأشعر بوجهي يتوهج من السعادة.

إني أذكر يومًا، كيف استدارت نحوي ابنة أخي الصغيرة إلكا، وهي في الرابعة من عمرها، وكان عيد رأس السنة، وقالت لي هذه الملاحظة العجيبة:

- عمي الغول، إني مسرورة جدًّا لأنه تُنبَت لي قرون.

لقد دُهشتُ، يا للحياة من معجزة.. كم من أرواح تتشابه عندما تتحد وتمتد أصولها إلى الأعماق. لأني بسرعة تذكرت تمثالًا لبوذا مصنوعًا من الأبنوس شاهدته في أحد المتاحف البعيدة. إن بوذا قد حرر نفسه ليستجم في متعة عارمة بعد سبع سنين من العيش في الأبنوس. وبدأ جانبا جبهته بالانفتاح حتى خرج من تحت الجلد قرنان طويلان. قرنان معقوفان كأنهما «**رقاصان**» من الفولاذ.

وقبل الغروب كف المطر عن الهطول. وبدت السماء صافية. كنت جائعًا، وشعرت بالسعادة لمثل هذا الجوع. لأن زوربا الآن سوف يأتي ويشعل النار ويبدأ عادته اليومية في الطبخ.

كان زوربا يقول دومًا وهو يضع القدر فوق النار:

- هذه قصة أخرى بلا نهاية، ليست المرأة وحدها هي القصة التي لا تنتهي، عليها اللعنة، فالطعام أيضًا لا نهاية له.

ولأول مرة فوق هذا الشاطئ شعرت أن الأكل لذيذٌ حقًّا. كان من عادة زوربا أن يأتي عند المساء ويضرم النار، ويحضر الطعام، لنبدأ في الأكل والشراب، ويتشعب الحديث بيننا. لأول مرة أدرك بأن الطعام شيءٌ روحي، وأن اللحم والخبز والخمر هم المواد الأولية التي يُصنع منها العقل.

كان التعب والإنهاك يبدوان على زوربا بعد يوم طويل من العمل، وبدت الكلمات ثقيلة على لسانه، لا يتكلم إلا إذا انتزعتُ منه الكلمات انتزاعًا. حركاته بطيئة ومكرهة، ولكنه ما أن يبدأ «**بتشغيل المحرك**» ويزوده بالوقود، حتى تبدأ جميع أعضاء جسده بالحركة، وتدب فيه الحياة، وتشع عيناه، ويمتلئ عقله بالذكريات وتلتصق الأجنحة بقدميه ويبدأ بالرقص. نظر إليَّ وقال:

- قُل ماذا تفعل بالطعام الذي تتناوله، أقُل لكَ مَن أنت. بعضٌ يُحوله إلى شحم وخراء، وبعضٌ إلى عمل ومرح، والآخرون كما قيل لي إلى: إله. إذن فهناك ثلاثة أنواع من الرجال وأنا لست من أسوأهم ولا من

أحسنهم، ربما بين الاثنين. فالذي أتناوله أحوله إلى عمل وإحساس بالمتعة، وهذا ليس سيئًا بالمرة.

ونظر إليَّ بخبث وراح يقهقه. ومِن ثَم تابع:

- أما بالنسبة إليك أيها الرئيس، فأنا أظن بأن كل ما تتناوله تسعى لتحويله إلى إله. ولكنك لا تستطيع فعل هذا، وهذا ما يعذبك، وتقع في الخطأ نفسه الذي وقع فيه الغُراب.

- وما الذي وقع فيه الغراب يا زوربا؟

- كان يمشي كما تعلم بشكل محترم، ومنتظم، تمامًا كغراب. لكنه ذات يومٍ خطر بباله أن يتبختر كالحَمَام. فلم يستطع أن يتعلم المشية الجديدةً، بل ونسيَ مشيته القديمة، ولم يَعُد يعرف كيف يمشي فأصبح يعرج.

*

سمعت وقع خطوات زوربا فرفعت رأسي. وبعد لحظات شاهدته يقترب مقطب الجبين، وذراعاه الطويلتان تتأرجحان، وقال بطرف فمه:

- مساء الخير، أيها الرئيس.

- أهلًا أيها العجوز. كيف سار العمل اليوم؟

فلم يرد على سؤالي وقال:

- سوف أضرم النار وأعدُّ الطعام.

تناول حزمة من الحطب من الزاوية وخرج، وضع الحطب بين الحجرين بمهارة وأشعله، ثم وضع القدر فوق النار، وصب داخله بعض الماء ووضع فيه البصل والبندورة وبدأ بالطبخ. ورحت أصب النبيذ من الدورق الكبير في الأقداح الحُمر المزركشة بالرسوم، والتي كان العم أناغنوستي قد أهداها لنا بمناسبة وصولنا.

ركع زوربا أمام الوعاء وراح يحدق إلى النار، دون أن يحرك شفتيه. وسألته فجأة:

- هل عندك أولاد يا زوربا؟

فنظر حوله ثم أجاب:

- لماذا تسأل؟ نعم، عندي ابنة.

- هل هي متزوجة؟

غرق زوربا بالضحك. فسألته:

- لماذا تضحك يا زوربا؟

- ما هذا السؤال! بالطبع متزوجة، فهي ليست غبية. كنت أعمل في منجم نحاس قرب برافيستا، وذات يوم استلمت رسالة من أخي «**ياني**» أوه عفوًا نسيت أن أخبرك بأن لي أخًا يحب الجلوس كثيرًا في البيت، عاقل، مُراب، ويذهب إلى الكنيسة دائمًا. من أعمدة المجتمع الحقيقيين. وعنده دكّان عطارة في سالونيكاف. كتب أخي لي قائلًا:

«**عزيزي ألكسيس. لقد اتّبعت ابنتك فروسو الطريق الخطأ، ولوثت اسمنا، فقد اتخذَتْ عشيقًا، وقد أنجبت منه طفلًا. سُمعتنا قد تحطمت، وسوف أذهب إلى القرية لأذبحها**».

- وأنت، ماذا فعلت يا زوربا؟

هز زوربا كتفيه وقال:

- قلت «**أوف، يا للنساء**». ومزّقت الرسالة.

وحرّك الأرز ووضع بعض الملح وتابع:

- ولكن انتظر سترى الأمر المضحك في هذه القصة.. بعد شهرين أو ثلاثة أشهر، استلمت رسالة ثانية من أخي الأحمق يقول: «**أتمنى لك الصحة والسعادة أيها الأخ العزيز، إن شرفنا بأمان. وبإمكانك أن ترفع رأسك عاليًا الآن، لقد تزوج الرجل المذكور ابنتك فروسو..**».

والتفت زوربا نحوي، وعلى ضوء سيجارته استطعت أن أرى عينيه اللامعتيْن، وهز كتفيه ثانية وقال بسخرية واحتقار لا يوصف:

- أوف، يا للرجال.

وبعد قليل تابع:

- ما الذي ننتظره من المرأة؟ فهي ستهرع إلى أول رجل يأتيها لتنجب منه طفلًا. وما الذي تنتظره من الرجل؟ أن يقع في الفخ. احفظ كلامي أيها الرئيس.

وتناول القدر من فوق النار، وبدأنا وجبتنا. وغرق زوربا في متاهة الأفكار ثانية.

لا بد وأن شيئًا ما كان يزعجه، نظر إليَّ وفتح فمه يريد أن يتكلم، ومن ثَمَّ أغلقه دون أن ينطق بكلمة. استطعتُ تحت ضوء القنديل أن أشاهد النظرة القلقة والفضولية في عينيه. لم أحتمل رؤيته على هذه الحال، فقلت:

- زوربا هل هناك شيء تود أن تخبرني به؟! هيا تكلم. وسوف تشعر بالراحة.

لكنّ زوربا بقي صامتًا، وتناول حجرًا صغيرًا ورماه بقوة إلى الخارج عبر النافذة. فقلت:

- دع هذه الأحجار.. هيا تكلم.

مد زوربا عنقه، وتكلم أخيرًا بقلق محدقًا إلى عيني:

- هل تثق بي أيها الرئيس؟

- أجل يا زوربا، ومهما كان الذي تفعله، فأنت لا تستطيع أن تخطئ. حتى لو أردتَ ذلك، فإنك لن تستطيع، أنت كأسد أو بالأحرى ذئب إن هذه الوحوش لا تتصرف كنعجة أو حمار، إنها تتصرف دومًا بحكم طبيعتها، وأنت كذلك، أنتَ «**زوربا**» حتى نهاية أظافرك.

هز زوربا رأسه وقال:

- لكني لم أَعُد أدري إلى أين نسير.

- أنا أعرف. لا تهتم لهذا. فقط سِر إلى الأمام.

- كرر قولك هذا أيها الرئيس، فهذا يعطيني الشجاعة.

- سِر إلى الأمام.. سِر إلى الأمام.

لمعت عينا زوربا من جديد وقال:

- الآن أستطيع أن أقول لك.. كنت أجهز في رأسي خطة مجنونة خلال الأيام القليلة التي مرت، خطة جهنمية، هل أقوم بها؟

- وهل تسألني؟ ألم نأتِ إلى هنا من أجل تحقيق مثل هذه الأفكار.

حرّك زوربا عنقه ونظر بفرح وخوف، وقال:

- قل لي أيها الرئيس بصراحة. ألم تأتِ إلى هنا من أجل الفحم؟

- إن الفحم كان ذريعة فقط، لنغلق الباب على السكان حتى لا تتكاثر تساؤلاتهم، ولكي يظنوا بأننا مقاولون حتى لا يستقبلونا برشقنا بالطماطم، هل تفهم هذا يا زوربا؟

كان زوربا مشدوهًا محاولًا جهده أن يفهم. فقد كان صعبًا عليه أن يفهم معنى هذه السعادة، وبمثل لمح البصر فهم سريعًا، واندفع نحوي وأمسك كتفي، وسألني بحماس:

- هل ترقص.. هل ترقص؟

- لا.

- لا؟!

كان كما لو أنه لا يصدق أذنه، وأسبل ذراعيه برخاوة. وبعد لحظة قال:

- حسنًا. سأرقص أنا أيها الرئيس. اجلس بعيدًا حتى لا أصطدم بك.

وقفز قفزة كبيرة، واندفع خارج الكوخ وخلع حذاءه وألقى معطفه، وصدريته، وشمّر بنطاله حتى ركبتيه، وثنَى أكمامه إلى أعلى، وراح يرقص. كان وجهه لا يزال ملوثًا بالفحم وعيناه البيضاوان تلمعان.

واندفع كليًّا ليرقص، ملوحًا بيديه قافزًا ودائرًا في الهواء، ثم ساقطًا فوق ركبتيه. وقافزًا مرة أخرى ثانيًا ركبتيه. كان كما لو أنه مصنوعٌ من المطاط.

وفجأة قفز قفزة هائلة في الهواء، كأنه يتحدى قوانين الطبيعة ويطير عاليًا، شعرت بأن المرء عندما يراه يحس أن في داخل ذلك الجسد العجوز روحًا قوية، تحاول أقصى جهدها لتطير به نحو الظلام. تلك الروح التي هزّت الجسد، ومِن ثَم ألقت به ثانية نحو الأرض، لأنه لم يقوَ على البقاء طويلًا

مُعلقًا بالهواء. ثُم هزّته ورفعته من جديد، ولكن هذه المرة أعلى قليلًا، لكنها ودون رحمة أعادته ثانية إلى الأرض منهكًا، بالكاد يستطيع أن يلتقط أنفاسه.

قطب زوربا حاجبيه، وبدت على وجهه علامات القوة. ولم يَعُد يرسل تلك الصرخات. وبأسنان مشدودة كان يحاول أن يصل إلى المستحيل.

وصرخت به:

- زوربا.. زوربا.. هذا يكفي.

خشيت أن جسده العجوز قد لا يحتمل مثل هذه القسوة، ويتناثر إلى آلاف القطع، لتنتشر شظاياه في أرجاء الدنيا الأربع.

ولكن ما فائدة صراخي، وكيف سيسمع زوربا ندائي من الأرض، وقد صار جسده كهياكل الطيور؟ فأخذت أتابع ذلك الرقص الوحشي اليائس بصمت.

في صغري كنت أترك لمخيلتي العنان، وأخبر أصدقائي بأكاذيب كبيرة، وكنت بعد وقت قليل أصدقها أنا أيضًا. ذات يومٍ سألني أحد زملائي في المدرسة:

- كيف تُوفيَ جدك!

وبمثل لمح البصر، اختلقت أسطورة. وكنت بمقدار ما أستمر في اختلاقها، أزداد إيمانًا بها. قلت:

- كان لجدي لحية بيضاء. وكان قد اعتاد أن ينتعل حذاءين من المطاط. وذات يوم قفز من فوق سطح البيت، وما أن لامست قدماه الأرض حتى قفز ثانية مثل كُرةٍ أعلى من المنزل، وراح يعلو ويعلو، حتى اختفى بين الغيوم. هكذا مات جدي.

وبعد اختلاقي لتلك الأكذوبة، وكلما كنت أذهب إلى كنيسة سان ميناس، وأشاهد عند نهاية الهيكل تمثال صعود المسيح، أشير إليه وأقول لرفقائي: «**انظروا هذا هو جدي بحذائيْه المصنوعين من المطاط**».

والآن وفي هذا المساء، بعد أن مرت تلك السنون أشاهد زوربا قافزًا في الهواء! شعرت بأني أعيش تلك الأكذوبة الصبيانية برعب شديد، خوفًا من أن زوربا قد يختفي بين الغيوم وصرخت من جديد.

- زوربا.. زوربا.. هذا يكفي!

وأخيرًا انبطح زوربا على الأرض لاهثًا، وكان وجهه مشرقًا، تبدو عليه السعادة الغامرة، وقد التصقت بجبينه بضع شعرات ممزوجة بقطرات من العرق والفحم، كانت تنساب فوق جبينه وذقنه. انحنيت فوقه بقلق. فصمت قليلًا ثم قال:

- أشعر الآن أني أفضل، أستطيع أن أتكلم الآن.

وعاد إلى الكوخ وجلس بجانب الموقد، ونظر إليَّ ببهجة. فسألته:

- ما الذي أصابك لترقص هكذا؟

- ماذا كنت أستطيع أن أفعل أيها الرئيس؟ وقد كان الفرح يخنقني، وكان عليَّ أن أجد له مخرجًا.. وأي مخرج يصلح لهذا؟ الكلمات؟! لا، بفرح.

- أي فرح؟

أظلم وجهه وارتجفت شفتاه، وقال مستنكرًا:

- أي فرح؟! ما الذي قلته لي منذ لحظة، أهكذا يطير الكلام في الهواء؟ ألم تفهم ما قلته أنت بنفسك؟! قلت بأننا لم نأتِ إلى هنا من أجل الفحم، هذا ما قلته أليس كذلك؟ وقلت بأننا قد جئنا إلى هنا لنمضي الوقت، واستعملنا تلك الذريعة حتى لا يظنوا بأننا مجانين ويرموننا بالطماطم. وبأننا عندما نكون وحيدين لا يرانا أحد نستطيع أن نستمتع بوقتنا ونقهقه. أليس هذا صحيحًا؟ أقسم بشرفي أني كنت أريد هذا أيضًا، ولكن لم أكُن أعلمه تمامًا، كنت أفكر تارة بالفحم وتارة أخرى ببوبولينا. ومرة بكَ، مزيج غريب. وعندما كنت أنقب في أحد الأنفاق قلت لنفسي: «**ما أريده هو الفحم**». ومن رأسي إلى أخمص قدمي تحولت إلى فحم. ولكن بعد أن أنهي العمل وأُحلِّق مع تلك البقرة العجوز في السماء أقول: «**ليذهب كل الفحم والرؤساء إلى الجحيم**». كل هذا من أجل شريطة عنقها العاجي، ولكن عندما أكون وحدي بلا عمل أقوم به، حينها أفكر بكَ أيها الرئيس ويذوب قلبي ويقع ثقل كبير فوق ضميري ويصرخ: «**هــذا عار يا زوربا.. من العار عليك أن تخدع هذا الرجل الطيب وتلتهم أمواله. أستبقى نذلًا؟ هذا يكفي**». أقول لك أيها الرئيس، لم أكُن أعرف لي وجهةً، كان الشيطان يشدني من ناحية،

والله يشدني من ناحية أخرى، فأتمزق بينهما. والآن أيها الرئيس بارككَ الله.. قد قلت شيئًا عظيمًا. أستطيع أن أرى كل شيء بوضوح الآن، لقد رأيت وفهمت واتفقنا، لنتكلم في موضوع أهم. كم تبقّى لديك من النقود، أحضرها كلها، ولننفقها.

مسح زوربا جبينه ونظر حوله. كانت بقايا العشاء لا تزال على الطاولة الصغيرة، فمد يده الطويلة قائلًا:

- بعد إذنك أيها الرئيس. لقد جعت ثانية.

أمسك بقطعة من الخبز وبصلة وبقبضة من الزيتون، وراح يأكل بنهم. ورفع جرة النبيذ دون أن يدعها تمس شفتيه، وراح يعبّ الخمر عبًّا. ومن ثَمَّ لعق شفتيه بلسانه قائلًا:

- إني أشعر بأن همًّا قد أُزيح عن صدري.

ونظر إليَّ بطرف عينه قائلًا:

- لماذا لا تضحك أيها الرئيس، ولماذا تحدق إليَّ هكذا؟! هذا أنا، هناك شيطان في داخلي يصرخ بي قائلًا: «**ارقص.. ارقص**» فأُلبِّي طلبه. وهذا ما يعيد الهدوء لنفسي. عندما توفي ابني الصغير ديميتراكي، في شالميدس، نهضت كما فعلت اليوم واندفعت لأرقص. عندما رآني أصدقائي وأقربائي أرقص أمام الجسد المسجى، اندفعوا نحوي يحاولون إيقافي. وراحوا يصرخون: «**لقد جن زوربا. لقد جن زوربا**». لكني في الحقيقة لو لم أرقص لكنت جننت حقًّا من الحزن. لأنه كان ولدي البكر وقد بلغ الثالثة من عمره. أتسمع ما أقول أيها الرئيس أم أني أكلم الحائط؟!

- إني أسمع.. أسمع. كلا، إنك لا تكلم الحائط.

- ومرة ثانية.. كنت يومها في روسيا بالقرب من بلدة تُدعى «**نوفوروسيسك**» نعم لقد ذهبت إلى هناك أيضًا، من أجل مناجم النحاس. كنت قد تعلمت خمس أو ست كلمات روسية، كانت هي كل ما يعوزني من أجل عملي: «**لا، أجل، خبز، ماء، تعال، كم**» حينها عقدت صداقة مع أحد الروس البلشفيين المتحمسين، وأصبحنا كل مساء نتوجه إلى حانة المرفأ، وفي إحدى الأمسيات شربنا عدة كؤوس

من الخمر والفودكا حتى ثملنا، عندها انفكت عقدة لساننا، هو يحاول أن يقصَّ عليَّ كل ما جرى له في أثناء الثورة الروسية، وأنا أريد أن أخبره بكل الحوادث التي مررت بها.. فقد شربنا معًا وأصبحنا أصدقاء كما ترى، كأننا أخوان. كان من الصعب على أحدنا أن يفهم كلمات الآخر. وأخيرًا استطعنا أن نفهم بالحركات، بدأ هو الكلام أولًا، وعندما أعجز عن الفهم أصيح به: «قِف»، فينهض عندئذ ليبدأ بالرقص.. أتدرك هذا أيها الرئيس. يقول كل شيء لي بالرقص، وهذا ما فعلته أنا أيضًا، فكل شيء لم نستطع أن نقوله بلساننا وشفاهنا كنا نعبر عنه بأرجلنا وأيدينا وبجميع أعضاء جسدنا، حتى بصيحاتنا الوحشية. هاي.. هاي.. هو بلا.. هو.. هي. وبدأ الروسي يحكي كيف حملوا البنادق، وكيف انتشرت الحرب، وكيف وصلوا إلى نوفوروسيسك، وعندما لا أستطيع متابعته أصرخ: «قف» فيتوقف الروسي فورًا عن الكلام، ويندفع رقصًا. يرقص كأنه مجنون، وأنا أراقب يديه، قدميه، صدره وعينيه، وأفهم كل شيء.. كيف دخلوا المدينة وفتكوا بأعيانها. كيف سرقوا المحلات. ونهبوا المنازل، وكيف اختطفوا النساء. في البداية أخذن ينتحبن، عاهرات، ثم حاولن خدش وجوه الرجال، فإنهن شيئًا فشيئًا كانت تخف مقاومتهن، ويغمضن أعينهن، ويبدأن بالأنين من المتعة واللذة، يا للنساء! وبعد ذلك جاء دوري.. عندما بدأتُ بكلماتي الأولى، وربما لأنه كان ثقيل السمع أو لأن رأسه كان لا يعمل تمامًا؛ صرخ بي: «قف». بالحقيقة كنت أنتظر هذا بفارغ الصبر، قفزتُ، وأخليت المكان من الكراسي والطاولات.. وبدأت الرقص. آه يا صديقي المسكين.. كل الرجال غرقوا، وانكمشوا في أنفسهم، أخذهم الشيطان، لقد أصبحت أجسامهم خرساء، يتكلمون بأفواههم فقط.. ولكن ما الذي تنتظره من الفم أن يقوله؟ ما الذي يستطيع أن يعبر عنه؟ لو كنت فقط تستطيع أن تشاهد ذلك الروسي الذي كان يصغي إليَّ من رأسي إلى أخمص قدمي، وكيف كان يتابع كل حركة، رقصتُ مصائبي.. رحلاتي.. وكم مرة تزوجت.. المهن التي تعلمتها.. بائع متجول، حداد، فخّاري، مرتزق، عازف سانتوري، رجل عصابات.. وكيف دخلت إلى السجن، وكيف هربت، وكيف وصلت إلى روسيا. ورغم صممه بدا أنه كان يفهم كل شيء. قدماي ويداي تكلمتا، كذلك شعري وثيابي، وحتى

خنجري المربوط إلى حذائي تكلم أيضًا. وعندما انتهيت ضمّني الرجل المجنون إلى صدره بشدة، وملأ الكؤوس ثانية، بكينا وضحكنا وكلٌّ منا بين ذراعيْ الآخر. وعند انبلاج الفجر ذهب كلٌّ منا إلى فراشه ونحن نترنح، وعند المساء التقينا من جديد. هل تضحك مني؟ ألا تصدق أيها الرئيس؟ لا بد وأنك تقول لنفسك ما هذه الأساطير التي يرويها هذا السندباد البحري! هل من المعقول أن يتكلم أحد بواسطة الرقص؟ أما أنا فأقسم بأنها الطريقة الوحيدة التي تتفاهم بواسطتها الآلهة والشياطين. ولكني أرى بأنك نعسان.. هيا اذهب لتنام. وغدًا سوف نتحدث عن هذا ثانية. عندي مشروع، مشروع رائع. سوف أكلمك عنه غدًا. سوف أدخن سيجارة ثانية، وربما سوف أستحم في البحر أيضًا. أشعر كما لو أني فوق النار ويجب أن أطفئها. تصبح على خير.

حاولت النوم ففشلت، إن حياتي قد ضاعت، رحت أفكر لو أستطيع أن أتناول قطعة من الإسفنج وأمحو كل الذي تعلمته وشاهدته وسمعته، لأذهب إلى مدرسة زوربا وأتعلم «**الأبجدية**» الجديدة، يا لهذه الطريقة العجيبة التي سأتبعها. سوف أفهم بحواسي الخمس، وكل جسدي. سأتعلم كل شيء. أركُض، أُصفِّر، أَسبَح، أَمتطي الخيول، أُجدِّف، أقود سيارة، وأطلق الرصاص. سوف أملأ روحي بالجسد، وأملأ جسدي بالروح. سأجمع أخيرًا بين هذين العدوين الأبديين.

كنت جالسًا فوق فراشي أفكر بحياتي التي ضاعت هباءً، ومن خلال شق الباب استطعت أن أرى زوربا تحت ضوء النجوم جالسًا على إحدى الصخور مثل طائر ليلي، كنت في نفسي أحسده.. إنه هو وحده الذي استطاع أن يكشف الحقيقة. ويعرف طريقها المستقيم.

لو كان زوربا يعيش في عصر بدائي لكان زعيم قبيلة، لكان يتقدم الجموع، ويشق طريقه بفأسه. أو ربما سيكون شاعرًا يتجول بين الحصون والقصور، يحفظ الجميع أشعاره.. السيدات، والسادة، وحتى العبيد. أما في عصرنا الحاضر فإن زوربا يتنقل جائعًا حول البساتين، كأنه ذئب. أو ينحدر ليصبح مهرجًا لكاتب فاشل.

نهض زوربا فجأة ورمى ثيابه فوق الأرض وقفز إلى البحر، ولعدة لحظات وتحت ضوء القمر الشاحب، استطعت أن أرى رأس زوربا يظهر ويختفي في الماء. وبين الفينة والفينة كان يرسل صرخات عالية. ينبح، ويصهل أو يصيح كالديكة، إن روحه في تلك الليلة الفارغة ارتدَّت إلى أصلها الحيواني الحر.

ثم بهدوء ودون أن أشعر غلبني النعاس وغرقت في النوم، وعند أول ضوء للنهار رأيت زوربا مرتاحًا ومبتسمًا، وقد جاء يشدني من قدمي وهو يقول:

- هيا انهض أيها الرئيس. دعني أعترف لك بمشروعي. هل تنصت إليَّ؟

- أجل إني مُصغٍ.

جلس على الأرض متربعًا، وراح يشرح لي كيف سنصنع مشدًّا من أعلى الجبل إلى أسفل الشاطئ. وبهذه الطريقة نستطيع أن نأتي بالأخشاب التي نحتاج إليها لأجل الأنفاق، والباقي نبيعه ليُستعمل في بناء المنازل. كنا بالفعل قد قررنا أن نستأجر غابة صغيرة تخص الدير، ووجدنا أن نقل الخشب من أعلى الجبل إلى الشاطئ كثير الكلفة، كما أننا لا نجد البغال الكافية لذلك. وهكذا قرر زوربا أن نبني مشدًّا بالحبال الضخمة والأعمدة مع بضع بكرات. سألني:

- هل توقع بالموافقة؟

- سأوقع يا زوربا، فأنا موافق.

أضرم النار في الموقد ووضع الرُّكوَة فوق الجمر وبدأ بتحضير قهوتي. ووضع غطاءً فوق قدمي حتى لا أصاب بالبرد وراح يكمل:

- سوف نحفر نفقًا جديدًا اليوم. لقد وجدت عِرقًا رائعًا. عرقًا ماسيًّا أسود.

فتحتُ مخطوطة بوذا، وبدأت العمل في أنفاقي الخاصة. كتبت كل النهار. وكلما تقدمت كنت أشعر بالتحرر. كانت مشاعري مختلطة، فرح، وكبرياء، واشمئزاز. ولكني تركت نفسي مستسلمًا للكتابة. لأني علمت بأني ما أن أنتهي من تلك المخطوطة حتى أصبح حرًّا.

كنت جائعًا تناولت بعض حبات الزبيب والمشمش وقطعة من الخبز. كنت بانتظار عودة زوربا ومعه كل الأشياء التي تعيد المتعة إلى قلب

الإنسان. الابتسامة الصافية، الكلمات اللطيفة، والأطباق اللذيذة.

وأخيرًا عند المساء ظهرَ وأعدَّ الطعام. أكلنا معًا، لكنّ عقله كان في مكان آخر. ركع وتناول بضعَ قطع من الخشب وزرعها في الأرض ومد خيطًا بينها وهو يحاول تحديد الميل اللّازم، حتى لا يتهدم كل شيء ويتحول إلى حطام، ومِن ثَم راح يشرح لي:

- إذا كان الحبل مائلًا أكثر من اللازم سوف نُفسِد كل شيء، وإذا كان أقل من اللازم سوف نُفسِده أيضًا، يجب أن نصل إلى الميل المناسب، ولذلك أيها الرئيس يجب أن يكون لدينا الكثير من الذكاء والخمر.

فقلت ضاحكًا:

- لدينا الخمر، أما الذكاء!

وانفجر زوربا ضاحكًا وجلس على الأرض وأشعل سيجارة، وبدا أن روحه المرحة قد عادت إليه وعاد لثرثرته:

- إذا نجح هذا المشد فسوف نأتي بكل الغابة إلى الشاطئ، وعندها نستطيع أن نبني مصنعًا، ونضع ألواحًا وأعمدة، سوف نجمع الكثير من المال. ونبني مركبًا بثلاثة أشرعة ونحزم أمتعتنا ونرمي حجرًا خلفنا ونبحر حول العالم.

والتمعت عينا زوربا، وامتلأتا بنساء، ومدن بعيدة، ومنازل كبيرة، وأنوار. فقلت له:

- ما أوسع آمالك يا زوربا؟

- أيها الرئيس إن أسناني بدأت تتساقط. أما أنت فما زلت شابًّا. ولذلك تستطيع أن تنتظر. أعترف بأني كلما كبرت، ازددت وحشية واشتهاءً. لن أسمح لأحد بأن يقول لي أن كبر العمر يجعل الرجل مستقيمًا، أو أن الرجل الكبير عليه حين يلقى الموت أن يقول له: «**هيا اقطع عنقي لكي أذهب إلى السماء**». فكلما طال عمري، ازددت ثورة، لن أستسلم أبدًا.. أريد أن أغزو العالم.

ونهض وتناول السانتوري من على الحائط وهو يقول له:

- اقترِب أيها الصديق، بالله عليك ما الذي تفعله على الحائط؟ دعنا نسمع شَدْوك.

لم أكُن أشبع من النظر إلى زوربا. بأي طريقة وأي نعومة وهدوء راح يخلع عن السانتوري غطاءه. بدا وكأنه يقشر تينة، أو يعري سيدة من ثيابها.

وضع السانتوري على ركبتيْه، وانحنى فوقه، وبخفة لامس الأوتار كما لو أنه يستشيرها أي لحن يجب أن يغني! كأنه يتضرع إلى السانتوري لكي يستيقظ، ويحاول معه بلطف ليستميل روحه المعذبة من العزلة. جرب أغنية لكنها لم تكُن صحيحة، فتركها وجرب أخرى، فأنّت الأوتار كأنها لا تود الغناء. اتكأ زوربا على الحائط ومسح جبينه الذي فجأة بدأ يتصبب عرقًا. وتمتم وهو ينظر إلى السانتوري بتعب قائلًا:

- إنه لا يريد.. لا يريد.

أعاد السانتوري إلى غطائه، ولكن هذه المرة بحذر الخائف الوجل، كأنه يلف وحشًا كاسرًا يخشى أن يلتهم أصابعه، وأعاده إلى مكانه على الجدران متمتمًا مذهولًا:

- إنه لا يريد.. لا يريد. وإذا كان كذلك فيجب ألَّا نزعجه.

ثم جلس على الأرض، وحرك جمر الموقد ووضع بينهما بعض ثمار الكستناء، وقدمها لي قائلًا:

- أتفهم أنت شيئًا أيها الرئيس؟ أما أنا فلا. إن كل شيء له روحه الخاصة، الخشب، الحجر، الخمر الذي نعبّه، والأرض التي نسير فوقها.. لكن لا بأس، نخب صحتك.

جرع كأسه دفعة واحدة، بينما غرقتُ في الضحك، وتابع قائلًا:

- يا لهذه الدنيا من فاجرة.. إنها مثل الأم بوبولينا.. لا. لا تسخر أيها الرئيس. هذا صحيح. الدنيا مثل الأم بوبولينا تمامًا، عجوز هرمة.. ومع هذا فلا يزال فيها ما يشوّق.. فعندها من الألاعيب ما يجعلك تُجنّ.. عندما تغمض عينيك يخيل إليك أنك تضم بين ذراعيك فتاة في العشرين. أقسم لك يا رفيقي في العشرين.. فقط يجب أن تكون مُستعدًا، حيث تكون الأنوار مطفأة.. قد تراها عجوزًا نصف ميتة، لكن لا، فقد عاشت حياة عاهرة، تعهرت مع قباطنة، وبحّارة، وجنود،

ومزارعين، وبائعين، وكهنة، وصيادين. وغيرهم... وغيرهم، وما الضير في ذلك؟ ثم ماذا بعد! فهي تنسى بسرعة، الفاجرة لا تحتفظ ذاكرتها بأحد من عشاقها، فهي تعود لطبيعتها دائمًا ـ أنا لا أمزح ـ تعود حمامة حلوة، بجعة نقية، يمامة بريئة، وتحمّر خجلًا، كأنها أول مرة، نعم أقسم لك إنها تحمّر خجلًا.. يا للمرأة من سر غريب مجهول! إنها تسقط ألف مرة، لكنها تعود عذراء من جديد.. ستسألني كيف ذلك؟ بكل بساطة لأنها تنسى.

أردت أن أغيظه، فقلت له:

- ولكن الببغاء لا ينسى يا زوربا، فهو دائمًا يصرخ باسم آخر وليس باسمك أنت. ألا يغضبك هذا؟ تصل معها إلى ذروة السماء السابعة، وفي اللحظة نفسها تسمع الببغاء هاتفًا «**كانافارو.. كانافارو**». ألا تتمنى أن تمسكه وتدق عنقه حينها؟ لقد آن الأوان أن نجعله يصرخ «**زوربا... زوربا**».

نجحت محاولتي وصاح زوربا وهو يسد أذنيه الطويلتين:

- آه.. لا.. آه.. يا لك من رجعي! لماذا تريد أن أدقّ عنقه؟ بل إني أحب سماع صوته وهو يصرخ بهذا الاسم، خاصةً حين تعلقه الفاجرة في الليل فوق فراشها، وما أن يرانا في الظلام بعينيه الحادتين، وقد انهمكنا في المضاجعة، حتى يصيح النذل «**كانافارو.. كانافارو**». وبسرعة، أقسم لك أيها الرئيس ـ ولكن كيف يمكنك أن تدرك ما أقوله بعد أن أفسدتك الكتب ـ أجل أقسم لك عندما يصرخ ذلك الببغاء اللعين، أشعر بأن حذاءين لامعين وضعا في قدمي، وأحس بريش الأميرالات فوق رأسي، وبلحية كثة ناعمة تلتصق بذقني.. صباح الخير.. مساء الخير.. أتحب المعكرونة.. نعم.. أتحول إلى كانافارو حقيقي، وأعتلي بارجتي المثقوبة ألف ثقب. والنار في الأتون، وتُطلَق المدافع.

وغمز زوربا بعينه بخبث وعلت قهقهته وأردف:

- اعذرني أيها الرئيس، فأنا أشبه جدي ألكسيس رحمه الله، فقد كان كل مساء يجلس أمام باب منزله وكان قد بلغ المائة من العمر، ليتابع بنظره الضعيف الشابات المتوجهات إلى العين. وما أن يراهن حتى

يهتف: تقدمي.. تقدمي.. من أنت؟ لينيو ابنة ماستراندوني؟ إذن اقتربي كي ألمسكِ، لا تخشي شيئًا... فتتمالك الصبية نفسها حتى لا تنفجر بالضحك، وتقترب، فيمد جدي يده ليلمس وجهها بهدوء ونهم، وتنهمر الدموع من عينيه. دفعني فضولي مرة وسألته: «**لماذا تبكي يا جدي؟**». فتنهد قائلًا: «**ألا تظن معي بأن هناك ما يدعو حتى للعويل يا ولدي، فأنا على شفرة الهاوية تاركًا ورائي كل هذا العدد من الشابات الجميلات**».
آه.. يا جدي المسكين.. أنا الآن أفهمك، كثيرًا ما أحدث نفسي قائلًا: «**يا للتعاسة، لو أن كل النساء والفتيات الجميلات يهلكن في اللحظة نفسها التي أغيبُ فيها عن هذه الدنيا**». لكن العاهرات سيعشن ويتمتعن، ويرتمين في أحضان الرجال، يُقبِّلون شفاههن، أما زوربا فيكون تحت التراب تدوسه النعال!

وتناول بضع حبات من الكستناء من النار، وقرعنا قدحينا، وجلسنا طويلًا على هذه الحال، نأكل أرنبتين كبيرتين، ونصغي لهدير البحر في الخارج.

٧

لبثنا قرب الموقد إلى ساعة متأخرة من الليل، وشعرت ثانية بالسرور في هذا الجو من البساطة: بضعة أقداح من الخمر، وبضع حبات من الكستناء، ومدفأة قديمة، وصوت البحر، هذا كل شيء. ليشعر الإنسان بكل هذه السعادة، فيجب أن يكون عنده كنز القناعة، سألت زوربا:

- زوربا كم مرة تزوجت؟

كنا قد انتشينا بعض الشيء، ليس من الخمر، بل بسبب السعادة العارمة التي كانت تعتمل داخلنا. لم نكن إلا حشرتين طفيليتين زائلتين، نتشبث بقشور الأرض، نشعر بسعادة ونشوة، كلٌّ منا على طريقته. فلقد وجدنا ركنًا صغيرًا على الشاطئ، علف القصب والألواح، وبقايا الصفائح حيث كنا نجلس ملتصقين، وبقربنا مناظر رائعة، لدينا الطعام، وفي داخلنا السكون والحب والسلام.

لا بد وأن زوربا لم يسمع سؤالي. بدا وكأنه قد غرق في خضم بعيد لا يصله صوتي. مددت يدي ونكزته بإصبعي وكررت سؤالي:

- زوربا.. كم مرة تزوجت؟

سمعني هذه المرة.. فانتفض وهز رأسه قائلًا:

- أوه.. ما الذي تحاول الوصول إليه الآن؟ أنا رجل في النهاية، ولذا وقعت في «**الحماقة الكبرى**»، هذا ما أُسمِّي به الزواج، فليغفر لي جميع المتزوجين.

- حسنًا، كم مرة ارتكبت حماقتك؟!

مد يده ليحك رأسه بانفعال، وقال:

- تسأل كم مرة؟ إذا كنت تعني الزواج بشرف، فقد تزوجت مرة واحدة.. بصدق مرة واحدة. أما إذا كنت تعني الزواج بنصف شرف، فقد تزوجت مرتين. وبلا شرف، عشرات ومئات وآلاف، كيف تحب أن يكون الحساب؟

- تكلم.. تكلم يا زوربا فغدًا الأحد، وليس وراءنا شيءٌ. سوف نحلق ذقوننا، ونرتدي ثيابًا نظيفة لنذهب عند الأم بوبولينا، وليس لدينا ما نفعله غير هذا غدًا، نستطيع أن نسهر كيف نشاء.

- أكلمك عن ماذا؟ فليس لدي شيء أخبرك به! فالارتباطات المقدسة ليس لها مذاق، كأنها دون توابل! أأكلمك وأقول لك بأن اللثم والتقبيل ليس له أي لذة عندما تكون أيقونات القديسين معلقة خلفك على الحائط ونظراتهم تحدق إليك ليمنحوك البركة. فهناك في قريتنا مثلٌ يقول: «**اللحم لن يكون لذيذًا إلا إذا كان مسروقًا**» والزوجة الحقيقية ليست مسروقة. أما الارتباطات غير الشريفة.. كيف تريدني أن أحصرها؟ هل تحمل الديوك دفاتر لتسجل كم مرة وطأت الدجاج؟! أتتخيل.. عندما كنت شابًّا كنت آخذ بضع شعرات من كل فتاة أضاجعها، كنت أحمل دائمًا مقصًا صغيرًا لهذا السبب. وحتى عند ذهابي إلى الكنيسة، أحتفظ دائمًا بالمقص في جيبي. فنحن رجال.. من يدري ما الذي سيحدث.. أليس كذلك؟ أجل كنت آخذ بضع شعرات من كل فتاة، حتى أصبح عندي خُصَلٌ من جميع ألوان الشعر، الأسود، والأشقر والكستنائي، وفي بعض الأحيان الأبيض. ولكثرة الخصلات التي جمعتها فقد حشوت بها وسادة صغيرة، وبعد زمن بسيط فاحت منها رائحة نتنة، فأحرقتها.

وغرق بالضحك وعاد ليقول:

- كان ذلك دفتري الذي أسجل عليه، وأحرقته بعد أن مللت منه. ظننت بأني لن أجمع كثيرًا، لكنه تبين لي بعد ذلك أن الأمر لا ينتهي إلا بموتي. عندها ألقيت بالمقص.

- وماذا عن الزيجات نصف الشريفة؟

فأجاب زوربا ساخرًا:

- آه، هذه كلها سحر، يا للنساء السُلافيات، وآه من الحرية الفائقة، فهن لا يسألن أبدًا «**أين كنت؟ أين نمت؟ لماذا تأخرت؟**» لا يسألن عن أي شيء، وبدورك لا تضطر إلى سؤالهن عن أي شيء. يا لها من حرية، حرية كاملة.

ومد يده فصبَّ كأسًا وأخذ ثمرة كستناء وقشرها، كان يتكلم ويمضغ في الوقت نفسه:

- تعرفت إلى اثنتين منهن، الأولى تُدعى «**سوفنكا**» والثانية «**نوسا**» قابلت «**سوفنكا**» في قرية كبيرة قرب «**نوفوروسيسك**» في فصل الشتاء، حين تتساقط الثلوج الناعمة. كنت أفتش عن وظيفة في أحد المناجم، توقفت في هذه القرية، وكان يوم السوق. وقد توافد الرجال والنساء من كل القرى القريبة للشراء والبيع والتجارة. في ذلك الحين كانت هناك مجاعة صعبة وقاسية، وبرد شديد، جعلت الناس يبيعون كل ما يملكون، حتى أيقوناتهم، ليحصلوا على الخبز. وبينما أتجول بحثًا عن عمل في هذه القرية، عندها لمحتُ شابة يافعة تقفز من عربة صغيرة، شابة مرحة طويلة، لها عينان زرقاوان كزرقة السماء، وردفٌ كالفرس. ذهلت عندما وقع نظري عليها وتمتمت: «**زوربا.. يا لك من مسكين، لقد هلكت**». ورحت أسير خلفها وأحدق إليها، كي أشبع من جمالها الذي لا يُشبَع منه. آه لو رأيت ردفيها اللذين يهتزان كأنهما أجراس الفصح. وتساءلتُ في سرّي: «**لماذا أرهق نفسي بالبحث عن المناجم، لأعمل فيها؟ ها هو ذا منجمي أمامي، الذي سأحفر فيه نفقي**». توقفت الصبية قرب أحد البائعين لتشتري الحطب، ومدت يديها لتمسك الأعواد وتضعها في العربة. آه يا لذراعيها. ثم ابتاعت بعض الخبز والسمك المقدد، وسألت عن الحساب، وقد مدت يدها لتتناول فردة حلق من أذنها لتدفع ثمن ما اشترت. لم تكُن تملك مالًا بالمرة. عندها فارَ دمي. فكيف أدعها تدفع بهذه الطريقة؟ أتدفع حُليها وعطورها وزجاجها الخزامي؟! لو دفعت بهذه الطريقة لضاع هذا العالم؟ كأنك تنزع عن الطاووس ريشه! ألك قلب لتنزع ريش الطاووس؟! كلا.. كلا.. فما دام زوربا على قيد الحياة فلن يحدث هذا أبدًا. وتناولت كيسَ نقودي الممتلئ بالروبلات الورقية، كان الروبل حينها لا يساوي الورقة المطبوع فوقها، تدفع مائة روبل لتشتري بغلًا، وعشرة روبلات تشتري امرأة. ودفعت النقد بدلًا من حلق الفتاة. فالتفتت نحوي وانحنت على يدي لتُقبِّلها، ولكني سحبتها بسرعة. ماذا.. أتظنينني قسيسًا؟ وهتفتْ: «**سباسيبا.. سباسيبا**» أيْ «**شكرًا.. شكرًا**» وقفزت إلى عربتها وتناولت السوط ورفعته لتلسع

الحصان. لكني قلت في نفسي: «**زوربا أيها الكهل، ستختفي وتهرب منك ولن تراها أبدًا**» وقبل أن يسقط السوط على الحصان المسكين كنتُ بجوارها. لم تهتم لركوبي بقربها، بل حتى لم تلتفت إليَّ. وطار الحصان. وفي طريقنا أفهمتها بأني أريد أن أتخذها زوجة، وهمست هي بكلمات كيفما أتفق. كان نصفها روسي ولم أَعُد أذكر ما كان نصفها الآخر. ولكنه في مثل هذه الحالات لا يحتاج الإنسان إلى الكلام، دار الحديث بيننا بالأعين والأيدي والركب، وصلنا أخيرًا إلى القرية ونزلنا من العربة، ضربت الفتاة الباب بكتفها فانفتح ودخلنا. حملت الحطب إلى الباحة قرب المنزل، وحملنا السمك إلى داخل الغرفة، حيث كانت تجلس عجوز نحيلة قرب المدفأة التي لم تكُن تشتعل فيها النار. كانت العجوز ترتعش من شدة البرد، فاقتربتُ من المدفأة وملأتها بالحطب وأضرمت النار. فرفعت العجوز رأسها وابتسمت وهمست الفتاة في أذن العجوز ببضع كلماتٍ جعلت ابتسامتها تزداد وتتسع. لكني لم أفهم شيئًا مما قالته. وما أنً أحست العجوز بالدفء حتى عاودتها الحيوية من جديد. خلال هذا الوقت كانت الفتاة قد حضّرت المائدة وأتت بقليل من الفودكا. تناولنا الطعام وشربنا الفودكا، ثم أعدت لنا الشاي وقدمت منه للعجوز. وبخفة عجيبة غيرت أغطية السرير وأعدته للنوم، ثم أشعلت فوقه القنديل الذي كان قرب أيقونة العذراء، وصلّبت على صدرها ثلاث مرات. ثم أشارت إليَّ لأقترب من العجوز فركعنا أمامها ولثمنا يدها. ومِن ثَم وضعت العجوز يديها فوق رأسينا وتمتمت ببضع كلمات لم أفهمها. ولكني علمت بأنها قد منحتنا البركة. فشكرتها بالروسية، وبعد دقائق كنتُ مع الفتاة في الفراش.

ساد السكون لحظةً، كان زوربا خلالها سارحًا في الأفق البعيد. ثم أردف بإيجاز:

- كان اسمها «**سوفنكا**».

ولكني كنت أنتظر بفارغ الصبر أن يتابع قصته، فسألته:

- تابع.. ثم ماذا؟

- لا يوجد هناك «**ثم**» و«**لماذا**» في مثل هذه المواقف، يجب ألَّا نتكلم، فالمرأة نبعٌ باردٌ عذب، فما أن تنحني فوقها وترى وجهها حتى تنهل وتنهل، حتى ترتوي. وبعد أن تنتهي يأتي دور غيرك وقد أهلكه الظمأ، فينحني بدوره وينهل، حتى يشبع، ثم شخص ثالث وهكذا. نعم فالمرأة ليست إلا نبعًا لا ينضب.

- نعم، ولكن ماذا فعلت بعد ذلك؟ أتركتها؟

- ما الذي تريدني أن أفعل؟ كما قلت لك، المرأة نبع لا ينضب، وأنا عابر سبيل، فرجعت إلى الطريق بعدما لبثت معها ثلاثة أشهر تقريبًا. عادت لذاكرتي فكرة البحث عن المنجم، فقلت لها: «**سوفنكا لدي عمل يجب أن أقوم به، لذلك يجب أن أذهب**». فأجابت: «**حسنًا سأبقى بانتظارك شهرًا كاملًا. فإن لم ترجع، أكُن في حلٍ من أمري وأصبح حرة، وأنت أيضًا. في أمان الله**».

- وبالطبع رجعت إليها بعد شهر، أليس كذلك؟!

لكنّ زوربا نظر إليَّ مستنكرًا:

- أظنك أبله أيها الرئيس، عفوًا. وهل يتركنك النساء لتهدأ؟ الفاجرات.. فبعد عشرة أيام في «**كوبان**» تعرفت إلى نوسا.

- هيا.. حدثني عنها.. تابع.

- حسنًا لكن علينا ألا نخلط بينهن، يا لهن من تعيسات، نخب سوفنكا.

وقرع قدحه في قدحي، وجرعه دفعة واحدة وأسند ظهره إلى الجدار وتابع:

- حسنًا، سأروي لك قصة نوسا أيضًا، فرأسي ممتلئ هذه الليلة بروسيا، لذلك سأقول لك كل شيء.

ومد يده إلى شاربه ومسحه قائلًا:

- تلك الأخيرة تعرفت إليها كما قلت لك في إحدى قرى «**كوبان**» وقتها كان فصل الصيف قد بدأ، فشاهدت تلالًا من البطيخ الأحمر والأصفر، فأخذت واحدة وقسمتها نصفين ورحتُ ألتهمها، دون أن يعترض أي شخص بكلمة واحدة، فكل شيء في روسيا وفير ومباح أيها الرئيس، ليس فقط البطيخ، كل شيء السمك، الزبد، والنساء.

فقد تشاهد بطريقك بطيخة فتتناولها، وقد تشاهد فتاة فتتناولها أيضًا. ليس مثل اليونان، حيث لا تحاول أن تأخذ من أحدهم مجرد قشرة بطيخ، حتى يُقيم عليك الدعاوي ويسحبك للسجن. وما أن تمس فتاة حتى يبادر أخوها ليتناول سكينًا ليقطع لحمك كما يقطع الكفتة. يا لهم من بخلاء.. لا يعرفون للكرم طريقًا.. لماذا لا يذهبون إلى روسيا ليشاهدوا كيف يكون السادة الكرام؟! كنتُ مارًّا إذن في «**كوبان**» ورأيت امرأة في أحد الحقول فأعجبتني، يجب أن تعرف أيها الرئيس أن المرأة السلافية ليست كاليونانيات النحيفات اللواتي تشتري منهن الحب، فيعطينه لك بالقطارة، ويحاولن أن يقدمن لك أقل مما يجب، ويهضمنك حقوقك. أما السلافيات فيقدمن كل شيء ويعطين كل ما عندهن في كل شيء: النوم، الطعام، الحب. فهن أشبه بالأرض، تَمنحُ، وتعطي كثيرًا، ودون مقابل. لا كاليونانيات يساومنك طويلًا ويمنحن أقل ما يمكن. المهم.. اقتربت منها وسألتها عن اسمها، فقد كنت تعلمت بعض الكلمات الروسية مع النساء. فأجابت «**نوسا**» وسألتني عن اسمي وأجبتها «**ألكسيس**» فقلت لها بأنها قد أعجبتني كثيرًا. فنظرت إليَّ بإمعان كما يتفحص الرجل حصانًا يريد شراءه، وقالت: «**أنت أيضًا تعجبني، تبدو قويًّا، فأسنانك متينة، وشارباك كبيران، وكتفاك عريضتان، ويداك قويتان، أنت تعجبني أيضًا**». ولم نزد أي كلمة فلم نكُن بحاجة إلى ذلك، وفي برهة وجيزة اتفقنا. وكان عليَّ أن أذهب إلى بيتها مرتديًا ثياب الأحد. وفي أحد الأيام سألتني «**أعندك قطعة فرو**» فأجبتها متعجبًا: «**في هذا الحر؟**». فردت بتصميم: «**لا يهم الحر، أحضرها فيجب أن تبدو ثريًّا**». وعند المساء وضعت عليَّ أجمل ثيابي كأني عريسٌ جديد، وأخذت الفرو على يدي وتناولت عصا فضية كانت عندي، وتوجهنا نحو بيتها، كان منزلها عبارة عن بيت قروي كبير، فيه باحات للأبقار وللمعاصر، والنار تشتعل في وسطه، وقدور كبيرة فوق النار، واحدة يغلي فيها عصير البطيخ الأحمر، والثانية يغلي فيها عصير البطيخ الأصفر. أتسمع أيها الرئيس.. نوعان من عصير البطيخ. أجل إنها الأرض المنتظرة.. نخب صحتك.. أما نحن فقد وجدنا أنفسنا كجرذان قرب قطعة من الجبن. وصعدت درجات السلم الخشبي القديم حيث كان والدا نوسا يقفان مرتديَيْن أثوابًا خضراء وحمراء، ويعتمران قبعات واسعة. وما أن وقفت أمامهما حتى

فتحا ذراعيهما وضمَّاني إلى صدريهما، وبدأ التقبيل من هنا وهناك حتى امتلأ وجهي لعابًا. وبدأ حديثهما بسرعة فلم أستطع متابعة ما يقولان، ولكني أدركت من حركاتهما بأنهما لا يريدان بي شرًّا. دخلتُ الصالة الواسعة حيث كانت الموائد تملؤها. وعلى الموائد جميع أنواع الطعام والشراب، وقد وقفت حولها النساء والرجال والأطفال، ووسطهم جلست «**نوسا**» بأجمل حُلة وزينة، وقد طرزت فوق قلبها مباشرة صورة منجل ومطرقة، وعقدت ضفائر شعرها بمنديل أحمر. ما أن وقع نظري عليها حتى سال لعابي عليها وتمتمت محدثًا نفسي: «**زوربا.. يا لك من محظوظ. أَكُل هذا الجمال، وكل هذا اللحم، لك وحدك؟! ما أجمل الجسد الذي ستغرق في طياته الليلة**». وتسارع الجميع ليلتهموا الأطعمة الشهية، فأكلنا كالخنازير، وشربنا كأننا بالوعة. اقتربتُ من والد نوسا الذي كاد ينفجر من كثرة ما التهم من طعام، وسألته: «**أين الكاهن الذي سيمنحنا البركة؟**». فأجاب والزبد يتناثر من بين شفتيه: «**لا يوجد كاهن.. فالدين أفيون الشعوب**». وبعد برهة نهض وهو يمتلئ بالكبرياء، وأشار بإحدى يديه ليُسكِت الحاضرين. بينما يمسك باليد الأخرى قدحًا طافحًا بالخمر، ثم بدأ خطابه. خطابًا لم أفهم كلمة واحدة منه. والله أعلم ما الذي قاله. ثم تعبتُ وقد بدأتْ الخمر تلعب برأسي، ألصقتُ ساقي بساق «**نوسا**»، وتابع الوالد خطابه حتى بدأ العرق يتصبب من جبينه وعنقه، وراح يتكلم ويتكلم.. دون توقف.. وأخيرًا أمسكوه رغمًا عنه. عندها لكزتني «**نوسا**» وقالت: «**لقد جاء دورك. هيا تكلم**». فوقفت وتكلمت، بلغة نصفها روسي والنصف الآخر يوناني، أما ما قلته، ليأخذني الله لو كنت أعرف! كل ما أتذكره أني عندما انتهيتُ رحت أغني أغنية «**كليفتية**» ورحت أنهق بلا شعور: «**تسلق الكليفتيون إلى قمة الجبل، ليسرقوا الخيل، ولكن لم يجدوا أيًّا منها، فخطفوا نوسا**». كما ترى أيها الصديق لقد حوّرت فيها هذا المقطع من أجل تلك المناسبة، وتابعت أنشودتي «**أسرعوا، أسرعوا، وأسرعوا.. آه يا نوسا. آه يا نوسا.. آه**». وعند آخر صرخة «آه» انحنيت على نوسا وقبلتها. وما أن فعلت ذلك حتى أسرع بعض الشبان من ذوي اللحى الصفراء وكأني أعطيتهم الإشارة فأطفأوا المصابيح، وعلا صوت النساء العاهرات، يتظاهرن بالخوف من الظلام، ثم تتابعت صرخاتهن وأنينهن.. كان هذا يجعلني أشعر بالمرح والدغدغة. أما الذي حدث

تلك الليلة، فلا أذكر منه شيئًا أبدًا. ولا يعرفه إلا الله. لكني أعتقد أنه لا يعرفه أيضًا، وإلا لكان أرسل علينا صاعقة لتحرقنا. امتلأت الأرض بالرجال والنساء دون أن يعلم أحدهم مَن يعاشر، فرحت أفتش عن نوسا دون جدوى، فوجدت إحداهن، وقد خشيت أن يضيع الوقت، ففعلت بها ما كان يجب أن أفعله بنوسا. وعند بزوغ الفجر استيقظت، وكان الجو لا يزال معتمًا فرحت أبحث عن زوجتي لأصحبها إلى البيت، ولكني لم أكُن أرى جيدًا، فأمسكت بأول قدم رأيتها، ولكنها لم تكُن هي.. وقدم ثانية وثالثة ورابعة. إلى أن وجدتها بين ثلاثة أو أربعة من الشياطين الذين كادوا يحطمون ضلوعها. فأيقظتها، وقبل أن نغادر قالت: «**لا تنس أن تأخذ الفرو. وذهبنا**».

وعدت لأسال زوربا من جديد:

- تابع.. تابع. ثم ماذا؟

فهتف بانفعال:

- لقد عدنا ثانية لنسأل «**ثم**» و«**ماذا**» و... آه... بقيت معها ستة أشهر تقريبًا. ومنذ ذلك اليوم لم أَعُد أخاف شيئًا البتة، اللهم إلا شيئًا واحدًا، هو أن يمحو الله أو الشيطان من مخيلتي تلك الأشهر الستة السعيدة. أتفهم ما أقوله؟

وأغمض زوربا عينيه، كان يبدو متأثرًا جدًّا، حالمًا بالماضي السعيد، فهذه المرة الأولى التي أراه فيها تؤثر به ذكريات يرويها. فعدت لألح عليه:

- إذن فقد وقعت بغرام نوسا أليس كذلك؟

فتح زوربا عينيه وقال:

- أنت ما زلت شابًّا يافعًا أيها الصديق، ولن تستطيع إدراك ما أشعر به الآن. ولكن عندما يبيّض شعرك ستفهم. ستعود للكلام عن هذه القصة الخالدة.

- قصة خالدة! أي قصة؟

- أيجب أن أكرر ما أقوله لك ألف مرة. إنها المرأة أيها الرئيس. إن المرأة قصة خالدة. أما أنت الآن فإنك كالديك الفتي الذي يهجم على

الدجاجات ثلاث مرات، ثم يرتفع فوق قمة الزبالة ليأخذ بالصياح بكبرياء، نافخًا صدره. الديك لا ينظر إلى الدجاجة بقدر ما ينظر إلى عُرفها، وإذا كان الأمر كذلك.. فما الذي ستدركه عن الحب؟!

ولاك لعابه في فمه ثم بصقه بازدراء، وأدار رأسه بعيدًا عني حتى لا يرى وجهي. وعدت لأسأله مُصممًا على أن أعرف النهاية:

- تكلم، ثم ماذا يا زوربا؟

لم يعترض زوربا هذه المرة على سؤالي، بل أجاب دون وعي سارحًا في أعماق البحر:

- وفي إحدى الليالي عدت إلى المنزل فلم أجدها، وعلمت أنها هربت مع جندي شاب جميل كان قد وصل القرية منذ أيام، وانتهى كل شيء. لقد انشطر قلبي.. ولكنه سرعان ما التحم من جديد. يا له من خبيث، هل شاهدتَ قِطَع القماش البيضاء والصفراء والحمراء التي تُصنَع منها الأشرعة وتهب عليها العواصف والصواعق دون أن تؤثر بها.. هكذا قلبي مثلها. فيه الآن الثقوب والآلاف من الرقع، لذلك فأنا لا أخشى شيئًا البتة.

- ألم تكره نوسا وتحقد عليها؟

- لماذا أكرهها وأحقد عليها؟ لك أن تقول ما تريد، ولكن المرأة شيءٌ آخر، فهي ليست بشرًا. إذن، لماذا أحقد عليها، فالمرأة بوجه عام لا يستطيع أن يدرك سرها أحدٌ، وللأسف جميع القوانين المشرعة لا تنظر إلى هذا الأمر بعين الاعتبار. فهي تظلم المرأة ولا تستثنيها من القوانين القاسية. فلو قُدِّرَ لي أن أضع أنا القوانين، لكنت وضعت عشرات ومئات منها للرجال. لأن الرجل يملك القدرة على تحملها. أما النساء فلن أضع لهن قانونًا، إنهن مخلوقات ضعيفة. كم مرة يجب أن أكرر هذا. نخب نوسا، وليصب الله على رؤوسنا الرصاص ليهلكنا نحن الرجال.

وعبّ قدحه دفعة واحدة رافعًا يده، وما لبث أن ترك يده تسقط فجأة. وقال:

- ليصب الله على رؤوسنا الرصاص، أو ليخصينا! ولكن على كل حال سوف نهلك ولا شك.

٨

مزجَ المطر المنهمر ببطء بين السماء والأرض. عندما رأيت انهمار المطر عاد لذاكرتي نقش هندوكي من الحجارة السوداء الداكنة يُمثل رجلًا يضع ذراعيه حول عنق امرأة ويلتصق بها، وهي مستسلمة بين يديه وملامحهما مفعمة باللذة، حتى إنك لتشعر بعد أن امتدت يد الزمن على الجسدين وأذابت قسمًا منهما، بأنك تشاهد حشرتيْن ملتصقتيْن بشدة، والمطر الذي لا ينقطع ينهمر فوقهما، والأرض من حولهما تنتشي بنقط المطر العذب.

كنت جالسًا داخل الكوخ سارحًا في الغيوم التي تتجمع في السماء، ومِن ثَم أعود لأسرح بالبحر المُمتد أمامي إلى ما لا نهاية دون أن يظهر فيه ظلٌ لإنسان أو لشراع أو لمركب ولا حتى لطير، لم أكُن أشعر إلا برائحة الأرض العطنة تتسرب من النافذة.

نهضت ومددت يدي لأمسك حبات المطر كأني فقير يتسول، ولم أشعر إلا والدموع قد ملأت عيناي، دون أن أدري لماذا؟! ولكن حزنًا عميقًا تَملَّكنِي، ليس من أجل نفسي بل أعمق. حزنٌ يتصاعد من الأرض الرطبة، حزنٌ يشبه الرعب الفظيع الذي يسيطر على حيوانٍ يتجول باحثًا عن طعامٍ، ثُم فجأة ودون سابق إنذار يجد نفسه في المصيدة لا يستطيع خلاصًا.

وددت لو أطلق صرخة مدوية لعلّها تُهدِّئ من روعي قليلًا، لكني خجلت. تكاثرت الغيوم والسُّحب حتى بدت السماء كأنها تزحف نحو الأرض بهدوء. كم هي لذيذة تلك الساعات الهادئة التي لا يتخللها إلا رذاذ المطر الناعم، تعيد للخيال ذكرى الوقائع المؤلمة المختفية داخل طيات القلب، افتراق الأحباء، وابتسامات الفتيات الباهتة، وآمالٌ كأنها الفراشات التي فقدت أجنحتها فلم يبقَ منها إلا الدود، وها قد وقفت هذه الدودة فوق أوراق قلبي وراحت تلتهمها.

وبهدوء وبلا أي مقدمات عادت لذاكرتي صورة صديقي الذي سافر إلى القوقاز، وتناولت قلمي وانكببت على أوراقي لأتحدث إليه ولأزيح عن نفسي كابوس المطر المظلم:

(أيها الصديق الحبيب...

أخط رسالتي هذه من شاطئ بعيد منزوٍ في جزيرة كريت، حيث عقدت اتفاقًا مع الدهر لأمثّل خلال ستة أشهر دور الرأسمالي الثري الذي يملك منجمًا للفحم، أبدو الآن كرجل أعمال، وإذا نجحت بتمثيل دوري جيدًا، عندها سأُصرِّح لك بأنه لم يكُن تمثيلًا، بل قرارًا لأحوِّل مجرى حياتي.

لا شك وأنك لم تنسَ بأنك ناديتني يوم سفرك «**بالجرذ قارض الورق**» فثارت ثائرتي وقررت وقتها أن أترك القلم والدواة لحينٍ، أو للأبد. ورميت بنفسي في غياهب العمل.. فأجّرت منجمًا، وتعاقدت مع عمال واشتريتُ رفوشًا ومعاول وقناديل، وقُففًا وعربات، وكل ما أحتاج إليه في عملي. وبدأت بحفر الأنفاق لأدفن نفسي فيها. هكذا لأغيظك، وأصبحتُ بعد هذا خُلدًا وليس «**جرذًا قارضًا للورق**». آمل أن تُسرَّ لهذا التحول. إن سعادتي هنا لا تُحد وفي غاية البساطة، سعادة صُنعَت من مواد أبدية؛ نسيم عليل، وشمس دافئة، وبحر، وخبز، وطعام. وكل ليلة يحدثني السندباد البحري الرائع، الذي كلما تكلم اتسع العالم، وفي بعض الأحيان وعندما لا يجد كلمة تفي بالمعاني التي يريد إيصالها، يقفز ليعبر عنها برقصه المجنون الوحشي. وإن لم يكُن الرقص كافيًا، يتناول السانتوري ليبدأ العزف القاسي الشجي. عندما يكون عزفه همجيًّا وحشيًّا تحس وكأنه لم يَعُد هناك هواءٌ لتستنشقه، لأنك تشعر أن الحياة تافهة لا تستحق أي عناء، وعندما يعزف لحنًا حزينًا هادئًا تشعر بأن الحياة تتسلل وكأنها تتساقط من بين أصابعك، وبأن السلام والأمان لا وجود لهما. وعندها أشعر بأن قلبي مثل مكوك آلة حياكة، يغوص من بداية جسدي إلى نهايته جيئةً وذهابًا، وكأن صاحبي هذا يحوك الأشهر التي سأقضيها على الجزيرة. وأعتقد وليغفر لي الله.. بأني سعيد.

يقول الفيلسوف الصيني كونفوشيوس: «**إن الكثيرين يبحثون عن السعادة في مكان أعلى الإنسان، وآخرين يبحثون عنها في مكانٍ أدنى منه، ولكن السعادة تكون دائمًا في الإنسانية ذاتها، لا أعلى ولا أدنى**». وإذا كان هذا صحيحًا فلكل إنسان سعادته التي تساويه. هذه هي يا أستاذي وتلميذي، سعادتي التي أعيشها اليوم، أقيسها وأنا قلق، ثم أقيس نفسي، لأن طول الإنسان كما تعلم لا يظل دائمًا كما هو.

عجيبٌ أن تتغير روح الإنسان بتغير الطقس، أو الصمت، أو الخلوة، أو الصحبة التي ترافقه!

وأقول لي إني في عزلتي الآن يبدو لي الناس وأنا أنظر إليهم من خلوتي، لا كالنمل بل على العكس، كوحوش ضارية، ديناصورات، زواحف مجنحة، تلك التي تحجرت بفعل الزمن، وصارت في جو عابق بأكسيد الفحم ونباتات مُتكلِّسَة، غابة عبثية لا يُمكن إدراك سرّها.

إن مفاهيم «**الوطنية**» و«**العرق**» التي تتمسك بها أنت، واعتبارات مثل: «**الوطن الأم**» و«**الإنسانية**» التي أغوتني، تكتسب هنا القيمة ذاتها التي يكتسبها التدمير الخارق! إننا نشعر بأننا ارتفعنا إلى القمة لنلفظ بضعة مقاطع رنانة، وفي بعض الأحيان لا ننبس بمجملة واحدة، بل مجرد همسات وتمتمات لا تكاد تلفظ.. أ..و..أو... ومِن ثَم ترتطم لتتلاشى، وأرفع المبادئ لو شُقت أمعاؤها لظهرت لنا على حقيقتها، دُمى محشوة بالنخالة، بين طبقاتها آلة نابضة من الصفيح.

لا شك أنك تعلم علم اليقين أن هذه التأمُّلات العنيفة غير قادرة على إرغامي على الاستسلام، بل على العكس إنها مثل عيدان ثقاب ضرورية لشعلتي الداخلية وتمدُّني بما أحتاج إليه من دفء، لأني وكما قال أستاذي العظيم «**بوذا**»: قد شاهدت.. وبما أني شاهدت ووصلت إلى اتفاق بغمزة عين مع الخالق المسرحي، فإني أقدر منذ الآن، وأنا مليء بالمرح، والهدوء، أن أقوم بما أريد من الأشياء التافهة، أن أتقن تمثيل دوري على مسرح الحياة إلى النهاية، بانسجام طبيعي وبرغبة لا تُقهر. وذلك لأني «**شاهدت**» فقد شاركت في التمثيل على مسرح الآلهة.

ولهذا أتخيلك وأنا أجول بنظري في زوايا مسرح الحياة، فهناك في القوقاز تقوم أنت أيضًا بتمثيل دورك جاهدًا لإنقاذ آلاف البشر الذين يواجهون خطر الفناء. لا شك أنك «**برومثيوس**» آخر، ولكنك تختلف عنه، فإنه يتحمل العذاب على حقيقته، ويجاهد ضد كل قوى الشر؛ الجوع والبرد والمرض والموت، أما أنت فتبتهج بآلامك أحيانًا لِما يتملّكك من كبرياء، لأن قُوى البشر مذهلة، وكلما كان جهادك دون أمل في الانتصار، أصبح أسطورة أكبر، وتكتسب روحك عظمة أكثر مأساوية.

إنك تعتبر وبلا شك أن الحياة التي تعيشها هي مُنتهى السعادة، وبما أنك تعتبرها هكذا فهي كذلك، لقد صنعت سعادتك لنفسك، ليتبارك الله في

علياته، إن سعادتك أكبر من سعادتي، والأستاذ المثالي لا يرغب بأكثر من أن يُربي تلميذًا يتقدم عليه.

أما أنا فغالبًا ما أتيهُ وأضلُّ طريقي، ويصبح إيماني مجرد نقوش ممتدة من الكفر والإلحاد الأبدي. وأشعر أحيانًا برغبةٍ في أن أقوم بعملية استبدال بسيطة: أن أعيش لحظة صغيرة وأقايضها بباقي سنوات عمري. لكنك أنت تتعلق بالدفة لتقودها بدقة دون أن يغيب عن فكرك ولو لبرهة وجهتك الحقيقية، حتى في أجمل اللحظات المهلكة.

لا بد وأنك لم تنسَ يومَ كُنا في إيطاليا عائدين إلى اليونان، فقد كانت غايتنا أن نزور «**بونت**» التي كانت تجتاحها الأخطار آنذاك. تذكرُ ذلك؟ حين توقفنا في مدينة صغيرة.. وتركنا القطار بسرعة إذ لم يكُن معنا أكثر من ساعة واحدة لوصول القطار الثاني. دخلنا بعدها بستانًا قرب المحطة. بستان تكتنفه الأشجار الضخمة وأشجار الموز ذات الأوراق العريضة، حيث كانت النملات الصفراء تقف على جذع زهرة يهتز تحت وقع مصّها لرحيق شفتيه.

واقتربنا بسكون وقد امتلكتنا نشوة هادئة وكأننا في خيالٍ بعيدٍ. وسمعنا فجأة من بين الأغصان المتحركة وقعَ أقدامِ شابتيْن رائعتيْ الجمال.

كانتا تتصفّحان كتابًا، لا أذكر ملامحهما تمامًا، كل ما أذكره أن واحدة منهما كانت بيضاء والثانية سمراء، وكانتا تتزينان بثوبيْن ربيعييْن. وبشجاعة وجرأة الإنسان الواقع تحت تأثير الحلم؛ تقدمنا منهما، وقلت لهما مبتسمًا: «**مهما كان نوع الكتاب الذي تطالعانه فسوف نتحدث عنه قليلًا**». كانتا تَقْرآن كتابًا لغوركي. وأذكر تمامًا بأننا تحدثنا يومها عن الحياة والتعاسة والحب والشغف. لن أستطيع أن أنسى أبدًا مرحنا وبؤسنا، حين تواصلنا مع الفتاتيْن وأصبحنا على جسر الصداقة الحميمية بسرعة لا شعورية. صداقة أزلية، وحب أبدي. شعرنا وأننا أصبحنا مسؤولين عن جسديهما وروحيهما. وكنا على عجلة من أمرنا، فبعد بضع دقائق سنضطر إلى الرحيل، عندهما فاح الجو برائحة الشهوة والفناء.

وأخيرًا جاء القطار وعلا صوت صفارته وتنبهنا كأننا نهضنا من سُباتٍ عميق، وبسرعة عجيبة التقت أصابعنا بأنامل الفتاتيْن، كنا نشعر بأننا لا نريد الافتراق، ولكن صفارة القطار الثانية انتزعتنا من بين يديْ الفتاتيْن، وكأن أرواحنا انتزعت منا، وكانت الفتاتان في حالة غريبة، الأولى شاحبة حزينة،

والثانية سعيدة مبتسمة مرحة، وأذكر أني قلت لك عند الفراق: «**الحقيقة هنا. أما اليونان والواجب والوطنية لا تعني شيئًا**». وأجبتني أنت: «**نعم اليونان والواجب والوطنية أمور تافهة ولا تعني شيئًا، ولكن من أجل هذا اللاشيء سنمضي بكل سرور نحو الموت**».

لا أدري لماذا أكتب لك عن هذا؟ ربما لأجعلك تشعر بأني لم أنسَ أي لحظة من اللحظات التي قضيناها معًا، ولأمنح نفسي الفرصة كي أقول لك ما كان يستحيل عليَّ قوله عندما كنا معًا، بسبب تلك العادة الحسنة أو الرديئة التي كنا نقيد بها أنفسنا، والتي كانت تلزمنا بتمالُك شعورنا. والآن وبما أنك غائبٌ عن ناظري، وأنت غير قادر على رؤية تقاطيع وجهي أقولها لك بصراحة.. إني أحبك جدًّا).

بعد أن تحدثت مع صديقي عبر الأوراق، أنهيت رسالتي بعد أن عاد الهدوء لنفسي، وناديت زوربا الذي كان جالسًا القرفصاء على صخرة محاولًا إجراء بعض التجارب على مصعده. وصحت قائلًا:

- انهض يا زوربا ولنَتَمشَّ في القرية.

- ولكنها تمطر الآن أيها الرئيس، إذا كنت تشعر أن مزاجك مناسب لماذا لا تتنزه وحدك؟!

- أجل، ولكني أريد مرافقتك، حتى لا أجازف بفقدان مزاجي الطيب.

فقهقه قائلًا:

- كم أنا مسرور لأنك تحتاج إليَّ دائمًا. هيا لنسِر.

ووضع عليه رداءه المصنوع من الصوف الذي كنت قد قدمته له كهدية، ورحنا نغوص في الوحل.

كان رذاذ المطر يتساقط حولنا والسحاب يختفي وراء قمم الجبال، ولا توجد نسمة هواء واحدة، والضباب الداكن يخفي وجه جبل الفحم الصغير، فبدا الجبل حزينًا كئيبًا، كأنه قد وقع مغشيًا عليه بين الضباب. لاحظ زوربا تحديقي إلى الجبل فنظر إليَّ قائلًا:

- إن قلب الإنسان يتألم ويضربه الغم عندما يبدأ المطر بالتساقط. ويجب ألَّا نلومه على ذلك.

واقترب من السياج وأحنى هامته وقطف أول زهرة نرجس برية صادفها، فقرّبها من أنفه وراح يشم عبيرها بعمق، وكأنه يرى تلك الزهرة لأول مرة.

وأخيرًا تنهّد وقدمها لي قائلًا:

- لو كنا نعرف ما تقوله الأحجار والأزهار والمطر أيها الرئيس! ربما تهتف بنا، تنادينا ونحن لا نصغي! وإن أصغينا لا نفهم. متى سيسمع الناس؟ بل متى سيبدؤون الفهم؟ متى سنمدُّ أيدينا لنضم الجميع إلى صدرنا، الجميع دون استثناء. الأزهار والأحجار والمطر.. ما الذي تقوله عن هذا أيها الرئيس؟ ما الذي قرأته في كُتبك؟

حاولت إرضاء زوربا فاستعملت تعبيره المفضل:

- ليأخذها الشيطان إلى الجحيم.

فمد يده ليمسك بيدي وهو يقول:

- عندي فكرة أريد أن أطرحها عليك أيها الرئيس، ولكن يجب ألّا تغضب. لماذا لا نجمع كل كتبك ونضرم فيها النار؟ وبعدها مَن يدري! فأنت رجل قويّ ومقدام يمكن أن نخلق منك شيئًا.

ودون تفكير شعرت بنفسي تصيح راضية: «**أجل.. أجل إنه على حق. ولكن لا أستطيع احتمال ذلك**».

تاه زوربا مرتبكًا، ثم قال:

- ثمّة شيءٌ، يبدو لي بأني أدركه و...

- هيا تابع.. تكلم.

- لا أعلم تمامًا ما هو! ولكني أشعر بأني استطعت أن أدرك شيئًا ما، ولو حاولت أن أحدثك عنه لتهدم كل شيء. يومًا ما عندما أكون مستعدًا سأقوله لك رقصًا.

زاد انهمار المطر قوة، وكنا وقتها قد اقتربنا من القرية، في الساعة التي ترجع فيها الفتيات الصغيرات بمواشيهن من المراعي، والفلاحين قد حلّوا ثيرانهم، تاركين حقولهم نصف محروثة، والنساء يلاحقن أولادهن في زاوية الأزقة، وقد خيّم على القرية جزع رهيب خوفًا من العاصفة المطرية، تعلو أصوات النساء بصرخات قوية بينما كانت وجوههن تضحك دون إدراك، وقد

تعلقت حبات المطر بلحى الرجال وشواربهم الرمادية المغبّرة، وفاحت رائحة عفونة الأرض من خلال الأحجار والأعشاب الندية.. وأخيرًا وبعد أن أغرقتنا مياه الأمطار دخلنا إلى «**مقهى الملحمة**» الذي كان مكتظًا بالزبائن، بعضهم يلعب الورق، وبعضٌ آخر يتصايح بصوتٍ مرتفع. وكأنهم يُكلِّمون بعضهم من جبل لآخر. وفي مواجهة الصالة كان يجلس أشراف القرية على طاولة صغيرة، العم أناغنوستي الذي كان يرتدي قميصًا أبيض فضفاضًا.. ومافراندوني ذو الوجه القاسي الهادئ يُدخن النارجيلة وعيناه محدقتان إلى الأرض.. وأخيرًا مُعلم المدرسة العجوز، يجلس بوجهٍ وقور، جاف، وابتسامة هادئة تعلو شفتيه، يصغي باهتمام لحديث رجلٍ طويل القامة كثيف الشعر كان قد وصل توًّا من مدينة «**كانديا**» وبدأ يُحدِّث الجالسين عن مناظر تلك المدينة الرائعة. أما صاحب الحانة فكان متكئًا على طاولته مصغيًا مبتسمًا، محاولًا بين وقتٍ وآخر مراقبة ركوات القهوة الموضوعة على النار.

وما أن لمحنا العم أناغنوستي حتى نهض مرحبًا:

- هيا اقتربا واجلسا هنا. فإن سفاكيانو نيكولي يقصُّ علينا ما شاهده وسمعه في كانديا. إنه لطيف جدًّا. هيا اقتربا.

ثم استدار نحو صاحب الحانة وقال:

- كأسان من العرق، يا مانولاكي.

جلسنا وعندما أدرك الكابتن وجود غرباء، بدأ يتردد في متابعة كلامه وأخيرًا صمت. لكن الأستاذ قال يستحثه على الكلام:

- لقد أخبرتنا بأنك قد زرت المسرح أيضًا، هل أعجبك يا كابتن نيكولي؟

مدَّ الكابتن سفاكيانو نيكولي يده وتناول قدحًا من الخمر وعبّه دفعة واحدة متشجعًا ليتابع كلامه:

- بالتأكيد لقد زرت المسرح، كنت أسمع الناس يذكرون كلمة «**كوتوبولي هنا.. كوتوبولي هناك**» وذات ليلة قررت الذهاب، وقلت قسمًا بالله سأذهب، لأراها أخيرًا، ورسمت علامة الصليب وتوجهت.

فمد أناغنوستي رأسه ليسأل:

- هيا تكلم ما الذي شاهدته أيها البطل؟

- الحقيقة إني لم أرَ شيئًا. نعم لم أرَ شيئًا، أقسم بذلك. كنت أظن بأن كلامهم في المسرح سيكون ممتعًا ومسليًا، لكنّ الأمر كان مختلفًا تمامًا. لقد ندمت على النقود التي دفعتها. فالمسرح عبارة عن حانة كبيرة مستديرة وكأنه زريبة تكتظ بالناس، يكاد ينفجر بالكراسي والثريات. كنت مضطربًا ولم أستطع أن أرى شيئًا فقلت محدثًا نفسي: «**يا للجحيم، لا شك بأنهم يمهدون لإيقاعي في فخ مرعب.. سأهرب**» إلا أنه في تلك اللحظة تقدمت مني فتاة صغيرة لتمسك بيدي وتقودني، ومِن ثَم أجلستني في مكان مزدحم بالرجال والنساء، شمالي ويميني وأمامي وورائي، حتى شعرت بأن روحي ستزهق لندرة الهواء. فاستدرت نحو جاري وسألته: «**إنه لمكان مزدحم جداً من أين ستظهر الراقصات أيها الرفيق؟**» فأجاب مشيرًا إلى ستار طويل: «**مِن هناك**». وتأكدت من ذلك عندما قرع الجرس، وارتفع الستار وبدت «**كوتوبولي**». وهو اسم يعني «**الدجاجة الصغيرة**» كانت امرأة، امرأة بكل ما في الكلمة مِن معنى، راحت تمشي وتتمايل وتتقدم وتتأخر وترقص، حتى ملَّ المشاهدون منها. فراحوا يخبطون الكراسي بأيديهم، فهربت لتنجو بنفسها دون تأخير.

عندها ارتفعت أصوات المزارعين مقهقهين من كل ناحية، مما جعل الكابتن «**نيكولي**» يقطب جبينه واستدار نحو الباب وحاول تغيير مجرى الحديث قائلًا:

- إنها لا تزال تمطر.

وبحركة لا شعورية اتجهت جميع الأنظار نحو الباب، وفي هذه اللحظة ظهرت من خلال فتحة الباب امرأة تركض، وقد رفعت طرف ثوبها بيدها حتى ركبتيها، وشعرها مسبل فوق كتفها. كان جسدها ملفوفًا، متمايلًا، وثيابها المبللة ملتصقة بجسدها وتظهر مفاتنه المثيرة. وحينها قفزت من مكاني، فقد شعرت بأن هذه المرأة خطرٌ داهم، وكأنها وحشٌ مفترس، وحدثت نفسي قائلًا: «**يا لها من حيوان كاسر!**». أدارت المرأة رأسها باتجاه المقهى لترسل نظرة يتطاير منها الشرر. عندها تمتم أحد الشبان الصغار كان جالسًا قرب النافذة:

- فليتمجد اسمك أيتها العذراء القديسة.

وهتف مانولاكاس حارس الغابة:

- لعنة الله عليك. يا زارعة بذور الشقاق، فالنار التي تضرمينها لن تخمد أبدًا.

وراح الشاب الجالس بجانب النافذة يدندن بصوت خفيض، ثم بدأ يعلو شيئًا فشيئًا: «**إن وسادة الأرملة لها عبير السفرجل.. تمتعتُ بعبيرها ولم أقوَ على النوم**».

فصاح مافراندوني مهددًا.

- اسكت!

لكن ملامح الشاب لم تتغير وبقيَ هادئًا، فاقترب رجل من مانولاكاس وهمس في أذنه:

- ها قد بدأ الغضب يجتاح عمّك. لو كان يستطيع إليها سبيلًا لقطّعَها إربًا. يا لها من بائسة ليحميها الله.

فأجاب مانولاكاس ساخرًا:

- آه. أيها الأب ماندولي يظهر بأنك أنت أيضًا مغرمٌ بتلك الأرملة.. ألا تستحي يا رجل الدين؟!

- كلا.. كلا. وأكرر ذلك.. ليرحمها الله ويحفظها. يبدو أنك لم تشاهد الأطفال الذين يولدون في قريتنا منذ وقت ليس بقصير، أتدري لماذا هم جُملاء كالملائكة؟ هذا كله يعود الفضل فيه للأرملة. فكما يقال بأنها عشيقة كل مَن يقطن قريتنا هذه، فعندما تُطفَأ المصابيح يتخيل الرجال أن التي تنام معهم ليست زوجاتهم، بل الأرملة، ولهذا فإن قريتنا تنجب أطفالًا آيةً في الجمال والقوة.

وساد السكون لبرهة، ثم تابع الأب ماندولي هامسًا:

- محظوظة هي الأفخاذ التي تضمها. آه يا رفيقي لو كنت شابًّا في العشرين مثل بافلي ابن مافراندوني!

فعَلَتْ قهقهة أحد الجالسين وهو يقول:

- لا شك بأنك ستراه الآن عائدًا.

واستدار الجميع نحو الباب ثانية.. كان المطر يهطل بشدة، والماء يهدر فوق الحصى، ومن حين لآخر كان البرق والرعد يشقان عنان السماء نورًا وهديرًا.. وبدا زوربا نافد الصبر.. فقد بعثت رؤية الأرملة الدفء في جسده. ولمس يدي قائلًا:

- هيا، لقد توقف المطر.

عندها بدا عند مدخل الحانة شاب مُشعث الشعر، حافيًا ذا عينين واسعتين تائهتين، تمامًا كما كان الفنانون يرسمون القديس يوحنا المعمدان.

فإن عينيه كانتا منتفختين، ربما بسبب عدم الأكل، والصلاة والسهر. وهتف بعضهم هازئين:

- أهلًا.. ميميتو!

كما يُقال لكل بلد أبله. وإن لم يكُن بها فيدفعون واحدًا للجنون للهزء منه والضحك عليه. وكان ميميتو أبله هذه القرية.

عندما دخل الشاب قال متلعثمًا مترددًا:

- أيها الرفاق، أيها الرفاق. لقد تاهت عنزة الأرملة سورمولينا.. ومَن يجدها له مكافأة خمسة ليترات من الخمر.

وحينها صرخ الأب مافراندوني بوجهه ليطرده:

- هيا اذهب من هنا.. اذهب!

فانزوى الأبله قرب الباب خائفًا، فاقترب العم أناغنوستي من الشاب مشفقًا وقال:

- تعالَ.. يا ميميتو، وتناول قدحًا من الخمر، لتُدفئ جسدك. فما قيمة قريتنا دون الأبله.

وفي هذه اللحظة برز عند الباب شاب آخر، يبدو عليه المرض بوضوح، ذو عينين زرقاوين. كان تعبًا لاهثًا وشعره مبللًا متدليًا فوق وجهه.

هتف مانولاكاس لدى رؤيته:

- أهلًا، بافلي.. أهلًا بابن العم الصغير.. ادخل.. ادخل.

التفت مافراندوني إلى ولده عابسًا، كأن آلام الدنيا تعتمل في جسده والأفكار تدور في نفسه: «**أهذا ولدي؟ من أين جاء هذا الطرح؟ يا للجحيم مَن يشبه؟ ليتني أستطيع أن أحمله وأرميه على الأرض لأدق عنقه**».

كان زوربا جالسًا فارغ الصبر، منتظرًا إشارتي لنغادر المقهى؛ إذ لم يَعُد يطيق المكوث بين هذه الجدران، بعدما سلبت لبه تلك الأرملة الشابة. وكان يهمس في أذني من وقت لآخر:

- هيا بنا. لماذا نظل هنا؟ أكاد أختنق.

وبدا لزوربا أن السحاب قد انقشع والشمس سطعت. فالتفت نحو صاحب الحانة يسأله بلا مبالاة:

- مَن تكون هذه الأرملة؟

فرد عليه كوندو مانوليو:

- فرس!

ووضع يده على شفتيه وغمز نحو الأب مافراندوني الذي كان مُطأطأ الرأس. وأردف قائلًا:

- فرس.. ولكن لنترك الكلام عنها فهذا يجرنا إلى الجحيم.

عندها نهض مافراندوني تاركًا نارجيلته وقال معتذرًا:

- عذرًا. سأذهب إلى البيت. هيا بافلي.. سِر خلفي.

وأمسك بيد ابنه وغادر المقهى تحت المطر المنهمر، فنهض مانولاكاس وتبعهما. وأخذ كوندو مانوليو مكان مافراندوني. وهمس بصوتٍ خافت حتى لا تسمعه الطاولات المجاورة:

- يا لمافراندوني التعيس! العار سيخنقه. يا لها من مصيبة تلك التي هزّت منزله. البارحة سمعت ابنه بافلي يقول له مُصرًّا: «**إن لم تزوجنيها سأقتل نفسي**». ولكن الفاجرة ترفض ذلك، فهي تدعوه «**الأبله**».

عندها أصرَّ زوربا على الذهاب بعدما سمع الحديث عن الأرملة، وقال مكررًا:

- هيا.. هيا بنا.

وعلت أصوات الديوك بعد أن خف المطر قليلًا فنهضت قائلًا:

- حسنًا.. هيا.

وما أن غادرنا حتى قفز ميميتو ولحق بنا.

كان الحصى يتلألأ بعد أن غسلته الأمطار، كما تغير لون الأبواب بعد أن بللها المطر، وخرجت العجائز بالسلال المعلقة على أذرعهن القبيحة ليجمعن الحلزون.

اقترب ميميتو مني وأمسك بيدي قائلًا:

- قدِّمْ لي سيجارة أيها الرفيق، فهذا يجلب لك الحظ في الحب.

ثم مدّ يده النحيلة وتناول السيجارة التي قدمتها له. ومِن ثَم قال:

- أليس معك عود ثقاب أيضًا؟

قدمتُه له. فأشعل السيجارة ومجّها محاولًا أخذ أقصى ما يمكن من لذة الدخان. ثم أغمض عينيه ودمدم:

- أنا الآن سعيد جدًّا مثل باشا.

- إلى أين ستذهب؟

- إلى بستان الأرملة. فقد وعدتني بأن تقدم لي بعض الطعام إن أخبرت أهل القرية عن ضياع عنزتها.

كنا نسير بعجلة عندما انشقت الغيوم وظهرت الشمس هادئة، وبدت على ملامح القرية السعادة بعد أن اغتسلت بالمطر.

وعاد زوربا ليسأل الأبله وقد جرى ريقه شبقًا:

- ميميتو أمعجب أنت أيضًا بالأرملة؟

- ولمَ لا؟ ألم أخرج أنا أيضًا من المكان نفسه؟ من بالوعة!

فصحت مدهوشًا:

- بالوعة! ما الذي تقصده يا ميميتو؟

- مِن بطن امرأة.

أحسست بارتعاشة تسري في جسدي، وقلت محدثًا نفسي: «**شكسبير وحده الذي يمكنه في مثل هذا الموقف وبمثل هذه السهولة، أن يجد مثل هذا التعبير الفج والواقعي، لينعت به سر الولادة الغامض، والذي يجعل الأبدان تتقزز**». ورحت أحدق إلى ميميتو. كانت عيناه واسعتين بلا معنى ويشوبهما شيءٌ من الحَوَل. وسألته:

- كيف تقضي وقتك يا ميميتو؟

- كيف أقضيه؟ كباشا تمامًا. أنهضُ صباحًا وأتناول كسرة من الخبز ثم أبدأ العمل فأقوم بالمهازل والألاعيب.. لا أهتم كيف ولا أين أو لماذا؟ أنقل الرسائل وأحمل السماد، وأجمع الروث، وأجني الثمار. أشارك خالتي السكن، تلك التي تُدعَى الأم لينيو وهي «**ندّابة**» أيضًا. لا شك بأنك قد قابلتها، فالجميع يعرفونها، حتى إن البعض أخذ لها صورًا. وعندما يأتي المساء أتناول قدحًا من الخمر وطبقًا من الحساء. وإذا لم أجد خمرًا فليس باليد حيلة، أجرع قليلًا من الماء، ماء الربّ الرحيم، حتى أقتل ظمئي. وبعد ذلك تصبحون على خير.

- ألا تنوي الزواج؟

- أنا أتزوج! وهل أنا مجنون؟ ما الذي تتحدث عنه يا صاحبي؟ أأجلب الهم لنفسي؟ فالنساء يحتجن لأحذية وأشياء أخرى. وكما ترى فأنا أسير حافي القدمين.

- ألا تمتلك حـــذاءً؟

- وكيف لا؟ عندي واحد خلعته خالتي من قدميْ رجلٍ تُوفيَ العام الماضي، ولكني لا أضعه في قدمي إلا في عيد الفصحِ لأذهب إلى الكنيسة لأتسلّى برؤية الكهنة. ومِن ثَم أنزعه من قدمي وأعلقه بعنقي وأعود إلى المنزل.

- ما أكثر شيء تحبه يا ميميتو؟

- لنقُل في المرتبة الأولى الخبز. كم أنا مغرم به! وخصوصًا عندما يكون ساخنًا محمصًا. وبعده يأتي الخمر ثم النوم.

- والنساء؟!

- بف.. كُلْ واشربْ ونَم.. وكل ما سوى ذلك هَم وغَم.

- وماذا عن الأرملة؟

- دعها للشيطان، فهذا أفضل ما تقوم به. لتبتعد عني الأبالسة.

ثم بصق ثلاث مرات على الأرض، وصلّب على صدره. وعُدت لأسأله من جديد:

- أتقرأ؟

- أبدًا! فعندما كنت ولدًا صغيرًا كانوا يدفعونني دفعًا نحو المدرسة. ولكني أصبت فجأة بالتيفوئيد، وأصبحت كما أنا الآن: أبله. وبفضل هذا نجوت من المدرسة.

بدا لي أن زوربا ملَّ أسئلتي السخيفة، فقد كان كل تفكيره متجهًا نحو الأرملة فأمسك ذراعي متململًا:

- أيها الرئيس...

ثم استدار مخاطبًا الأبله:

- ميميتو. سِر بعيدًا عنا قليلًا فلدينا حديث شخصي نودُّ أن نناقشه.

ومِن ثَم اقترب مني وقال هامسًا:

- أيها الرئيس سأنتظرك هنا. لا تجلب العار لجنس الذكور، فالشيطان أو الرب أرسل إليك هذا الطعام، ولك الخيار أن تقبله أو تكفر بهذه النعمة.. وما دمت تملك أسنانًا قوية كما يبدو فلماذا تكفر وترفض نعمته. اُمْدُد يدك وخُذ، لماذا خلق الله اليدين إن لم تكُن للأخذ؟ إذن خُذ. لقد مر عليَّ كل صنوف النساء، إلا أن هذه الأرملة مختلفة تمامًا، لها قدرة على أن تهدم قباب الأجراس... تلك الملعونة!

فضربت جبيني قائلًا:

- لا.. لا.. أنا في غِنى عن هذا الإزعاج.

قلتُ هذا وأنا أشعر باختلاج مشاعري وتوتر قاهر، فأنا أيضًا ولكن دون أن أُبدي ذلك أعجبني ذاك الجسد الشهي الذي شاهدته للحظات. كأنه حيوانٌ ضارٍ يفتش عن أنثاه.

لكنّ زوربا عاد ليسأل مدهوشًا:

- لا تريد هذه الإزعاجات! إذن ما الذي تريده؟

لم أرد عليه. فتابع منفعلًا:

- الحقيقة أن الحياة كلها إزعاجات، أما الموت فلا. وكي تعيش فيجب عليك أن تنزع حزامك وتبحث عن معركة.

لم أرد عليه ولم أنطق بكلمة، كنت أعلم في قرارة نفسي أن زوربا على حق، ولكن كانت تنقصني الشجاعة لأعترف. فنهر حياتي قد أخذ مجراه، ولم يكُن اختلاطي بالناس سوى مناجاة داخلية. فقد انحدرت حتى أسفل قاع. حتى إني لو خُيِّرت بين حب امرأة بارعة الجمال، وكتاب جيد عن الحب، لاخترت الكتاب دون تردد.

تنبه زوربا لغرقي بالتفكير. فتابع:

- اترك جميع الحسابات وابتعد عن كل الأرقام، وحطم الميزان اللعين الذي تقيس به تصرفاتك، فالفرصة قد سنحت لك لتكسب نفسك أو تخسرها. أصغِ لنصيحتي أيها الرئيس.. تناول ليرتيْن أو ثلاث ليرات ذهبية، لأن اللَيرات الورقية لا تملأ العين، وضَعْها في منديل حريري ولفّها جيدًا، وأرسِلها مع هذا الأبله إلى الأرملة، ولقِّنه بضع كلمات ليقولها لها: «**إن صاحب المنجم يرسل إليك تحياته، ويرسل إليكِ هذا المنديل.. وهو قليل.. لكن معه كثيرًا من الحب. ويقول لك أيضًا بأنه يجب ألَّا تشغلي رأسك بسبب العنزة. فإذا ضاعت إلى غير رجعة فنحن موجودون، لا تخشي شيئًا. لقد لمحكِ تَمُرِّين قرب الحانة، ومن ذلك الوقت انشغل قلبه بكِ**». وفي الليلة نفسها تقرع بابها، فكما تعلم يجب طرق الحديد وهو ساخن، وتعلل أمامها بأنك قد تهت في الظلام وتطلب قنديلًا، أو تخترع حيلة أخرى. كإصابة بالألم وأنك تحتاج إلى قدح من ماء.. أو الأفضل من ذلك أن تشتري عنزة وتتوجه نحو بيتها وتقول لها: «**هذه يا حبيبتي العنزة التي تاهت منكِ.. فأنا قد وجدتها**». كن على ثقة أيها الرئيس بأنها ستقدم لك مكافأة حسنة، وستدخلك إلى بيتها.. آهٍ لو أستطيع أن أشاركك ركوب هذا الفرس.. ستدخل النعيم على فرس أصيل. نعم فهذه هي الجنة الحقيقية، ولا تصدق ما يقوله الكهنة، فليس هناك أي فردوس آخر.

أدركت أننا اقتربنا من بيت الأرملة، لأن الأبله بدأ يدمدم بلحن وأغنية «**الكستناء بحاجة إلى الخمر.. والجوز إلى العسل... والصبية إلى شاب.. والشاب إلى صبية**».

وأسرع زوربا بخُطى واسعة، وقد ظهر عليه التوتر ثم توقّف، أخذَ نفسًا عميقًا متنهدًا، والتفت نحوي قائلًا:

- والآن؟

لكني أجبت بفظاظة.

- لنذهب من هنا.

وأسرعت مهرولًا.

لحق بي زوربا منفعلًا وهو يتمتم بكلام غير مفهوم، وعندما دخلنا الكوخ جلس على الأرض متربعًا وتناول السانتوري ووضعه على ركبتيه وقرب رأسه منه، غارقًا في التأمُّل. بدا كأنه ينصت لأناشيد أطربته وراح يفكر أيها يختار، أحلاها أم أكثرها يأسًا، وأخيرًا وقع اختياره، وراح ينشد لحنًا هادئًا حزينًا، وهو يرمقني بطرف عينه من وقت لآخر. شعرت بأنه يقول ما لا يستطيع أن يقوله بلسانه، يقول بشجاعة ولكن بواسطة السانتوري، وكان السانتوري يخبرني كيف تضيع حياتي عبثًا، وبأني أنا والأرملة حشرتان طفيليتان لا تعيشان إلا لمدة قصيرة تحت أشعة الشمس ومِن ثَم تفنيان إلى الأبد. وبعد هذا لا شيء على الإطلاق.

ثم قفز زوربا فجأة من مكانه، فقد أدرك أنه لا جدوى، وأشعل لفافة وقال:

- أيها الرئيس سأقول لك الآن سرًّا، أخبرني به عجوزٌ في «**سالونيك**». سأقوله لكَ ولو أن هذا ليس له أي منفعة، كنت آنذاك أعمل بائعًا متجولًا في «**ماسيدونيا**» أتجول بين القرى لأبيع الخيطان، والإبر، والأيقونات، واللبان، والتوابل. كنت أتمتع بصوت جميل كأنه صوت بلبل، ويجب أن أقول لك هنا بأن النساء تُشغفهّن الأصوات الجميلة. - ولكن ما الذي لا يُشغف الفاجرات؟! فالله وحده يعلم ما الذي يجري في داخلهن. فمن الممكن أن تكون بشعًا أو أكسح أو أحدب، وإذا كان صوتك عذبًا وتعرف كيف تسرح في الغناء فستسلب ألبابهن. المهم، كما قلت لك كنت بائعًا متجولًا في سالونيك، وكنت أتجوّل في الأحياء التركية، وقد أُعجبَت بصوتي كما يبدو إحدى النساء الأتراك، حتى إنها راحت تسهر الليالي لا تستطيع النوم، عندها نادت خادمتها العجوز وملأت يدها بالليرات الذهبية وقالت لها:

«**آمان... اطلبي من البائع الجوّال الحضور فيجب أن أراه.. فقد نفد صبري**». وفعلًا أتتني الخادمة وقالت: «**أيها الرومي، رافقني**». فأجبتها: «**أرافقكِ إلى أين؟**». فقالت بصوت خافت «**ابنة الباشا الفاتنة بانتظارك في غرفتها. هيا تعال معي**». ترددت إذ نما إلى سمعي أن الأتراك يقتلون المسيحيين الذين يتجولون في الأحياء التركية ليلًا. فقلت معترضًا: «**كلا.. كلا.. لن أذهب**». فأجابت مدهوشة: «**ألا تخاف الله؟ ألا تعلم أيها الرومي بأن مَن تدعوه المرأة لينام معها ولا يفعل يكون قد ارتكب ذنبًا عظيمًا، ففي يوم الحساب ستتنهد تلك المرأة، وتلك التنهيدة ستجرك إلى الجحيم مهما كانت الأعمال الصالحة التي قمت بها**».

وتنهد زوربا دوره وتابع:

- وإذا كانت جهنم حقًّا موجودة، فسيكون مصيري في الجحيم. ليس لأني سرقت وقتلت، وليس لأني عاشرت نساء الآخرين، كلا.. كلا، فالله يغفر هذه الأمور. بل سأذهب إلى الجحيم لأن امرأة كانت تنتظرني تلك الليلة في فراشها، ولم أذهب إليها.

وقام ليضرم النار وبدأ بتحضير الطعام، ومِن ثَم رمقني بطرف عينه وابتسم بازدراء وهمس:

- إن أسوأ من الأصم، هو مَن لا يريد أن يصغي.

وانحنى على النار ينفخ فيها بقوة ليشعل الأغصان الرطبة.

*

٩

بدأ الليل يلتهم النهار والشمس تهرب مسرعة أمام هجوم جيوش الظلام، وبدأنا نشعر في أعماقنا بقلق غريب عند اقتراب عصر كل يوم، كان يجتاحنا الرعب البدائي الذي عانى منه أجدادنا القدماء، حين كانوا يقولون إن الشمس خلال أشهر الشتاء يصيبها رذاذ المطر وتنطفئ قبل أوانها، وكانوا يتوقعون أنه في اليوم التالي ستنطفئ الشمس إلى الأبد، فيمضون لياليهم فوق المرتفعات يرتجفون.

بدا لي أن زوربا كان يشعر بهذا الخوف والقلق أكثر مني، وكي يتخلص من هذا الكابوس كان يتأخر في العمل داخل الأنفاق، ولا يخرج إلا بعدما ترتفع النجوم من جديد إلى السماء. كان قد تمكَّن من العثور على عرق من الفحم قليل الشوائب والرطوبة، وتملكه الفرح بالربح الكبير الذي ينتظره. الربح الذي يتحول بفضل مخيلته الخصبة وطموحه البعيد إلى أسفار ونساء ومدن.

فقد كان ينتظر ذلك اليوم الذي تنبت فيه أجنحته على أحر من الجمر، يرى المال كأجنحة يطير بها إلى حيث يشاء، لذلك أخذَ يقضي الليالي الطويلة في التجارب على مصعده الصغير باحثًا عن الانحناء الصحيح لتنحدر الجذوع فوقه بيُسر، وكما يقول جملته المفضلة: «**كأن الملائكة تحملها**».

وفي أحد الأيام تناول قطعة ورق كبيرة وبضعة أقلام تلوين، وراح يرسم الجبل والغابة والمصعد وبعض الجذوع المنحدرة بواسطة المصعد والمثبتة بالحبال، كل جذع مزوّد بجناحيْن بلون البحر الأزرق، ورسم داخل الخليج المستدير بعض المراكب وبعض البحارة وبعض الزوارق محملة بجذوع الأشجار، وفي زوايا الرسم الأربع يقف أربعة رُهبان وقد خرج من فمّ كل منهم شريطٌ وردي كُتِب عليه بخط واضح أسود: «**ما أعظمك أيها السيد وما أعظم ما أنجزت**».

وراح بعد هذا الرسم يضرم النار بسرعة ويحضر الطعام، تناولنا طعامنا بسرعة، وانطلق نحو القرية وعادَ بعد قليل مقطبًا، فسألته:

- أين كنت يا زوربا؟

- لا تهتم لذلك أيها الصديق.

وفي إحدى الليالي سألني بعد أن عاد من القرية:

- هل تعتقد بأن الربّ له وجود؟ قل لي نعم أو لا. ما الذي تقوله عن هذا أيها الرئيس؟ وإن كان موجودًا وهذا وارد جدًّا، فكيف تتصوره؟

هززت كتفي دون مبالاة ولم أجب. فتابع كلامه:

- لا تهزأ أيها الرئيس فأنا أتصور الرب يشبهني، لكن أكبر وأقوى، وهمومه أكثر من همومي. وهو دون شك خالد إلى الأبد، يجلس بهدوء وراحة على جلود خراف لينة، أما كوخه فهو السماء كلها.. ليس مصنوعًا من بقايا الخشب والصفائح المهترئة، وهو لا يحمل بيده اليمنى سيفًا ولا ميزانًا فهذه أشياء يحتاج إليها اللحّامين والعطارين، بل يحمل قطعةً كبيرة من الإسفنج ملأى بالماء وكأنها غيمة من المطر، وعلى يمينه يقع ملكوته، الفردوس والنعيم وعلى يساره جهنم المحرقة، وعندما تحضر إليه روحٌ من الأرواح عارية تمامًا وتعيسة، بعد أن تاهت عن جسدها. يحدجها الرب بنظرة وهو يكتم ضحكته متظاهرًا بالغضب، ويرفع صوته الجهوري: «**اقتربي مني أيتها الملعونة**». ويبدأ السؤال، ويأتي الجواب، وترتمي الروح عند أقدام الربّ مسترحمة، ضارعة، متوسلة.. وتبدأ بتعداد خطاياها وضحاياها، تبدأ دون أن تنتهي. ويتململ الرب ضجرًا، ويتثاءب ويصيح بها: «**اسكتي فقد صدّعتِ رأسي بكثرة كلامك**». ومِن ثَم يمسح بإسفنجته كل ذنوبها ويقول لها آمرًا: «**هيا، اغربي عن وجهي وادخلي الجنة! يا بطرس.. دع هذه البائسة تدخل**». فالله أيها الرئيس كما يجب أن تعلم سيدًا عظيمًا، والأخلاق العالية أن تغفر وتسامح عندما تستطيع ذلك.

إني أذكر تمامًا بأني في تلك الليلة غرقت بالضحك، بينما كان زوربا غارقًا في أقواله العميقة، لكن «**أخلاق الله العالية**» هذه شعرت وكأنها تتغلغل في جسدي لتملؤني بالكرم والقوة الخارقة.

وفي ليلة أخرى ممطرة كنا في كوخنا نضع الكستناء بين طيات الجمر في الموقد. التفت زوربا نحوي وحدق إلى وجهي كأنه يحاول أن يقرأ أفكاري،

وأخيرًا لم يَعُد يستطيع كتمان ما يعتمل داخله:

- أريدك أن تقول لي أيها الرئيس، ما الذي تنتظره مني؟ ما الذي تنتظر لتمسكني من أذني وترمي بي خارجًا؟ لقد أخبرتك قبلًا بأنهم يسمونني «ميليديو» لأني حيثما أُقِمْ يَحْلُلْ الخراب ولا يبقى حجرٌ فوق حجرٍ، فمشاريعنا لا شك تسير نحو الهلاك. امسكني وارْمِ بي خارجًا.

- كلا، إني معجب بك. وهذا يكفي.

- إذن فأنت لم تدرك ما أقصد، فليس لرأسي أي ثقل أو توازن، من الممكن أن يكون رأسي كبيرًا جدًّا أو صغيرًا جدًّا، ولكن بكل تأكيد غير متوازن. أصغِ لما أقول وستفهم: بعد أن مرت الأيام والليالي منذ رأيت تلك الأرمَلة التي تركتني بعدما ضاعفت همومي وسحقت راحتي. ليس بسببي أنا، وأقسم بذلك، فأنا لن أقترب منها أبدًا، فهي ليست من فصيلتي، ولكني لا أريد أن ينساها الناس، لا أريدها أن تأوي للفراش وحيدة، فهذا ما يدعو للأسف والخجل، ولا أستطيع أن أتحمله. لذلك فإني أتجول كل ليلة حول حديقتها، أتدري لماذا؟ لأتأكد أن ثمة رجلًا سيشاركها فراشها. فأتركها مطمئنًا.

غرقت مقهقهًا.. فقال:

- لا تهزأ مني أيها الرئيس! إذا نامت امرأة وحيدة، فهذه خطيئة نتحملها نحن الرجال، وفي يوم الدين سنحاسب على هذا. فالربّ يغفر جميع الذنوب، فهو يحمل بيده الإسفنجة، لكن هذا الذنب لن يغفره على الإطلاق. يا لتعاسة الرجل الذي يستطيع أن يعاشر امرأة ويرفض أو لا يفعل، ويا لتعاسة المرأة التي تستطيع أن تضاجع الرجل ولا تفعل. لا تنسَ كلام الخادمة التركية.

وصمت لحظة ثم سأل:

- هل تعتقد بأن الإنسان عندما يموت يعود إلى الأرض في شكلٍ آخر؟

- كلا، لا أظن ذلك.

- وأنا لا أعتقد ذلك أيضًا. ولكن لو كان هذا ممكنًا، فالناس الذين أكلمك عنهم، الذين لم يقبلوا أن يقوموا بالواجب الإنساني وهربوا من

طريق ممارسة الحب، لا شك بأنهم سيرجعون إلى الأرض على هيئة بغال.

وساد الصمت من جديد ليغرق في التفكير، وفجأة لمعت عيناه كأنه اكتشف شيئًا خفيًّا، وسأل:

- مَن يدري؟! فلربما جميع البغال التي نستعملها اليوم هي هؤلاء الناس الأجلاف، الذين كانوا خلال حياتهم السابقة رجالًا، دون أن يكونوا كذلك في الواقع. ولهذا تحولوا إلى بغال، ولهذا فهم يرفسون دائمًا. ماذا تقول في ذلك أيها الرئيس؟

فأجبت مبتسمًا:

- الذي أقوله إن عقلك بالتأكيد أقل اتزانًا من المعدل اللازم. هيا انهض وائتِ بالسانتوري.

- لا. لا يوجد سانتوري الليلة، أرجو ألَّا تغضب. فالليلة أودُّ أن أتكلم.. وأتكلم.. وأهرفُ بالترهات. أتعلم لماذا؟ لأن رأسي مُمتلئ بالهموم. النفق الجديد سيسبب لنا بعض المشكلات وأنت تتكلم عن السانتوري!

وبعد ذلك أخرج من بين الجمر بعض حبات الكستناء، وقدّم لي بعضها وملأ الأقداح بالعرق، وقلت وأنا أقرع كأسي بكأسه:

- ليساعدنا الله.

فأعاد زوربا ما قلته.

- ليساعدنا الله.. إذا أراد. ولكن حتى هذا الوقت لم نجنِ أي فائدة منه.

وعبّ كأسه مرة واحدة واضطجع فوق فراشه قائلًا:

- غدًا سأكون بحاجة إلى قوة خارقة. فعليَّ أن أقاتل ألف شيطان. تصبح على خير.

في صباح اليوم التالي خرج زوربا إلى المنجم باكرًا، حيث كانوا قد شقّوا نفقًا طويلًا بعد غرق الفحم الجديد، لكن المياه راحت تتسرب من السقف وتُغرِق أرجُل العمال في الوحل. وكان منذ يومين قد أعدّ الخشب ليدعم سقف النفق، لكنه كان قلقًا، لأن جذوع الأشجار التي أحضرها لم تكُن

قوية. وبحواسه الدقيقة كان يشعر بأن هذه الجذوع لن تكون كافية، الحقيقة لقد كان زوربا يتمتع بشعور غريب لما سيحدث. كان يسمع بنفسه ما لم ينتبه إليه الآخرون، من طقطقة الدعامات التي تئن تحت وطأة الوحول والأمطار والسيول التي تجري فوق سطح الأرض.

فإن الذي زاد من قلق زوربا في ذلك المساء، أنه في اللحظة التي كان يستعد فيها لدخول النفق مرّ كاهن القرية، الأب إسطفان راكبًا بغلته ومسرعًا نحو الدير، ليُلقِّن الأسرار الإلهية لراهبة تحتضر. وتمكّن زوربا وبسرعة عجيبة من البصق ثلاث مرات على الأرض، قبل أن يرد على الكاهن تحية الصباح، ويجيبه بطرف فمه:

- أهلًا، صباح الخير أيها المحترم.

قالها بصوت عالٍ، لكنه أضاف بصوت يشبه الهمس:

- ولتحلَّ لعناتك عليَّ!

ومع ذلك فإنه شعر بأن هذه التعويذة التي قام بها لم تكُن كافية، فاختفى في النفق مسرعًا.

كانت رائحة الفحم والغازات تفوح بقوة من النفق، بينما يقوم العمال بتدعيم السقف بالأخشاب الكبيرة. «**صباح الخير**»، قالها زوربا مقطبًا جبينه واتجه إلى عمله دون إبطاء.

وفجأة توقف عن العمل وبدا كأنه يصغي لصوت غير موجود، وأمر العمال بالتوقف. كان زوربا في علاقة مع الفحم، يتحد به، كما يتحد الفارس بحصانه أو كالقبطان ومركبه، ليشكلا معًا جسمًا واحدًا. هكذا كانت حالة زوربا، يشعر بالنفق وتشعباته وأوردته وشرايينه كما يشعر بأعصابه وقلبه في جسده.

أشار إلى العمال ليصمتوا، وراح ينصت وهو يمد أذنه الكبيرة الممتلئة بالشعر، وفي هذه اللحظة وصلت أنا. فقد استيقظت وكأن شعورًا غريبًا دفعني لأنهض من الفراش، لكني دون وعيٍ وجدتُ نفسي متوجهًا نحو المنجم. ووصلت في اللحظة نفسها التي كان زوربا يرهف السمع ويقول:

- لا شيء.. لا شيء خُيِّل إليَّ أني... حسنًا إلى العمل أيها الرجال.

ولاحت منه التفاتة نحو مكاني، فرفع حاجبه متعجبًا:

- ما الذي تفعله هنا في هذا الوقت المبكر أيها الرئيس؟

ومِن ثَم تقدم مني، وقال بصوت أشبه بالتمتمة:

- لماذا لا تصعد إلى السطح.. وتملأ رئتيك بالهواء النقي؟

- ما الذي يحدث؟

- لا شيء، لا شيء. فلقد خُيِّل إليَّ أشياء، ذلك كله بسبب الكاهن الذي مر في الصباح. هيا اصعد.

- إذا كان الخطر يهددكم، أليس من العار أن أترككم؟

- نعم.

- أكنت تركت المنجم أنت؟

- لا.

- إذن؟!

فثارت أعصابه وقال منفعلًا:

- إن التدابير التي أقوم بها من أجل زوربا، ليست هي نفسها التي أقوم بها من أجل الآخرين. ولكن ما دمت قد أدركت بأن من العار أن تتركنا، فأبق.

أمسكت مصباحًا، وأخذت أروح وأجيء وسط الأوحال، متأملًا في باطن الأرض، كم من غابات دُفنت هنا؟ أكلت الأرض أشجارها، ودفنتهم في مقبرتها لتصنع من أجسادها فحمًا، ثم يأتي زوربا ليخرج جثثهم بعدما صارت كنزًا. كنت أتابعه وهو يتناول مطرقته ويدق بها بعض المسامير الطويلة ليثبتها في السقف، كان متحدًا تمامًا مع الأرض والمطرقة والمسامير، يكافح الجبل بكامله ليتمكّن من الإمساك بالفحم بالخديعة والحِيَل.. بالقوة والعنف.. يشم رائحة الفحم حيثما كان، كأنه يبحث عن عدو، ويضرب مواطن الضعف فيه بغير تردد. قد غطَّاه الفحم والوحل حتى قمة رأسه، ولم يبقَ به شيءٌ نظيفٌ سوى ثغرتيْ عينيه، كأنه قد تنكّر ليخدع عدوه ويجهز عليه.

صحت مشجعًا زوربا وقد تملكني إعجاب ساذج:

- هيا يا زوربا البطل.

لكنه لم يُحمِّل نفسه عناء الالتفات نحوي. كيف يمكنه أن يتحدث في هذه اللحظة مع فأر قارض للورق يمسك بيده بقية قلم صغير تافه بدلًا من معول؟ كان غارقًا بعمله وليس عنده أي وقت ليضيعه حتى في لفتةٍ نحوي. لقد حدثني مرة عن هذا الأمر قائلًا: «**لا تكلمني عندما أكون غارقًا بالعمل.. فقد أنفجر**». فسألته: «**تنفجر! لماذا؟**» فقال: «**ها قد عدنا إلى «لماذا» من جديد، كيف أوضح لك ذلك؟ عندما أكون في العمل أغرق فيه بكل حواسي، وتصبح أعصابي متوترة في جميع أنحاء جسدي. يكون رأسي كله عند الفحم والصخر، أو عند السانتوري، فإذا ما لمستني أو كلمتني ورددت عليك سأنفجر**». عندما تذكرت حديثنا ذلك حانت مني التفاتة نحو ساعتي التي كانت تشير إلى العاشرة فقلت للعمال:

- هيا لقد حان وقت الإفطار.

وخلال لحظة واحدة رمى جميع العمال أدواتهم في إحدى زوايا النفق، ومسحوا العرق عن جبهاتهم، وجهزوا أنفسهم للخروج من النفق، لكن زوربا بدا كأنه لم يسمع ما قلته أو لم يود أن يسمع، وفجأة عاد ليصغي كأنه يسمع صوتًا بعيدًا، وعاد القلق يرتسم على محياه، فأشرت للعمال أن ينتظروا، وناولت كلًا منهم سيجارة ووضعت يدي في جيوبي. وفجأة قفز زوربا ووضع أذنه على حائط النفق، وعلى ضوء القنديل شاهدت شفتيْه مفتوحتيْن برعب.

فهالني منظره فصرخت به:

- ما الذي يجري يا زوربا؟

وفي تلك اللحظة خُيِّل إلينا أننا سمعنا طقطقة، وأن السقف سينطبق علينا، وصاح زوربا بصوتٍ مُخيف:

- اهربوا.. اهربوا.

تراكضنا نحو المخرج. إلا أننا ما أن اقتربنا من الدعامة الأولى حتى سمعنا صوت طقطقة أسرع وأقوى، وفي هذا الوقت كان زوربا قد تناول جذع شجرة ضخم ليسند به الدعامة المتخاذلة، وقلت في نفسي: «**ليته يستطيع أن يقوم بذلك! فهذا سيمنحنا الوقت الكافي للخروج من النفق**».

وعلت صرخة زوربا ثانيةً. لكنها كانت صيحة مكتومة كأنها خرجت من أعماق الأرض.

- اهربوا...

استجبنا لأمره، وقد تملَّكنا الجُبن الذي يهزم الرجال في المواقف الحرجة، وهربنا دون أن نلتفت لزوربا. وبعد أن خرجنا تنبهت فجأة أن زوربا لا يزال داخل النفق وصرخت جزعًا:

- زوربا.. زوربا.

بذلت أقصى جهدي ليكون صوتي عاليًا ليسمعه، لكني علمت بعد ذلك بأن صوتي لم يتعدَّ أوتار حنجرتي، فقد كتمه الرعب.

تملَّكني الخجل، وقفزت نحوه وذراعي ممدودتين. في هذا الوقت كان زوربا قد انتهى من تثبيت الدعامة الكبيرة، وبدأ بالركض عبر النفق إلى المخرج، وبسبب سرعته في العتمة واندفاعه خارجًا ودون شعور منا سقط كل منا بين ذراعي الآخر.

وصرخ بي:

- يجب أن تخرج.. اخرج.

وبدأنا الركض حتى وصلنا إلى النور. كان الخوف قد جمع العمال إلى بعضهم بعضًا عند المدخل، والفزع بادٍ عليهم.

وتناهى لمسامعنا صوت الطقطقة الثالثة، لكنه كان أعلى هذه المرة، كأنه صوت شجرة تضربها العاصفة، وفجأة علا صوت مزمجر كأنه الرعد، جعل الجبل يهتز من الداخل وانهار النفق.

راح العمال يرسمون الصليب ويدمدمون:

- يا لقوة الله!

وصرخ زوربا في العمال غاضبًا:

- هل تركتم معاولكم في الداخل؟

لكنّ العمال لم يردوا. فازدادت ثورة زوربا:

- لماذا لم تحضروها معكم؟ لقد بللتم سراويلكم يا شجعان.. وا أسفااه على المعدات.

فتدخلت قائلًا:

- أوه. إن هذا ليس الوقت الذي نتحدث فيه عن المعاول. دعنا نشكر الله بأن الرجال كلهم بخير.. الفضل لك يا زوربا. فنحن جميعًا ندين لك بحياتنا.

- إني أشعر بالجوع. فقد هدّني الأمر.

أخذ صرة طعامه التي كان قد تركها على صخرة، وفتحها وتناول بعض الخبز والزيتون والبصل، وبعض البطاطا المسلوقة وقليلًا من الخمر.

والتفت نحو العمال وفمه منتفخًا:

- هيا أيها الرجال لنأكل.

وراح يلتهم الطعام بسرعة كما لو أنه قد أضاع قدرًا كبيرًا من قوته وراح يعوضها. كان يأكل وظهره منحنٍ دون أن ينبس بكلمة، ثم تناول وعاء الخمر وراح يسكبه في حلقه الجاف.

عندها تشجع الرجال وتناولوا زادهم وراحوا يأكلون. تربعوا على الأرض حول زوربا، يأكلون ويحدقون إليه، كانوا يودون لو يرمون بأنفسهم على أقدامه ويلثمون يديه، لكنهم كانوا يعلمون بأنه غريب الأطوار فلم يجرؤا على ذلك.

وأخيرًا تقدم «**فيشليس**» وهو أكبرهم سنًّا، وقرر أن يقول شيئًا:

- لو لم تكُن هناك أيها المعلم الطيب. لكان أطفالنا الآن أيتامًا.

- اسكت.

قالها زوربا بفمه الممتلئ بالطعام. ولم يجرؤ أحدٌ بعده أن يأتي بأي حركة.

I.

«مَن هو إذن الذي خلق تلك المتاهة من الشكوك، هذا المعبد من الكبرياء، هذه الجرّة من الخطايا، ذاك البستان المزروع بألف خدعة، هذا الباب المؤدي إلى الجحيم، تلك السلة الطافحة بالأكاذيب، وهذا السم الذي طعمه كالعسل، هذه السلاسل الأبدية التي تربط الناس بالأرض: المرأة!».

كنت بهدوء وببساطة أنسخ هذه الأنشودة البوذية، جالسًا على الأرض قرب الموقد، أجرب تعويذة تِلو تعويذة، لأطرد من مُخيّلتي ذاك الجسد المُبلل بالمطر، والذي ظل يمر أمامي جيئة وذهابًا طوال ليالي ذاك الشتاء الذي مضى. عند سقوط النفق حيث كادت حياتي أن تذهب، لا أدري كيف طفحت تلك الأرملة في ذهني، كأنها انبجست من دمي، كانت تدعوني بلهجة آمرة شرسة، وتصيح عليَّ مؤنبةً:

- تعال.. تعال.. ليست الحياة إلا كالبرق، سريعة الزوال. تعال بسرعة، تعال.. تعال.. تعال قبل أن يفوت الأوان.

كنت أعلم تمامًا بأن هذا هو (مارا) روح الشر وقد تَمثَّل في جسد امرأة مُغرٍ وشهي. كافحت ضدها بقوة، كنت أكتب: «**بوذا**». تمامًا كما كان يفعل المتوحشون ويرسمون بألوان الأحمر والأسود الحيوانات المفترسة التي تحوم حولهم، يحاولون تثبيت هذه الحيوانات بالصور على الجدران، حتى لا تنقض عليهم وتفترسهم.

منذ ذلك اليوم الذي كنت على وشك أن أُسحق فيه، والأرملة تمر في سماء عزلتي الملتهبة، ترنو إليَّ بأردافها تهزها بغنج. خلال النهار تكون قوتي مكتملة، فأستطيع أن أتغلب عليها، كتبت كيف ظهر الشيطان لبوذا في هيئة امرأة، وكيف أسند ثدييه إلى ساقي الكاهن، وعندما شعر بوذا بالخطر جمع قوته، وعندها اضطر الشيطان إلى الهرب.

كنت عند كل جملة أكتبها أشعر بانفراج جديد، وتزداد شجاعتي، أشعر بالشر ينسحب بسرعة هاربًا من قوة التعويذة السحرية، خلال النهار أقاوم بكل قوتي، فإذا نزل الليل خارت قواي وسقط السلاح من يدي، وتُفتح الأبواب الداخلية، وتدخل الأرملة. ثم أستيقظ في الصباح متعبًا منهكًا، وتبدأ الحرب

من جديد، أبدأ الكتابة في الصباح وعندما أرفع رأسي عن الورق يكون وقت الغروب قد اقترب، والنور قد بدأ يتقهقر، كأنه مُطَارد، ويسقط الظلام فوقي. كانت الأيام تقصر وعيد الميلاد يقترب، وبكل قوتي ألقي بنفسي في المعركة، وأقول لنفسي: إني لست وحدي، هناك قوة كبيرة تساعدني في الصراع، إنه ضوء النهار، نفشل أحيانًا وننتصر أحيانًا، لكن دون يأس، النور يحارب وأنا أحارب معه.

وخُيِّل إليَّ أني في صراعي مع الأرملة كنت أتبع أنشودة كونية عظيمة. أقول في نفسي: «**هذه الطبيعة قد اختارت هذا الجسد لتطفئ الشعلة الحرة في داخلي**». وأرد على نفسي: «**إن القوة الإلهية هي التي تحول هذه المادة إلى روح فوارة، كل رجل بداخله شيء من هذه القوة، وهكذا يستطيع أن يحول الخبز والماء واللحم إلى أفكار وأعمال. كان زوربا على حق حين قال: «قُل لي ماذا تفعل بما تأكله، أقُل لك مَن أنت»**».

وأنا بكل ألم كنتُ أُحوّل الرغبة الوحشية للجسد إلى بوذا. عشية مساء عيد الميلاد رآني زوربا وأنا منهمك في حربي ضد ذلك الشيطان، فسألني:

- بماذا تفكر أيها الرئيس؟ لا تبدو على ما يرام!

تظاهرت بأني لم أسمع. لكن زوربا لم يكُن ليستسلم بهذه السهولة، فأردف:

- لا تزال شابًّا أيها الرئيس.

وفجأة بدا صوته مُرًّا غاضبًا:

- أنت شاب قوي، تأكل جيدًا وتشرب جيدًا، وتتنشق هواء البحر النظيف، وتكدس قواك، لكن ماذا تصنع بها؟ إنك تنام وحدك، وهذا رديء جدًّا بالنسبة إلى هذه القوة. يجب أن تذهب الليلة إلى هناك. لا تُضيّع الوقت، فكل شيء سهل في هذا العالم، كم مرة يجب أن أقول لك ذلك؟ أو لا تذهب ودع الأمور تتعقد!

كان مخطوط بوذا مفتوحًا أمامي، وبينما كنت أُصغي لزوربا رُحتُ أُقلب الصفحات، كنت أعلم بأنها تدلني على الطريق الأمين. إنه (مارا) من جديد. ذلك الشيطان المُجرِّب الذي كان يدعوني.

أصغيت لزوربا دون أن أقول كلمة، متابعًا تصفُّح المخطوطة، ورحت أُصفّر محاولًا إخفاء اضطرابي، لكن زوربا عندما رآني صامتًا انفجر:

- إنها ليلة الميلاد، هيا أسرع. حاول أن تصل إليها قبل أن تذهب إلى الكنيسة. المسيح سوف يولد الليلة، هيا اذهب وقُم بمعجزتك.

نهضت متضايقًا وقلت:

- هذا يكفي يا زوربا، كلٌّ يسير حسب طريقه، الرجل كالشجرة تمامًا. هل تعاركت يومًا مع شجرة تين لأنها لا تثمر كرزًا؟ حسنًا هذا يكفي. أوشك الليل أن ينتصف، دعنا نذهب إلى الكنيسة لنشاهد ولادة المسيح بأنفسنا.

وضع زوربا قبعته الشتوية فوق رأسه قائلًا بانزعاج:

- حسنًا إذن، لنذهب ولكني أريدك أن تعلم بأن الله سوف يكون مسرورًا أكثر لو ذهبت إلى الأرملة هذه الليلة كالملاك جبريل. لو أن الله اتبع طريقتك أيها الرئيس، لما توجّه نحو مريم ولما ولد المسيح. وإذا سألتني أي طريق يسلكه الله سوف أقول: الطريق الذي يؤدي إلى مريم. ومريم هي الأرملة.

وانتظر جوابي بهدوء، ولكن دون جدوى، فدفع الباب بقوة، واندفع خارجًا وهو يضرب الحصى بطرف عصاه، ويردد:

- أجل، مريم هي الأرملة.

- دعنا نمضي، لا تَصِح.

أخذنا نُسرِع الخُطى في تلك الليلة الشتوية، كانت السماء صافية، وبدت النجوم معلقةً في السماء، مثل كرات من النار، وبينما نسير عبر الشاطئ، بدا الليلُ كأنه وحشٌ كبيرٌ أسود مُنبطح حتى حافة الماء، ورحت أقول لنفسي: **«بدءًا من هذه الليلة سيصبح النور قويًّا ويحارب وينتصر، كأنه قد وُلِد هذه الليلة مع الطفل الإله».**

كان كل القرويين قد تجمعوا في باحة الكنيسة الدافئة. وقف الرجال في الأمام والنساء خلفهم وأيديهم مُصلبة، بينما كان الكاهن الطويل إسطفان يتجول هنا وهناك ملوحًا بمبخرته. يُنشد بصوت قوي، مستعجلًا مولد المسيح بسرعة، ليعود إلى بيته ويتناول الحساء الدافئ والنقانق واللحم المشوي بعدما أتعبه الصوم الطويل.

لو قيل «**اليوم يولد النور**» لما هز ذلك قلب الإنسان، ولَمَا أصبحت الفكرة أسطورة، ولَمَا غزت العالم؛ إذ إنها ما كانت لتعبِّر إلا عن فكرة فيزيائية، ولما كانت أثارت مخيلتنا، أعني أرواحنا. ولكن النور الذي وُلِد في الشتاء الميت قد تحول إلى طفل، والطفل أصبح إلهًا، ولمدة عشرين قرنًا أرضعته أرواحنا.

انتهى الاحتفال المقدس عند منتصف الليل، وُلِدَ المسيح، وأسرع القرويون الجياع السعداء إلى بيوتهم ليحتفلوا بالعيد، ليشعروا في أعماقهم بلغز التجسد. إن المعدة هي الأساس المتين، الخبز، الخمر، واللحم هم الأُسس الأولى. فمع الخبز والخمر واللحم نستطيع أن نخلق الربّ.

كانت الكواكب تتلألأ في السماء فوق الكنيسة، وكان الطريق يبدو كأنه نهر يسير من أول السماء إلى آخرها، لمعت نجمة خضراء كأنها ياقوتة كبيرة، وتنهدت بقلق، واستدار زوربا نحوي قائلًا:

- أتؤمن أيها الرئيس.. بأن الربّ قد أصبح حقًّا إنسانًا وولد في إسطبل؟ أتؤمن بهذا حقًّا، أم أنك تسخر من هؤلاء الناس؟

- مِن الصعب جدًّا أن أؤمن بذلك يا زوربا. بل من الصعب أن أقول لك بأني مؤمن بهذا أو غير مؤمن. وأنت؟

- لا أستطيع أن أقول بأني مؤمن بهذا أيضًا، عندما كنت صغيرًا لم أكن أصدق روايات الجنيات التي كانت تقصها جدتي، ومع هذا فقد كنت أرتعد من الخوف. فأضحك وأبكي تمامًا كأني أصدقها، وعندما نبتت أول شعرة في لحيتي لم أَعُد أهتم لمثل هذه الحكايات، وأحتقرها أيضًا. أما الآن وفي نهاية أيامي أعود لأؤمن بها ثانية، يا لهذا الإنسان من لغز.

سرنا في الطريق المؤدي إلى منزل السيدة هورتنس. ومِن ثَم بدأنا نهرول كأننا حصانان اشتما رائحة الإسطبل. وقال زوربا:

- إن هؤلاء الآباء القديسين خُبثاء جدًّا، يصلون إليك عن طريق معدتك، فكيف تستطيع أن تهرب منهم. فهم يقولون بأنه يجب ألَّا تأكل لحمًا ولا تشرب خمرًا لمدة أربعين يومًا، لماذا؟ لتشتهي اللحم والخمر.. آه يا لهم من خنازير وقحة.. إنهم يعرفون كل حِيَل هذه اللعبة.

وراح يسير أسرع وهو يردد:

- هيا أسرع أيها الرئيس.. فلا بد وأن الديك الرومي قد نضج.

عندما وصلنا إلى غرفة السيدة الطيبة، وجدنا الطاولة مغطاة بشرشف أبيض كبير، وفوقها الديك الرومي مُلقى على ظهره تتصاعد منه الأدخنة ورجلاه مرتفعتان، بينما يرسل الموقد دفئًا محببًا، وقد عقدت السيدة هورتنس شعرها خصلًا وارتدت ثوبًا طويلًا، ذا لون وردي شاحب بأكمام كبيرة، وحول رقبتها وضعت شريطًا أصفر ضيقًا بعرض إصبعين، وقد عطّرت نفسها برائحة الليمون الناعمة.

ورحت أقول في نفسي: «**كم هو كبير هذا الانسجام الذي فوق الأرض، كم ينسجم قلب الرجل مع هذه الأرض. هذه هي المُغنية العجوز قد وقعت هنا أخيرًا. بعد أن زارت أماكن كثيرة، وقعت فوق هذا الشاطئ المنعزل لتجتمع في هذه الغرفة البائسة العناية المقدسة وحرارة الأنوثة. الأكل النظيف الذي حُضِّر بعناية، والموقد المشتعل.. والجسد المزين، وعبير الليمون. كيف تتحول كل هذه المسرّات الجسدية وبكل بساطة إلى سرور عارم للروح**».

وفجأة قفز قلبي، وشعرت في تلك الليلة الهادئة بأني لم أكُن وحيدًا فوق هذا الشاطئ المهجور، هناك مخلوق مليء بالأنوثة واللطف والصبر كان يسير نحوي، إنها الأم، الأخت والزوجة، وأنا الذي كنت أظن بأني لا أحتاج إلى شيءٍ، شعرت بأني بحاجة إلى كل شيء.

لا بد وأن زوربا شعر بمثل هذه الرغبة، لأننا ما كِدنا ندخل الغرفة، حتى اندفع نحو المغنية العجوز المزينة وضمها إلى صدره قائلًا:

- المسيح قد وُلِد.. السلامُ لكِ أيتها المرأة.

والتفت إليَّ ضاحكًا:

- أترى أيها الرئيس كم أن المرأة مخادعة، حتى إنها تستطيع أن تجذبك بأصابعها الصغيرة.

جلسنا على الطاولة وبسرعة التهمنا الأطباق، وشربنا النبيذ حتى شعرنا بأجسادنا قد انتشت، وأرواحنا قد اهتزت بالسعادة، وعادت الحيوية لزوربا من جديد وهو يقول:

- كُلْ واشربْ أيها الرئيس. كُلْ واشربْ وانتشِ. غنِّ أيضًا أيها الرفيق، غنِّ كالرعاة: المجد لله في الأعالي، والمجد للأبطال. لقد وُلِد المسيح، إنه لشيء مرعب. ارفع صوتك لتجعل الله يسمعك ويشعر بالسعادة.

لقد عادت له روحه المرحة من جديد، ولم يكُن شيء ليوقفه، وأخذ يردد:

- لقد وُلِد المسيح.. يا سليمان الحكيم. يا أيها الكاتب الرديء.. لا تصدع رأسك: وُلِدَ أم لم يُولَد؟ بالتأكيد لقد وُلِد. فلا تتحامق، لو أخذت عدسة مكبرة ونظرت إلى الماء الذي تشربه ـإن مهندسًا قال لي هذاـ سوف ترى أن الماء يمتلئ بالديدان الصغيرة جدًّا، ولن تشربه، وتموت من الظمأ. فحطِّم عدستك أيها الرئيس، لتختفي الديدان الصغيرة، فتشرب وترتوي.

والتفت نحو رفيقته ورفع كأسه الطافح وقال:

- يا بوبولينتي العزيزة، يا رفيقة السلاح. سوف أشرب نخب صحتك. لقد شاهدت كثيرًا من التماثيل المعلقة فوق مقدمات المراكب، تمسك التماثيل صدورها بأيديها، وخدودها وشفاهها مصبوغة بلون أحمر قانٍ، لقد أبحرت في كل البحار ودخلت كل الموانى. وعندما يتهشم المركب توضع التماثيل فوق الأرض اليابسة، وحتى نهاية أيامها تظل متكئة على جدار الصيادين حيث يذهب القباطنة ليشربوا. بوبولينتي، عندما أشاهدكِ الليلة على هذا الشاطئ ومعدتي ملأى بخير الطعام وعيناي مفتوحتان على وسعهما؛ يتبين لي كأنك مقدمة سفينة عظيمة وأنا آخر ميناء لكِ. وأنا الحانة التي يأتي إليها القباطنة ليشربوا. تعالي واتكئي عليَّ، وأرخي أشرعتك.. أشربُ الآن هذا النبيذ الكريتي نخب صحتك يا جنيتي.

لمست كلمات زوربا شغاف قلب السيدة هورتنس، فغُلِبت على أمرها وراحت تبكي، وهي تتكئ على كتف زوربا.

فهمس زوربا في أذني:

- أترى أيها الرئيس؟ إن خطبتي العظيمة ستسبب لي المشكلات، فهذه العاهرة لن تدعني أذهب الليلة، لكن ماذا أفعل فأنا أشفق عليهن،

المسكينات، أجل أشفق عليهن.

وصاح بقوة على جنيته:

- لقد وُلِد المسيح، نخب صحتنا.

ومرر ذراعه تحت ذراع السيدة، وقرعا كأسيهما متعانقيْن وجرعا النبيذ وهما ينظران كلٌّ منهما للآخر بنشوة وضياع.

لم يكُن الفجر بعيداً عندما تركتهما بإرادتي. تركت الغرفة الدافئة والسرير الكبير، وعدت إلى درب وحدتي، وقد احتفلت القرية وذهبت في نوم عميق، كانت النوافذ مغلقة والصمت يخيم على الطرقات، والبحر يزمجر تحت الليل البارد، وكوكب الزهرة يتراقص بفرح في الشرق. رحت أسير على حافة الشاطئ أداعب الموج الذي يحاول الوصول إليَّ ليبللني وأنا أهرب. شعرت بالغبطة وقلت لنفسي: «**هذه هي السعادة الحقيقية، لا أطمع بشيء، وأعمل بجدٍ كالحصان، أملك كل المباهج، لأعيش بعيداً عن الرجال، لا أحتاج إليهم، ولكن أحبهم. أشارك في عيد الميلاد، آكل وأشرب جيداً وأتجنب الفخاخ، أمشي في المساء والبحر على يميني والأرض من تحتي، والنجوم معلقة من فوقي**». شعرت فجأة داخل قلبي بأن المعجزة الأخيرة قد تمت، لتصبح حياتي أسطورة خيالية.

كانت الأيام تمر وأنا أتظاهر بالقوة والشجاعة، ولكن في أعمق أعماق قلبي كنت أشعر بالحزن. خلال هذا الأسبوع من الاحتفالات، عادت الذكريات تملأ صدري بموسيقى بعيدة محببة، وشعرت بحقيقة الأسطورة القديمة وعدالتها: «**إن قلب الإنسان ليس إلا حفرة ملآنة بالدم، وعلى أطراف هذه الحفرة يرتمي أحباؤنا الذين ماتوا على بطونهم يلعقون دماء القلب، ليعودوا للحياة من جديد. وأحبهم إليك هو مَن يشرب أكبر قدر من دمك**».

ها هو ذا قد حلّ مساء ليلة رأس السنة، وقد اقترب بعض أطفال القرية يحملون مركبًا مصنوعًا من الورق، وبدؤوا يغنون بأصواتهم البريئة أغنية رأس السنة:

«القديس «باسيل» العظيم جاء من كايساريا وطنه الأم..

كان يقف هنا على هذا الشاطئ الكريتي قرب البحر الأزرق..

وهو يتكئ على عصاه..

وفجأة سقطت أوراق الشجر والزهور فوق العصا..

سنة طيبة لكم أيها المسيحيون..

ليمتلئ بيتك بالذرة والزيت والخمر أيها المُعلم..

ولتبقى زوجتك عمود بيتك الرخامي..

ولتتزوج ابنتك، ولتنجب تسعة صبيان وبنتًا..

وليحرر أبناؤك القسطنطينية. مدينة ملوكنا...».

كان زوربا يصغي بانتباه، ثم تناول الطبل من الأولاد وراح يقرعه بوحشية، كنت أصغي وأراقب دون أن أتفوه بكلمة، وأشعر أن ورقة جديدة تسقط من أعماق قلبي، ومع السنة الجديدة كنت أتقدم خطوة جديدة نحو الحفرة السوداء.

وبينما كان زوربا يشارك الأطفال الغناء بأعلى صوته سألني:

- ما الذي يجري أيها الرئيس؟! ماذا دهاك أيها الرجل؟ وجهك شاحب بلون الأرض إنك تبدو كما لو أنك شِخت فجأة، أما أنا ففي مثل هذه الأيام أشعر أني أُولد من جديد، كأني أنا المسيح. ألا يولد هو كل سنة؟ وهكذا أنا.

تمددت على سريري وأغلقت عيني، كنت أشعر بوحشةٍ قاسية تغمر قلبي ولم تكُن لديَّ رغبة للكلام. لكن لم أستطع النوم، شعرت بأنه عليَّ أن أُحصي أفعالي وأعمالي في تلك الليلة، ومررت فوق كل حياتي التي بدت سريعة، مضطربة، ومترددة، كأنها حلم طويل. كنت أحاول تغييرها بكل قواي. كأنها سحابة كبيرة تهاجمها الرياح من الأعلى، فتتشكل تلقائيًّا، لقد تحطمت حياتي وتحولت إلى قطع صغيرة، ومِن ثَم عادت تتلاحم ثانية ولكن بشكلٍ جديد. مرة بطة، كلب، عفريت، عقرب، قرد. وفجأة راحت السحابة تتمزق وتتلاشى، كانت قد انقادت بعيدًا بالرياح الإلهية التي بددتها إلى الأبد وتركت مكانها قوس قزح.

طلع النهار ولم تكُن لي الرغبة بأن أفتح عيني، كنت أحاول جهدي أن أركز أفكاري لأدخل عبر عقلي إلى تلك القناة الخطرة، حيث كل نقطة من

الإنسان تندمج في ذلك الخضم. كنت أنتظر بفارغ الصبر ليتمزق ذلك الحجاب، لأرى ما تخبئه لي السنة الجديدة.

- صباح الخير أيها الرئيس. سنة طيبة.

رَماني صوت زوربا فوق الأرض الصلبة ثانية، ونظرت إلى الباب فلمحته يرمي برُمانة كبيرة إلى عتبة الكوخ، تطايرت حبات الرمان حتى وصلت إلى فراشي، فلملمت بعضها والتهمتها لترطب حلقي. وصاح زوربا مبتهجًا:

- أتمنى أن نحصل على ثروة كبيرة، وأن تخطفنا السيدات الجميلات.

ومِن ثَم نهض وحلق وتهندم، وارتدى سروالًا أخضر وقميصًا من الصوف ذا اللون الأسود. وصدرية صُنعت من وبر الماعز وارتدى قبعة روسية ولمس شاربه قائلًا:

- أيها الرئيس سأبدو اليوم في الكنيسة وكأني وكيل شركة، فليس من الخير للمنجم أن تدور الهمسات حولنا بأننا ماسونيان. لن أضيع فُرصي وسأمضي وقتًا طيبًا.

ثم طأطأ رأسه ونظر إليَّ بطرف عينه قائلًا:

- وربما سألتقي بالأرملة أيضًا.

الربّ ومصلحة الشركة والأرملة، كلها أشياء تنضم لبعضها لتُشكِّل مزيجًا غريبًا في رأس زوربا. ونما إلى مسامعي وقع أقدامه مبتعدًا، وفجأة انتفضت وكأن السحر قد تسرب مني وعادت روحي إلى سجن جسدي من جديد.

وضعت عليَّ ثيابي وتوجهت إلى الشاطئ، كنت أسير بسرعة مسرورًا كأني أحاول أن أتخلص من خطرٍ داهم أو خطيئة. وظهرت لي فجأة رغبتي الصاخبة في أن أتلصص على المستقبل، ومحاولة معرفته قبل أن يأتي. وكأنه انتهاك لأشياء مقدسة.

تذكرت بأني ذات يوم عثرت على شرنقة في قشرة إحدى الأشجار في الوقت الذي كانت الفراشة تنقر القشرة الرقيقة وتتهيأ لرؤية النور. ورحت أنتظر، لكن انتظاري طال، كنت أنتظر بيأس فارغ الصبر. وبعصبية ظاهرة اقتربت منها، ورحت أنفخ عليها محاولًا تدفئتها.

وأخذت أشاهد بأم عيني تحقق المعجزة، وسريعًا انكسرت القشرة، وبدأت الفراشة تسحب نَفْسَها سحبًا. ولن أنسى ما حييت تلكَ القَباحة التي أحسست بها في ذلك الوقت. فأعضاؤها لم تكُن قد اكتملت وجناحاها لم يكونا قادريْن على حملها، شعرت أنها بحاجة إلى المساعدة فعدت لأساعدها بأنفاسي من جديد، ولكن دون جدوى، فقد كان لا بد وأن تنمو نموًّا طبيعيًّا وبطيئًا. إلا أنه كان قد سبق السيف العزل، فأنفاسي كانت قد دفعت الفراشة للظهور قبل الأوان، وبعد لحظات ارتعشت وماتت.

هذه الجثة الصغيرة كانت تثقل ضميري، لأن انتهاك حرمة القوانين الطبيعية المقدسة خطيئة قاتلة. الآن أفهم هذا جيدًا، يجب ألَّا نفقد صبرنا وأن نتبع النسق الأبدي بثقة.

جلست على إحدى الصخور لتنعكس في مخيلتي فكرة رأس السنة، كم أتمنى أن تعود هذه الفراشة إلى الحياة لتطير أمامي وترشدني إلى الطريق القويم.

II

استيقظت فرحًا وكأني قد استلمت هدايا رأس السنة، كانت الرياح منعشة باردة، والسماء صافية والبحر يتلألأ.

توجهت نحو ممر القرية، لا بد وأن القداس قد انتهى الآن، وبينما أنا أسير كنت أتساءل بشؤم وخوف ليس له مبرر، عن أول وجه سيقع عليه نظري، هل سيكون شؤمًا أم فَألًا حسنًا، هل سيكون طفلًا صغيرًا يحمل هدايا رأس السنة، أو عجوزًا قويًّا يرتدي قميصًا ذا أكمام واسعة مسرورًا وفخورًا لأنه قد أنجز واجبه على الأرض كاملًا وبشجاعة؟ وكلما ازددت قربًا من القرية كنت أزداد قلقًا وخوفًا بلا سبب.

وفجأة شعرت بأن قدميَّ لا تكادان تحملاني، فعَلَى الطريق نفسه، وتحت ظلال أشجار الزيتون، بدت الأرملة تتهادى بخُطى متزنة، عاقدة شالها الأسود فوق رأسها وقد احمرت بشرتها شامخة متقدة.

كانت مشيتها الواثقة تشبه بحق مشية نمرة سوداء، وشعرت بأن رائحة عبقة تملأ الجو. ليتني أقدر على الهروب، كانت هذه الفكرة تسيطر عليَّ، فالوقوف في وجه هذه النمرة المستعرة غير مُجدٍ، ولا أمل في الانتصار عليها، الحل الوحيد هو الهرب. ولكن كيف أهربٍ والأرملة تقترب كل لحظة.

وخُيِّل إليَّ أن الحصى يئز وكأن جيوشًا تدوسه. التفتتْ الأرملة نحوي ومالت إليَّ برأسها فانزلق شالها، وبدا شعرها متلألئًا بلون الفحم، حدجتني بنظرة وتبسمت، كان في عينيها جمالٌ وحشي. ثم أصلحت من حال شالها سريعًا وكأنها خجلت من ظهور سر المرأة الدفين: شعرها.

وددتُ أن أكلمها وأن أتمنى لها «سنة طيبة» لكن صوتي كان منحبسًا وحنجرتي جافة، كجفافها يوم انهيار النفق، وهبت الريح فاضطرب قصب سياج حديقتها، ووقعت أشعة شمس الشتاء على زهر الليمون الذهبي، والبرتقال، وعلى الأوراق الداكنة اللون، تلألأت الحديقة كأنها جنة ذهبية.

وقفت الأرملة عند الباب ومدت ذراعها لتدفعه بقوة، وفي هذه اللحظة مررتُ بقربها والتفتتْ نحوي، وراحت نظرتها تنساب فوقي وهي ترفع

حاجبيها.

تركت الباب مفتوحًا وشاهدتها تتهادى مبتعدة تتمايل بين أشجار الليمون.

ما كان عليَّ إلا أن أعبر الباب وأغلقه بالقفل وأجري وراءها، وأمسكها من خصرها وأشدها نحو الفراش. هذا ما يُسمّى تصرف الرجل الحقيقي. وهذا ما كان يفعله جدي، وأتمنى أن يتمثل حفيدي بجدي. أما أنا فظللت واقفًا أوازن الأمر وأنتظر.

وهمست لنفسي مبتسمًا بألم: «**ربما في حياة أخرى.. سوف أتصرف على نحوٍ أفضل من هذا**».

وعدت لأسير مبتعدًا في الوادي بين الأشجار، أشعر بثقل على قلبي، كما لو أني قد انتهكت حرمة قدس الأقداس. ورحت أتجول هنا وهناك، كان الجو باردًا منعشًا، حاولت أن أبعد عن مُخيّلتي اهتزاز ردفي الأرملة، وابتسامتها ونظرتها ونهديها، لكنها لم تفارق مُخيّلتي وشعرت بضيق شديد.

لم تكُن أوراق الأشجار قد نمَت، إلا أن البراعم كانت قد ظهرت، وبدت ملآنة بالصمغ، كان كل برعم يظهر يَعِد بأزهار وثمار لا تزال مختفية تتجمع لتستعد للانطلاق نحو الضوء، المعجزة الربيعية تتأهب للظهور وتنتظر تحت قشرة يابسة بصمت وسكون في الشتاء القارص.

وفجأة أطلقتُ صيحة فرح؛ إذ كان أمامي في حفرة لا تصل إليها الرياح، شجرة لوز قوية صامدة، وقد أزهرت في جوف الشتاء، لتفتح الطريق أمام باقي الأشجار مُبشّرة بقدوم الربيع.

أحسست براحة غريبة، وأخذت نفسًا عميقًا من تلك الرائحة القوية، وخرجت عن الطريق ونزلت إلى الحفرة لأرتمي على العشب تحت أغصان الشجرة المزهرة.

بقيت هناك وقتًا دون أن أشغل فكري بأي شيء، مغتبطًا كأني أستلقي في جنون الأبدية تحت إحدى أشجار الجنة.

وفجأة أيقظني من غفوتي صوت غليظ:

- ما الذي تفعله في هذه الحفرة أيها الرئيس؟ منذ مدة وأنا أفتش عنك، لقد قارب الوقت على الظُّهر.. هيّا.

- إلى أين؟

- إلى أين؟ وتسألني؟! إلى بيت صاحبة الخنزير المشوي. ألا تشعر بالجوع؟! إن الخنزير قد خرج من الموقد، ويا لرائحته اللذيذة أيها الصديق.. إن لعابك ليسيل لها.. هيا.

انتصبت ولمست غصن شجرة اللوز الصلب، الذي يحوي السر الغريب الذي أخرج هذه الأزهار، تقدمني زوربا بخُطى ثابتة يُمنِّي نفسه بالطعام الجيد.

إن احتياجات الإنسان الأساسية برأيه هي: الطعام والشراب والمرأة والرقص. وهو لا يزال قادرًا على القيام بهم جميعًا. كان يحمل بيده شيئًا ملفوفًا بورق وردي، ومربوطًا بخيط ذهبي، فسألته مازحًا:

- ما هذا.. هدية؟

فانفجر ضاحكًا وقال محاولًا إخفاء اضطرابه وقال دون أن ينظر إليَّ:

- أجل.. لتفرح هذه المسكينة.. فهذه الهدية ستعيد لذاكرتها الأيام الغابرة الجميلة، هي امرأة في النهاية ولذلك فهي دائمة الحزن والشكوى، كما سبق وقلت هذا مرارًا.

- هل هي لوحة؟

- ستعرف.. كن صبورًا. لقد صنعتها بنفسي. هيا سريعًا.

كانت أشعة الشمس الدافئة تُدخِل البهجة إلى القلب، والبحر ساكن تحت هذه الأشعة هادئًا سعيدًا. وفي البعيد انزوت الجزيرة محاطة بسحاب خفيف، حيث بدت كأنها تعوم في البحر.

وعندما اقتربنا من القرية همس زوربا قائلًا:

- أتعلم أيها الرئيس؟ الأرملة التي تكلمنا عنها كانت هناك في الكنيسة. كنت أقف في الصفوف الأمامية إلى جانب المنشد عندما بدت لي جميع الأيقونات المقدسة تلمع بوهج غريب، وكذلك الرُّسل الاثنا عشر، فهمست في نفسي وأنا أرسم الصليب: «**أهي الشمس؟**» ونظرت ورائي، فوجدت الأرملة.

- لقد تحدثنا عنها بما فيه الكفاية يا زوربا.. هيا.

- لقد شاهدتها عن قرب، على خدها ترتاح شامة جميلة، إنها لتأخذ عقلك. يا لها من لغز هذه الشامة، وخصوصًا على وجنات النساء.

ولمع بريق عينيه متابعًا:

- هل جربتها أيها الرئيس؟ تشعر بالبشرة الناعمة، وفجأة ترى بقعة صغيرة سوداء، ألا يكفي هذا ليسلب العقل؟ ما رأيك، أخبرني ما الذي قرأته في كتبك؟

- فلتذهب كتبي إلى الجحيم.

قهقه زوربا ضاحكًا وقال:

- حسنًا.. لقد بدأت تفهم!

وتخطينا المقهى دون أن نقول كلمة.

كانت السيدة الطيبة قد أعدت لنا خنزيرًا صغيرًا مشويًّا، ووقفت على المدخل تنتظرنا، يحيط بعنقها ذلك الشريط الأصفر الباهت، وعلى وجنتيها ذلك المسحوق الداكن، أما شفتاها فصبغتهما بطبقة حمراء كثيفة، تقف متململة فارغة الصبر، وما أن وقع نظرها علينا حتى بدأ جسدها كله يرتعش بسرورٍ وبهجةٍ، ولمعت عيناها وتعلقتا بشارب زوربا المتعالي.

أغلق زوربا باب الحديقة وأحاط خصرها بذراعيه، وطبع على صدرها الممتلئ قُبلة ناعمة قائلًا:

- سنة طيبة يا دجاجتي.. لنرَ ما الذي جلبته لكِ.

سَرَت في جسد العجوز رعشة لذيذة وعيناها معلقتان بلفة زوربا. أمسكت بها وفكت الخيط، وألقت نظرة وصرخت مسرورة، وانحنيت بدوري لأنظر.

كان زوربا اللعين قد رسم بنفسه بالألوان الداكنة والصفراء والرمادية والحمراء، أربع بوارج بحرية مزخرفة راسية في بحر أزرق، وقرب هذه المدمرات تسبح فتاة ناصعة البياض، عارية، وشعرها يسبح فوق صفحة الماء، ذات صدرٍ عارم ولها ذيل سمكة دائري الشكل، ويتدلى من عنقها شريطٌ أصفر جميل، وتظهر الجنية الجميلة السيدة هورتنس وهي ممسكة بأربعة حبالٍ، كلٌّ منه مشدودٌ إلى بارجة، والبوارج الأربع يرفرف عليها أعلام

إنجلترا، روسيا، فرنسا، وإيطاليا. وعند زوايا اللوحة الأربع تتدلى أربع لحى: داكنة، وشقراء ورمادية وحمراء.

أدركت المغنية المتقاعدة ما الذي عناه زوربا، فأشارت إلى الفتاة قائلة بفخر واعتزاز:

- هذه أنا!

وتابعت متنهدة.

- أوه.. لقد كنتُ أنا أيضًا دولة قوية.

ونزعت مرآة صغيرة كانت خلف سريرها بجوار الببغاء. وعلقت مكانها لوحة زوربا، كنت أكيدًا بأن خديْها قد شحبا تحت ذلك المسحوق السميك.

تسلل زوربا في هذا الوقت إلى الغرفة، فقد كان جائعًا، وعاد مسرعًا يحمل طبقًا فوقه الخنزير الصغير، وأمسك بزجاجة الخمر وملأ الكؤوس الثلاثة.

وصفق بيديه صائحًا:

- تعالَيَا إلى المائدة ولنبدأ بما هو أهم: المعدة. ومِن ثَم سننزل إلى الأسفل يا حلوتي.

لكن الجو كان مُضطربًا بسبب تنهدات جنيتنا العجوز، فهي أيضًا عند بداية كل سنة يكون لها حسابها، تلقي نظرة على حياتها فتجدها تائهة، تنهض الذكريات من تحت شعرها الخفيف من قبورها، المدن الكبيرة، الرجال، الأثواب الحريرية، زجاجات الشمبانيا واللحى المعطرة.

وتمتمت بدلال:

- إني لست جائعة مطلقًا، مطلقًا.

وركعت قرب المدفأة وحرّكت الجمر، وعكستْ وجنتاها لهيب النار، وانسدلت بضع شعرات فوق جبينها ولامست اللهب، فعبقت الغرفة برائحة الشعر المحروق. وعادت لتهمس ثانية بعد أن شعرت بأننا لم نهتم كثيرًا بها:

- لن آكل.

شدّ زوربا على قبضته بصلابة وبدا مترددًا، فهو يستطيع أن يتركها تتشاكى ويتابع طعامه دون أن يلتفت إليها، وهو قادر أيضًا على أن يركع بقربها وبكلمتين ناعمتين يعيد إليها البهجة، ونظرتُ نحوه فلاحظت في قسمات وجهه صدى تلك الانفعالات التي تتراكم داخله.

ودون سابق إنذار تصلب وجهه، وكأنه عزم على شيء. ركع أمامها وقال بصوت كله ألم وهو يمسك بركبتيْ السيدة:

- إن لم تشاركينا الطعام يا حلوتي فسينتهي العالم، فأشفقي علينا يا عزيزتي وكُلي فَخذ الخنزير الصغير هذا.

ووضع في فمها قطعة من اللحم يسيل الدهن منها، وأخذها بين ذراعيه وحملها وأجلسها برفق على كرسيها بيننا نحن الاثنين، وهو يقول:

- كُلي، كُلي يا كنزي، كُلي ليأتي القديس باسيل لقريتنا، فإن لم تفعلي فلن يأتي أبدًا، وأنت تعرفين هذا. سيعود إلى بيته في القسطنطينية ويسترد هداياه؛ القلم والدواة، كعكات الرسل، ولعب الأطفال، وحتى سيأخذ هذا الخنزير أيضًا. هيا افتحي فمك وكُلي.

ومد يده ودغدغها تحت إبطها. هدأت العجوز قليلًا وراحت تأكُل الفخذ الصغير ببطء ودلال، وفي تلك اللحظة علا مواء قطين عاشقين أعلى السطح فوق رؤوسنا. كانا يموءان بحقد غريب، ويرتفع صوتهما وينخفض، وفجأة سمعناهما يتدحرجان فوق السطح ليمزقا بعضهما بشهوةٍ محمومة.

التفت زوربا نحو العجوز وغمزها بعينه وصاح:

- مياو.. مياو..

فانفرجت أساريرها وضغطت على يده تحت الطاولة وارتاح فمها قليلًا، لذا عادت لتأكل بشهية.

كانت الشمس تدور فدخلت علينا من النافذة وحطّت على قدميْ السيدة المتصابية. في هذا الوقت كانت زجاجة الخمر قد فرغت، واقترب زوربا من السيدة ممسكًا بشاربيه اللذين كانا كشاربيْ قطٍّ بريّ. شعرت هي بذلك فتقوقعت على نفسها مرتعشة وقد غاص رأسها بين كتفيها، والتهبت أنفاسها. فقال زوربا:

- يا لهذا اللغز أيها الرئيس! كل شيء يمضي بالمقلوب، عندما كنت صغيرًا، كنت أشعر بأني عجوزٌ هرم. لأني عندها كنت سمجًا قليل الكلام، وكان صوتي أجش كصوت رجل ناهز السبعين، وكان يُقال إني أُشبه جدي، إلا أني كلما تقدمت في العمر، ازداد طيشي. وعندما وصلت إلى العشرين قمت بحماقات كثيرة، لكنها حماقات صغيرة كالتي يفعلها كل مَن بهذا العمر. أما في الأربعين فقد بدأت أشعر بأني قد وصلت إلى مرحلة الشباب الكامل، وعندها رحت أرتكب الحماقات الكبيرة. أما الآن وأنا في الستين.. في الخامسة والستين في الحقيقة ـلكن هذا بيني وبينكـ أشعر وأقسم لك على هذا، بأن العالم قد بدأ يصغر في نظري. كيف تفسر هذا أيها الرئيس؟!

ورفع كأسه ونظر نحو السيدة قائلًا بصوت وقور:

- في صحتك يا بوبولينتي، أتمنى لكِ في هذه السنة أن تظهر لك أسنان جديدة وحاجبان طويلان ناعمان، وأن ترجع لكِ بشرتك غضة كقشرة ثمرة الدراق، وعندها سترمين هذه الشرائط الصغيرة. كما أتمنى لكِ ثورة ثانية في كريت لتعود الدول الكبرى الأربع بجيوشها وبوارجها، وأن يكون لكل بارجة أميرال، ولكل أميرال لحية مُجعدة معطرة، وأن تظهري أنت من بين الأمواج لتنشدي أغنيتكِ الناعمة العذبة.

وأسرع ووضع يديه فوق صدر السيدة المتهدل، عندها بحَّ صوت زوربا واشتعل بالرغبة، فغلبني الضحك. لقد شاهدت مرة فيلمًا يصور أحد باشوات تركيا جالسًا في حانة في باريس، وتجلس على ركبتيه فتاة شقراء، وعندما أحرقته نار الشهوة، أخذت شُرّابة طربوشه بالانتصاب رويدًا رويدًا حتى استوت أفقيًّا، ثم وبمثل لمح البصر انتصبت عموديًّا في الهواء.

غرقت في الضحك حينها، وسألني زوربا:

- ما الذي يُضحكك أيها الرئيس؟

لم أرد عليه. وخلال هذا كانت السيدة العجوز لا تزال مأخوذة بكلمات زوربا فقالت:

- أوه، هل هذا ممكن يا زوربا؟ إن الشباب يذهب بغير رجعة.

فاقترب منها زوربا حتى لامس مقعده كرسيها، وقال محاولًا أن يفك الزر الثالث والأخير في قميص السيدة هورتنس:

- أصغي إليَّ يا دجاجتي. أصغي إلى هذه الهدية الثمينة التي سأقدمها لكِ. هناك طبيب أوروبي يُحقق المعجزات. فهو يزود مرضاه بعلاج سائل أو مسحوق لا أذكر، يجعل الإنسان يعود إلى شبابه، إلى العشرين مثلًا أو الخامسة والعشرين، لا تنتحبي يا حبيبتي سأُحضِر لكِ بعضًا منه من أوربا.

انتفضت المغنية المتصابية ولمع جلد دماغها الأحمر الظاهر بين خصلات شعرها الباقية، وطوقت عنق زوربا بذراعيها الثقيلتين وهمست وهي تمسح أرنبة أنفها بعنق زوربا كالقطط:

- اسمع يا عزيزي.. إذا كان سائلًا فاجلب لي منه زجاجة كبيرة، وإذا كان مسحوقًا فأحضِر لي كيسًا كبيرًا.

عندها عاد القطَّان إلى المواء من جديد، كان أحدهما يئن متوسلًا والآخر هائجًا متوعدًا.

وتثاءبت السيدة وأسبلت جفنيها وجلست على ركبتيْ زوربا قائلة:

- أتسمع هذه القطط القذرة؟ إنها لا تخجل.

وتركت لجسدها العنان ليتمدد فوق زوربا. كانت شربت أكثر من طاقتها، وأغمضت عينيها فتناول زوربا نهديها بين يديه قائلًا:

- بمَ تفكرين يا قطتي؟

فهمست العجوز وكأنها تئن:

- الإسكندرية.. بيروت.. القسطنطينية.. أتراك، وعرب.. خمر وملابس فاخرة وطرابيش حمراء قانية.

وتنهدت ثانية...

- كان «**علي بك**» يبيت عندي، يا لشاربيه وحاجبيه وذراعيه! كان يطلب عازفي الزمر والطبل ويرمي لهم النقود من النافذة، فيعزفون قرب منزلي حتى ينبلج الصباح، وجاراتي يَمُتن من الحسد، ويَقُلن بغيظ: «**إن علي بك يرافقها هذه الليلة أيضًا**». وعندما كنتُ في القسطنطينية، لم

يكُن سليمان باشا يسمح لي بالتنزه يوم الجمعة. كان يخاف أن يقع نظر السلطان عليَّ وهو في طريقه إلى المسجد فأسلب لبه ويأمر بأخذي إلى حريمه. وعندما يخرج صباحًا من منزلي يأمر ثلاثة من رجاله أن يقفوا ببابي وأن لا يسمحوا لأي شخص أن يقترب. أوه، يا لصغيري سليمان.

ثم تناولت من تحت سترتها منديلًا كبيرًا مُحلًّى بالمربعات الواسعة، ووضعته بين أسنانها وراحت تتنهد بقسوة كأنها سلحفاة بحرية. انفلت زوربا منها بعد أن أجلسها على كرسيها، وراح يذرع الغرفة جيئة وذهابًا، وقد بدا حانقًا، ثم أمسك بهراوته وأسرع نحو الحديقة، ووضع السلم إلى الحائط وتسلق درجتين إلى السطح فصرخت به:

- مَن الذي ستضربه يا زوربا؟ سليمان باشا؟!

فصاح حانقًا:

- هذان القطان القذران، فهما لا يكفان عن إزعاجنا.

وبمثل لمح البصر أصبح فوق السطح. كانت السيدة مغمضة العين ثملة، شعثاء الشعر. لقد طار بها النوم إلى المدن الشرقية الكبيرة، إلى الحدائق المسيّجة، وغرف الحريم المعتمة في دور الباشوات المغرمين. ووجدت نفسها فوق البحر لترمي شباكها لتصيد أربع بوارج.

وأخذت شفاه العجوز تتبسم في نومها السعيد، بعدما عبرت البحر فغسلها وأعاد إليها نضارتها. ودخل زوربا يهز عصاه وعندما شاهدها نائمة قال:

- نامت.. نامت؟! العاهرة.

فأجبته:

- أجل لقد أخذتها الأحلام التي تعيد الشباب إلى العجائز يا زوربا باشا. دعها نائمة فهي في العشرين الآن، تتجول في الإسكندرية وبيروت.

فدمدم حانقًا وبصق على الأرض:

- لتذهب إلى الجحيم.. عجوز قذرة. انظر إليها كيف تبتسم! هيا لنذهب أيها الرئيس.

وتناول قبعته وفتح الباب فقلت:

- أنأكل الخنزير ثم نذهب وندعها وحيدة؟! هذا غير معقول.

فصرخ زوربا:

- إنها ليست وحيدة.. إنها ترافق سليمان باشا. ألا ترى، إنها تُحلِّق في السماء السابعة، الفاسقة. هيا دعنا نمشي.

توجهنا إلى الخارج، وكان القمر يتمايل بهدوء في صدر السماء. فقال زوربا بقرف:

- يا للنساء.. أُف لهن. لكنها ليست غلطتهن بل غلطتنا نحن الأغبياء المجانين، كل الذين مثلنا أنا وسليمان باشا.

وصمت برهة ثم أضاف:

- بل هي ليست غلطتنا.. إنها غلطة شخص واحد، غلطة الغبي الكبير.. أنت تعرف مَن أعني.

- هذا إن كان له أي وجود.. ولكن ماذا إن لم يكن موجودًا؟

- عندها نكون قد هلكنا.

مشينا بخطوات واسعة لمدة غير قصيرة دون أن نتفوه بكلمة. كان زوربا يعاني أفكارًا وحشية تجول في عقله، يضرب الحصى بعصاه ويبصق. وفجأة نظر إليَّ:

- لقد كان جدي رحمه الله عليمًا بالنساء، كان يعشقهن كثيرًا، رأى منهن الناضجة والتي لم تنضج، وكان دائمًا يقول: «**اِسمع يا زوربا إني أمنحك مع بركتي نصيحةً؛ لا تضع ثقتك في امرأة، فعندما قرر الإله أن يخلق حواء من ضلع آدم، انقلب الشيطان إلى ثعبان وخطف الضلع، فأسرع الرب وأمسك بالشيطان، لكنه تملص منه ولم يبقَ في يد الرب إلا قرون الشيطان، فخلق منها حواء، وقال الربّ في نفسه: إن ربة المنزل الصالحة إن لم تجد مغزلًا غزلت خيوطها على ملعقة. وهذا ما سأفعله أنا، فسأخلق المرأة من قرون الشيطان.. وهكذا خلقها ليُشقينا يا زوربا؛ فعندما نلمس جسد المرأة من أي مكان نكون قد لمسنا الشيطان ذاته. خُذ حذرك منهن يا بني، فحواء هي مَن سرقت تفاح الفردوس وأخفته في صدرها، وهي تزهو به الآن وتتبختر. إنها الطاعون بنفسه، ولو أكلت يا بني من تلك التفاحات فأنت هالك، وإن لم تأكل فأنت هالك أيضًا. فبأي شيء أنصحك؟! حسنًا**

افعل ما تريد». هذا ما قاله لي جدي. لكني لم أنتفع بنصيحته، وسرت في الدرب الذي سار فيه، حتى وصلت إلى ما أنا عليه.

مررنا بالقرية سريعًا، كان ضوء القمر شاحبًا. تصوّر أنك شربت حتى ثملت ثم خرجت لاستنشاق الهواء المنعش! حينها ستجد الدنيا تبدلت، الطرق أصبحت أنهارًا من اللبن، والأخاديد ملآنة بالكلس، والتلال تغطيها الثلوج، وتشاهد وجهك ويديك تلمع كالفوسفور في الأصداف، أما القمر فهو كوسام دائري معلق فوق صدرك!

كنا نمشي بسَكِينة وهدوء، كأننا لا نلمس الأرض بأقدامنا، بعد أن شربنا الخمر وشعرنا بالنشوة الكبيرة. كانت الكلاب قد اعتلت سطوح بيوت القرية، وراحت تنبح بألم، كأن عيونها قد شُدّت إلى القمر المتلألئ، ودون أي شعور أحسسنا برغبة جامحة بالنباح نحن أيضًا.

اجتزنا حديقة الأرملة وتوقف زوربا بعد أن لعبت الخمر برأسه، ومدّ عنقه وبصوت جاف كأنه صوت الحمار، نهق ببيت من الشعر جادت به قريحته: «**كم أحب جسدك الجميل.. من خصرك حتى فخذيك**» ومِن ثَم قال:

- وهذه أيضًا من مخلوقات قرون الشيطان. لنَمْشِ أيها الرئيس.

كان الفجر على وشك الانبلاج عندما وصلنا إلى الكوخ، فارتميت على فراشي، بينما راح زوربا يغتسل، ومِن ثَم أضرم النار في الموقد وراح يُعِد القهوة، وجلس على باب الكوخ يدخن سيجارته بهدوء وسكون.

جلسَ معتدلًا صلبًا، مُثبتًا نظره إلى البحر، وجهه يشبه لوحة يابانية لناسك يجلس متصلب الساقيْن ووجهه يتلألأ، كان منحوتًا من المرمر بمهارة لا حدّ لها، وهو ينظر باستقامة دون خوف أو وجل إلى البحر الداكن العجيب.

كنت أراقبه تحت ضوء القمر الخافت، معجبًا بقدرته على الجمع بين الكبرياء والبساطة اللتيْن يتعامل بهما مع الكون، وكيف يشكلان في داخله مركبًا منسجمًا مع كل الأشياء الضرورية؛ المرأة، الطعام، الشراب، اللحم والنوم، وكيف كل هذه الأشياء تمتزج لتُشكِّل زوربا.

لم أعاين في حياتي مثل هذا الاتفاق بين البشرية والطبيعة.

كان القمر قد بدأ يغيب بعد أن تحول لونه إلى الأخضر الباهت، وعلت البحر عذوبة فائقة.

رمى زوربا سيجارته ومد يده يبحث في السلة، فتناول بعض الخيوط والبكرات وبعض القطع الصغيرة من الخشب، وأشعل مصباح الزيت، وراح يقوم من جديد بتجاربه من أجل المصعد، وغاص في حساباته الصعبة القاسية، يتوقف من وقت لآخر ليسُبَ ويحك رأسه بتفكير عميق.

وفجأة شعر بأنه قام بما يكفي من المجهود، فوجه إلى المصعد الصغير رفسة قوية جعلته يتحطم ويتناثر فوق الأرض.

١٢

استيقظت في الصباح ووجدت زوربا قد خرج، كان الجو باردًا ولم تكُن لديَّ رغبة في مغادرة الفراش. مددت يدي إلى رفٍّ صغير فوقي، وتناولت كتابًا أحبه.. كنت قد أحضرته معي، كان كتابًا لأشعار «**مالارميه**» بدأت أقرأ ببطءٍ ودون تركيز، ثم أغلقت الكتاب وفتحته من جديد، ثم رميته بملل، لقد بدا لي هذا الكتاب وللمرة الأولى فارغًا دون معنى، ينقصه الكثير من الحياة، مجرد كلمات زرقاء فوق صفحاتٍ باهتة، لا تتخللها نغمة من نغمات الروح والحياة.

حين تفقد الأديان روح الإبداع، تصبح الآلهة في الخاتمة مجرد أفكار مثالية أو كلمات شعرية وأيقونات لا تصلح لغير زخرفة الجدران. وقد أصاب الشعر ما أصابً هذه الأديان، إذ تحولت روح الإنسان الفوّارة بطموحاتها وعذاباتها إلى مجرد أفكار عقلية، لا تجد فيها غلطة لكنها معقدة جداً وبلا روح. فتحت الكتاب، وبدأت القراءة من جديد، لماذا كانت تعجبني هذه الأشعار على الدوام؟ هذه الأشعار الصوفية الناعمة، حيث تتحول الحياة إلى لعبة عقلية خفيفة، لا تبدو مثقلة حتى ولو بنقطة دم، إن العنصر البشري مثقل بالرغبة الدنيئة، وبالحب والجسد والغضب، فكيف يرتقي حتى يبلغ هذا القدر من التجرد في الأشعار؟ وكيف يستطيع أن يتخلى عن ماديته في متاهات الأفكار المثالية؟

هذه الأشياء التي جعلتني سجينها لمدة طويلة تبدو الآن مجرد ألاعيب، هكذا دائمًا ينتهي خوف الإنسان عند نهاية كل جيل وحضارة، ويتحول إلى ألاعيب وشعوذة مثل: الشعر الصافي، والموسيقى الصافية، والفكر الخالص. إن الإنسان الأخير -الذي استطاع أن يتخلص من كل إخلاص ومن كل إيمان وخوف- يرى الطين الذي خُلِق منه وقد تحوّل إلى فكرٍ، لكنّ الفكر لا يجد المكان المناسب الذي يمد فيه جذوره ليستطيع أن يعيش طويلًا.

الإنسان الأخير، قد أصبح فارغًا تمامًا، لم يَعُد يحوي زرعًا ولا جذورًا ولا دمًا ولا حتى قاذورات!

كل هذه الأشياء قد تحولت إلى كلمات فارغة، وهذه الكلمات ليست إلا أحاجيَّ موسيقية.

وسيحاول هذا الإنسان الأخير أن يسير إلى أبعد من هذا، فهو سيقف عند نهاية وحدته ويبدأ تحليل الموسيقى، ويحاول تحويل النوتة الموسيقية إلى معادلات ونظريات رياضية ساكنة.

وانتفضتُ.. وهتفتُ: «**إن بوذا هو الإنسان الأخير**» وذلك هو معناه السريّ الرهيب. بوذا هو تلك الروح الصافية، التي جوّفت نفسها، حتى صارت عدمًا، لا تحوي غير العدم فهو يصرخ: «**فرّغوا أجسادكم وأرواحكم وقلوبكم**»، وأينما تقع قدمه لا تَعُد المياه تنبجس، والعشب لا ينمو، والأرحام لا تحبل.

رحت أفكر! يجب أن أحضر كلمات قوية وأستنجد بإيقاع سحري، لأحاصره ولأتخلص منه بقوة قاهرة، فألقي به خارج أحشائي، أرميه بقوى سحرية، لأمسك به وأحرر نفسي منه.

إن كتابة «**بوذا**» لم تَعُد مجرد تمارين أدبية، لقد أصبحت كفاحًا بين الموت والحياة ضد قوة جبارة تضج في صدري، مبارزة ضد الـ «**لا**» التي تأكل قلبي، وعلى نتيجة هذه المبارزة تتوقف حل مشكلة روحي.

وبسرور وصلابة تناولت المخطوطة، لقد وجدت المرمى وأعرف الآن أين يجب أن أسدد ضربتي.

بوذا هو الإنسان الأخير أما نحن فلسنا إلا في البداية فقط.

فنحن لم نأكل ولم نشرب ولم نحب بما فيه الكفاية. لم نحيا بما فيه الكفاية، فقد جاءنا قبل الأوان بكثير، هذا العجوز المتهافت الضعيف، وعلينا أن نطرده بأسرع وقت ممكن.

هكذا حدّثتُ نفسي ورحت أكتب، ولكن لا، لم تكُن هذه مجرد كتابة، بل كانت حربًا ضروسًا، مطاردةً لا رحمة فيها، حصارًا، وفخًا لإخراج الوحش من مخبئه. إن الفن نفسه في الواقع ليس نغمة سحرية، إن في داخلنا قُوى قاتلةً تدفع إلى القتل والهدم والحقد والضغينة وتلويث الشرف، وعندها يأتي الفن بشبابه الصلب ليساعدنا ويخلصنا.

كتبت، وطاردت، وقاتلت طيلة النهار، وعند المساء كان التعب قد أنهكني. لكني شعرت أني تقدمت، واستطعت الاستيلاء على حصون العدو

الأمامية، إني الآن أتطلع إلى رؤية زوربا لأتناول طعامي وأنام، ولأتزود بقوى جديدة لأتابع المعركة في اليوم التالي.

بدأ الظلام يرخي سدوله عندما رجع زوربا، كان وجهه مشرقًا فقلت في نفسي: «**لقد وجد جوابه هو أيضًا.. لقد وجده**».

قبل بضعة أيام، بدأت تتضح أمامي كثير من الحقائق، وقلت له بنفاد صبر:

- زوربا إن المال الذي معي على وشك النفاد. فمهما كان ما تريد فعله يجب أن تفعله بسرعة. دعنا نسرع البدء بهذا المصعد، وإذا كنا لن ننجح في عملنا بالفحم فلنعمل بالخشب وإلا سنفلس تمامًا.

وضع زوربا يده على رأسه قائلًا:

- المال على وشك النفاد! هذا خطر كبير.

- لقد حدث ما حدث، وصرفنا كل ما نملك تقريبًا.. على كلٍّ، ما الذي حلَّ بتجارب المصعد ألم تصل إلى نتيجة.

طأطأ زوربا رأسه دون أن يتفوه بكلمة، شعر بالإحراج، وأخذ يتمتم: «**سأحصل عليك... أيها المصعد القذر**». وفي المساء عاد مسرورًا ليقول:

- لقد توصلت إلى الانحدار اللازم أيها الرئيس، لقد كان يتسلل من بين يدي، لكني استطعت القبض عليه، هذا اللعين.

- إذن، أَسرِع وضَعْ النار في البارود. ما الذي تحتاج إليه أيضًا؟

- يجب أن أتوجه غدًا باكرًا إلى المدينة، لأحصل على بعض المواد اللازمة، حبال فولاذية، كُرات، عدة مسامير، وكماشات، وبعدها سأعود بسرعة.

ثم أضرم النار، وأعد العشاء. أكلنا وشربنا بشهية مفتوحة، فقد عمل كلانا بجهدٍ ونشاط هذا اليوم.

وفي اليوم التالي ذهبت مع زوربا نحو القرية، وبينما كنا نهبط منحدرًا، لطمتْ قدم زوربا حجرًا صغيرًا، فأخذ الحجر يتدحرج في المنحدر. توقف زوربا وراح يراقبه بذهول، وكأنه وللمرة الأولى يراقب مثل هذا المنظر، ثم نظر إليَّ، ولمحتُ في نظرته الدهشة والخوف، وبعد لحظة قال:

- هل رأيت ذلك أيها الرئيس؟ إن هذه الحجارة تصبح وكأنها حية عبر المنحدر.

لم أرد، إلا أن سروري كان كبيرًا، ورحت أحدث نفسي: هكذا كان الباحثون العظماء والشعراء الأفذاذ، يراقبون الأشياء وكأنهم يرونها للمرة الأولى، كأنهم يشاهدون عالمًا جديدًا كل لحظة. لقد كان هذا العالم بالنسبة إلى زوربا كما كان يراه البشر الأوائل، كثيفًا وثقيلًا، فالنجوم تسبح فيه، والبحر يتحطم على شواطئه، يحيا مع الأرض والحيوانات والماء والله، دون أن يتدخل ذلك العقل في حياته.

كانت السيدة هورتنس قد علمت بسفر زوربا، فوقفت تنتظرنا عند مدخل منزلها وعلى وجهها المراهم والمساحيق. قد تبرجت كما لو أنها تستعد لحفلة شعبية، كان البغل عند الباب فركبه بسرعة وتناول اللجام.

اقتربت السيدة العجوز بحياء واتكأت بيدها الثقيلة على لجام البغل، كأنها تود أن تمنع عشيقها من الرحيل، ونادت وهي ترتفع فوق أصابعها:

- زوربا.. زوربا.

لم يلتفت زوربا إليها، فقد كان لا يحب الغزل والدلال في الطريق العام. لاحظت السيدة عدم اهتمام زوربا بها فارتعشت، لكنها ظلت متكئة بيدها على البغل، كأنها تتضرع.

فقال زوربا بانزعاج:

- ما الذي تريدين؟

فهمست كأنها تصليّ:

- كن طيبًا يا زوربا.. لا تنسني، كن طيبًا.

ودون أن يقول كلمة لوى زوربا العنان، وبدأ البغل في السير، فصحتُ عليه:

- رحلة موفقة يا زوربا، لا تغب أكثر من ثلاثة أيام، أتسمع؟

فنظرَ إلينا ولوّح بيده الكبيرة، وفي هذا الوقت كانت الدموع تنهمر من عينيْ السيدة العجوز وتحفر خطوطًا في المساحيق التي تكسو وجهها، وردَّ زوربا بصوت مرتفع:

- أعطيك كلمتي أيها الرئيس، وهذا كفاية.. إلى اللقاء.

وأخذَ يتلاشى تحت أغصان الزيتون، بينما كانت السيدة هورتنس تبكي وتنظر إلى الغطاء القماشي الأحمر الذي وضعته فوق البغل ليرتاح فوقه زوربا، وهو يختفي ثم يظهر من بعيد مرة أخرى، وبعد قليل تلاشى تمامًا. وتلفتت السيدة هورتنس حولها وشعرت كأن العالم عادَ فارغًا.

لم أذهب إلى الشاطئ وشعرت بالكآبة، فتوجهت نحو الجبال، وعندما وصلت إلى منحدر الجبل تناهى لسمعي صوت بوق ساعي البريد، الذي ناداني ملوحًا بيده:

- أيها الرئيس..

وأسرع نحوي وناولني لفة جرائد ومجلات أدبية ورسالتيْن، وبسرعة وضعت إحداهما في جيبي لأقرأها عند المساء حين أتفرغ لها. كنت أعلم مَن أرسلها، أردتُ تأجيل سروري، كي أشعر به أطول مدة ممكنة.

أما الرسالة الثانية فقد عرفتها مِن خطها الغليظ وطوابعها غريبة الشكل.

وصلتني من إفريقيا، من مرتفع مقفر على مقربة من تنجانيقا. بعث بها أحد رفاق الدراسة ويُدعَى كارايانيس، إنه شاب غريب الأطوار، قاسٍ أسمر البشرة مع أسنان حادة وناصعة البياض، وله أنياب بارزة كحيوان بريٍ، كان كل حديثه صراخًا ومناقشته خصامًا، تركَ جزيرة كريت بعد أن كان يُدرِّس الكهنوت وهو لا يزال شابًّا. فقد فاجأه بعضهم وهو يداعب إحدى تلميذاته في الحقل متعانقيْن، وراحوا يسخرون منه. فاضطر إلى ترك ثوبه الكهنوتي، وسافر إلى إفريقيا حيث أقام عند عمه، واشتغل هناك وأسس معملًا لصنع حبال البواخر وكسب ثروة طائلة، ومن وقت لآخر كان يكتب إليَّ ويدعوني لقضاء مدة ستة أشهر عنده. كنت أشعر وأنا أفض رسالته وقبل أن أقرأها، بأني أرتفع عبر الصفحات المحشوّة والسطور المتصلة بالحبال، وأشعر بشعري يتطاير، كنت دائمًا أعقد العزم على السفر إلى إفريقيا لكني لم أسافر مطلقًا.

تنحيت عن الطريق وجلست على صخرة قريبة، وبدأت أقرأ رسالته:

(متى ستقرر أن تأتي أيها الصدَفَة الملتصقة بصخور اليونان؟ أنت أيضًا أيها الإغريقي قد تحولت إلى أحد هؤلاء اليونانيين من روّاد الحانات، تتمرغ في المقاهي، كما تتمرغ في كتبك وعاداتك وأفكارك المعروفة. اليوم هو

الأحد، وليس عندي شيء لأعمله. إني الآن في بيتي وأفكر بكَ. الشمس هنا كأنها أتون لا تطفئه قطرة مطر، لكن عندما ينهمر المطر هنا خلال نيسان وأيار وحزيران يتحول إلى طوفان.

إني وحيدٌ وأنا أحب ذلك، يوجد هنا عددٌ غير قليل من اليونانيين (ألا يوجد مكان لا يذهبون إليه؟!) ولكني لا أريد أن أعاشرهم، إنهم يُشعرونني بالغثيان، لأنكم أيها المواطنون الصالحون (لتذهبوا إلى الجحيم) قد أرسلتم إلينا حتى إلى هنا جذامكم وآراءكم السياسية التي دمرت اليونان... يوجد هنا أيضًا لعب الورق والجهل وكثيرٌ من الخطايا الشهوانية.

إني أحتقر الأوروبيين ولهذا فأنا أنعزلُ في الجبال، نعم، إني أكرههم، ولكن كرهي أشد لليونانيين، وكل شيء يمت إلى اليونان. لن أضع قدمي فيها من جديد، سوف أموت هنا. لقد أعددت قبري من الآن قرب كوخي، هنا في الجبال الوعرة، حتى إني قد أعددت اللوحة التي ستوضع على قبري، وقد كُتِب عليها بأحرف كبيرة ظاهرة: «**هنا يرقد اليوناني الذي يكره اليونانيين**».

إني لأنفجر ضحكًا، أبصقُ، وأشتم، ثم تنهمر دموعي عندما أفكر باليونان. لقد تركت وطني كيلا أشاهد اليونانيين وكل ما يمت لليونان بصلة، لقد أتيت إلى هنا.. بل قدري جاء بي.. كلا ليس قدري الذي جاء بي، فالإنسان يفعل ما يريد.

جئت بإرادتي وعملت كأني عبد، لقد سال مني وما زال ينسالُ عرقٌ كثيرٌ، إني أكافح ضد الأرض، الهواء، المطر، العمال السود، الهنود.

لا أشعر بأي متعة.. بلى، هناك متعة واحدة، هي متعة العمل. أعمل بكل جسدي وفكري، لكن بجسدي على الأخص. كم أحب أن أعمل فيتصبب مني العرق ويتناهى لسمعي صوت عظامي وهي تطقطق، أحاول قصارى جهدي أن أبذلَ مالي وأضيعه كما أريد، فأنا لست ممن يستعبدهم المال، بل أنا أستعبده، لكنّ العمل استعبدني، وأنا فخور بذلك. أقطع الأشجار، وأصنع الحبال، وأزرع القطن أيضًا، وقد أبرمت صفقة جيدة مع الإنجليز.

أمس وقع اشتباكٌ بين قبيلتَيْن من عمالي السود. «**الغاياي**» و«**الغانغيوني**» وكل ذلك من أجل امرأة، بغي. تمامًا كما عندكم في اليونان؛ شتائم ونزاع وضرب بالعصي، ودم يسيل. وقد هرعت النساء يستنجدن بي في نصف الليل حتى أيقظنني بصراخهن، لأذهب وأحكم بينهم. غضبت وصحت: «**ليذهبوا**

إلى الشيطان». ومِن ثَم نصحتهن أن يذهبن إلى البوليس الإنجليزي، لكنهن بقين طوال الليل يصحن أمام الباب، وفي الصباح ذهبت وحكمت بينهم.

غدًا صباحًا سأذهب لأتسلق جبال «**فاسامبا**» بغاباتها الكثيفة ومياهها العذبة وعشبها الدائم. والآن أيها الطفل اليوناني متى ستغادر أوروبا الحديثة، تلك الساقطة التي تسكن فوق الشلالات الكثيرة، والتي ارتكب فيها ملوك الأرض الفواحش؟ متى ستأتي، حيث تستطيع أن نتسلق هذه الجبال الصافية والوحشية معًا؟

لي ابنة من سيدة زنجية، لقد طردتُ والدتها، فقد كانت تخونني جهرًا وفي وسط النهار وتحت كل شجرة، حتى مللت منها ورميت بها على الباب، إلى أني أَبْقيتُ الابنة لديَّ. عمرها سنتان الآن، لقد بدأت تمشي وتتكلم وأنا أعلمها اللغة اليونانية وأول جملة لقنتها إياها، هي: «**إني أبصق عليك أيتها اليونان القذرة**».

إن الخبيثة تشبهني ولا تشبه والدتها إلا بأنفها العريض، أنا مغرم بها، لكن كما يغرم الإنسان بكلبه أو بقطته. لماذا لا تأتي أنت أيضًا وتتزوج من إحدى فتيات فاسامبا وتنجب ولدًا، ونزوجهما بعد ذلك، لنمتعهم ونمتع أنفسنا أيضًا.

وداعًا وليكُن الشيطان معك، ومعي أيها الصديق... كارايانيس).

تركت الرسالة مفتوحة فوق ركبتي، وتملكتني رغبة هائلة بأن أُجِيب طلبه، ليس لحاجتي إلى ترك اليونان، فقد كنت أعيش على ما يرام على الشاطئ الكريتي، وأشعر بالحرية والسعادة، لا ينقصني شيءٌ؛ بل لأنه كانت لدي رغبة جامحة في رؤية كل ما يمكن رؤيته من جبال الأرض وبحارها قبل أن أموت.

وقفت وغيّرت رأيي، وبدلًا من أن أصعد التل أسرعت متجهًا نحو الشاطئ. تحسست الرسالة الثانية في جيبي، ونفد صبري وغلبني الشوق، فالشعور العذب الذي لا يُقاوم غابَ أكثر من اللازم.

وصلت إلى الكوخ، فأشعلت النار وأعددت قليلًا من الشاي، وتناولت بعض الخبز والعسل والبرتقال، خلعت ثيابي وتمددت فوق فراشي وفتحت الرسالة:

(معلمي وتلميذي، تحياتي...

عندي هنا عمل كبير وصعب ليتبارك (الله) -إني أضع هذه الكلمة الخطرة بين هلالَيْن وكأنها وحشٌ خَطِرٌ وراء القضبان- حتى لا تشعر بالثورة حين تفض هذه الرسالة. حسنًا إنه عمل صعب ليتبارك (الله) إن نصف مليون من اليونانيين يواجهون الخطر في جنوب روسيا والقوزاق، كثير منهم لا يتكلمون إلا التركية أو الروسية، لكنّ قلوبهم لا تزال تتكلم اليونانية بتعصب. إنهم من دمنا، يكفي جدًّا أن تشاهد؛ كيف تتلألأ عيونهم بشراهة، وكيف يبتسمون بخبث وتلذذ، وكيف نجحوا في أن يصبحوا سادة هنا على هذه الأرض الروسية الواسعة، وكيف استطاعوا أن يستخدموا الفلاحين والعمال الروسيين، يكفي أن تشاهد هذا لتعلم بأنهم سلالة مَن نحب «**أوديسيوس**» فتتعلق بهم نفسك ولا تتركهم يتلاشون.

لكنهم الآن يواجهون خطر الفناء، فقد فقدوا كل شيء، وهم جياع وعراة، مطاردون من قبل البلاشفة من جهة، ومن الأكراد من جهة أخرى. وقد أتى اللاجئون من جميع الجهات ليحتشدوا في المدن، جاؤوا من أرمينيا وجورجيا، بلا طعام ولا شراب ولا ثياب، حتى ولا أدوية، ينظرون إلى المستقبل برعب وهم ينتظرون البواخر اليونانية، التي يعتقدون بأنها ستأتي لأخذهم إلى وطنهم، إلى أمهم، اليونان. إنهم جنسنا من دمنا وروحنا، وهم يعيشون مطاردين بين الرعب والفاقة.

إن تركناهم لقدرهم سوف يتلاشون، نحن نحتاج إلى كثير من المحبة والفهم والحماسة والمثل العليا -هذه المفاهيم التي تحب أن تتحدث عنها كثيرًا- لنستطيع أن ننقذهم ونعيدهم إلى أرضنا الحرة، حيث سيقدمون أعظم فائدة لوطننا على حدود ماسيدونيا وأبعد من هذا على حدود تراسيا. هذه هي الطريقة الوحيدة لإنقاذ مئات الآلاف من اليونانيين، ولإنقاذ أنفسنا كذلك! فأنا عند وصولي إلى هنا رسمت دائرة حسب تعليماتك، وسميت هذه الدائرة «**واجبي**». وقلت لنفسي: «**إذا أنقذتُ هذه الدائرة أكون قد أنقذت نفسي، وإن لم أستطع إنقاذها فسوف أضيع**» وداخل هذه الدائرة يوجد خمسمائة ألف يوناني.

أنا أذهب إلى المدن والقرى لأجمع اليونانيين، وأكتب التقارير، وأرسل البرقيات لأجعل المسؤولين في أثينا يسرعون في إرسال المراكب، والطعام، والثياب، والأدوية، ولينقلوا هذه المخلوقات إلى اليونان.

أليست السعادة الحقيقية تكمُن في العمل الشاق المضني؟ ولذلك فأنا سعيد جداًّ، ولأستعمل جملتك المفضلة، أقول بأني قد «**فصّلت**» سعادتي على قياسي، فأنا أُفضِّل أن أبقى مدة أطول لأوسع حدود اليونان، والتي هي حدود سعادتي نفسها، لكن لنعلن الهُدنة مع النظريات. فأنت الآن تتمدد على شاطئك الكريتي لتصغي إلى أمواج البحر والسانتوري. ولديك الوقت الكافي، أما أنا فلا، فأنا غارقٌ في العمل وأنا سعيدٌ بذلك. الحركة أيها العزيز الكسول، الحركة ولا يوجد أي حل آخر.

إن موضوع تأملاتي الآن بسيط جداًّ، فأنا أقول لنفسي ودفعة واحدة: «**إن سكان** «**يوفنتوس**» و«**القوقاز**» وفلاحي «**كارس**» وتجار «**تفليس**» و«**باتوم**» و«**نوفوروسيسك**» و«**روستوف**» و«**أوديسا**» و«**كريميا**» الكبار والصغار هم منا، من دمنا. وبالنسبة إليهم كما بالنسبة إلينا: عاصمة اليونان هي القسطنطينية».

نحن جميعًا لنا الرئيس نفسه، أنت تُسمِّيه «**أوديسيوس**» وهم يُسمُّونه «**كوستنتينوس الباليولوجي**» ليس الذي قُتِل عند أسوار بيزنطة، بل الآخر بطل الأسطورة الذي تحول إلى رخام، والذي لا يزال منتصبًا ينتظر «**ملاك الحرية**» أما أنا بعد إذنك فإني أُسمِّيه «**أكريتاس**»، فأنا أحب هذا الاسم أكثر، فهو صَلب قوي ويميل نحو الحرب، فعندما يرتسم في مخيلتك «**هيلين**» الأبدي، ذاكَ المدجج بالسلاح والذي يحارب دون كلل أو ملل في الوديان وعلى الحدود وعلى كل الحدود الوطنية الفكرية والروحية، وإن زدت عليه «**دايجنيس**» تصف تمامًا عرقنا العظيم المكون من الشرقيين والغربيين.

إني الآن في «**كارس**» أتيت لأجمع بعض اليونانيين، وعند أول يوم من وصولي قبض الأكراد على رجُلَيْن، قسٌّ ومعلمٌ يونانيان، وسمّروا في أرجلهما حدوة حديدية كالبغال، فخاف الأعيان والتجأوا لمنزلي لأحميهم. نستطيع أن نسمع أصوات مدافع الأكراد تقترب كل لحظة. كل هؤلاء اليونانيين يعلقون آمالهم عليَّ، كما لو أني الشخص الوحيد الذي يمتلك القوة لإنقاذهم.

كنت مصممًا على أن أتوجه غداً إلى «**تفليس**» لكنه الآن وبعد مواجهة هذا الخطر فأنا أخجل من الرحيل، لذلك فأنا باق. لا أقول بأني لست خائفًا، بل على العكس، فإني خَجِلٌ، ألم يكن المحارِب «**رامبراندت**» مثلي الأعلى، ليفعل الشيء نفسه ويبقى؟ لذلك فأنا باقٍ أيضًا. إذا دخل الأكراد المدينة من

الطبيعي والمؤكد أن أكون أول من تُسمَّر بأقدامه الحدوات، أنا أكيد يا معلمي العزيز بأنك لم تكُن تعلم بأن تلميذك سينتهي نهاية البغال هذه.

بعد مناقشات يونانية طويلة كما هي العادة، قررنا أن نجتمع في المساء، ونحضر بغالنا، وجيادنا، وماشيتنا والأطفال والنساء، وفي الفجر نتوجه شمالًا معًا، وسوف أسير في المقدمة لأكون الضحية الأولى.

يا للهجرة الرعوية لشعبٍ عَبَر سلسلة من الجبال ذات الأسماء الأسطورية، وأنا سأكون أشبه بموسى الذي يقود الجنس المختار إلى الأرض الموعودة كما يدعو هؤلاء الأغبياء أرض اليونان، ولا بد لي لأستطيع أن أقوم بهذه المَهمة الموسوية أن أكون مستحقًا لها، أن أربط إلى قدمي جلد المواشي بعد أن أخلع حذائي الجلدي اللامع، وأن أترك لحيتي طويلة كثيفة، وفوق كل هذا أضع قرنيْن ضخميْن، لكني آسف جدًّا فلن أحقق أمنيتك تلك وأدعك تضحك مني، فمن السهل أن تغير روحي على أن تجعلني أغير ثيابي. فأنا أنتعل حذائي اللامع، وما زلتُ حليقًا، وجلدي ناعم جدًّا مثل لُب الملفوف.

معلمي آمل أن تستلم رسالتي هذه، والتي قد تكون الأخيرة، لا أحد يعلم! فأنا لا أثق بالقوى الخفية التي يقال بأنها تحمي الرجال، أنا أؤمن بالقوى العمياء التي تضرب يمينًا وشمالًا دون هدف ودون رحمةٍ، لتقتل كلًّا مَن في طريقها. إن كنت سأترك هذه الأرض ـ أقول «**أترك**» حتى لا أخيفك أو أخيف نفسي باستعمال الكلمة الصحيحة ـ إن كنت سأترك هذه الأرض آمل أن تكون بخير وسعيدًا أيها المعلم العزيز. أنا آسف لأني مضطر إلى أن أقول هذا، لكني مُجبرٌ فأعذرني، فأنا أحببتك كثيرًا أيضًا.

ـ وفي أسفل الرسالة كُتِب بالقلم هذه الملاحظة ـ :

«لم أنسَ الاتفاقية التي عقدناها على السفينة يوم سفري: إذا كان عليَّ أن «أترك» هذه الأرض، فإني سأعلمك حيثما كنت، لا تخشَ شيئًا»).

١٣

مضت الأيام الثلاثة، ثم أربعة، وخمسة، ولم يَعُد زوربا. وفي اليوم السادس وصلتني رسالة من «**كانديا**» في عدة صفحات وعلى نسق واحد، كُتبت على ورق وردي معطر، وعلى زاوية الصفحة رُسِمَ قلب يخترقه سهم.

احتفظت بهذه الرسالة بكل انتباه، وسوف أنقلها بكل أمانة مستعملًا المصطلحات العامية نفسها التي سوف تقرأها هنا وهناك، بالكاد صححت بعض الأخطاء الإملائية. فزوربا يمسك القلم كما يمسك بمعول، ويهاجم الورق بقسوة، لهذا السبب كانت الصفحات مغطاة بالثقوب وملطخة بالحبر:

(سيدي العزيز، أيها السيد الرأسمالي..

أُمسك الآن بالقلم لأسأل إذا كانت صحتك جيدة؟ نحن والحمد لله بصحةٍ جيدة أيضًا.

لقد أدركت منذ مدة من الزمن أني لم آت إلى هذا العالم لأعيش كحصان، أو ثور، الحيوانات فقط تعيش لتأكل، ولأتجنب مثل هذه الاتهامات، فإني أخلق العمل لنفسي ليلًا نهارًا، وأغامر بخبز يومي من أجل فكرة. وأقلب المثل لأقول: «**إن دجاجة نحيلة تسبح في الماء خير من عصفور سمين في قفص**». كثير من الناس يحبون أوطانهم، دون أن يكلفهم ذلك أي شيء، أما أنا فلست بوطني ولن أكون، مَهما كلفني هذا. كثير من الناس يؤمنون أنهم سيدخلون الجنة ويحلمون بأخذ حميرهم معهم لترعى هناك، وأنا ليس عندي حمار، فأنا حر، ولا أخاف الجحيم حيث سيحترق معي حماري. ولا أتوق للجنة حتى لو كان حماري سيجد فيها علفًا من الفضة.

أنا جاهل وذو رأس جلف، ولا أعرف كيف أرتب الأشياء، ولكنك تفهمني أليس كذلك أيها الرئيس؟

كثير من الناس يخافون من قول الأشياء الباطلة، أما أنا فلا يزعجني هذا. كثير منهم يفكرون مليًّا أما أنا فلا أحتاج إلى التفكير، فأنا لا أبتهج بالخير كما لا أحزن للشر، فلو سمعت بأن اليونانيين احتلوا القسطنطينية، فإن هذا بالنسبة إليَّ تمامًا كما لو أن الأتراك احتلوا أثينا.

إن كنت تظن بعد قراءتك هذا بأن عقلي يخف، اكتب لي. إني عندما أدخل الحوانيت هنا في كانديا لأشتري الكابلات الحديدية أغرق في الضحك.. ودومًا يسألونني عن الذي يضحكني ويصرون على السؤال، ولكني كيف أجيبهم.. هل أخبرهم أني أضحك لأني بينما أمدُّ يدي لألمس الفولاذ، لأراه إذا كان من النوع الجيد، أُفكّر حينها في جوهر الإنسان، ولماذا جاء إلى هذه الأرض ولأي شيء يصلح؟! إذا سألتني سوف أجيب بأنه لا يصلح لأي شيء. بالنسبة إليَّ لا أهتم بالمرة إن كان عندي زوجة أم لا، إن كنت شريفًا أم لا، إن كنت باشا أو حَمّالًا. الشيء الوحيد الذي يهمني: هل أنا ميت أم على قيد الحياة.

إن استدعاني الشيطان أو الربّ إليه (أتعلم أيها الرئيس؟ أنا أظن بأن الربّ والشيطان واحد) فسوف أموت وأتحول إلى جثة عَفِنة تُبعد الناس وتفسد عليهم الهواء، لذلك فسيكون عليهم أن يحفروا حفرة بعمق أربعة أقدام على الأقل كيلا يفطسوا.

بالمناسبة أودُّ أن أوجه إليك سؤلًا لطالما أخافني. الشيء الوحيد الذي يخيفني أيها الرئيس هو الشيخوخة، لتحفظنا السماء منها، الموت لا شيء بالمرة، نفخة واحدة وتنطفئ الشمعة، إنما الشيخوخة فهي عار.

إني أظن بأن من العار الشديد أن أعترف بأني أسير نحو الشيخوخة، وأعمل ما بوسعي حتى لا يرى الناس أني أصبحت مُسنًّا. فأنا أقفز، أرقص، وظهري يؤلمني، لكني أتابع الرقص. أشرب وأثمل ويدور كل شيء حولي، لكني أجلس وأتظاهر كما لو أن كل شيء على ما يرام. أتصبب عرقًا فأندفع نحو البحر وأصاب بالبرد، وأشعر بالرغبة في السعال لأريح صدري، لكني أشعر بالخجل وأكبت السعال داخلي.. هل سمعتني أسعل؟ أبدًا. لا تظن بأني أتحاشى السعال فقط عندما يكون حولي بعض الناس، كلا، فعندما أكون بمفردي أشعر بالخجل أيضًا، أشعر بالخجل من زوربا.

ما الذي تظنه حول هذا؟ هل تفهم؟ أنا أخجل من زوربا أيضًا.

ذات يوم في جبل «**آتوس**»، فقد ذهبت إلى هناك، وكان أفضل عندي لو قُطِعت يدي اليمنى ولم أذهب، قابلت راهبًا، الأب: «**لافرنتيو**»، وأصله من «**شيوس**». كان هذا المسكين يعتقد أن بداخله شيطانًا، حتى إنه أعطاه اسمًا، كان يدعوه «**هودجا**». فكان يقف أمام باب الكنيسة وهو يضرب برأسه

الجدار ويصيح: «**هودجا يريد أن يأكل اللحم يوم الجمعة العظيمة. هودجا يريد أن ينام مع امرأة. هودجا يريد أن يقتل رئيس الدير. إنه هودجا.. هودجا وليس أنا**». ويضرب برأسه الحائط.

وأنا أيضًا في داخلي شيطان مثل هذا، لكن أُسمِّيه: زوربا. إن زوربا الداخلي لا يريد أن يشيخ. وهو لم يَشِخ، ولن يشيخ أبدًا.

إنه وحش ذو شعر أسود كالغراب، وله اثنتان وثلاثون سِنًّا، ويضع قرنفلة حمراء خلف أذنه. إلا أن زوربا الخارجي قد أصبح عجوزًا، شَابَ شعره وتجعد جلده، وتساقطتْ أسنانه، وامتلأ شاربه بالشعر الأبيض، وعلا جسده شعرٌ طويل كشعر الدواب.

ما الذي أفعله أيها الرئيس؟ إلى متى سيبقى هذان الزوربايان يتصارعان؟ ومَن الذي سيبقى للنهاية؟ إن فارقت الحياة سريعًا فهذا أفضل، ولن أخاف. لكن إن كبرت أكثر فهنا المصيبة.. المصيبة أيها الرئيس هو أن يأتي اليوم الذي أُحتَقر فيه، فأصبح عبدًا تُلقي عليَّ حماتي وابنتي الأوامر لأراقب الأطفال وأعتني بهم، أراقب طفلًا رضيعًا، بل وحشًا كاسرًا لكيلا يحرق نفسه ولا يسقط وتتسخ ثيابه، وإذا ما وسّخَ نفسه فسوف يجبرانني على تنظيفه.. أف يا للعار.

وأنت أيضًا أيها الرئيس ستتعرض للعار نفسه في النهاية، وإن كنتَ لا تزال شابًّا فإني مع ذلك أحذرك، اسمع ما أقوله لك، وانهج الأسلوب نفسه الذي تبعته أنا، فليس ثمة مخرج آخر. فلنقتحم الجبال، ولنستخرج الفحم والنحاس والحديد والتوتياء، ولنكتسب الأموال ليحترمنا الأقرباء ويلحس الأصدقاء نعالنا، وليرفع الرأسماليون قبعاتهم تقديرًا لنا، وإن لم ننجح فالموت أسهل لنا، ولتأكلنا الذئاب والدببة أو وحشٌ كاسر يحظى بنا، فلهذا خلق الله الحيوانات على هذه الأرض، لكي تقتات ببعض أبناء جنسنا حتى لا يُحتقَروا).

هنا رسم زوربا في منتصف الصفحة رجلًا طويلًا نحيفًا تحت أشجار خضراء، ورسم خلف الرجل سبعة ذئاب تطارده. وكتب أسفل الرسمة: «**زوربا والخطايا السبع**». وتابع رسالته:

(كم أشعر بالتعاسة! إني لا أشعر بالتحسُّن والتخلُّص من حزني إلا عندما أتحدث إليك، لأنك مثلي حتى لو لم تكُن تعرف هذا، إن بداخلك أيضًا

شيطانًا أيها الرئيس، وإن كنت لا تعرف اسمه، ولذلك فأنت مثلي حائر. عَمِّده أيها الرئيس وأعد الطمأنينة إلى نفسك.

هل تعرف أيها الرئيس.. أنا أرى بكل وضوح أن ذكائي ليس إلا حماقة كبرى، ومع ذلك تمر عليَّ أيام أفكر فيها تفكيرًا جيدًا، حتى أحس أني أحد العلماء!

وبما أنه ليس بيني وبين حياتي أي اتفاق محدد، فإني عندما أصل إلى أخطر منحدرات الجبال أُرخي العنان. حياة الإنسان مليئة بالمرتفعات والوديان، والعقلاء يتحركون وأيديهم على اللجام، أما أنا أيها الرئيس، وهذا ما جعلني ذا قيمة، فقد رميت اللجام منذ مدة طويلة، لأن الصدمات لا تخيفني، نحن العمال نعتبر أن الخروج عن الخط الحديدي اصطدامًا، أما أنا فلتعلق مشنقتي إن كنت أهتم لهذه الاصطدامات التي أقوم بها وحتى وأنا بكل انتباهي. إن لي ذكرى في كل مكان، وأفعل ما أريد ولا أكترث للموت، فما الذي أخشى ضياعه؟ لا شيء! وعلى كلٍّ فلو عشت سنواتٍ طويلة ففي النهاية سوف أموت، وهذا ثابت، إذن فلتذهب الأيام إلى الجحيم.

إني متأكد بأنك تضحك الآن بسبب ما أقوله، فإني أكتب لك عن كسلي أو يمكنك أن تقول عن فكري أو حتى ضعفي، لكنه لا يوجد فرق بين الثلاثة. فأنا وأقسم لك لا أرى أي فرق أو تباعد بينهم، فأنا أكتب، واضحك أنتَ ما شئت. أنا أيضًا أضحك لأني أكيدٌ بأنك تضحك، وبهذا فإن الضحك سيبقى على الأرض ولن ينتهي. إن لكل إنسان حماقاته إلا أن الحماقة الكبرى ألَّا يكون للإنسان أي حماقة.

أنا هنا في كانديا أراجع أهوائي الجنونية، وأشرح لك كل شيء بالتفصيل لأني أودُّ كما ترى أن أطلب بعض النصح، فأنت لا تزال فتيًّا أيها الرئيس، هذا صحيح، إلا أنك قد قرأت للحكماء السالفين وأصبحت بذلك عجوزًا نوعًا ما، وأنا أحتاج إلى نصيحتك.

أنا أؤمن بأن لكل إنسان رائحةً خاصة به، لكنها تختلط مع روائح الآخرين، ولا نستطيع أن نعرف أيها لك وأيها لي، إننا نعلم فقط بأنها الرائحة النتنة، وهذا ما ندعوه بالإنسانية، أي الإنسانية النتنة، لكنّ هناك مَن يستسيغها كأنها رائحة حلوة، أما أنا فتدفعني للغثيان. ولكن دعنا من هذا فتلك قصة أخرى.

كنت أودُّ أن أقول لك، وسأرخي العنان مرة أخرى، أن تلك النساء الساقطات لهن أنوف رطبة مثل أنوف الكلاب، ويستطعن من خلال أنوفهن شم الرجل الذي يشتهيهن والرجل الذي لا يشتهيهن، لهذا فقد كنت دائمًا وفي كل مدينة ألقي فيها رحالي أجد امرأتيْن أو ثلاثًا يتتبعن أثري على الرغم من أني شِختُ ولا أعتني بثيابي أو بهذه الساقطات، تلك الكلاب المتشممات، ليباركهن الله.

في اليوم الذي وصلت فيه إلى كانديا، كان الوقت مساءً والنهار كان آخذًا بالهروب، توجهت مسرعًا نحو الحوانيت فإنها كانت مغلقة، فتوجهت إلى الفندق وعلقت الطعام للبغل، وأكلت أنا أيضًا واغتسلت وتناولت سيجارة وخرجت لأتجول في الطرقات. لم أكُن أعرف أيَّ شخص في المدينة ولا أحد يعرفني، شعرت بالحرية المطلقة، كنت أستطيع أن أُصفّر وأضحك في الشارع ملء صوتي، اشتريت قليلًا من بذر اليقطين المحمص ورحت أقزقز وأبصق القشور. كانت مصابيح الشوارع مضاءة وقد ذهب الرجال لاحتساء بعض الخمر، ورجعت النسوة إلى منازلهن، ورائحة المساحيق والورق والصابون واللحم تهيمن على المكان، وبدأت أكلم نفسي «**أجبني أيها العجوز زوربا، حتى متى ستبقى على قيد الحياة يختلج منخارك؟! ليس لديك الوقت الكافي لاستنشاق الهواء، هيا أيها الشيخ المسكين استنشق ملء رئتيك**».

هكذا كنت أقول لنفسي وأنا أتجول في الساحة التي تعرفها. وفجأة تناهى لسمعي صراخٌ، وتصفيقٌ، ورقصٌ وغناءٌ. ورحت أصغي وجريت صوب المكان الذي تأتي منه الأصوات. كان المكان عبارة عن ملهى. وما الذي كنت أريده أكثر من هذا؟! دخلت وجلست على طاولة صغيرة قرب المسرح، لم يكُن ثمة ما أخشاه، فكما قلت لك لم يكُن أحد يعرفني فلديَّ الحرية التامة.

وكانت هناك امرأة ممشوقة القامة ترقص وتتلوى فوق المسرح، تُبرز بعض أجزاء جسدها وتخفيه، لكني لم أهتم لها. طلبت كوبًا من البيرة فاقتربت مني فتاة صغيرة وجلست إلى جانبي. فتاة ناعمة، سمراء، تغطي وجهها كمية لا بأس بها من المساحيق، وقالت وهي تقهقه: «**بعد إذنك أيها الجد**». غَلَى الدم في عروقي وتسرّب لرأسي، واجتاحتني رغبة جامحة لأكسر رقبتها. يا لها من غبية! لكني سيطرت على أعصابي مشفقًا عليها، وصحت بالنادل ليأتي بالشمبانيا. (عذرًا أيها الرئيس قد بددت كل نقودك، فقد كان لا بد من

الحفاظ على كرامتنا، كرامتك وكرامتي، فقد واجهت هذا الموقف، وكان عليَّ أن أجبرها على أن تحترمنا وتركع أمامنا، يا لها من غبية! إني أعرف جيدًا بأنك لم تكُن لتعارض وقوفي بوجهها في تلك اللحظة الخطرة. إذن لقد طلبت الشمبانيا).

وحضرت الشمبانيا وطلبت بعض الحلوى أيضًا، وشمبانيا مرة ثانية. مرَّ بقربنا رجلٌ يبيع الياسمين فابتعت السلة بما فيها، وقلبت كل ما بها فوق ركبتيْ الساقطة التي تجرأت على إهانتنا.

شربنا كثيرًا، لكني أقسم لك أيها الرئيس إني لم أضع يديَّ عليها، فأنا أعرف ما الذي يجب أن أفعله تمامًا، فعندما كنت شابًّا كنت أول شيء أقوم به هو المداعبة، أما الآن وبعد أن شخت، فيجب أن أُبذِّخ وأتظاهر باللطف، فالنساء يعشقن مثل هذه الأشياء، إنهن يعشقنها، الساقطات لا يهمّهُن إن كنت أحدب أو أن تكون كومة من العظام المركبة فوق بعضها، أو شنيعًا كحشرة، فهن حينها يغضضن البصر عن كل شيء، العاهرات! كل ما يجب أن تفعله هو أن تنفق أموالك يمينًا ويسارًا، قلت بأني قد بددت كثيرًا من المال بل وأكثر مما يجب، ليباركك الله ويعوض عليك مائة مرة أيها الرئيس، وعندئذ لم تتركني الفتاة، بل راحت تلتصق بي أكثر وأكثر، وتشد بركبتها الصغيرة على ساقيَّ الضخمتيْن، وأنا أتظاهر بالبرود، لكن أعماقي كانت تحترق، فهذا ما يجعل النساء يَمُتن غيظًا. يجب أن تعرف هذا عند أول فرصة تسنح لك: لا تضع يدك عليهن، حتى لو كنت تحترق في الداخل.

باختصار: وصلنا إلى منتصف الليل وخفتت الأنوار رويدًا رويدًا، وبدأ الملهى يغلق أبوابه، فتناولت رزمة من أوراق النقد الكبيرة ودفعت، وتركت للساقي مبلغًا محترمًا. هذا ما جعل الفتاة تتعلق بي، وسألتني بصوت متهدج: «**ما اسمك؟**». فأجبتها بصوت فظ: «**الجَد**». فقرصتني الصغيرة قرصة قوية وهمست: «**تعالَ**». أمسكتُ بيدها وشددت عليها دليلًا على موافقتي، وأجبت بصوت خافت: «**هيا يا صغيرتي**».

النهاية أنت تعرفها طبعًا. ثم غلبنا النوم وعندما استيقظت كان الوقت قد أصبح ظهرًا، والتفت حولي، كانت الغرفة صغيرة لطيفة، أرائك، مغسلة، صابون، وبعض الفساتين المزركشة المعلقة على الحائط، مع بعض الصور الكثيرة؛ بحّارة، ضباط، سفلة، عساكر، راقصات، وفتيات لا يلبسن سوى

نعليْن صغيرين. وكان بجانبي على الفراش جسد الفتاة، نائمة على بطنها مُشعثة الشعر، تندلع الحرارة من جسدها والعطر.

ورحت أخاطب نفسي مغمضًا عيني: «**لقد دخلت الجنة وأنت على قيد الحياة. المكان مريح، فأبقَ هنا**».

لقد أخبرتك هذا سابقًا: إن لكل إنسان جنته الخاصة، أعتقدُ أن جنتك ستكون مكدسة بالكتب وزجاجات الحبر الكبيرة. وبالنسبة إلى إنسان آخر ستكون ملأى ببراميل النبيذ والخمر. وبالنسبة إلى آخر ستكون ملأى بالجنيهات المكدسة. أما جنتي أنا فهي هذا.. غرفة صغيرة تفوح منها الروائح العطرة، معلق على جدرانها الفساتين المزركشة، والصابون، وسرير عريض، وبجانبي فتاة دافئة.

إن الخطيئة التي تعترف بها يُغتفر لك نصفها. بقيت في الغرفة طوال اليوم، فإلى أين أذهب؟ ما الذي أفعل؟ تخيّل.. لقد كنت سعيدًا جدًّا، طلبت الطعام من أفضل فنادق المدينة، أحضروا لنا طبقًا كبيرًا يحوي كل نوعٍ مُغذٍ ومُنشط: كافيار، ولحم، وسمك، وعصير ليمون وحلوى، وغرقنا في ممارسة الحب مرة أخرى، ومِن ثَم عدنا للنوم ثانية. ثم نهضنا في المساء ووضعنا علينا ملابسنا، وخرجنا باتجاه الملهى ويدي بيدها.

ولأكون واضحًا معك وحتى لا أصدع رأسك، أقول لك بأن هذا الوضع لا يزال مستمرًّا. لكن لا تغضب، فأنا ما زلت أهتم بأعمالنا أيضًا. فمن وقت لآخر أزور المحلات التجارية لأشتري الحبال وكل ما يلزمنا، كُن على ثقة ولا تخف، قبل يوم، أو بعد أسبوع، أو حتى شهر، ما الذي يعنيه هذا؟ فهناك مَثَل شعبي يقول: «**القطة تلد أولادها سرًّا في عجلتها**» لذلك يجب ألَّا تكون لحوحًا واصبر، من أجل صالحك يجب أن أنتظر حتى يتفتح ذهني ولا يخدعني أحد، فالحبال يجب أن تكون من أحسن الأنواع وإلا ضاع كل شيء. ولذلك يجب أن تصبر أيها الرئيس. وأن تثق بي.

كما يجب ألَّا تقلق على صحتي، فهذه المغامرات والمداعبات تقوّي صحتي.. ففي بضعة أيام عاد إليَّ شبابي، كأني في العشرين، أشعر بالقوة حتى إني أشعر كما لو أنه ستنبت لي أسنان جديدة، لا أنكر أن ظهري آلمني قليلًا، لكني أشعر بقوة كبيرة اليوم، وكل صباح أنظر إلى نفسي في المرآة وأتعجب أن شعري ما زال أبيض ولم ينقلب إلى الأسود الفاحم.

ربما تتساءل لماذا أخبرك بكل هذا؟ لأني أعتبرك مثل أب الاعتراف بالنسبة إليَّ، ولا أشعر بالخجل من الاعتراف بخطاياي أمامك. أتعلم لماذا؟ لأني أشعر بأنك تُبدي اهتمامًا لكل ما أقوم به خيرًا كان أم شرًّا، تمامًا كما يراقب المقامر اللعب. فأنت أيضًا تحمل بيدك إسفنجة كالربّ لتمحو كل شيء مهما كان، وهذا ما يدفعني لأن أعترف لك بكل هذا. لهذا فاسمع!

لقد بدأت هذه الأشياء تربكني وأكاد أجن، فأرجوك حال استلامك رسالتي هذه أن تبادر وتكتب إليَّ. سأنتظر ردك بفارغ الصبر، فأنا أظن منذ سنوات كثيرة أن اسمي ليس مكتوبًا في ديوان رجال الربّ، ولا حتى في ديوان رجال الشيطان، فأنا لست إلا رجلك أنت، لذلك ليس أمامي إلا أن أتوجه إليك، لهذا أصغِ جيدًا لما سأخبرك به، فهذا ما يجري:

أمس كان يوم عيدٍ في قرية قريبة من كانديا، ولأذهب إلى الجحيم إن كنت أعرف عيد أي قديس، وجاءت لولا –نسيت أن أخبرك اسمها، إنه لولا– وطلبت مني أن أصحبها إلى العيد قائلة:

- أودُّ أن نذهب إلى العيد معًا أيها الجد «**إنها ما زالت تدعوني بالجد، لكن على سبيل المداعبة الآن**».

- اذهبي وحدك.

- أريد أن تكون معي.

- كلا، لن أذهب، كوني بمفردك عندي بعض الأعمال.

- إذن فلن أذهب أنا أيضًا.

دُهِشتُ وجحظت عيناي وسألتها:

- لن تذهبي! ما السبب؟

- إن رافقتني سأذهب، وإلا لن أذهب بمفردي.

- لماذا؟ ألست حرة بما تفعلينه؟

- كلا، لست حرة.

- ألا تريدين أن تكوني حرة؟

- كلا، لا أريد.

والله لقد بدأت أشعر بأني أصبحت مجنونًا، وصرخت فيها.

- ألا تودين أن تكوني حرة؟!

- كلا، كلا، لا أريد!

أيها الرئيس أكتب لك الآن من غرفة لولا، وعلى ورق لولا، كن حذرًا أتوسل إليك. فأنا أؤمن بأن مَن يريد أن يكون حرًّا هو فقط المخلوق الإنساني، والمرأة لا تود أن تكون حرة. فأخبرني هل المرأة مخلوق إنساني؟!

أغثني بالجواب، واكتب لي حالًا.

قُبلاتي من كل أعماقي أيها الرئيس الطيب!

«أنا ألكسيس زوربا»).

عندما انتهيت من خطاب زوربا صمتُّ لحظة مرتبكًا، لا أعلم ما الذي يجب أن أشعر به، أغضب؟ أم أقهقه؟ أم أُعجَب بهذا الإنسان الساذج الذي يصل إلى أعماق الجوهر عن طريق تحطيم قشرة الحياة المتمثلة في فضائل: المنطق والأخلاق والإخلاص؟ فهو يفتقد أغلب هذه الفضائل الصغيرة، ولم يبقَ له إلا فضيلة واحدة، صعبة، خطرة، تشدُّ به إلى الهاوية دون أن يقوى على المقاومة.

إن هذا العامل الخَشِن يكاد في ثورته الحادة أن يحطم القلم وهو يكتب. إنه أشبه بأول البدائيين الذين خلعوا جلود القردة عن أجسادهم. أو كأعلام الفلاسفة، تشغله القضايا الكبرى. يشعر بها كأنها ضرورات يجب حسمها فورًا، أشبه بالطفل الذي يُدهَش أمام الأشياء، كما لو أنه يراها لأول مرة. لا يتوقف عن التعجب والتساؤل، كل شيء يراه يبدو له كمعجزة، عندما ينهض كل صباح ويرى الأشجار والبحر والصخور وطائر يقف على غصن؛ فإذ به يُدهَش أمام رؤيتهم ويفغر فاه ويصيح: «**يا لهذه المعجزة! ما هذه الأعاجيب التي تُسمَّى: شجرة، بحر، صخرة، طائر...**».

أتذكر عندما كُنا متوجهين نحو القرية وصَادَفْنَا عجوزًا فوق بغله، فجحظتْ عينا زوربا واستدار ناظرًا إلى البغل، وكانت نظرته نافذة وقوية، حتى إن العجوز انتبه إلى نظرة زوربا وصاح به:

- بالله.. لا تنظر إليه بعين الحسد.

ورسم الصليب. نظرت نحو زوربا وقلت:

- ما الذي فعلته للعجوز حتى صاح هكذا؟

- أنا لم أعمل أيَّ شيء، لقد حدقت إلى البغل قليلًا، ولكن ألا تتعجب أنت أيضًا؟

- وما الذي يدعو للعجب؟

- أن يكون هناك بغالٌ فوق الأرض.

وفي يوم آخر كنت أقرأ مستلقيًا على الشاطئ، اقترب زوربا مني ووضع السانتوري فوق ركبتيه وراح يحرك أصابعه فوق أوتاره. رفعت رأسي وحدقت إليه. تغيرت سحنته قليلًا، وسيطر عليه سرور وحشي، وحرّك عنقه الطويل، وراح يغني ألحان ماسيدونية، وأناشيد كيلفتية وصيحات وحشية. إن الحنجرة الإنسانية ترتد إلى أجيال ماضية في التاريخ السحيق، حيث كانت الصيحات تركيبًا عجيبًا من الموسيقى والشعر والفكر، وعلا صوت زوربا من أعمق أعماقه «آآآآخ...آآخ». وتشققت تلك القشرة التي ندعوها المدنية لتفتح الطريق لذلك الوقت الخالد، للإله الكبير، الوحش المخيف.

وتلاشى كل شيء الفحم، الخسائر، الأرباح، السيدة هورتنس، مشاريع المستقبل، لقد طارت الصيحة وحملت معها كل شيء، فلم تَعُد بحاجة إلى أي شيء، كنا نحمل ونحن واقفان دون حركة فوق أرض جزيرة كريت المنعزلة جميع أحزان الحياة وسعادتها، بل وحتى الأحزان والسعادة لم تَعُد موجودة. وعندها مالت الشمس إلى المغيب ونحن نرقص وهجم الليل، بينما راح الوحش الكبير يرقص ويدور حول محور الأفق، وارتفع القمر إلى كبد السماء وراح يراقب مدهوشًا الحيوانيْن الصغيرين، وهما يرقصان ويغنيان فوق الرمال دون أن يخيفهما أي شيء.

وكان زوربا قد انتشى من الغناء وقال فجأة:

- حسنًا أيها العجوز.. إن الإنسان وحشٌ كاسر، اترك كتبك هذه، ألا تشعر بالخجل؟ إن الإنسان وحشٌ كاسر، والوحوش الكاسرة لا وجود لها في الكتب.

وخيّم عليه السكون، ثم عاد يقهقه ويقول:

- أتعرف كيف خلق الله الإنسان؟ أتعرف ما الكلمات الأولى التي قالها هذا الإنسان الوحش أمام الرب؟

- لا. وكيف لي أن أعرف؟ فأنا لم أكُن حاضرًا بينهما.

فصاح زوربا وقد قدحت عيناه بالشرر:

- أما أنا فقد كنت حاضرًا.

- إذن هيا أخبرني.

فأخذ وهو نصف منتشٍ يختلق بكثير من السخرية حكاية خلق الإنسان:

- استمع إذن أيها الرئيس: في صباح أحد الأيام نهض الربّ حزينًا يقول لنفسه: «**كيف أكون ربًّا وليس لديَّ عبيد يُصلّون لي، ويضيئون الشموع، ويحرقون البخور، ويحلفون بي، وأستمتع بتزجية الوقت وأنا أشاهدهم؟! لقد مللت العيش وحيدًا كأني بومة**». وبصق في كفّيه وفركهما، وشمّرَ عن ساعديه، ولبس نظارته وتناول كمية من التراب وبصق بها، فحوّلها إلى صلصال، وعجنها جيدًا، ثم صنع منها إنسانًا صغيرًا، ووضعه تحت الشمس.. وبعد مُضي سبعة أيام تناوله لأنه كان قد نضج، وألقى نظرة عليه وغرق بالضحك قائلًا: «**لتأخذني العفاريت، فشكله أشبه بخنزير يقف على قدميه الخلفيتيْن، هذا بعيد جدًّا عن الشكل الذي أحببت أن يكون عليه**». وأمسكه من عنقه ورفسه برجله صائحًا: «**اذهب من هنا.. هيا اغرب عن وجهي، يمكنك الآن أن تنجب خنازير صغيرة، إن الأرض كلها لك.. هيا ابتعد عني. واحد، اثنان.. هيّا سِر**».

فإنه أيها الرئيس لم يكُن خنزيرًا بالمرة، فقد كان يضع على رأسه قلنسوة متدلية، ووضع سترة على كتفيه بلا اهتمام، وسروالًا بكسرتين، وحذاء مزركشًا بورودٍ حمراء. وكان يتمنطق بخنجر
ـ ولا شك أن الشيطانَ هو مَن قدمه له ـ وقد كُتِبَ عليه: «**سأفتك بك**». هذا كان الإنسان. ومدّ الربّ يده ليقوم ذلك الإنسان بتقبيلها، فإن الإنسان اللعين فتل شاربيه بسخرية وكبرياء قائلًا: «**هيا أيها العجوز، ابتعد عن طريقي كي أمُر...**».

وخيّم الصمت على زوربا عندما رآني أكاد أنقلب على قفاي من الضحك.

فقطب جبينه وأردف:

- لا تقهقه.. فالأمر قد جرى هكذا فعلًا.

- وكيف عرفت ذلك؟

- إني أشعر به. وهذا ما كنت سأفعله أنا لو كنت مكان آدم. إني أراهن برأسي على أن آدم فعل هذا. لا تصدق ما تقوله الكتب المقدسة، بل يجب أن تصدقني أنا.

ودون أن يتفوه بأي كلمة أخرى، راح يعزف على السانتوري من جديد.

كنت عندما تذكرت هذا الحديث لا أزال ممسكًا برسالة زوربا التي تفوح منها الروائح العطرية والمرسوم على طرفها قلب وقد اخترقه سهم. وعشت مرةً أخرى تلك الأيام العذبة الممتلئة بالمُثل العليا، والإنسانية البحتة التي عشتها معه. إن الحياة بقربه لها مذاق آخر، لم تَعُد مجرد روتين عادي، ولم تَعُد بالنسبة إليَّ مشكلة فلسفية لا حل لها، بل حبات رمل دافئة منتقاة بدقة، أشعر بانسيابها بين أصابعي برفق وعذوبة.

وهمست في داخلي «**ليبارك الله زوربا. لقد أعطاني تفسيرًا دافئًا وعذبًا للأفكار المتعبة التي كانت تحتشد داخلي، حتى إني أشعر بالخواء والارتعاد من دونه**».

تناولت ورقة وناديت أحد العمال وأرسلت إليه برقية مستعجلة: «**ارجع فورًا**».

١٤

إنه الأول من آذار يوم السبت، بعد الظهر. كنت مُستندًا إلى صخرة كبيرة وأكتب. في ذلك اليوم شاهدت طيور الربيع وأنا أشعر بسعادة غامرة، فرحلة التحرر من بوذا كانت تمضي على الورق بسرعة ودون عقبات. لقد غيرت طريقة مجابهتي له، لم أَعُد مستعجلًا وأصبحت واثقًا من خلاصي.

وفجأة تنامى لسمعي صوت وقع أقدام على الحصى والتفتُّ فإذ بها السيدة هورتنس العجوز تجري على مقربة من الشاطئ، وقد غطت المساحيق وجهها، كأنها مركب حربي تركض لاهثة. صاحت بي وهي مرتبكة:

- هل بعث برسالة؟

فأجبتها مبتسمًا وأنا أقوم لاستقبالها:

- أجل، وقد جعل معظمها لكِ، يقول إنه يفكر بك ليلًا نهارًا، وإنه لا يستطيع النوم ولا الأكل لفراقَك.

فسألت العجوز لاهثة:

- حقًّا قال هذا؟!

شعرت بالشفقة عليها، وتناولت الرسالة من جيبي وتظاهرت بقراءتها، وراحت العجوز تحدق إلى الرسالة وقد فغرت فاها وجبينها يتصبب بالعرق منتظرة ما سأقرأه.

أخذتُ أقرأ من مخيلتي، وعندما أتوقف عن القراءة وأسرح بعيدًا، أتظاهر بأني لم أفهم بعض الكلمات: «**أمس توجهت أيها الرئيس لأتناول الغداء في أحد المطاعم فوقع نظري على فتاة رائعة الجمال، يا الله كم تشبه بوبولينتي وفجأة انهمرت الدموع من عيني كأنهما نبع ماء، وجف ريقي ولم أَعُد قادرًا على البلع، توقفت عن الأكل ودفعت الحساب وقد سيطر عليَّ شوق شديد، وأنا الذي لا يفكر بالقديسين أو الكنيسة إلا مرة واحدة كل سنة، ركضتُ مسرعًا نحو كنيسة القديس ميناس، وأشعلت له شمعة وصليت له قائلًا: «طَمئِنِّي أيها القديس ميناس، واجعلني أستلم منها رسالة أطمئن بها عن الملاك الذي أعشقه. اِجمع بين أجنحتنا في أقرب فرصة**»».

علا صوت السيدة العجوز فرحة وصاحت:

- هي..هي..هي..

فسألتها وأنا أتوقفت لحظة لأتيح لنفسي اختلاق أكاذيب جديدة:

- ما الذي يضحكك يا سيدتي؟ إن هذا الكلام يدفعني أنا للبكاء.

فناحت كأنها تنفجر:

- آه لو تعلم! لو تعلم..

- أعلم! أعلم ماذا؟!

- الأجنحة.. هكذا يُسمِّي الأرجُل، إن السافل يُسمِّي أرجلنا بالأجنحة عندما نكون وحدنا. وهو يأمل أن تتشابك أجنحتنا.

- أصغي للباقي يا سيدتي.

وثنيتُ الصفحة متظاهرًا بالقراءة: «اليوم مررت بدكان حلاق، وفي اللحظة التي كنت أَمُر فيها كان الحلاق يرمي قرب الدكان بوعاء مملوء بماء الصابون. امتلأ الطريق كله بالرائحة الطيبة، وخطرت بوبولينتي على بالي من جديد، وانهمرت الدموع من عيني. فأنا لا أطيق البعاد عنها، سأفقد عقلي تصوّر! لقد أصبحت أكتب فيها شعرًا، ومنذ يومين لم يطرق النوم جفني، فنظمتُ بيتيْن من الشعر أرجو أن تلقيهما عليها لتعلم كم أتألم:

آه. كم أتمنى أن نجتمع أنتِ وأنا في طريقٍ ما..

في طريقٍ واسعة لتضم ألمنا..

فأنا لو قطعت إربًا وحطم جسدي بالفؤوس

فإن بقاياي ستبقى تعبدك!

في هذا الوقت كانت السيدة هورتنس تصغي بكل إحساسها. تغمرها سعادة فائقة، بعينين مغمضتين حتى إنها خلعت من عنقها الشريط الذي يخنقها، وتركت الحرية لرقبتها المتغضنة. كانت صامتة سعيدة، وراحت روحها التائهة تسرح بعيدًا جدًّا خلف حدود الزمن لتتذكر.. آذار، العشب الناعم، الأزهار الحمراء، والصفراء، والزرقاء، المياه الناعمة حيث كانت الطيور تحتشد لتنشد أغانيها، طيور، أنثاها بيضاء، وذكرها أسود، ومناقيرها حمراء قانية. بينما كانت الأسماك الزرقاء تسبح فوق سطح الماء بغبطة،

عادت الأحلام بالسيدة هورتنس إلى ربيع الصبا وراحت تتمايل راقصة فوق سجاد شرقي في الإسكندرية، بيروت، أزمير، والقسطنطينية. ومِن ثَم في كريت على متن السفينة الحربية، واختلطت عليها الذكريات فهي لم تَعُد تذكر تمامًا، كل شيء أصبح مرتبكًا بالنسبة إليها، وارتفع نهداها بقوة أنفاسها، وعلا صوت الشطآن.

وبينما كانت ترقص ودون إنذار امتلأ سطح البحر بسفن كثيرة مقدمتها مطلية بالذهب، وبيارقها من الحرير. مراكب يخرج منها بكوات بطرابيش تتدلى منها أزرار مذهبة، وبكوات أثرياء أتوا للحج مُحمّلين بالهدايا النفيسة. ومراكب يخرج منها القادة بقبعاتهم المتلألئة، وبحّارة بياقات ناصعة البياض وسراويل واسعة يتلاعب بها الهواء. ومراكب يخرج منها شبان كريتيون يرتدون ثيابهم الزرقاء القاتمة، وأحذيتهم الصفراء، وقد ربطوا مناديل سوداء حول رؤوسهم. ومركب يخرج منها زوربا نحيلًا وقد أضعفه الشوق والغرام، وفي إصبعه دبلة الخطوبة، ويُكلل شعره الرمادي إكليلٌ من زهرة الليمون.

لم تنسَ أيًّا من الرجال الذين عرفتهم. حتى ذلك البحار العجوز الذي اصطحبها ذات مساء ليتجول معها على الشاطئ في القسطنطينية. حيث كان الليل قد خيم ولم يَعُد يراهم أحدٌ، حتى إن الأسماك الزرقاء والثعابين التي تتجول حولهم كانوا يتطارحون الغرام، وتطارحا هما أيضًا تمامًا كالأسماك والثعابين. عشاقًا، تلتف أجسادهم كالثعابين فوق بعضها بشكل طولي بينما يعلو صفيرها. وبين تلك الأكوام كانت السيدة هورتنس ذات الأربعة عشر ربيعًا. عشرون، أربعون، ستون، تصفّر أيضًا بجسدها العاري الناصع البياض، يتصبب منها العرق، وتنفرج شفتاها عن أسنان ناصعة، حادة ساكنة دون أن تطفئ ظمأها..

لم تنسَ أيَّ شيء ولم يختفِ أيُّ مغرم بها، فهم يحيون من جديد، في صدرها المتغضن. يخرجون مسلحين لغزوها، كأنها مدمرة بحرية بثلاثة أشرعة، وكأن أحباءها، يتسلّقونها، يسيطرون على سطحها ومخازنها وحبالها، وهي ما زالت تتابع طريقها بعد أن أصابتها الثقوب أكثر من ألف مرة، وتم ترميمها ألف مرة، تتابع طريقها إلى مينائها الأخير، الذي كانت تأمل أن تصله في وقت ليس بالقريب: الزواج. ويصبح لوجه زوربا ألف شكل: أتراك، غربيون، أرمن، عرب، يونانيون، وعندما تعانقه السيدة هورتنس تعانق معه كل ذلك الركب الطويل المقدس.

وفجأة أدركت السيدة هورتنس المتصابية بأني قد توقفت عن القراءة واختفت الأحلام من مخيلتها. وفتحت عينيها وهمست بصوت مؤنِب وهي تلعق شفتيها:

- هل قال شيئًا آخر؟

- ما الذي تريدينه أكثر من هذا ألا ترين؟ إن الرسالة كلها تتحدث عنك، أربع صفحات.. انظري، وهناك أيضًا على الزاوية قد رسم قلبًا. وزوربا يقول إنه رسمه بنفسه. انظري.. يوجد سهم أيضًا يخترق القلب، وتحته أيضًا حمامتان متحدتان وعلى جوانحهما كتب بحبر أحمر لا يُرى: هورتنس_زوربا.

الحقيقة لم يكُن هناك لا حمامتان ولا كتابة، لكنّ عينيْ العجوز كانتا قد اغرورقتا بالدموع وأصبحت ترى كل ما تحب أن تراه. وعادت للسؤال من جديد:

- بالله. ألا يقول شيئًا آخر؟

الأجنحة، مياه الحلاق الملأى بالصابون، والحمام، كل هذا لم يكُن بالنسبة إليها إلا كلمات تافهة. عقلها كامرأة كان ينشد شيئًا عمليًّا أكثر. شيئًا مطمئنًا.

هذه الكلمات الرقيقة قد سمعتها كثيرًا ولم تفدها شيئًا، أما الآن وبعد هذه السنين من الخدمة الطويلة لا تزال وحيدة منزوية لا تملك شيئًا.

وهمست ثانية بتوسُّل:

- لا شيء.. لا شيء آخر؟

وركزت عينيها في عيني كأنها غزالة مُلاحقة، فحنَّ قلبي وقلت:

- هو يقول أيضًا شيئًا مهمًّا يا سيدتي. وقد احتفظت به للنهاية.

- هيا قل.

- قال بأنه عندما يعود سيرمي بنفسه على قدميك، ويتوسل إليك أن تقبليه زوجًا لكِ، فهو لم يَعُد يحتمل، ويريدك أن تكوني زوجته اللعوب، السيدة: «**هورتنس زوربا**». لكي تبقيا معًا إلى الأبد.

عندما قلتُ هذا، انهمرت الدموع من عينيها، فقد حصلت على سعادتها الكبرى، الميناء الذي لطالما تاقت أن تصل إليه يومًا، كانت هذه الدموع هي الأسف على حياتها بأكملها، وأنها أخيرًا ستجد الحنان، وتضطجع على فراش شريف بريء. فهي لا تتمنى شيئًا أكثر من هذا.

وأخفت عينيها وقالت بتنازل سيدة كبيرة:

- حسنًا.. إني أقبل. ولكن يجب أن تكتب إليه أرجوك أن يُحضِر معه بعض أكاليل زهر الليمون لأنه غير موجود هنا، وشمعتيْن بيضاويتيْن ملفوفتيْن بشرائط الحرير، ويُحضِر أيضًا الحلوى من اللوز الجيد، وأهم شيء ثوب الزفاف الأبيض، وجوارب حريرية وحذاءين من الأطلس، وقل له ألَّا يُحضِر أغطية للسرير فعندي منها.

أنهت لائحة طلباتها، فهي منذ الآن ترى أن زوجها ليس إلا خادمًا يُلبِّي طلباتها. ثم وقفت واتخذت فجأة مظهر امرأة محترمة وقالت بصوت متزن:

- عندي شيء مهم... أحب أن أقوله لك...

وصمتت مرتبكة. فقلت:

- هيا قولي يا سيدتي، فأنا تحت تصرُّفك.

- إننا نحبك.. زوربا وأنا. ولا نشعر بالحياء تجاهك. أرجو أن تكون شاهدنا على الزواج.

ارتعشتُ.. كان لدى عائلتي في الماضي خادمة مُسنة تُدعى ديمندولا، يناهز عمرها الستين سنة، وكانت نصف مجنونة لأنها بقيت عانس لمثل هذا العمر.. عصبية، جلدها متغضن، وبلا صدر، حتى كاد ينبت لها شاربٌ. وذات يومٍ أحبت عامل العطار الموجود في الحيّ، وكان يُدعى ميتو. فلاح سمين أسمرٌ وأمرد، كانت كل يوم أحد تكرر عليه السؤال:

- متى يأتي الوقت الذي ستتزوجني فيه؟ تزوجني. إن كنت تقدر على الاحتمال، فأنا لا أقدر.

فيرد عليها العطار الذي كان يسايرها خوفًا على عملائه:

- ولا أنا يا عزيزتي ديمندولا. ولكن يجب أن تصبري قليلًا لكي ينبت شاربي أنا أيضًا.

ومرت السنوات والعجوز تصبر، وقد ارتاحت أعصابها وخفت آلام رأسها، وبدأت شفتاها المُرة التي لم تذق طعم القُبل، تعرف طريق الابتسام. وبدأت تنتبه لغسيل الملابس، وتكسر أقل عدد من الصحون، وتعتني بالطعام لكيلا يحترق.

وقالت لي يومًا سرًّا:

- أتقبل أن تكون شاهدنا؟

فأجبتها وقد جف حلقي من المرارة:

- أتمنى ذلك من كل قلبي.

تركت لي هذه الحادثة ذكرى أليمة، لهذا فعندما سمعت السيدة هورتنس تكرر العبارة نفسها ارتعشت وقلت:

- أتمنى هذا من كل قلبي.. فهذا شرف عظيم لي يا سيدتي.

وقفت العجوز وأصلحت شعرها الذي كان ينسدل تحت قبعتها وبللت شفتيها وقالت:

- ليلة سعيدة أيها الصديق، ليلة سعيدة.. ولنأمل أن يعود إلينا سريعًا.

رحت أراقبها وهي تبتعد متمايلة كما تمشي الفتيات الصغيرات، وقد زودها الفرح بأجنحة خفية. وما كادت تغيب عن ناظري حتى سمعت صيحات عالية وبكاء وعويل، وقفزت مسرعًا ورحت أركض، ففي الجهة المقابلة للشاطئ كانت بعض النسوة يصرخن ويبكين. تسلقت صخرة ونظرت. كان بعض الرجال ونساء من القرية يقتربون، وبعض الكلاب تعوي خلفهم، وكان هناك أيضًا فارسان أو ثلاثة يسيرون أمامهم ويثيرون خلفهم غبارًا كثيفًا. فهمست بنفسي: «**لا بد وأن هناك كارثة**».

أسرعت نحو الشاطئ، كانت الأصوات تزداد ارتفاعًا كلما اقتربت، بينما تكمُن غيمتان صغيرتان في السماء بهدوء عند الغروب، وشجرة «**الآنسة**» قد غطتها أوراق خضراء نضرة.

ورأيت السيدة هورتنس وقد تهدل شعرها، تلتقط أنفاسها بصعوبة وقد خلعت أحد نعليها ممسكة به وهي تركض باكية، وتصيح:

- يا إلهي.. يا إلهي..

كادت تقع بين يدي لشدة فزعها فأسندتها، وسألت:

- ما الذي يبكيكِ؟ ماذا حدث؟

أجابتني بعدما ساعدتها على وضع حذائها في قدمها:

- إني خائفة جدًّا.. خائفة.

- خائفة! من أي شيء؟

- الموت!

لقد شمَّتْ في الهواء رائحة الموت وغلبها الخوف. أمسكتُ ذراعها لأهدِّئها لكنّ الجسد المُسن بقيَ على مقاومته مرتعشًا وصاحت:

- لا.. لا أريد.

كانت العجوز تخشى مجرد الاقتراب من أي مكان زاره الموت، خوفًا من أن يراها عزرائيل فيتذكرها. ككل العجائز تحاول قدر الإمكان الاختفاء بين أعشاب الأرض، لاكتساب لونه الأخضر، حتى لا يستطيع عزرائيل تمييزها. كانت ترتعش من قمة رأسها لأخمص قدميها وقد غار رأسها بين كتفيها المكتنزتيْن.

سحبت نفسها إلى جانب شجرة زيتون وأعطتني معطفها قائلة:

- دثرني.. دثرني به واذهب لترى ما الذي يحدث!

- هل تشعرين بالبرد؟

- أجل.

وضعت عليها المعطف كأحسن ما يكون. بحيث إنها كادت تتحد بالأرض وتركتها وذهبت. عندما أصبحت قريبًا من الشاطئ بدأت أسمع بوضوح الأناشيد الجنائزية. مرّ «ميميتو» بقربي راكضًا فصرخت به:

- ما الذي حدث يا ميميتو؟

فرد عليَّ دون أن يقف:

- لقد انتحر.. لقد أغرق نفسه!

- أغرق نفسه! مَن؟

- إنه بافلي، ابن مافراندوني.

- لماذا؟

- الأرملة...

تصلّبت الكلمة مُعلقةً في الهواء، وتجلّى جسد الأرملة المُدمِّر اللين عبر العتمة. عند ذلك كنت قد وصلت إلى المكان الذي تجمعت فيه القرية بأكملها، الرجال عراة الرؤوس صامتين، والنسوة يندبن ويرسلن صيحاتهن الممزقة تاركين مناديلهن تنسدل فوق أكتافهن. وعلى الحصى كان جسد الشاب مسجى، منتفخًا بلا حراك، ومافراندوني الأب منتصبًا فوقه، يحدق بصمتٍ دفين، يتكئ على عصاه بيده اليمنى ويعصر لحيته البيضاء بيده اليسرى. وفجأة ارتفع صوت حاد:

- لعنة الله عليكِ أيتها الفاسقة، ستنالين القصاص من الله على هذا.

وقفزت امرأة بين الرجال والتفتت إليهم صائحة:

- أليس منكم رجل شجاع ليذبحها على ركبتيه كالنعجة؟ يا لكم من جبناء.

وبصقت باتجاه الرجال الذين يحدقون إليها دون أن يتفوهوا بكلمة واحدة، فأجابها كوندو مانوليو صاحب الحانة صارخًا:

- لا تُهينينا يا ديلكاتيرنا، هناك شجعان أقوياء في القرية، وسترين هذا.

لم أَعُد أحتمل أكثر من ذلك فصحت بهم:

- إن هذا مُخزٍ أيها الأصدقاء، ما ذنب تلك المرأة؟ لقد كان هذا قدره.. ألا تخافون الله؟

لكنّ أحدًا لم يرد عليَّ. تقدم مانولاكاس ابن عم المنتحر، بجسده الضخم القوي وحمل الجثمان على ذراعيه وشق طريقه ليسير أمام الحشد في طريقه إلى القرية.

كانت النسوة يندبن ويشددن شعورهن ويلطمن خدودهن، وعندما بدأ الجثمان يتحرك ركضن ليلمسنه لكنّ مافراندوني الأب رفع عصاه وجعلهن يبتعدن، وسار في مقدمة الحشد. عندها مَشَيْن وراءه وهن يرسلن الأناشيد الجنائزية، وسار الرجال في المؤخرة بسكون.

وبدؤوا يتلاشون تحت شمس الغسق، وعاد البحر لهدوئه الأليم. التفتُّ حولي، فلم أجد أحداً. فقلت مخاطباً نفسي: «**يجب أن أرجع، فهذا يوم آخر قد أخذ حصته من الحزن والمرارة**».

سرت في الطريق متأملاً.. إني لمعجب بهؤلاء الناس المتحدين تماماً مع أحزانهم الإنسانية، السيدة هورتنس، زوربا، الأرملة، وبافلي المسكين الذي رمى نفسه بين الأمواج ليطفئ النار التي تتأجج في قلبه. وديلكاتيرنا التي كانت تطالب بذبح الأرملة، ومافراندوني الذي كان يقاوم دموعه وأنينه أمام الآخرين.

أنا الوحيد الذي كان واقعياً، لم أشعر بحرارة الدماء تغلي في عروقي، ولم أعشق أو أكره بشدة. وأودُّ الآن أن ألقي بكامل المسؤولية على القدر، لأجبن وأهرب من المسؤولية.

وعبر العتمة الخفيفة شاهدت العم أناغنوستي الذي كان لا يزال منتصباً هناك. كان يتكئ بذقنه على عصاه، ويحدق إلى البحر، ناديته لكنه لم يسمعني، اقتربت منه حتى شاهدني، فحرك رأسه وهمس:

- البشرية الحزينة، يا للشباب الغض. المسكين لم يستطع أن يقاوم ألمه، فرمى بنفسه في البحر وغرق، وهكذا أنقذ نفسه.

- أنقذ نفسه؟

- أجل لقد أنقذ نفسه يا ولدي، ما الذي يقدر على فعله إن ظل حيّاً؟ فلو أخذ الأرملة كزوجة له، لحلَّ الخصام سريعاً بل وحلَّ العار أيضاً. إنها فرس.. الفاسقة. ما أن تشم رائحة رجل حتى تبدأ بالصهيل، إن تزوجته جلبت إليه العار، وإن لم يتزوجها لأمضى حياته في ألم وعذاب، يتخيل أنه أضاع سعادته العظيمة، الموت من أمامه والهلاك من وراءه.

- كلا. لا تقل هذا، فإن مَن يصغي إليك لترتعد عظامه فزعاً.

- لا تخف فليس هناك مَن يسمعني. ولو سمعوني لما أخذوا كلامي على محمل الجد. تُرى هل هناك إنسان أكثر مني حظّاً؟ كنت أملك كروماً وحقولاً شاسعة للزيتون وبيتاً بطابقيْن، كنت ثرياً. وعشقت امرأة فاضلة ولينة، لم تنجب لي إلا الصبيان، لا أذكر مرة واحدة أنها

رفعت عينيها لتدقق في وجهي. وكل أولادي أصبح لهم عائلات طيبة، وصار لي أحفاد كثيرون. فما الذي أطلبه بعد هذا؟! لقد وضعتُ جذورًا عميقة. ومع ذلك فلو كان عليَّ أن أعود لأبدأ من جديد، لربطت صخرة كبيرة إلى عنقي مثل بافلي ورميت بنفسي في البحر. إن الحياة قاسية، حتى مع المحظوظين، إنها صعبة وقاسية، العاهرة.

- ما الذي ينقصك أيها العم أناغنوستي، لماذا تشكو. ومِمَّ؟!

- لقد أخبرتك بأنه لا ينقصني شيءٌ، لكن حاول أن تفهم قلب الإنسان.

وصمتَ فجأة، ونظر إلى البحر الذي خيّم عليه الظلام ورفع عصاه مشيرًا نحو البحر وصاح:

- إيه يا بافلي.. لقد فعلت الصواب.. دع النساء يصرخن، فهن نساء لا عقول لهن، لقد أنقذت نفسك يا بني، وأبوك يعرف هذا، ولذلك لم تصدر عنه أنّةٌ واحدة.

وطاف نظره بالأفق نحو الجبال التي خيّم عليها الظلام، وقال:

- ها هو ذا قد نزل الليل.. فلنعُد.

شعرتُ بأنه ندِمَ على الكلمات التي تفوه بها، كأنه قد أفشى سرًّا دفينًا، ثم راح يحاول أن يخفيه من جديد. وضع يده الواهنة على كتفي، وتبسم لي وهو يقول:

- إنك لا تزال شابًّا يافعًا، فلا تصغِ لكلام العجزة، فلو استمعتْ الدنيا للعجزة لمشت نحو الخراب سريعًا. اسمع يا بني إن صادفتَ أرملةً في طريقك فألقِ بنفسك عليها.. تزوج، وأنجب أطفالًا ولا تتردد ولا تخف المتاعب، فإن متاعب الحياة قد وُجِدت خِصِّيصَى للشباب.

افترقنا، وعدتُ أخيرًا إلى الكوخ، أضرمتُ النار وحضّرت الشاي، كنت منهكًا أشعر بجوع شديد، فتناولت طعامي بنهم تاركًا لسعادتي الحيوانية العنان.

وفجأة ظهر رأس ميميتو عبر النافذة الصغيرة وراح يحدّق إليَّ وأنا آكل قرب النار وعلى وجهه ابتسامة خبيثة. فسألته:

- لماذا جئت يا ميميتو؟ ماذا وراءك؟

- لقد جئتك بشيء من الأرملة، سلة برتقال، لقد قالت إنه آخر محصول حقلها.

فقلت مرتبكًا:

- الأرملة! ولماذا ترسلها إليَّ؟

- لقد قالت إنها من أجل ما قلته عنها اليوم لأهالي القرية.

- وما الذي قلته؟

- لا أعلم، هذا ما قالته لي.

وصب البرتقال من السلة فوق السرير، امتلأ الكوخ برائحته. فقلت له:

- أخبرها أني شاكر جدًّا لهديتها، وأخبرها أن تكون حذرة، يجب ألَّا تذهب إلى القرية. سمعت؟ يجب أن تمكث في البيت مدة حتى تُنسَى الكارثة، هل فهمت يا ميميتو؟

- هل هذا كل شيء أيها الرئيس؟

- أجل هذا كل شيء.

فغمز بطرف عينه بخبث وقال:

- متأكد أن هذا كل شيء؟!

- أُغرب عن وجهي.

اختفى، وتناولت تفاحة، كبيرة، ناضجة، حلاوتها كالعسل، واضطجعت ونمت. مكثتُ طيلة الليل أتجول بين بساتين البرتقال، كانت الريح دافئة تصفّر بين الأشجار، وارتفع صدري ممتلئًا بالهواء، وأمسكت بغصن ريحانة صغيرة ووضعته خلف أذني، كنت فلاحًا شابًّا في العشرين تقريبًا، أتجول بين أشجار البرتقال منتظرًا وأنا أصفّر، ما الذي كنت أنتظره؟ لا أعلم. لكنّ قلبي كان على وشك الانفجار من السعادة. داعبت شاربي ورحت أستمع طوال الليل إلى البحر يتنفس بهدوء كأنه امرأة خلف أشجار الليمون.

١٥

كان يومًا عاصفًا، هبّت رياح جنوبية قادمة من خلف البحر بعدما مرّت برمال إفريقيا المحرقة، كانت الرياح محملة بالرمال، ملأت الجو وتسللت إلى العيون والحناجر فأحرقتها وخنقت الصدور، أغلقت الأبواب والشبابيك لأتمكن من تناول الخبز قبل أن تغطيه الرمال.

تسلل الفتور والوهن إلى جسدي في هذه الأيام الكئيبة، ووقعت فريسة لتقلبات الربيع المثقل بالغبار المحرق.. توتر، وسعلة في الصدر، وقشعريرة في الجسد بأكمله. كم تمنيتُ لو أعود إلى سعادتي البسيطة الهادئة.

رحت أمشي عبر الطرق الجبلية الوعرة، وقد سيطرت عليَّ رغبة جامحة في التوجه نحو المدينة المينوسية الصغيرة التي انبثقت عن الأرض مرة أخرى بعد ثلاث أو أربع آلاف سنة، لتتنعم بالحرارة من جديد تحت أشعة شمس كريت الحبيبة. همست في نفسي: «**لعل هذا التعب يزول إن مشيت ثلاث أو أربع ساعات لينجلي هذا السأم الذي جلبه الربيع**». صخور رمادية عارية وتلال وعرة المسالك كما أهواها، وتحت الأنوار الباهرة وقفت بومة فوق صخرة وقد برزت عيناها المستديرتان بشكل غريب، خففت خُطاي كيلا أفزعها، لكنها انتبهت لوقع أقدامي وطارت هاربة.

كانت رائحة الزعتر تملأ الجو وبعض الأعشاب الصفراء تنفتح بين الأشواك.

عند وصولي إلى المدينة الصغيرة الهرمة، وقفت مشدوهًا. كان الوقت ظهرًا، وأشعة الشمس تسقط مباشرة فوق الأنقاض، يا لها من ساعة خطرة في مثل هذا الوقت بالنسبة إلى المدن المدمرة.

إذ تنتشر همهمات الأرواح في الفراغ، ما أن تشعر بتحطيم غصن أو مرور طير، أو ظل سحابة مارّة حتى يسيطر عليك فزع شديد، فكل خطوة تضعها على الأرض ما هي إلا خطوة فوق قبر، تتناهى لسمعك أصوات غريبة، كأن الأموات يتنفسون ببطء. اعتادتْ عيناي على النور الساطع وبين هذه الصخور القاسية استطعت أن ألمح يدَ الإنسان وصنيعه، فقد رأيت دربيْن عريضيْن يغطيهما البلاط اللامع، وعلى جانبهما أزقة متفرعة وزواريب ضيقة متباعدة.

ويلتقي الطريقان عند ساحة واسعة دائرية، وبجانبها ينتصب بتواضع واضح قصر الملك.

وفي وسط المدينة، حيث وطئت أقدام الناس تلك الطرق المعبّدة مرات لا حصر لها، ينتصب المعبد. وقفت الربّات على مدخل المعبد بصدرها العامر، عارية النهدين، وعلى ذراعيها تلتف الأفاعي، بينما تنتشر في الأرجاء كثير من الحوانيت، المخازن، معامل زيت، وورش الحدادة، والنجارة، ومعامل صغيرة لصنع الأواني الفخارية، كأن المكان خلية نحل لا يتوقف فيها العمل للحظة واحدة. خلية تختبئ عن كل العيون بين الصخور، ويدار فيها كل شيء بمهارة. وبعد آلاف السنين هجرها النحل، فصارت خاوية على عروشها. في أحد الحوانيت رأيت آنية خزفية لم يكتمل صنعها؛ إذ لم يتح الوقت لصانعها لإتمامها، فقد سقط منه إزميله، لأجده مُلقى بعد آلاف السنين بجانب الإناء الذي لم يتم صنعه.

الأسئلة الأبدية التي لا تُجدي نفعًا، الأسئلة الغبية الساذجة، لماذا؟ لماذا تعود من جديد لتسمم القلب؟ فهذا الإناء الخزفي غير المكتمل، والذي دُمِرت بجانبه حماسة الصانع في ذروة انطلاقها السعيد المطمئن، أعادت لنفسي الثقة وأبعدت عنها الحزن والأسى.

وفجأة ظهر من بين الصخور، راع قصير القامة، أسمر اللون، ذو شعر مشعث يحيط به منديل وسخ وصاح.

- هيه.. أيها الصديق!

كم تمنيت أن أبقى وحيدًا.. تظاهرت بأني لم أسمعه، لكنّ الراعي أخذ في الضحك هازئًا:

- إنك تتظاهر بعدم السمع أيها الصديق، هل معك سيجارة؟ فأنا هنا في هذه الصحراء وحيدًا منزعجًا.

شدّدَ على الكلمة الأخيرة من عبارته، مما جعلني أشعر بالشفقة نحوه. لم أكُن أحمل سجائر، فحاولت أن أقدم له بعض المال، لكنه غضب صائحًا:

- فليذهب المال إلى الشيطان، قلت لك بأني منزعج. أعطني سيجارة!

- لا أحمل سجائر.

- لا تحمل.. لا تحمل، إذن فما الذي يملأ جيوبك هكذا؟

سحبت الأشياء من جيوبي الواحدة تلو الأخرى قائلًا:

- كتاب، منديل، بعض الورق، قلم، سكين. هل تريد السكين؟

- كلا. عندي واحدة، بل عندي كل شيء خبز، جبن، زيتون، سكين مخرز، جلود لأحذيتي وماء، عندي كل شيء، ولكن دون سجائر إذًا فأنا لا أملك شيئًا. ولكن ما الذي تفتش عنه هنا في هذه الخرابة؟

- أشاهد هذه الأنقاض القديمة.

- وهل فهمت منها شيئًا؟

- لا شيء البتة.

- كذلك أنا.. فهي صامتة ميتة ونحن على قيد الحياة... هيا ابتعد!

شعرت وكأن روح المدينة هي التي تطردني، فأجبت طائعًا:

- سأبتعد.

من وقت لآخر كانت الروائح العطرية القادمة من البساتين المحيطة تمر فوقي، كانت الأرض تعبق، والبحر يقهقه والسماء صافية زرقاء تتلألأ.

انقبضَ قلب الأرض أمام فصل الشتاء، فإن الدفء قد بدأ يقترب وهذا يجعل النفس تنفرج، وبينما كنت أتابع سيرِي، تناهى لسمعي صوت مبحوح آتيًا من الفراغ. نظرتُ.. إنه المشهد الذي كان يسلب لبّي منذ طفولتي.. رأيتُ طيور الكراكي وقد عادت من البلاد الحارة تنتصب صفوفًا كأنها جيش يستعد للحرب. وكما تقول الأسطورة: تحمل على أجنحتها طيور السنونو.

إنها سُنّة الدنيا التي لا تتغير وعجلة العالم الدائرة أبدًا، وفصول السنة الأربعة التي تضيئها الشمس الواحد تلو الآخر. كل هذا جعل قلبي ينقبض. بدأ صدى ذلك الصوت المرعب يتردد من جديد: ليس للإنسان غير حياة واحدة، ولن يحظى بفرصة ثانية. ليغتنم متعته على الأرض؛ إذ لن تتاح له فرصة أخرى بعد الموت.

إن الروح التي تسمع ذاك النداء الذي يرعبها، تشعر في الوقت ذاته أنه يشفق عليها! ولا يسعها إلا أن تعزم على قهر ضعفها ووهنها، بأن تنقلب على

الكسل والمُثل العليا الباطلة، لتتمسك بكل قوتها بكل لحظة من اللحظات التي تمر إلى غير رجعة.

وتجتاح الذاكرة ذكريات عديدة، ونرى بوضوح أننا لسنا إلا بشرًا تائهين، تمر حياتهم مع قليل من المتع وقليل من الأحزان، وفي لحظات خاوية من كل قيمة نجد أنفسنا نبدأ فجأة في الصراخ: «**يا للعار. ونعض على شفاهنا ندمًا حتى تُدمَى**».

مرت الطيور فوقي وعبرت السماء نحو الشمال لتتلاشى في الأفق البعيد، لكن صوتها ظل يطن في أذني.

وأخيرًا وصلت إلى الشاطئ. مشيت بجانب الماء بخُطى واسعة. يا له من حزن وأسى ذاكَ الذي تشعر به عندما تسير وحيدًا على الشاطئ! كل لطمة موج، وكل خفقة طائر تذكرك بواجبك الذي عليك أن تقوم به. عندما نسير برفقةِ إنسان، فإنه يضحك ويصيح ويتكلم، وهذه الأصوات تجعلنا لا نسمع ما تقوله الأمواج والطيور.. أو مَن يدري؟! ربما هي أصلًا لا تقول شيئًا. فهي تنظر إليك وأنت تمر من أمامها وتثرثر فتصمت هي. ارتميتُ وتمددتُ على الحصى وأغلقت عيني وهمست في نفسي:

«**ما الروحُ؟ وما العلاقة التي تربطها بالبحر، بالسحاب بالروائح العطرية؟ كأن الروح نفسها، بحر، عطر، وسحاب**».

ثم نهضت وتابعت سَيرِي من جديد وكأني قد قررت شيئًا، ولكن أي شيء قررته؟ لا أعلم. وفجأة سمعت صوتًا خلفي:

- إلى أين تتجه أيها الرئيس؟ إلى الدير؟

التفتُّ فإذ هو عجوز قوي البنية قصير لا يحمل عصًا، يربط رأسه بمنديل أبيض، يلوّح بيده نحوي ويبتسم، تتبعه سيدة عجوز وخلفهما ابنتهما، صبية سمراء، ذات عينين وحشيتين تغطي شعرها بمنديل أبيض. كرر العجوز سؤاله:

- إلى الدير؟

وفجأة أدركت أني قد قررت التوجه إلى هناك حقًّا، فمنذ عدة أشهر وأنا أودُّ الذهاب إلى دير الراهبات القائم قرب البحر، ولم أستطع أن أفعل. لكن هذا المساء قد قرّر جسدي ذلك دون إدراكي. أجبت العجوز:

- أجل، إني ذاهب إلى هناك لأستمع إلى أناشيد العذراء.

- لتكن بعونك.

وأسرع الخُطى حتى اقترب مني، وقال:

- هل صحيح أنك أنت صاحب شركة الفحم، كما يقال؟

- أجل.

- فلتشملك العذراء بنعمتها، ولتربح كثيرًا. فإنك خير كبير للقرية، تقدم لأرباب الأسر القوت ليطعموه لأولادهم. باركك الله.

وصمت لحظة ثم أردف، فقد كان لا بد وأنه يعلم كيف تجري الأمور:

- حتى وإن لم تنتج شيئًا يا ولدي، فإنك أنت الرابح. ستذهب روحك إلى الجنة مباشرة.

- هذا ما أتمناه أيضًا.

- ليس لديَّ الكثير من المعرفة، لكني سمعت مرة في إحدى الكنائس شيئًا قاله المسيح، وقد حفظته في ذاكرتي ولن أنساه أبدًا، لقد قال: «**قل. قل جميع ما عندك لتشتري اللؤلؤة الساطعة**» وهذه اللؤلؤة ما هي إلا سلام النفس وطمأنتها. وأنت أيضًا أيها الرئيس تمشي في الدرب نفسه الذي يوصلك إلى اللؤلؤة الساطعة.

اللؤلؤة الساطعة! لقد لمعت داخلي دائمًا وسط العتمة، وكأنها دمعة كبيرة. وتابعنا طريقنا، الشيخ وأنا في الأمام، والسيدة المُسنة وابنتها في المؤخرة وأيديهما متشابكة. ومن وقت لآخر كنا نلقي على بعضنا قليلًا من الأسئلة: «**هل ستحتمل أزهار الزيتون وتصمد؟ هل سينهمر المطر لينضج القمح؟**»، يبدو أننا كنا جائعين كلينا، لأن الحديث كله دار حول الطعام، ولم نشأ تغييره. سألته:

- ما أكلتك المفضلة أيها الجد؟

- كل الطعام يا ولدي. فإنها غلطة كبيرة أن تقول: هذا طيب وهذا رديء.

- لماذا؟ أليس لنا أن نختار؟

- كلا.. بالطبع.

- لماذا؟

- لأن هناك دائمًا مَن هُم جياع.

لذتُ بالصمت حياءً، فإن قلبي لم يشعر مطلقًا بمثل هذا الإحساس من المشاركة والنبل. ثم سمعت جرس الكنيسة يقرع، صوته مليءٌ بالفرح والسعادة، كأنه صوت قهقهة امرأة، ورسم الشيخ علامة الصليب وهمس:

- لتكن العذراء في عوننا. فعنقها مصابة بطعنة خنجر، والدماء تسيل منها، حدث ذلك أيام القراصنة.

وراح العجوز يتكلم عن الأم السيدة العذراء كأنها سيدة حقيقية. عن فتاة مُلاحقة، كاد الكفار أن يمزقوا جسدها بطعناتهم، فأتت إلى الشرق وهي تنوح وأردف قائلًا:

- في كل سنة ينزف الدم الحار من جرحها مرةً واحدة. أذكر مرةً وكان ذلك يوم عيدها.. في تلك الأيام كنت شابًّا لم ينبت شاربي بعد، انحدرنا جميعًا من القرية لنركع أمام عظمتها. كان ذلك يوم ١٥ من آب، تمددنا نحن الرجال في الساحة لنغفو، وتمددت النسوة في الداخل. وفي أثناء النوم تناهى لسمعي صوت العذراء تصرخ، فنهضت وأسرعت إلى أيقونتها ولمست عنقها بيدي.. أتدري ماذا حدث؟ وجدتُ يدي كلها مغطاة بالدماء.

ورسم الشيخ إشارة الصليب ثانية. ونظر إليَّ وإلى المرأتين وصرخ:

- هيا أسرعوا لقد وصلنا.

ثم همس بصوت خافت:

- يومها لم أكن قد تزوجت. ألقيت بنفسي على الأرض وركعت أمام عظمتها، ووعدتها بأن أترك دنيا الكذب، وقررت أن أصبح راهبًا.

قال هذا وغرق بالضحك. فسألته:

- لِمَ تضحك أيها الجد؟

- لأن الأمر يدعو إلى الضحك. ففي اليوم نفسه خلال مراسم العيد جاء الشيطان متنكرًا في صورة امرأة.. وكانت هي.

ودون أن يلتفت للوراء، أشار بإبهامه إلى العجوز التي كانت تسير خلفنا بسكون. ثم قال:

- لا تنظر إليها الآن وقد أصبحت شمطاء مقززة، ففي ذلك الوقت كانت صبية تتبختر وتتمايل كالسمكة، حتى إنهم كانوا يسمونها «**الحسناء ذات الحواجب الطويلة**» والحقيقة أنها كانت تستحق لقبها هذا.. أما الآن.. وا حسرتاه.. فقد سقط حاجباها.

وفي هذه اللحظة أرسلت العجوز همهمة مكبوتة، كأنها وحش كاسر تقيده السلاسل، لكنها لم تنطق بكلمة. وقال الشيخ مادًّا ذراعه:

- هناك.. هذه هي كنيسة الدير.

كان الدير يتلألأ ببياضه الناصع قرب شاطئ البحر.. يقع بين صخرتين كبيرتين، وفي ساحته كانت الكنيسة التي أجريت عليها بعض الترميمات منذ مدة قريبة وتم تبييضها، فبدَت قبتها صغيرة مستديرة كأنها نهد امرأة، يحيط بالكنيسة خمس أو ست غرف بأبواب زرقاء، وفي باحتها ثلاث أشجار من السرو، وحول السياج بأكمله تنتشر أشجار التين البري المتفتحة.

أسرعنا خطانا وتناهت الأنغام والتراتيل إلى سمعنا عبر نافذة الدير المفتوحة، وقد انتشرت في الهواء رائحة اللبان عبرَ الباب الخارجي الكبير المقوس، والذي كان مفتوحًا على مصراعيه، يفضي إلى باب الباحة النظيفة التي يغطيها الحصى الأبيض والأسود، وعلى جوانبها فوق الجدران صفوف من أصص زهور الحبق والريحان.

يا له من صفاء! يا له من جمال باذخ! كانت الشمس تميل نحو الغروب والجدران المغطاة باللون الأبيض قد انقلبت وردية.

وفاحت رائحة الشمع من داخل المصلى الصغير الدافئ بنوره الخافت، وبعض النساء والرجال يظهرون عبر سحابات دخان البخور، كانت خمس أو ست من الراهبات متدثرات بأرديتهن السوداء الطويلة، ينشدن بصوت عذب ناعم وهن ساجدات: «**أيها الإله القوي القدير...**» وعندما يتحركن يظهر صوت حفيف ملابسهن كأصوات الطيور وهي تصفق بأجنحتها.

منذ سنين عديدة لم أسمع ترانيم العذراء، عندما كنت شابًّا طائشًا كنت كلما مررتُ أمام الكنائس يسيطر عليَّ الانزعاج والاستهزاء، لكني مع الزمن

هدأت، بل أصبحت أذهب إلى الكنيسة في أعياد الميلاد، والفصح. وتغمرني سعادة كبيرة عندما أشعر بأن الطفل الذي في داخلي يبعث من جديد، وأن الرعشة الصوفية قد انقلبت إلى متعة جمالية. يعتقدُ البدائيون أنهم عندما لا يستخدمون إحدى الآلات الموسيقية في التراتيل الدينية، تذهب منها قدرتها الإلهية، وتفقد تناغمها؛ وهكذا قد انقلب الإيمان في داخلي وتحوّل إلى فن.

انزويت في أحد أركان الكنيسة واتكأت على مقعد لمَّعَته أيدي المؤمنين حتى بدا كالعاج، ورحت أستمع مأخوذًا بالتراتيل البيزنطية وهي تأتي من أعماق الزمن: «**السلام عليك يا مريم.. يا صاحبة السمو الذي لا تبلغه عقول البشر. السلام عليك يا مريم.. يا ذات العمق الذي لا تنظره حتى عيون الملائكة. السلام عليك أيتها العروس التي لم يتزوجها أحدٌ قط، السلام عليك أيتها الزهرة الذابلة!**».

ومرة أخرى جثت الراهبات على ركبهن ورؤوسهن محنية إلى الأمام، وأصوات حفيف ملابسهن ترتفع كأجنحة الطيور. ومرت الدقائق والملائكة تمسك بزنابق لم تتفتح بعد، لتترنم بجمال مريم العذراء، واختفت الشمس وهيمن غسق وردي أزرق على المكان، لم أَعُد أذكر كيف وجدت نفسي فجأة في الساحة، حيث كنت وحيدًا مع رئيسة الدير وراهبتيْن صبيتيْن، نقف تحت شجرة السرو الكبيرة، فقدمت لي إحدى الراهبات الجدد قليلًا من المربى والماء البارد والقهوة، ودار بيننا حديث هادئ..

دار حديثنا حول ما قامت به العذراء من معجزات، وعن الفحم، وعن الدجاجات التي حان موسم بيضها مع دخول الربيع، وعن الراهبة أودكسي التي ابتليت بالصرع، وكيف كانت تسقط على بلاط الدير وترتجف كسمكة، يسيل الزبد من فمها وهي تشتم وتمزق ملابسها. قالت رئيسة الدير متنهدة:

- إنها في الخامسة والثلاثين من عمرها، عمر حزين وأيام قاسية، فلتكن العذراء بعونها. لقد قيل بأنه يلزمها عشرة أو خمسة عشر عامًا لتُشفى.

فهمست برعب:

- عشرة أو خمسة عشر عامًا!

- ماذا تساوي هذه الأعوام؟ فكِّر بالخلود!

لم أتفوه بكلمة، فقد كنت أعلم بأن الخلود هو كل لحظة من اللحظات التي تمضي. قبّلت يد الرئيسة ـ يد بيضاء سمينة تفوح منها رائحة البخور ـ

وغادرت.

خيّم الظلام على الأرجاء، بينما كانت الغربان تعود مسرعة إلى أعشاشها، وبدأ البوم يخرج من الأشجار المجوفة ليقتات، وخرجت الحلازين، الدود، الفئران، وبقية الحشرات لتقدم نفسها لقمة سائغة للبوم.

حاصرتني الأفعى اللغز، تلكَ التي تعض ذنبها: فالأرض تنجب أطفالها لتلتهمهم، ومِن ثَم تلدهم ثانية، لتأكلهم من جديد!

التفتُّ حولي فوجدت العتمة تهيمن على كل شيء، وقد غادر آخر الفلاحين المكان، خيّم الصمت ولم أعُد أرى أحدًا، أو يراني أحدٌ. أصبحت وحيدًا تمامًا، فخلعت حذائي ووضعت قدمي في الماء وتمددت على الرمل، مستجيبًا لرغبة جامحة بأن يختلط الحصى والماء والهواء بجسدي العاري. لقد أزعجتني كلمة الرئيسة عن «**خلودها**». وشعرت بالكلمة تلتف حولي كأنها حبل الفارس الذي يلتف حول أعناق الخيل البرية. قفزت محاولًا الإفلات، وأحسست برغبة جامحة أن ألمس بجسدي الأرض والبحر والهواء، لأتأكد أن كل هذه الأشياء الحبيبة العابرة لا تزال موجودة.

وأنا أردد: «**أنا آخر من أنجبتِه، أنا طفلك الأخير، أرضع من ثديك ولن أفلته من بين يديّ، أنتِ لن تدعيني أعيش أكثر من دقيقة، إلا أن هذه الدقيقة تصبح ثديًا أرضع منه**».

وارتعشت كأني قد قبلت المجازفة لأرتمي في أحضان تلك الكلمة «**الخالدة**» التي تتغذى بلحم البشر. فأنا لم أكد أنسى، كم كنت في الماضي، قبل سنة واحدة فقط كنت أحاول جهدي وبكل قوتي أن أتأمل هذه الكلمة «**الخلود**»، وأرتمي فيها طائعًا مستسلمًا مغمض العينين.

عندما كنت صغيرًا في الصف الأول في مدرسة القرية، كانت هناك قصة خرافية ندرسها في كتاب القراءة، كنا نقرأها لنتعلم الأبجدية، تقول القصة:

«**وقع طفلٌ صغيرٌ في بئرٍ، فوجد فيها مدينةً جميلة مزدانة بالزهور والورود، ونهرًا من العسل الصافي وجبالًا من «الأرز بالحليب» وألعابًا ذات أشكالٍ كثيرة**».

وكنت كلما استطعت تهجية جزء من القصة، تملكتني الرغبة في أن أغرق أكثر وأكثر في هذه المدينة السحرية. وفي أحد الأيام عدت ظهرًا من المدرسة فأسرعت إلى باحة المنزل ووقفت على حافة البئر تحت ظلال شجرة العنب، ورحت أحدق مأخوذًا بصفحة المياه الصافية، وسرعان ما تصورت بأني

أشاهد تلك المدينة المسحورة وأرى منازلها وطرقها وأشجارها تغمرها الثمار، فلم أَعُد أحتمل الانتظار، فأحنيت رأسي ضاربًا الأرض بقدمي محاولًا رمي نفسي في البئر، لكن أمي وصلت في الوقت المناسب، حين شاهدتني، صرَخَت، وأسرعت لتمسكني من حزامي.

عندما كنت صغيرًا كدت أقع في البئر، أما اليوم وبعد أن كبرت فقد كدت أقع في كلمة «**الخلود**»، وأيضًا في بعض الكلمات الأخرى مثل.. الحب، الأمل، الوطن، الله. وكلما تخلصتُ من كلمة أشعر أني تقدمت خطوات نحو الخلاص. وها أنا ذا منذ سنتين معلقًا على حافة كلمة: «**بوذا**».

لكن بوذا ـ وأنا أشعر ذلك تمامًا بفضل زوربا ـ سيكون آخر بئر من هذه الآبار. كلمة الهاوية الأخيرة، وبعدها سأنجو إلى الأبد.. الأبد؟ هذا ما نقوله في كل مرة.

وقفت بوثبة واحدة، كنت أشعر بالفرح يغمرني من قمة رأسي إلى أخمص قدمي، وخلعت ملابسي وألقيت نفسي في البحر، يلهو الموج البهيج معي وألهو معه، حتى أحسست بالتعب أخيرًا، فخرجت من الماء وتركت نسائم الليل تجفف جسدي. ثم بدأت طريق العودة بخُطى واسعة سريعة وأنا أشعر بأني نجوت من خطر داهم، وأني قد تعلقت بقوة أكثر من أي مرة سابقة بصدر الأم العظيمة.

١٦

ما أن وصلت إلى شاطئ الفحم حتى جمدت فجأة، كان النور يغمر الكوخ، فهتفت في نفسي مسرورًا: «**كُن زوربا!**». كدت أركض لكني سيطرت على أعصابي، وقلت لنفسي يجب أن أخفي سروري، كما يجب أن أبدو غاضبًا، وأبدأ بالصياح. فقد بعثت به لإتمامِ مَهمة، لكنه بدد النقود وألقى بنفسه في أحضان الساقطات، وتأخر أسبوعَين عن موعده. يجب أن أظهر غاضبًا. يجب ذلك.

ورحت أمشي بخُطى بطيئة كي أعطي لنفسي الوقت الكافي للتظاهر بالغضب، قطبت جبيني وثنيت أصابعي مكورًا قبضتي، ورحت أمثّل جميع الحركات التي يفعلها رجل غاضب. لكني لم أشعر حقيقة بالغضب. بل على العكس فقد كان سروري يزداد كلما اقتربت من الكوخ.

رحت أقترب على رؤوس أصابعي، ونظرت من خلال الشباك. أجل لقد كان زوربا.. راكعًا على الأرض، بعد أن أضرم النار وبدأ بتحضير القهوة. غاص قلبي من الفرح وصرخت:

- زوربا...

فُتح الباب على مصراعيه بضربة واحدة من زوربا، الذي أسرع خارجًا، حافي القدمين عاري الصدر، ومدّ رأسه في العتمة، باسطًا ذراعيه عندما شاهدني، لكنه تمالك نفسه وأرخى يديه، وقال بصوت مرتبك، ووجهٍ مفعم بالسعادة:

- مسرور جدًّا برؤيتك أيها الرئيس.

حاولت قدر الإمكان أن يكون صوتي فظًّا:

- وأنا مسرور لأنك حمّلت نفسك عناء العودة! لا تقترب مني فرائحة الصابون المعطر تفوح منك.

فهمس بصوت خافت:

- آهٍ لو تعلم كم اغتسلت أيها الرئيس. لقد حككت جسدي.. وأي حك. أخذت ساعةً كاملةً وأنا أغتسل، قبل أن آتي لأراك. لكنّ

الرائحة اللعينة بقيت، ولكن ما الذي نستطيع أن نفعله؟ على كلٍّ سوف تختفي من تلقاء نفسها، فهذه ليست المرة الأولى.

أجبته وأنا أكاد أن أنفجر مقهقهًا:

- دعنا ندخل!

دخلنا الكوخ، الذي كانت تفوح منه الروائح العطرية والمساحيق، والجوارب، والمرأة.

- أخبرني ما كل هذه الأشياء؟

صحت بذلك أسأله بعدما شاهدت بعض الحقائب وقطع الصابون والجوارب ومظلة صغيرة حمراء، وزجاجة من العطر. كانت كلها موضوعة بإتقان فوق أحد الكراسي.

فطأطأ زوربا رأسه وهمس:

- هدايا...

تابعت تظاهري بالفظاظة ذاتها:

- هدايا.. هدايا؟!

- أجل هدايا أيها الرئيس. لأجل العجوز المسكينة... فعيد الفصح قد اقترب و...

- لكنك لم تحضر لها أهم شيء.

- ما هو؟

- لماذا تتظاهر بالغباء؟ إكليل الزواج.

وقصصت عليه الحكاية التي اختلقتها للسيدة هورتنس. هرش زوربا رأسه بعد لحظة تفكير عميقة وقال:

- لقد ارتكبتَ حماقةً كبرى أيها الرئيس.. اعذرني. لكن مزاح مثل هذا... إن النساء مخلوقات ضعيفة، معرضة للكسر، كم مرة يفترض أن أقول لك هذا؟ الخزفُ الصيني يجب أن يُعامل بعناية تامة.

شعرت بالندم والخجل أنا أيضًا، إلا أنه كان قد سبق السيف العزل، وحاولت تغيير مجرى الحديث:

- ماذا عن الأدوات والحبال؟

- لقد أحضرت كل شيء، لا تقلق **«الأكل لم يُمس والكلب شبعان»**.

المصعد، لولا، وبوبولينا، كلها بحالة جيدة.

تناول الإبريق من فوق الموقد، وصب في فنجاني، ثم ناولني قطعة من الكعك، وقطعة حلوى بالعسل، كان يعلم بأني أفضلها، وقال لي بحنان ظاهر:

- لقد أحضرت لك علبة كبيرة من الحلوى. لم تغب عن بالي قط، انظر، كما أحضرت كيسًا كبيرًا من الحبوب للببغاء. بالحقيقة أني لم أنسَ أحدًا. فرأسي، أيها الرئيس، لا يزال مكانه كما ترى.

تناولت الكعك وبعض الحلوى، وشربت القهوة، وأنا جالس على الأرض.

وشرب زوربا أيضًا ودخن سيجارة وراح يحدق إلى وجهي. قلت محاولًا أن يكون صوتي هادئًا:

- هل استطعت أن تحل مشكلتك أيها اللعين؟

- أي مشكلة؟

- البحث فيما إذا كانت المرأة مخلوقًا بشريًا أم لا؟

فحرك زوربا يده الكبيرة مجيبًا:

- انسَ هذا الموضوع، لقد حُلت المشكلة، المرأة كائن بشري، مثلنا تمامًا. بل وأردأ منا.. خاصةً عندما تشاهد حافظة النقود.. تشعر بالدوار، وتلتصق بك، وتتخلى عن حريتها بكل سرور، لأنها شاهدت كما قلت، حافظة النقود.. لكنها سرعان... ما علينا! لننسَ هذا الأمر أيها الرئيس.

ثم وقف وألقى بسيجارته وأردف:

- الآن، دعنا نتكلم كرجال، فالأسبوع المقدس قد اقترب. عندنا الآن الحبال، وقد حان الوقت لنذهب إلى الدير لنتكلم مع أولئك الملاعين الأغنياء، ونتفق ونوقع أوراق الغابة. وذلك قبل أن يشاهدوا المصعد

فتشمخ أنوفهم.. تفهمني طبعًا؟ إن الوقت يمر، ولا ينفعنا أن نظل هنا.. يجب أن نحاول كسب شيء منذ الآن. ويجب أن تأتي البواخر لتحمل البضاعة، لنغطي المصاريف.. لقد كلفني السفر إلى كانديا الكثير كما ترى، لعنة الله على الشيطان.. ولكن...

سكت زوربا، وشعرت بالعطف عليه. فقد كان كطفل صغير قام بعدة أخطاء، ولا يعرف كيف يعتذر، كان يرتجف بكل حواسه.

وصحت في نفسي: «**يا للعار! كيف يمكن أن نسمح لنفسٍ كهذه أن ترتجف من الخوف؟ هيا قم.. فأين يمكنك أن تجد زوربا آخر؟ قم تناول الإسفنجة وامحُ كل شيء**». وصحتُ قائلًا:

- زوربا، دع الشيطان وشأنه، لا علينا منه. إن ما حدثَ قد حدثَ وانتهى، هيا تناول السانتوري.

فبسط ذراعيه، يريد أن يعانقني ثانية، لكنه عاد وأرخاهما بتردد. وبسرعة وصل إلى الجدار، ووقف على أطراف أصابعه وتناول السانتوري. عندها كان رأسه قد اقترب من نور القنديل فرأيت شعره أسود كالفحم فصرخت:

- أيها الخبيث.. ما هذا الشعر؟ من أين أتيت به؟

فقهقه زوربا قائلًا:

- لقد صبغته أيها الرئيس. لا تتعجب.. إنه القدر.

- ولكن لماذا؟

- لأجل العجرفة والكبرياء أيها الرئيس وحق الشيطان! ففي أحد الأيام كنت أتجول مع لولا ممسكًا بذراعها. أعني، هكذا بأصابعي فقط.. فاقتربَ منّا صبيٌّ لعين، لا يصل إلى ركبتي، وراح يضايقنا، وراح ابن العاهرة يصيح: «**أوه أيها الشيخ. إلى أين تصطحب حفيدتك؟**» شعرت لولا بالخجل، وكذلك أنا. وكما ترى، ذهبت إلى الحلاق، لأصبغ شعري باللون الأسود، لكيلا تخجل لولا منه.

غلبني الضحك، لكن زوربا نظر إليَّ بجد:

- إن هذا يبدو لك مضحكًا أيها الرئيس أليس كذلك؟ ومع ذلك انظر إليَّ، فمنذ ذلك الوقت أصبحت رجلًا آخر، فإن كل مَن يراني يعتقد

بأن شعري أسود طبيعيّ، وحتى أنا أصبحت أعتقد هذا. إننا ننسى بسهولة ما لا يلائمنا. وأقسم لك أني أشعر منذ صبغته أن قوتي قد زادت، لولا أيضًا شعرت بهذا. والألم الذي كان يصيب ظهري، هل تذكره؟ اختفى أيضًا. أنت لا تصدقني! فهذه الأشياء ليست موجودة في كتبك.

وقهقه هازئًا، لكنه شعر بالأسف بسرعة وقال:

- اعذرني أيها الرئيس، إن الكتاب الوحيد الذي قرأته في حياتي هو «**السندباد البحري**» أما الفائدة التي استخلصتها منه!

ثم أنزل السانتوري ونزع عنه الغطاء ببطء وحنان، وقال:

- لنخرج إلى الهواء الطلق، فالسانتوري هنا بين هذه الجدران الأربعة لا يشعر بالراحة. فهو وحش مفترس يحتاج إلى مسافات ومدى شاسع.

عندما خرجنا كانت النجوم تتلألأ. ونجمة المجرة تقطع كبد السماء من جهة إلى جهة، والبحر يتنفس. جلسنا على الأرض، بينما كانت الأمواج تلحس أسفل أقدامنا. قال زوربا:

- عندما نشعر بالكآبة في هذه الحياة، علينا أن نترك لأنفسنا المجال للسرور. هل تظن هي بأننا سنلقي سلاحنا؟! هيا أيها السانتوري.

- أرجو أن تعزف لنا نغمًا ماسيدونيًّا من وطنك.

- كلا، بل نغمًا كريتيًّا من وطنك أنت، سأغني لك أغنية حفظتها في كانديا، وقد تغير مجرى حياتي منذ سمعتها.

وتأمل لحظة، ثم أردف:

- كلا، لم يتغير مجرى حياتي. فإني أدرك الآن بأني كنت على حق.

ومد أصابعه إلى السانتوري، وترك لعنقه العنان، وعلا صوته الوحشي المبحوح المتوجع:

عندما تقرر أمرًا، لا تخشَ شيئًا ونفِّذ..

أعطِ شبابك حق الجموح، فلن يعود مرة أخرى..

كن جريئًا ولا تخف..

فتلاشت الأحزان، واختفت المتاعب البسيطة ووصلت الروح إلى ذروتها الأخيرة. وتحولت لولا، والفحم، والمصعد، والخلود وجميع المتاعب صغيرها وكبيرها إلى سرابٍ بعيدٍ في الفضاء، ولم تبقَ إلا تلك العصفورة الزرقاء التائهة، الروح الإنسانية.

عندما انتهى زوربا من أغنيته المتكبرة صحت به:

- إني أهديكَ جميع ما أنفقته على الغانية، وصبغ شعرك، كل المال الذي أنفقته يا زوربا، كل شيء.. كل شيء.. غنِّ ثانية.

وانتصبت رقبته من جديد:

«أيها البطل.. يا أفضل الأسماء، تقدّم، وليكن ما يكون.

فإما أن تخطئ ضربتك أو تربح كل شيء».

انتبهَ عمال المنجم إلى غناء زوربا، فنهضوا من رقادهم وجاؤوا مسرعين، واحتشدوا في دائرة حولنا. كانوا يستمعون لأحلى ألحانهم، ويشعرون بالقشعريرة تسري في عروقهم. واقتربوا منا أكثر، بعدما لم يعودوا قادرين على احتمال انفعالهم، كانت شعورهم مُشعثة، نصف عراة، شكّلوا حول زوربا دائرة وبدؤوا بالرقص فوق الحصى.

كنت أحدق إليهم بدهشة وانفعال وصمت. وخاطبت نفسي: «**هذا هو الجنس البشري الذي كنت أُتعِبُ نفسي بالبحث عنه. هذا كل ما أريد**».

وفي اليوم التالي، وقبل بزوغ الفجر، كانت الأنفاق تهتز بضربات معاول العمال وصياح زوربا. يعملون جميعًا بحماس متقد. زوربا وحده يستطيع أن يجعلهم هكذا، فالعمل معه يتحول إلى نبيذ، ونساء، وغناء. وهذا ما يجعلهم يثملون. كل شيء تدب فيه الحياة بين ذراعيه.. الأرض، والأحجار، والفحم، والخشب، والعمال. كلهم يسيرون على نغماته، فتستعر الحرب داخل الأنفاق على ضوء مصباح الغاز، زوربا في المقدمة يحارب بكل كيانه، ويمنح اسمًا لكل نفق، يمنح وجهًا للأشياء التي ليس لها وجه، وحينها لا تستطيع أن تهرب منه. كان يقول: «**عندما أعرف بأن هذا هو نفق «كانافارو»** ـ هكذا سمّى النفق الأول ـ أصبح واثقًا ولا يستطيع أن يخدعني أو يختفي مني». وكذلك باقي الأنفاق، جعل لكل منها اسمًا: «**الأم القوية**» و«**السيقان المعوجة**» ويردد: «**إني أعرفهم جميعًا فأين سيختفون**».

في ذلك اليوم نزلت إلى النفق دون أن يراني زوربا، رأيته يصيح في العمال:

- هيا تقدموا أيها الرجال، سنهزم هذا الجبل، أيها الرفاق! ألسنا رجالًا.. وحوشًا كاسرة، فالرب القوي، يقشعر بدنه لدى رؤيتنا. أنتم الكريتيون، وأنا الماسيدوني، سنهزم الجبل، ألم نهزم الأتراك؟ فهل سيردعنا هذا الجبل الأعزل؟! هيا تقدموا.

اقترب أحدهم راكضًا نحو زوربا. وعلى ضوء المصباح عرفته فقد كان ميميتو. الذي هتف:

- زوربا.. زوربا.

نظر زوربا إليه فعرفه وفهم ما يريده، فلوّح بيده الكبيرة صائحًا:

- هيا ابتعد أيها الغبي.

لكنّ الغبي قال:

- لقد أتيتك من قِبَل السيدة...

- قلت لك اذهب، لدينا عمل كثير..

هرب ميميتو مسرعًا، والتفت زوربا حوله بعصبية قائلًا:

- النهار للعمل فقط.. فالنهار رجل. الليل لمتعتك، فالليل امرأة. وإياك يومًا أن تخلط هذا بذاك.

عندها اقتربت وقلت:

- أيها الأصدقاء، لقد انقضى نصف النهار تقريبًا، حان وقت الراحة لتناول الطعام.

نظر زوربا نحوي عابسًا، وقال:

- بعد إذنك أيها الرئيس، اتركنا واذهب لتناول طعامك وحدك، فقد أضعنا أسبوعين ويجب أن نعوّض. أتمنى لك طعامًا شهيًّا.

تركت النفق واتجهت نحو الشاطئ. أمسكتُ بالكتاب الذي كنت أحمله وتصفحته. كنت أشعر بالجوع، لكني نسيته، وخاطبت نفسي: «**إن التفكير هو منجمٌ أيضًا**». وغرقت في أنفاق التفكير الملتوية.

كتاب مُربِك، كان يصف جبال التبت المكسوة بالثلوج، الأديرة العجيبة، النُسّاك الصامتون في ثيابهم الصفراء، وهم يركزون إرادتهم لإخضاع الأثير على أخذ الشكل الذي يريدون.

وعلى قمم الجبال العالية، حيث الهواء مسكون بالأرواح؛ يعجز طنين الإنسانية الزائفة عن بلوغ هذا الارتفاع أبدًا. حيث يصطحبُ الناسك الكبير تلاميذه الذين تتراوح أعمارهم بين السادسة عشرة والثامنة عشرة، ويقودهم عند منتصف الليل إلى البحيرات المتجمدة في قلب الجبل. يخلعون ملابسهم ويكسرون الثلج، ويبللون ثيابهم في المياه الباردة، ثم يرتدونها مرةً أخرى ويتركونها تجف على ظهورهم، ومِن ثَم يعودون ليبللوها من جديد ويلبسونها، وهكذا سبع مرات. ثم يعودون إلى الدير ليؤدوا صلاة الصباح. يتسللون إلى قمة جبلٍ يرتفع إلى ثمانية عشر ألفَ قدم، يجلسون بهدوء ويتنشقون بعمق وانتظام. عراة حتى خصرهم، لكنهم لًا يشعرون بالبرد، يمسكون بكأسٍ ملأى بالثلج بين أيديهم، يسددون نظرهم إليها، ويستحضرون قوة أرواحهم، فتغلي المياه، ويعدون منها الشاي.

يجمع الناسك الكبير تلاميذه حوله ويقول: «**يا لتعاسةِ مَن لا يحمل نبع السعادة في داخله. يا لتعاسة مَن يسعى لرضى الآخرين عنه. ويا لتعاسة مَن لا يشعر بأن الحياة الدنيا والحياة الآخرة ليست إلا واحدة**».

خيّمَ الظلام، ولم يَعُد باستطاعتي أن أقرأ. أغلقت الكتاب ورحت أحدق إلى البحر، وخاطبت نفسي: «**يجب أن أحرر نفسي من هذه الألغاز**». وهتفت في داخلي: «**يا لتعاسة مَن لا يستطيع أن يتحرر من بوذا، الآلهة، الوطن، والأفكار**».

تحوّل لون البحر إلى الأسود، فقد كان القمر الصغير يغيب. وفي الحدائق القريبة كانت الكلاب تنبح بحزن، وأخذَ الوادي بأكمله يردد صدى النباح.

ظهر زوربا، مغطى بالأوساخ، وقد تمزّقَ قميصه. تمدد قربي وقال وهو يغمره الشعور بالرضا:

- لقد سارت الأمور اليوم على ما يرام. أنجزنا عملًا حسنًا.

كنت أسمع كلماته دون أي انتباهٍ لما يقول. فقد كانت روحي لا تزال بعيدة فوق التلال المرتفعة الغامضة. لاحظ زوربا شرودي وسألني:

- ما الذي تفكر به أيها الرئيس؟ إنك في عالمٍ آخر!

نظرت إليه، وحركت رأسي قائلًا:

- زوربا إنك تظن بأنك سندباد بحري رائع، وتتكلم بغرور لأنك شاهدت قليلًا من هذا العالم. لكنك لم ترَ شيئًا أيها المسكين المغفل. ولا أنا رأيت. العالم أوسع كثيرًا مما نظن، لقد سافرنا وقطعنا البلاد وعبرنا البحار، لكننا لم نكد ندرك أكثر من عتبة باب كوخه.

قلب زوربا شفتيه، لكنه لم يقل شيئًا. همهم مثل الكلب الوفيّ عندما يُضرب. فأردفت قائلًا:

- هناك جبال في هذا العالم، شاهقة العلو، لا حدّ لاتساعها، تنتشر فوقها الأديرة، التي يعيش فيها الرهبان بأثوابهم السوداء، يجلسون بأرجل متصالبة، شهرًا، شهريْن، ستةَ أشهر ليفكروا بشيء واحد، أتسمع؟ ليس باثنين، بل بشيءٍ واحد فقط. لا يفكرون بالنساء والفحم أو الكتب، كما نفعل نحن. إنهم يركزون إرادتهم على شيء واحد، وبهذا يصنعون المعجزات. ما الذي يحدث لو أمسكت بقطعة زجاجية ووضعتها تحت أشعة الشمس وركزتها على نقطة معينة، هل تعلم ماذا يحدث؟ إن تلك النقطة ستحترق. هل تعلم لماذا؟ لأن أشعة الشمس لم تتفرق، بل تركزت كلها فوق شيء واحد، واحد فقط ومحدد. وكذلك روح الإنسان. فإنك قادر على أن تفعل العجائب لو تركزت روحك على شيء واحد، واحد فقط. هل تفهم هذا يا زوربا؟

كان زوربا يتنفس بصعوبة. وحرك جسده كما لو أنه كان يريد أن أسهب. لكنه سيطر على أعصابه قائلًا:

- هيا.. تابع.

ثم انتصب فجأة بوثبة واحدة وصاح:

- اسكت.. اسكت. لماذا تقول لي هذا أيها الرئيس؟ لماذا تسمم روحي؟ أنا أشعر بالسعادة هنا، لماذا تدفعني عن موضعي؟ كنت جائعًا، ورمى لي الله أو الشيطان بِعظْمة، فمكثتُ ألعقها وأهز ذيلي قائلًا شكرًا، شكرًا.. أما الآن...

وضرب الأرض بقدمه، وأدار ظهره لي، كما لو أنه يريد الذهاب إلى الكوخ، لكنه كان يحترق في داخله.. فتوقف لحظة وقال:

- أوف.. لقد رمى لي عَظْمة كبيرة، تلك التي رماها الله أو الشيطان، مغنية فاجرة عجوز.. سفينة مُهترئة قذرة حتى إنها لا تصلح للإبحار.

ثم تناول قبضة من الحصى ورمى بها في البحر، وقال:

- ولكن مَن هو؟! مَن هو الذي يرمي لنا بالعظام؟

انتظرَ لحظة صامتًا، وإذ لم يأتِه الجواب تملكه الغضب وهاج:

- ألا تستطيع أن تقول شيئًا أيها الرئيس؟ إن كنت تعرف أخبرني لأستطيع أن أعرف اسمه. عندها لا تقلق، سوف أجازيه على ما فعل. ولكن هكذا! وعلى غير هدى! هذا خبط عشواء! فكيف أعرف بأي اتجاه يجب أن أسير؟ سوف أجن.

تجاهلتُ غضبه وقلت:

- إني جائع. أحضِر لنا شيئًا نأكله. دعنا نأكل أولًا.

- ألا تصبر على ليلة واحدة دون طعام أيها الرئيس؟! كان أحد أعمامي راهبًا، وكان يتناول طيلة أيام الأسبوع الملح والماء فقط. أيام الآحاد والأعياد، كان يزيد عليها قليلًا من النخالة. ومع هذا فقد عمَّر مائة وعشرين سنة.

- لقد عمَّر مائة وعشرين سنة، لأنه كان مؤمنًا، قد وجدَ إلهه فلم يَعُد يقلقه شيء. أما نحن يا زوربا فلا نعرف إلهًا ليطعمنا ويقوينا. هيا أضرم النار فلا يزال عندنا قليل من السمك، أعد لنا منه شوربة حارة، وبعدها سنرى.

صاح زوربا منفعلًا:

- ما الذي سنراه؟! عندما تمتلئ معدتنا سننسى كل شيء.

- هذا تمامًا ما أريده، وإلا فما فائدة الطعام؟ هيا أسرع. شوربة سمك حارة أيها العجوز، وإلا سأموت.

لكن زوربا بقيَ بلا حراك يحدق إليَّ، وقال أخيرًا:

- اسمع أيها الرئيس.. إني أعرف ما تريد أن تفعله، فعندما كنت تتحدث شعرت بومضة غريبة وشاهدت.

فسألته بحماس:

- ما الذي أريد أن أفعله يا زوربا؟ هيا قل!

- تريد أن تقيم ديرًا، ها هو ذا الأمر! وتضع فيه بدل الرهبان، بعض الكُتّاب يلطخون الورق بالحبر طوال النهار. وبعد ذلك يتدلى من بين شفتيك شريطٌ حريري مطبوع، كالقديسين الذين نراهم. قل لي ألم أعرف ما الذي تنوي أن تفعله؟

طأطأت رأسي بأسى.. أحلام الشباب القديمة، الأجنحة الكبيرة التي فقدت ريشها.. الرغبات الساذجة السخية والنبيلة.. نبني مجتمعًا رائعًا، وندفن أنفسنا فيه، نجمع الأصدقاء والموسيقيين والشعراء والرسامين، لنعمل طوال النهار.. نأكل، ونغني، ونقرأ معًا.. نناقش التساؤلات الإنسانية الكبرى، ونهدم الأجوبة القديمة. كنت قد أعددتُ دستورَ هذا المجتمع، بل وحتى إني حددتُ موضعَ بنائه قرب منطقة القديس «**يوحنا الصياد**» في أحد ممرات جبل هيمتوس.

وعندما رأى زوربا صمتي المطبق ابتسم وقال:

- كان تخميني صوابًا، إذن أريد أن أطلب منك خدمة يا رئيس الدير، أريدك أن تأخذني معك كبوّاب، كي أقوم بقطع الطريق، وأسمح بعض الأحيان بمرور بعض الأشياء الممنوعة.. غانيات، خمر، آلات موسيقية، بعض الخنازير الصغيرة المشوية. وهذا لمصلحتك أنت، حتى لا تضيع حياتك في الأشياء التافهة.

قال ذلك ثم قهقه واتجه بحماس نحو الكوخ، وركضت خلفه. ثم بدأ بإعداد السمك. وأحضرت أنا الحطب وأضرمت النار. وعندما انتهينا من إعداد الشوربة، تناولنا ملاعقنا وبدأنا الأكل من القدر رأسًا.

لم يتفوه أحدنا بكلمة واحدة. لم نكُن تناولنا شيئًا طيلة اليوم، فالتهمنا الشوربة بنهم، وشربنا النبيذ، وعادت السعادة إلى أرواحنا. وقال زوربا:

- إنه لأمر ممتع أن تحضر الآن السيدة العجوز، فهي الوحيدة التي تنقصنا. ومع هذا، أتريد أن أقول لك الحقيقة؟ لقد مللتها، بحق الشيطان!

- ألا تود أن تعرف الآن مَن الذي يرمي لك بالعظمة؟

- وما الذي يهمني، إنها ليست إلا نملة كبيرة بين كومة من القش. خذ العظمة ولا تهتم لليد التي ترمي بها. هل هي ذات مذاق جيدٍ؟ هل عليها بقايا من اللحم؟ تلك هي المسألة الحقيقية.. أما الباقي...

فأجبت وأنا أضع يدي على كتف زوربا:

- لقد قدم الطعام معجزته. استكانَ الجسد الهائج، فاستكانت معه النفس المتسائلة، الآن يمكن أن تُحضر السانتوري.

وفي اللحظة نفسها التي انتصب فيها زوربا تناهى لسمعنا وقع أقدام متثاقلة، فارتعش شارب زوربا وهمس بصوت خفيض وهو يضرب على فخذيه:

- «**اذكر الذئب ثم جَهِّز القضيب**»... الكلبة شمّت رائحة زوربا في الهواء، وها هي ذي آتية الآن.

انتصبتُ واقفًا وقلت:

- لقد مللت هذا الموضوع، سأتمشى. تدبّر أمورك.

- ليلة طيبة أيها الرئيس.

- لا تنسَ أني وعدتُها أنك ستتزوجها، لا تجعلني كاذبًا.

- أتزوج مرة ثانية؟! لقد سئمت هذا أيها الرئيس.

وشعرت باقتراب رائحة الصابون والمساحيق المعطرة. فقلت:

- الشجاعة يا زوربا.. الشجاعة.

وابتعدت مسرعًا، بعد أن سمعت صوت أنفاس العجوز اللاهثة.

IV

في صباح اليوم التالي، أيقظني صوت زوربا عند الفجر. فنهرته:

- ما الذي دهاك، لماذا تصيح في مثل هذا الوقت؟

- لا شيء أيها الرئيس، لقد أحضرت مطيتين، هيا استيقظ، سنذهب إلى الدير لنمضي العقد ثم نبدأ بتنفيذ المصعد. لا يوجد شيء يخيف الأسد سوى القملة، والقمل يكاد يأكلنا.

فقلت ضاحكًا:

- لماذا تتصرف مع بوبولينا كأنها قملة؟

تجاهل سؤالي وقال:

- هيا قبل أن ترتفع الشمس.

قمتُ متكدرًا إذ كنتُ أنوي التنزه في الجبل وتنشق رائحة الصنوبر. ركبنا المطيتين وبدأنا المسير، توقفنا قليلًا قرب المنجم حيث أصدر زوربا تعليماته لتعميق نفق هنا وتوسيع نفق هناك.

كان النهار باهرًا مثل ماسةٍ مكتملة النقاء، وكلما ارتفعنا عبر الجبل صفت الروح وارتقت. أحسست مرة ثانية، بأثر النسيم النقي والهواء النظيف والأفق الواسع على الروح. كأن روحي كائن مستقل عني له رئتان ومنخران، تشعر بحاجة ملحة إلى الأوكسجين، وتختنق بين الأوساخ والغبار.

عندما دخلنا غابة الصنوبر، كانت الشمس قد أصبحت في وسط السماء، ورائحة الصنوبر تعبق في الهواء الذي يصفر فوقنا كأنه هدير البحر.

بينما انشغل زوربا طيلة الطريق بالتفكير في انحدار وميل الجبل، يتخيل مواضع دقّ الأوتاد كل عدة أمتار، فيرفع رأسه لينظر إلى الحبال المتخيلة تحت أشعة الشمس، وهي تنحدر إلى البحر حاملةً جذوع الأشجار، بعد ربطها بالحبال.

فرك يديه قائلًا:

- عمل رائع، سيدرُّ علينا الذهب. سنربح المال ونجمعه بالرفش، ونحقق كل أحلامنا.

نظرت إليه مذهولًا، وأردفت:

- يبدو أنك قد نسيت، فقبل أن نبني ذلك الدير، علينا أولًا أن نذهب إلى ذلك الجبل الشامخ.. ماذا نُسمِّيه يا زوربا؟ التيبت، نعم التيبت، ولكن ضع في حسبانك أننا سنذهب نحن الاثنان فقط، فذلك المكان لا موضع فيه للنساء.

- ومَن ذكرَ النساء؟ وعلى أي حال النساء كائنات مسكينة ومفيدة، يجب ألَّا نتكلم عنهن بسوء. إن لهن أهمية قصوى عندما لا يكون بين يديْ الرجل عملٌ رجولي لينجزه، كأن يعمل في منجم للفحم، أو يغزو المدن، أو يتعبد لله. ما الذي يجب أن يقوم به في هذا الوقت كيلا يهلك؟ يحتسي الخمر، يقامر، يداعب النساء، ويجلس ينتظر.. ينتظر ساعته.. إذا كانت ستحين.

ثم سكت قليلًا، وتابعَ بانزعاج:

- إذا كانت ستحين! لأنه من الممكن ألَّا تحين أبدًا.

ثم أضاف:

- إن الحياة لا تطاق هكذا أيها الرئيس، فيجب أن يحدث شيء من اثنين، إما أن تصغر الأرض وإما أكبر أنا. وإلا فسوف أموت.

في هذه اللحظة بدا لنا بين الأشجار كاهنٌ أصفر الشعر، مُشمرًا عن ذراعيه، شاحب الوجه، يضع على رأسه قبعة من الصوف البني، وممسكًا بيده عصا طويلة من الحديد، يتكئ بها على الأرض ويسير بخُطى واسعة. وعندما وقع نظره علينا، أشار إلينا بعصاه وسأل:

- إلى أين تتجهان أيها البطلان؟

فردَّ عليه زوربا:

- إلى الدير، لنقوم بواجبنا.

فصاح الكاهن مستنكرًا وقد تطاير الشرر من عينيه الزرقاوين:

- ارجعا من حيث جئتما أيها المؤمنان. وهذا من أجل الخير الذي أتمناه لكما. فهذا الدير ليس بستانًا «**للعذراء**» بل حقلًا للشيطان. الفقر والمسكنة والطاعة التي يقولون بأنها تكلل الراهب غير موجودة هناك بالمرة، ها.. ها.. ارجعا أقول لكما. فالمال، والعجرفة، والغلمان، هذا هو ثالوثهم المقدس.

قال زوربا بصوت خافت:

- إنه لظريف حقًّا أيها الرئيس.

والتفت نحو الكاهن وسأله:

- ما اسمك أيها الأخ، وما الذي أتى بك هنا؟

- اسمي زكريا، جمعت متاعي، وأنا راحل، أجل راحل. فلم أَعُد أستطيع التحمُّل. هل تُنعم عليَّ بمعرفة اسمك أيها المواطن.

- كانافارو.

- إن الوضع لا يحتمل أيها الأخ، فالمسيح يئنُّ هناك طيلة الليل ولا يدعني أنام، فأتوجع معه. ولذلك طلبني رئيس الدير ـحرقه الله بنارهـ هذا الصباح وقال: «**والآن أيها الأخ زكريا. لماذا لا تترك إخوتك ينامون؟ سألقي بك خارجًا**». فقلت له: «**ليس أنا الذي أمنعهم النوم، إنه المسيح. وهو الذي يئنُّ طوال الليل**». عند ذلك تناول عدو المسيح عصاه. انظرا.. انظرا...

وخلع قبعته وأرانا بقعة من الدم المتجمد في رأسه، ثم واصل كلامه:

- عندها أحضرت أمتعتي، ورحلت.

فقال زوربا:

- ارجع معنا إلى الدير، وسأجعل الرئيس يرضى عنك، هيا رافقنا ستكون أنيسنا، وستكون دليلنا على الطريق، جئتَ بوقتك، فالسماء قد بعثت بك إلينا.

تفكَّرَ الراهب ثم قال:

- وما الذي تعطيه لي في المقابل؟

- ما الذي تريده أنت؟

- كيلو من السمك وزجاجة كونياك.

التفت زوربا نحوه وقال له همسًا:

- بالمناسبة.. هل يسكنك شيطان أيها الأخ زكريا؟

- كيف عرفت؟!

- قد جئتُ من جبل آتوس، وأعلم شيئًا عن هذه الأمور!

أحنى الراهبُ رأسه، وهمهم حتى لا يكاد يُسمع وقال:

- أجل، هناك شيطان يسكنني.

- وهو الذي يريد السمك والكونياك.. أليس كذلك؟

- أجل.. لعنه الله ثلاث مرات.

- إذن فقد اتفقنا.. أظن أنه يدخن أيضًا؟

- أجل إنه يدخن.. قاتله الله!

ألقى زوربا إليه بسيجارة، فتناولها الراهب وأشعلها بعد أن أخرج من جيبه ولاعة قديمة. أخذ نفسًا من الدخان ملء رئتيه، ورفع عصاه واستدار قائلًا:

- باسم المسيح.

سأله زوربا وهو ينظر إليَّ بطرف عينه:

- ماذا تُسمِّي شيطانك؟

فأجاب الراهب دون أن يلتفت:

- يوسف.

مرافقة هذا الكاهن المعتوه لم تكُن تروق لي، فالعقل الناقص، كالجسد العاجز يثير الشفقة والاحتقار، لكني لم أتفوه بكلمة وتركت زوربا يتصرف على هواه.

شعرنا بالجوع الشديد، فتوقفنا وجلسنا تحت شجرة وتناولنا صُرة الطعام. مدّ الراهب رأسه ونظر بجشع إلى الصرة ليعرف ما فيها، فصاح به زوربا:

- هيه.. هيه.. لا تسمح للعابك أن يسيل قبل موعده يا زكريا، فاليوم هو الاثنين المقدس! نحن كفرة ولهذا سنتناول قليلًا من اللحم ودجاجة، وليعفُ عنا الله. لكنه معنا أيضًا بعض الخبز والزيتون من أجل قداستك. خُذ.

أمسك الراهب بلحيته الكثة بأسف ظاهر وقال:

- أنا.. أنا زكريا صائم، وسأتناول الخبز والزيتون، وسأشرب ماء عذبًا.. أما يوسف! فهو شيطان رجيم. وباعتباره كذلك فسوف يتناول قليلًا من اللحم والخمر، وهو يحب أكل الدجاج أيضًا.. لعنه الله.

ورسم الصليب وراح يلتهم الخبز والزيتون بجشع ظاهر، ثم مسح فمه بيده، وعب بعض الماء، ورسم الصليب ثانية، علامة على انتهائه من الطعام وقال:

- الآن جاء دور يوسف لعنه الله ثلاث مرات.

واندفع بثقله نحو الدجاجة وراح يهمهم بغضب وهو يتناول لُقمًا كبيرة:

- كُلْ أيها اللعين.. كُلْ.

فأجابه زوربا بانفعال:

- أوه، أيها الراهب الماكر «**إن لقوسك أكثر من وتر**» كما أظن.

ونظر إليَّ هامسًا:

- ما رأيك به؟

فقلت ضاحكًا:

- يشبهك إلى حد بعيد.

فقرب زوربا وعاء الخمر للراهب قائلًا:

- يوسف خُذ.. اِشرب.

فتناول الراهب الوعاء:

- اِشرب.. اِشرب أيها اللعين.

كانت حمأة الشمس قد اشتدت، فأخذنا أنفسنا إلى الظل. إذ فاحت رائحة العرق والبخور من الراهب، كان العرق يتصبب منه تحت الشمس كأنه شمعة

تذوي. فدعاه زوربا إلى الظل حتى لا تزداد الرائحة. وسأله بعد أن شبع من الطعام وبدت عليه الرغبة في الثرثرة:

- كيف أصبحت راهبًا.

ضحك الراهب وأجاب:

- لا تظن بأني أصبحت راهبًا بسبب الإيمان! كلا أيها الصديق، بل بسبب الفقر، أجل إنه الفقر. لم يكُن عندي شيء لأقتات عليه، فقلت لنفسي: «**ليس عليك إلا أن تلتحق بالدير كيلا تموت من الجوع**».

- وهل أنت سعيد بما أصبحتَ عليه؟

- ليتمجد اسم الله.. أنا دائمًا أتألم، لكن لا تُسئ الفهم. أجل إني أتألم، ولكن ليس لهذا العالم.. عليه اللعنة.. إني ألعنه كل صباح.. بل أتألم من أجل السماء، فأنا أقص الحكايات المضحكة، وأتظاهر بالبله ليشعر الرهبان بالتسلية، فهم يرون أني ممسوس ويهينونني. لكني أقول لنفسي: «**هذا ليس صحيحًا، من المؤكد أن الله الطيب يحب المرح**». وذات يوم سيقول لي: «**ادخل يا مهرّجي.. ادخل يا صغيري.. ادخل لتضحكني**». وهكذا سأدخل الجنة كمهرّج، لأُضحِك الرب.

فقال زوربا:

- أظن أيها الصديق أن لك رأسًا عاقلًا فوق كتفيك، هيا لنسِر قبل أن يداهمنا الظلام.

ومرة ثانية سار الراهب في المقدمة، ومرة ثانية بدا لي كما لو أني أصعد عبر مشاهد روحية. فأنا أسير من هموم ضئيلة نحو هموم أكبر. ومن الحقائق المنبسطة السهلة إلى نظريات الجبال القاسية.

توقف الراهب فجأة وقال مشيرًا إلى قبة كنيسة مستديرة مهيبة:

- سيدة الانتقام.

ثم ركع ورسم الصليب. نزلت عن ظهر مطيتي وعبرت نحو صحن الكنيسة الرطب، ونظرت حولي، فوجدت في ركن قريب، أيقونة سوّدها الدخان، معلقًا عليها كثير من النذور الفضية منقوش عليها بمهارة نادرة صور أقدام، وأيدٍ، وأذان، وقلوب. وأمام الأيقونة مصباح مشتعل.

اقتربت بسكون وخشوع، كانت الأيقونة تجسد العذراء المحاربة، برقبتها المتصلبة، وعينيها القاسيتين، ونظرتها البريئة وهي ممسكة، ليس بالطفل المقدس، بل برمح طويل. فقال الراهب برعب ظاهر:

- يا لتعاسة من أراد الدير بسوء.. تُجهِزُ عليه وتبقر بطنه. في الماضي جاء الأتراك وأضرموا النار في الدير.. ولكن انظر ما الذي حلَّ بهم من جراء هذا! الكفرة.. ففي الوقت نفسه الذي مروا فيه بقرب الكنيسة، خرجت السيدة العذراء من الأيقونة بسرعة هائلة وأمسكت برمحها تضرب يمينًا وشمالًا حتى فتكت بهم جميعًا. إن جدّي لم ينسَ حتى الآن هيئة عظامهم التي غطت أرض الغابة. ومنذ ذلك الوقت لقبت بسيدة الانتقام بدلًا من سيدة الرحمة.

فقال زوربا متعجبًا:

- ولكن لماذا لم تفتك بهم قبل أن يضرموا النار في الدير؟

- إنها حكمة الرب القادر.

فهمس زوربا ممتطيًا بغلته:

- يا له من قادر.. هيّا.

لم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى ظهر دير العذراء فوق تلة تحيطها الصخور الكبيرة وأشجار الصنوبر. دير هادئ، بعيدًا عن البشر، في أحضان تلك القمة الخضراء العالية، يمتزج بانسجام عميق مع سمو القمة وسلاسة السهل، كأفضل موضع للتأمل والسكون. وخاطبت نفسي: «**إن روحًا طيعة نافذة، لقادرة، في هذا المكان أن تسمو بالإنسان إلى الإيمان. إنها ليست قمة صعبة وعرة تفوق القدرة البشرية، ولا سهلًا خاملًا مريحًا. بل هي كل ما يلزم الروح من أجل سِموّها وعظمتها، ودون أن تضيع شيئًا من ماهيتها البشرية. مثل هذا المكان لا يصنع الأبطال أو الصعاليك بل يصنع بشرًا. هذا المكان يصلح ليكون معبدًا يونانيًّا قديمًا، أو مسجدًا إسلاميًّا هادئًا ووديعًا. وهنا، لا بد وأن الله يأتي مرتديًا ثيابه البشرية المجردة، ليسير حافي القدمين فوق العشب الأخضر اللين، ليتكلم مع البشر بثقة وإخلاص**». وتمتمت في داخلي: «**يا للروعة، يا للعزلة، يا للسعادة**».

نزلنا عن مطيتنا ودلفنا من تحت القبة المقوسة وتوجهنا رأسًا إلى قاعة الاستقبال، حيث قُدِّم لنا طعام الأديرة المعتاد من المربى والقهوة. ثم جاء

الأب المُضيف وأحاط الرهبان بنا، وبدأ الكلام. عيونٌ فضولية، وشفاهٌ ظمآى. ذقون، وشوارب، وأجساد تفوح منها رائحة الخراف. سألنا أحد الرهبان بقلق:

- ألم تحضروا معكم صحيفة؟

فأجبت متعجبًا:

- صحيفة؟ ولماذا تريدونها هنا؟

فصاح راهبان أو ثلاثة بفضول وغضب:

- لنعلم ما الذي يجري في العالم.

كانوا جميعًا منقبضين يمسكون بقضبان الشرفة، ينعقون كالبوم، ويتكلمون بانفعال عن إنكلترا، روسيا، وفينزيلوس الملك.. لقد نفاهم العالم عنه، لكنهم لم ينفوه عنهم. فقد كانت المدن الواسعة، المحلات التجارية، النساء والصحف، تبرز من أعينهم الحائرة.

وقف راهب سمين، كثيف الشعر وقال:

- عندي شيءٌ أريد أن أريه لك، كي تُبدي رأيك فيه.

ثم انصرف ويداه فوق صدره، ساحبًا خلفه خُفَّيْه المصنوعيْن من القماش السميك، واختفى خلف الباب.

علت ضحكات الرهبان الخبيثة، وقال الأب المُضِيف:

- لقد ذهب الأب ديمتيوس ليُحضِر تمثال الراهبة، التي دفنها إبليس في الأرض لشيء في نفسه. وفي أحد الأيام، بينما كان الأب ديمتيوس، ينظف الحديقة وجد التمثال وأخذه إلى صومعته. والمسكين منذ ذلك الوقت فقد القدرة على النوم، ولن يتأخر فقدانه لعقله عمًّا قريب أيضًا.

وقف زوربا منزعجًا، وقد بدا عليه الضجر وقال:

- لقد أتينا لمقابلة رئيس الدير، ولتوقيع الأوراق.

- إن قداسة رئيس الدير غير موجود الآن، فقد توجه هذا الصباح إلى البلدة، كُن صبورًا.

عاد الأب ديمتيوس، وذراعاه ممدودتان ومشدودتان كأنه يحمل كأسًا مقدسة. قال فاتحًا يديه برهبة وحذر:

- هذا هو التمثال!

اقتربت فوجدته تمثالًا صغيرًا جدًّا من صنع «**تناغرا**» جسم نصف عارٍ، على هيئة راهبة، بتراء، وقد وضعت يدها الوحيدة الباقية فوق رأسها. فقال ديمتيوس:

- انظر.. إنها تدلنا على رأسها! أنا متأكد أن داخل رأسها لؤلؤة، أو ماسة، ألا تعتقد ذلك معي؟

فقال أحد الرهبان ساخرًا:

- أظن أن رأسها يؤلمها.

لكنّ الراهب السمين ظل يحدق إلى وجهي، وشفتاه منفرجتان، منتظرًا جوابي بفارغ الصبر، ثم قال:

- رأيي أن نكسرها لنرى، إني فقدت القدرة على النوم منذ وجدتها.. آه لو كان داخلها ماسة!

رحت أحدق إلى تمثال الفتاة الوقورة، ونهديها الصغيرين المستديرين. تلك المنفية هنا بين روائح البخور والآلهة المصلوبين الذين يلعنون الجسد والمَرح والقُبَل. وحدثت نفسي: «**آهٍ لو أني أخلّصها منهم!**».

أمسك زوربا بالتمثال، وراح يتحسس جسد الفتاة حتى وصل إلى ثدييها، فارتجفت يده وتوقفت هناك، وقال:

- ألا تشاهد أيها الأخ.. إنها إبليس بنفسه، لا يوجد أي مجال للشك، لا تقلق فأنا أعرفه تمامًا، ذلك اللعين، انظر إلى صدرها أيها الأخ ديمتيوس، إنه عارم، طري، وهذا هو صدر إبليس، فأنا عندي فكرة واضحة عن هذا.

في هذه اللحظة ظهر عند عتبة الباب راهب شاب، وقد لمعت الشمس في شعره الأحمر ووجهه المستدير.

فنظر الراهب المضيف إلى جاره بطرف عينه بخبث وابتسم، وقال:

- أيها الأب ديمتيوس، ها هو ذا تلميذك «**غبرييل**».

تمَسّك الراهب بتمثال المرأة ومشى نحو الباب كأنه برميل يتدحرج. سارَ الراهب الشاب الجميل في المقدمة بسكون وهدوء بخُطى واثقة متزنة، حتى اختفى الاثنان عبر الممر الطويل الخرب.

نظرت إلى زوربا، ففهم وخرجنا. كان الطقس منعشًا وسط الساحة، تفوح رائحة زهر البرتقال بقرب الماء المنساب من فم تمثالٍ على هيئة خروف من الرخام. انحنيت بحيث أصبح رأسي تحت الفم، فشعرتٌ بالرطوبة والانتعاش، وقال زوربا باحتقار واستخفاف!

- أخبرني، ما هؤلاء الناس؟ هم ليسوا رجالًا.. ولا نساء! إنهم بغال. أُفٍ.. من الأجدر بهم أن يشنقوا أنفسهم.

ووضع رأسه تحت الماء مثلي وقهقه مكررًا:

- أجل الأجدر بهم أن يشنقوا أنفسهم، إن إبليس قد لبسهم جميعًا، فكلٌّ منهم يشتهي شيئًا، هذا يريد امرأة، والآخر مالًا، والآخر سمكًا، والآخر صُحفًا... أغبياء، لماذا لا يأتون إلى الدنيا المفتوحة لهم فيحصلون على كل ما يريدون ويطهروا أفكارهم؟!

ثم تناول سيجارة وجلس على كرسي تحت شجرة البرتقال وقال:

- هل تعلم ماذا أفعلُ عندما أشتهي شيئًا؟ آكل منه بنهم، حتى أتقزز منه، كيلا أفكر فيه مطلقًا بعد ذلك، بل وإذا خطر على فكري تقززت منه ولا أشتهيه. في طفولتي كنتُ مغرمًا بالكرز، ولم أكُن أملك النقود الكافية، فكنت لا أشتري منه إلا النزر اليسير، ورغم أني ألتهم كل ما أشتريه، لكن شهوتي إليه تظل مستعرة بداخلي. أفكر به ليلًا ونهارًا، يسيل لعابي لأجله، وأشعر بأوجاع الشهوة. مكثتُ هكذا طويلًا حتى شعرت في أحد الأيام بالغضب، أو ربما شعرت بالخجل، لست متأكدًا تمامًا.. فقد شعرت بأن الكرز سيطر عليَّ، حتى جعلني خاضعًا تافهًا. إذن يجب عليَّ أن أفعل شيئًا. نهضت ليلًا، وبحثت في جيوب والدي، فوجدت قطعة نقد فضية فأخذتها. وفي صباح اليوم التالي، توجهت إلى البقال واشتريت سلة ملأى بالكرز واختبأت في حفرة، وأخذت آكل، وآكل، وآكل.. حتى توجّعَ بطني، وتقيأت. ومن ذلك

الوقت لم أعُد أفكر في الكرز، لم أعُد حتى أستطيع أن أتخيّله، حررت نفسي من عبوديته. وبعد ذلك فعلت الشيء نفسه مع النبيذ والسجائر.. نعم أنا إلى الآن أدخن وأشرب.. ولكن عندما أقرر التوقف، فإني أمتنع دون أي تعب، فرغبتي بهما لم تَعُد مُسيطرة عليَّ. والشيء نفسه فعلته مع الوطن، لقد أغرمت به، فأكلت منه حتى الشبع، ثم تقيّأته وتخلصت من عبوديته.

فسألته:

- وماذا عن النساء؟!

- إن دورهن سيأتي، العاهرات، نعم سيأتي دورهن.. ولكن عندما أصبح في السبعين.

وصمت برهة، فقد بدا له أن السن التي حددها قليلة جدًّا، فأردف:

- بل الثمانين.. فالإنسان لا يتحرر إلا بهذه الطريقة. فهو عندما يشبع من كل شيء لا يعود يفكر فيه، فكيف تستطيع أن تتملص من إبليس إن لم تكُن أنت نفسك إبليس ونصف.

وفي هذه اللحظة ظهر ديمتيوس في الساحة تعبًا بالكاد يلتقط أنفاسه، وخلفه الراهب الشاب صاحب الشعر الأحمر. فهمس زوربا متأملًا قوته وفورة شبابه:

- إنه يشبه ملاكًا غاضبًا!

اتجها نحو المدرج الحجري الموصل إلى الصوامع المرتفعة، فالتفت ديمتيوس نحو الراهب الشاب وهمس بشيء. فهز الشاب رأسه علامة على الرفض، لكنه رضخ أخيرًا ووضع يده حول خصر ديمتيوس وصعدا الدرج معًا.

فاضطرب زوربا وقال منفعلًا:

- انظر.. انظر.. سَدوم وعَمورة.

وظهر راهبان آخران وتغامزا، ثم همسا بشيء وأخذا يضحكان، فدمدم زوربا:

- يا للخبث.. إن الذئاب لا تأكل بعضها بعضًا.. لكنّ الرُّهبَان يفعلون هذا. انظر إليهم وهم ينهشون بعضهم.. الواحدة تعض الأخرى.

فأجبته ساخرًا:

- تقصد.. الواحد يعض الآخر.

- لا فرق بالنسبة إليهم، ألم أقُل لك إنهم بغال، لا تعرفهم أذكور أم إناث، تستطيع أن تقول غابرييل أو غبرييلا.. أو ديمتيوس أو ديميتيا.. دعنا أيها الرئيس نوقع الأوراق لننصرف سريعًا، فبشرفي إن الأمر سينتهي هنا إلى القرف من الرجال والنساء معًا.

وخفض من حدة صوته:

- عندي مشروعٌ جديد.

- أَعَمَلٌ جنوني آخر يا زوربا؟! ألا ترى أنك قمت بما فيه الكفاية؟ وعلى كلٍّ، ما مشروعك؟

هز كتفيه وأجاب:

- كيف أشرح لك أيها الرئيس، عذرًا، إنك رجل رؤوف، رجل يهتم بهموم الآخرين مهما صغرت.. فأنت لو وجدت قملة إلى جانب فراشك لأخذتها تحت الغطاء خوفًا عليها من البرد. وإذا كنت هكذا، فكيف تستطيع أن تدرك أفكار لص هرم مثلي؟ فأنا لو شاهدت قملة لسحقتها، ولو وجدت خروفًا لحزت عنقه ووضعته على السفود وأكلته متلذذًا. ربما تقول لي: «**إن هذا الخروف ليس لك**». وحينها سأرد عليك: «**أقر بذلك.. ولكن دعنا من هذا أيها الأخ الآن، لنأكله أولًا، وبعد هذا نتجادل فيما هو «لي» وما «ليس لي»**». أنت تستطيع أن تطلق العنان للسانك وتتكلم، بينما أكون أنا أنظف أسناني بعود ثقاب.

وأخذ يضحك والساحة تردد صدى قهقهته. ظهر زكريا خائفًا، واضعًا إصبعه فوق شفتيه، واقترب بخفة قائلًا:

- اصمتا.. لا تضحكا. ألا تريان هناك، في الأعلى خلف الشباك المفتوح، إن الراهب الكبير يعمل هناك في المكتبة، إنه يكتب.. يكتب طوال النهار، إنه رجل صالح، فلا تتصايحا.

أمسك زوربا الراهب من يده قائلًا:

- أخيرًا هذا أنت أيها الأب يوسف، أودُّ أن أكلمك قليلًا. دعنا نذهب إلى غرفتك ولنتبادل الحديث.

واستدار نحوي وأردف:

- أما أنت أيها الرئيس فيمكنك أن تذهب لتفحص معالم الكنيسة وأيقوناتها الأثرية، وسأذهب أنا لأنتظر رئيس الدير، أعتقد أنه لن يتأخر. واعلم أن عليكَ ألَّا تتدخل في أي شيء، لأنك ستضر بمصالحنا، دعني أعمل وحدي، فلقد رسمت خطتي.

وقرب رأسه من أذني هامسًا:

- سنأخذ الغابة بنصف الثمن. لا تتفوه بكلمة.

وانصرف مسرعًا مُمسكًا بذراع الراهب المجنون.

١٨

اجتزت عتبة الكنيسة، لأغرق في ظلام قاعتها الرطبة التي تعبق بالرائحة العطرة. كانت الكنيسة ساكنة، هادئة، يكتنفها نور خفيف ترسله بعض الشمعدانات البرونزية القديمة، المذبح مُصَمَّم بإتقان في آخر القاعة، يشبه عريشة عنب ذهبية تتدلى منها العناقيد، والجدران مغطاة، برسوم قديمة قد مُحِيَ بعضها.. صور مرعبة لرهبان مخيفين يشبهون الهياكل العظمية، كما رُسِمَ طريق الجلجثة حيث كابد المسيح الآلام، وصور لآباء الكنيسة، ورسوم لملائكة شجعان غاضبين، شعرهم معقود بشرائط زرقاء وحمراء وقد حالت ألوانها بفعل الرطوبة. وفوق القبة كانت السيدة العذراء منتصبة، مادَّة ذراعيها، متضرعة، وأمامها مصباح مضيء يرسل نورًا شاحبًا على وجهها، ليلامس النور ملامحها الرقيقة المتألمة. لن تغيب عن ذاكرتي أبدًا صورة عينيها الموجعتين، الضارعتين، وفمها المزموم المستدير، وذقنها الصلبة العنيدة. قلت مخاطبًا نفسي: «**هذه السيدة «الأم» راضية ومسرورة حتى في أقسى لحظات أوجاعها، لأنها تعرفُ أن مِن أحشائها قد خرج الإله الخالد**».

عندما خرجتُ كانت الشمس على وشك الغروب، فجلستُ تحت شجرة البرتقال، مسرورًا، وقد توردتْ قبة الكنيسة تحت شعاع الشمس الأخير وكأنه الشفق. مضى الرهبان إلى صوامعهم ليستريحوا، الحقيقة أنهم كانوا بحاجة إلى الراحة فهم لن يستطيعوا النوم طوال الليل، ففي هذه الليلة سيصعد المسيح طريق الجلجثة وسوف يسيرون معه. رأيت تحت شجرة الخروب، خنزيرتيْن سوداويْن، ترقدان تحت الشجرة نائمتان، وبعض الحمام يقف أعلى الشجرة يتسافد. وخاطبتُ نفسي: «**إلى متى سأعيش لأتمتع بنعومة الأرض، وهوائها وسكونها، وروائح شجر البرتقال المزهر؟**». عندما كنت أحدق إلى أيقونة القديس «**باخوس**» داخل الكنيسة غمرتني السعادة، واعتراني كل ما يحرك أشجاني العميقة.. من الرغبة في الاتحاد، ومتابعة الجهد وديمومة الشغف. ليبارك الله تلك الأيقونة المقدسة التي تجسد الشاب المسيحي بشعره الأسود الفاحم المتدلي فوق جبهته مثل عناقيد العنب. لقد امتزجَ «**ديونيسوس**»، إله الخمر والنشوة، والقديس باخوس، واتّحدا داخلي حتى صار لهما الوجه

نفسه، وتحت أوراق الكرمة وثوب الراهب دبّت الحياة في الجسد المرتعش الذي لوحته شمس اليونان.

وبعد قليل عاد زوربا. وقال لي فور وصوله:

- قابلت رئيس الدير، وتكلمنا قليلًا، لكنه لم يقبل، فهو، كما يقول، لا يريد أن يتنازل عن الغابة من أجل كسرة خبز، ذاك العجوز المراوغ يطلب المزيد. لكن مهما كلفني الأمر سأحصل عليها.

- ولكن لماذا لم يقبل؟ ألم نكُن قد اتفقنا؟

فرد زوربا متوسلًا:

- أرجوك أيها الرئيس.. لا تحاول التدخل، ستهدم كل شيء بنيته أنا. أنت الآن تعود للحديث عن الاتفاق القديم، لقد مات ذلك الاتفاق. لا تعبس، كما أقول لك.. لقد مات. سنأخذ الغابة، وبنصف الثمن.

- ما الذي تنوي عليه يا زوربا؟

- لا تقلق، سأزيّت البَكرَة وستدور. هل تفهمني؟

- ماذا؟ كلا، لم أفهم!

- لأني صرفت نقودًا أكثر مما ينبغي في كانديا، فإن لولا اللعينة، قد ضيعت أموالي، أقصد أموالك، لا تظن أني قد نسيت هذا، إن لي كرامتي أيضًا، ولا أريد أن أُسيء إلى سمعتي. لقد صرفت ويجب أن أعوّض. أنفقت على لولا سبع آلاف ليرة، ويجب أن أعوّض هذا المبلغ من الغابة، إن خطتي أن أجعل رئيس الدير، والدير، والرهبان، والسيدة العذراء، أجعلهم جميعًا يدفعون ما أخذته لولا.

- مستحيل! ما ذنب العذراء في أعمالك الطائشة؟!

- إنها مسؤولة، وأكثر من مسؤولة، لقد وضَعَت ولدًا، وهذا الولد هو الرب، والرب خلقني، أنا زوربا. وخلق لي الأعضاء التي تعرفها. وهذه الأعضاء اللعينة تجعلني مجنونًا، أفتح محفظة نقودي وأدفع دون حساب بمجرد أن أرى الجنس الناعم. فهمت؟ حسنًا، إذن فقداستها مسؤولة، ويجب أن تدفع.

- إن هذا لا يروقني يا زوربا!

- هذه مسألة أخرى، أيها الرئيس. لننقذ السبع الآلاف ليرة أولًا ومِن ثَم نقرر. «**قبّلني الآن يا صغيري.. ثم أرجع بعدها عمتك مرة أخرى...**» هل تعرف هذه الأغنية؟

في هذه اللحظة ظهر الأب المُضيف وقال بلهجة الرهبان الوقورة المتكلفة:

- تفضلا العشاء، فلقد أُعِدَّ كل شيء.

توجهنا نحو غرفة الطعام. قاعة واسعة فيها عدة مقاعد وطاولة صغيرة، تعبق رائحة الزيت في المكان، وفي نهاية القاعة كانت هناك زخرفة قديمة تمثل «**العشاء الأخير**» حيث التلاميذ الأحد عشر مجتمعين حول المسيح كالخراف، وقبالتهم يقف يهوذا، ذاك التيس الأجرب بشعره الأحمر، وجبهته المقوسة، وأنفه الأفطس، يقف وحيدًا مُديرًا لهم قفاه. لكن المسيح لم يكُن ينظر إلا إليه هو.

جلستُ إلى يمين الأب المُضيف وزوربا إلى شماله. قال الأب:

- ستعذراننا بالطبع لأننا صائمون.. لا سمن ولا نبيذ، رغم أنكما قدمتما من سفر بعيد! على كلٍّ، أهلًا وسهلًا.

رسمنا علامة الصليب، وبدأنا نتناول الزيتون والبصل والفول والحلوى، بسكون وهدوء. كنا نأكل ونمضغ ببطء كأننا أرانب. قال الراهب المُضيف:

- هذه هي الحياة هنا: صلاة وصوم، فإنكم يجب أن تصبروا قليلًا، أجل اصبروا، فالبعث لا بد آتٍ عمًّا قريب مع الحَمَل، ومعه ملكوت السماوات.

سعلت، فلكزني زوربا ليشير إليَّ بالصمت. وقال محاولًا تغيير مجرى الحديث:

- لقد قابلت الأخ زكريا.

فانتفض الأب المُضيف وقال بقلق واضح:

- هل تفوّه بشيء أمامكما هذا المجنون؟ إن الشياطين السبعة تلبسه، يجب ألا تصغيا لأي شيء يقوله، فهو يظن بأن الدنس في كل مكان.

وفجأة رن الجرس، بقوة، إشارة على بدء أسبوع الآلام. رسم الأب علامة الصليب ووقف وهو يقول:

- سأنصرف فإن آلام المسيح قد بدأت، وعلينا أن نساعده في حمل صليب البشرية. لكما الخيار في أن تستريحا هذا المساء، لا بد وأنكما منهكان من السفر، فغدًا القداس عند منتصف الليل.

وما أن اختفى الراهب خلف الباب حتى دمدم زوربا بحنق وغضب:

- أقذار.. أقذار.. منافقون.. بغال.. بغال.

- ما الذي حدث يا زوربا. هل قال لك زكريا شيئًا؟

- لا تغضب أيها الرئيس، فإن لم يوقّعوا الاتفاق، عندها، سأريهم مَن هو زوربا على حقيقته.

توجهنا نحو الغرفة التي جهزوها لنا. كانت في إحدى زواياها تقبع أيقونة العذراء، مُلصِقة خدها بخد ولدها، وعيناها الواسعتان تملؤهما الدموع. هز زوربا كتفيه بألم وانفعال:

- هل تعلم لماذا تبكي أيها الرئيس؟

- لا.

- لأنها ترى. لو كنتُ أنا رسّامًا، أعني رسام أيقونات، لرسمت العذراء بلا أعين.. ولا أذنين.. ولا أنف.. لأني أشفق عليها.

اضطجعنا على سريرَيْنا الخشبييْن، حيث كانت تعبق منهما رائحة السرو، وعبر النافذة كانت أنفاس الربيع تدخل إلى الغرفة محملة برائحة الزهور، وبين وقت وآخر كانت الألحان الحزينة تأتينا مع النسائم الناعمة. وارتفعَ قرب النافذة صوت بلبل يصدح، ثم لحق به بلبل آخر، وآخر، حتى فاضَ الليل بالحب والحنان.

لم أستطع النوم، واختلط صوت البلابل بأنين المسيح، حاولت السير خلف المسيح على طريق الآلام بين أشجار الليمون المزهرة، أهتدي بقطرات الدماء الكبيرة، ومن خلال الليل الربيعي الشفاف، رأيتُ حبّات العرق البيضاء تلمع كاللؤلؤ فوق جسد المسيح المُتعب الضعيف، ورأيتُ يديْه تمتدان مرتعشتيْن، وهو يتضرع، مثلَ فقيرٍ يستعطف من حوله. وخلفه أهل

الجليل يركضون ويصيحون: «**هوسناه.. هوسناه**». حاملين سعف النخيل بأيديهم، ويطرحون عباءاتهم تحت رجليه لتقيه من الشوك، وهو ينظر إلى الذين يحبهم، لكنّ أحدًا منهم لم يُدرك قدرَ حزنه وألمه. كان وحده يعلم بأنه سائر في طريق الموت. وتحت أنوار الكواكب السماوية، راحَت الدموع تنهمر من عينيه، وهو يعزي قلبه البشري المسكين: «**إن مصيرك يا قلبي، كمصير حبة القمح.. لتذبل وتُطوى تحت التراب.. لا تجزع وإلا كيف ستصبح سنبلة، لتطعم البشر الذين يقضون من الجوع؟**» لكن قلبه المرتعب، كان يرتعد رغمًا عنه، لا يريد الموت.

وسرعان ما امتلأت الغابة المحيطة بالدير، بأصوات البلابل، التي أخذت ترتفع من بين أوراق الأشجار الندية، تصدح بألحان الحب والشهوة. أما القلب البشري البائس فقد ظلَّ يرتعش ويبكي ويكبر معها.

ثم رويدًا رويدًا، وبلا شعور، امتزجتُ مع آلام المسيح، وشدو البلابل، ودخلت في النوم، كما تدخل النفس إلى الفردوس الأعلى.

*

لم تكد تمضي ساعة واحدة على نومي حتى نهضت فَزِعًا، وصحتُ على زوربا من فراشي:

- هل سمعت إطلاق النار؟

لكنّ زوربا كان قد استيقظ منذ مدة وجلس يدخن، محاولًا جهده السيطرة على أعصابه، وقال:

- لا تقلق أيها الرئيس، لندعهم يسوون حساباتهم.

وتناهى لسمعنا، أصوات وقع أقدام تُجر جرًا. وبعض الأبواب تُفتَح وتُقفَل. ومِن بعيد صوت رجل جريح يتألم.

وثبت من فراشي، وفتحت الباب، ففوجئت بشيخ طويل منتصب أمامي، مد ذراعه ليمنعني من المرور، كان يرتدي قلنسوة، وقميصًا أبيض يصل حتى ركبتيه.

صحت به:

- مَن أنت؟

- الأسقف!

غالبتُ نفسي حتى لا أنفجر مقهقهًا. أسقف؟! ولكن أين لباسه الكهنوتي، أين ثوبه المذهب، التاج، العصا، والجواهر المزيفة المزخرفة؟ لأول مرة أرى أُسقفًا في ملابس النوم. سألته:

- مِن أين جاءت طلقة المسدس هذه أيها الأسقف؟

- لا أعلم. لا أعلم.

قال هذا وهو يدفعني ليعيدني إلى الغرفة بلطف وهدوء. عندها انفجر زوربا مقهقهًا فوق فراشه قائلًا:

- هل أنت خائف أيها الأسقف؟ هيا ادخل أيها العجوز البائس. فنحن لسنا رهبانًا.

- زوربا إنه الأسقف! تكلم باحترام.

- في قميص النوم لا موضع لكلمة أسقف. ادخل يا صديقي هيا.

وقفز من فوق فراشه وأمسكه من ذراعه وسحبه إلى الداخل وأقفل الباب وتناول زجاجة روم، وصبَّ له كأسًا صغيرةً وقال:

- اشرب أيها العجوز فهذا سيُهدِّئ من أعصابك.

عبَّ العجوز الكأسَ دفعة واحدة، ثم جلس على طرف سريري مستندًا إلى الجدار. وابتدأتُ الحديث سائلًا:

- ماذا كانت طلقة النار هذه أيها الأب المحترم؟

- لا أعلم يا ولدي، لقد عملت حتى منتصف الليل تقريبًا. وعندما ذهبت لأنام، ثقب صوت الطلقة أذني، لقد كان الصوت آتيًا من الغرفة التي بجواري، من غرفة الأب ديمتيوس.

فقال زوربا ضاحكًا:

- أوه.. أوه.. لقد كنت على صواب أيها الأب زكريا.

فهمس الأسقف متمتمًا:

- لا شك بأنه كان لصًا.

كانت الضجة في الخارج قد تلاشت وعاد السكون إلى الدير من جديد، نظر الأسقف إليَّ متوسلًا خائفًا وسألني:

- هل تريد النوم يا ولدي؟

أدركتُ أنه خائف ولا يريد الخروج وحيدًا:

- كلا.. تستطيع أن تبقى معنا هنا.

تناول زوربا سيجارة، متكئًا على الوسادة. وبدأ العجوز الطيب الكلام:

- يبدو عليك أنك شاب مُتعلم، فأنا لا أستطيع أن أجد مَن أكلمه هنا ويفهمني. إن لديَّ ثلاثَ نظريات تساعدني على تقبل حياتي، وأحب أن أطرحها عليك.

وقبل أن ينتظر ردي أردف قائلًا:

- نظريتي الأولى: إن أشكال الأزهار تؤثر على ألوانها. وألوانها تؤثر على ماهيتها وخصائصها. وبهذا يكون لكل زهرة تأثير خاص على جسد الإنسان وعلى روحه أيضًا. ولذا يجب أن نكون حذرين عندما نَمُرُّ عَبْر بستان مُزهر.

وسكتَ قليلًا كي يسمع رأيي في الأمر.. لم أتكلم، وتخيّلت هذا العجوز المسكين وهو يتجول في بستان مزهر، يحدق إلى التربة، برعشة جزعة، وهو يشاهد الورود والأزهار بأشكالها وألوانها العديدة، لا بد وأن العجوز كان يتملكه وَجدٌ صوفي، ويرى البساتين في الربيع وقد سكنتها الملائكة والشياطين ذوات الألوان المختلفة.

وعندما لم أنطق بكلمة واصل الأسقف كلامه:

- وإليك الآن نظريتي الثانية: كل فكرة لها تأثير ووجود تام وحقيقي، إنها لا تضيع في الهواء، فنحن باستطاعتنا أن نراها.. لها جسد، وعينان، وأذنان، وأنف، وأرجُل وبطن. وقد تكون الفكرة ذكرًا أو أنثى. ولذا فهي تجري خلف الرجال والنساء على حسب الحال. ولذلك فقد جاء في الكتاب المقدس «**لقد تجسدتْ الكلمة**».

وراح يحدق إلى وجهي من جديد، لكنه أردف دون أن ينتظر جوابي:

- نظريتي الثالثة: إن هناك خلودًا حتى في حياتنا الزائلة. لكنه من الصعب جدًّا أن نكتشفه. فالمشكلات اليومية تبعده عن ذهننا. إن القليل، والقليل جدًّا يعيشون تلك الحياة الخالدة، حتى خلال حياتهم الزائلة. وبما أن الباقين سيموتون. فقد عطف الله عليهم وبعث لهم بالأنبياء والدين. وهكذا أصبح بإمكان عامّة الناس أن تعيش الحياة الخالدة أيضًا.

انتهى من سرد آرائه، وقد بدت الراحة واضحةً عليه بعدما تكلم. رفع عينيه الصغيرتين، وراح يحدق إليَّ بابتسامٍ وتَضرُّع، كأنه قد وهبني كل ما جناه طوال حياته من معرفة.

بدأت العبرات تترقرق في مقلتيه، وسألني مُمسكًا بيدي بين يديه، وهو يحدّق إلى عيني:

- ما الذي تقوله في آرائي؟!

وصمتَ منتظرًا جوابي الذي بدا بالنسبة إليه، مسألة حياة أو موت. فمِن جوابي سيعلم إن كان قد عاش كل هذه السنوات من أجل الإنسانية، أو أنها كلها قد ضاعت سُدى. كنت أعلم علم اليقين بأنه فوق الحقيقة يوجد واجب إنساني يجب تأديته. لذلك فقد أجبته:

- إن هذه الآراء قد تنقذ الكثير من الأرواح.

أشرق وجه الأسقف. فقد تأكد بأن حياته كانت تستحق. وقال بصوت خافت شادًّا على يدي بحنان:

- شكرًا لك يا ولدي.

عند ذلك وثب زوربا من زاويته قائلًا:

- أنا عندي نظرية رابعة.

فحدجته بنظرة قلقة. والتفت الأسقف ناحيته قائلًا:

- هيا يا ولدي قُل.. بارك الله آراءك.

- إن اثنين زائد اثنين، يساويان أربعة.

فنظر إليه الأسقف مستغربًا قوله، لكنّ زوربا أردف بجدية ودون اهتمام:

- وهناك نظرية خامسة: إن اثنين زائد اثنين، لا يساويان أربعة. هيا يا صديقي العجوز خُذ وقتك.. تستطيع أن تنتقي ما يناسبك منهما.

فهمس الأسقف بصوت خافت وهو ينظر نحوي:

- لم أفهم شيئًا.

فانفجر زوربا مقهقهًا:

- ولا أنا.

اتجهت نحو العجوز المسكين وحاولت تغيير مجرى الحديث:

- ما الأعمال التي تقوم بها هنا أيها الأسقف؟

- إني أعيد كتابة بعض المخطوطات الأثرية، أما في هذه الأيام فأنا أجمع جميع الأسماء التي وُصِفَت بها العذراء.

وأخذ نفسًا طويلًا:

- إني كبير في العمر، ولا أقدر أن أقوم بأي شيء آخر. فأشغل نفسي بجمع أسماء العذراء، لأنسى أوهام الدنيا ومشكلاتها.

وانحنى على الأريكة، وأغمض عينيه وراح يتمتم كأنه يهذي:

- الزهرة التي لا تذبل، الأرض الخصبة، الكرمة، العين التي لا تنضب، نبع العجائب، سُلّم السماء، طائر البحر، مفتاح الفردوس، الفجر، القنديل الأبدي، العمود المنير، البرج الصلب، القلعة المنيعة، السرور، عيون العميان، أُم اليتامى، المائدة، السلام، الثقة، العسل، الحليب...

عندها قفز زوربا قائلًا:

- إنه يهذي. هذا المغفل، سأضع عليه غطاءً حتى لا يصيبه البرد.

ورمى عليه بالغطاء وأصلح الوسادة متابعًا:

- سمعتُ أن هناك سبعة وسبعين نوعًا من الجنون، هذا هو الثامن والسبعون.

كان الصباح يتنفس في هذه الساعة، وسمعنا صوتَ دُفٍّ، فنظرت عبر النافذة الصغيرة، ولمحت من خلال نور الصباح الباهت راهبًا دقيق العود،

يضع على رأسه غطاءً أسود وهو يدور في الساحة ببطء، ناقرًا على الدف بعصا صغيرة صانعًا ألحانًا جميلة متناسقة. ملأ صوت الدف الجو الصباحي ليمتزج بعذوبة بأصوات العصافير المزقزقة، بعدما سكنت بلابل الليل.

ورحت أستمع، مأخوذًا بصوت الدف الساحر. ورحت أتساءل في نفسي:

«كيف يستطيع الإيقاع السامي، حتى في زمن الانحطاط، أن يحافظ على شكل الحياة رائعًا ومفعمًا بالنُّبل؟! إن الروح تغادر، فتترك مكانها الذي ظلت تملؤه لآلاف السنين واسعًا وخاويًا، مثل صدفة مهجورة.

إن الأديرة الكبيرة الجميلة التي نراها في المدن الضخمة الوثنية المليئة بالأصوات والجلبة؛ لهي أشبه بصدفات فارغة. مثل مسخ من زمن بعيد، هياكل فارغة، تتآكل بفعل الزمن والأمطار والشمس».

ثم سمعنا نقرًا على باب غرفتنا، وسمعنا صوت الأب المُضيف يتكلم من أنفه:

- هيا.. استيقظا من أجل قداس الصباح أيها الأخوان.

ووثب زوربا صائحًا بلا شعور:

- ما سبب طلقة النار بالليل؟

وصمت قليلًا بانتظار الجواب، إلا أن السكون خيّم على المكان من جديد. لكنّ الراهب كان لا يزال واقفًا خلف الباب، كنا نشعر بأنفاسه المتلاحقة، فلطم زوربا الأرض بقدميه مصممًا:

- إني أسأل عن طلقة ليلة أمس؟

عندها سمعنا خُطى الراهب تبتعد بسرعة. وبوثبة واحدة وصل زوربا إلى الباب وفتحه. وبصق على الراهب الذي فرَّ هاربًا:

- أنتم أيها الحمقى، أيها الرهبان، الكهنة، الراهبات، الأكليروس، السكرستانيون.. إني أبصقُ عليكم.

قلت لزوربا:

- هيا بنا.. إن رائحة الدم تفوح في المكان.

- لو كان دمًا فقط! ستتوجه أنت إلى القداس، أما أنا فسأبحث هناك، لِعلِّي أكتشف شيئًا.

فقلت مقطبًا:

- أرجوك، هيا بنا ولا تدس أنفك فيما لا يعنيك.

- لكني أودُّ أن أدسّه هنا.

وتأمَّل لحظة ثم علت وجهه ابتسامة مشرقة وقال:

- إن إبليس قد قدم لنا خدمة جليلة، وأعتقد أنه سيضع الأمور في نصابها. هل تعلم أيها الرئيس؟ إن هذه الطلقة ستكلف الدير سبع آلاف ليرة!

نزلنا إلى الساحة، حيث كانت تفوح رائحة الأزهار، وعذوبة الصباح، والفرحة الإلهية، وكان هناك زكريا بانتظارنا. هرع زوربا نحوه وأمسك بذراعه، فهمس الراهب مرتعشًا:

- أيها الأخ كانافارو، اقترب، هيا بنا!

- مِن أين جاءت الطلقة؟ لقد قُتِل أحدٌ ما، أليس كذلك؟ هيا تكلم قبل أن أقتلك!

كان فك الراهب يرتعش، وهو يتلفت حوله. لم يكُن في الساحة أحدٌ سوانا، والغرف لا تزال مغلقة، ومن باب الكنيسة كانت تأتي الأنغام السماوية. تمتم الراهب:

- هيا سيرا خلفي.. سَدوم وعَمورة.

عبرنا الساحة، ونحن نسير بمحاذاة الجدران، وخرجنا إلى الحديقة، وبعد حوالي مائة مترٍ كنا على مشارف المقابر، مشينا فوق القبور حتى بلغنا الكنيسة الصغيرة، دفع زكريا الباب ودخل، فدخلنا خلفه. فرأينا وسط الكنيسة جسدًا مُسجى يغطيه ثوب كاهن، وفوق كلٍّ مِن رأسه وقدميه شمعة تشتعل.

فهمست وأنا أرتجف:

- الراهب الشاب.. راهب الأب ديميتيوس.. الشاب الأحمر الشعر!

عند باب الكنيسة كان ينتصب القديس ميخائيل، غاضبًا، وجناحاه مفتوحان، مستلًّا حسامه، ومنتعلًا حذاءً أحمر.

صاح الراهب زكريا:

- أيها القديس ميخائيل ابعث بالنار واللهب، احرقهم عن آخرهم، أيها الملاك ارفس رفسة واحدة. واخرج من أيقونتك. استل حسامك واضرب! ألم تسمع طلقة النار؟

سأله زوربا وهو يمسكه من ذراعيه:

- مَن الذي قتله؟ ديمتيوس؟ تكلم أيها الراهب.

انفلت منه زكريا، وارتمى على قدميْ القديس، وصمت لحظة، ثم رفع رأسه وعيناه جاحظتان، وشفتاه متدليتان وكأنه ينتظر شيئًا ما.

وفجأة نهض وقد تملكه الفرح، وقال بصوت مُصمم:

- سأدمرهم، لقد تحرك القديس. لقد أشار إليَّ...

واقترب من الأيقونة، ولثم نصل الحسام وقال:

- ليباركك الله. لقد عادت الثقة إلى نفسي.

أمسك زوربا بالراهب من تحت إبطه وقال:

- هيا بنا يا زكريا. ستفعل ما آمرك به.

ونظر إليَّ قائلًا:

- هيا أعطني النقود، سأوقع الأوراق شخصيًّا، فكلهم ذئاب، أما أنت فنعجة، وسيأكلونك. دعني أقوم بهذا نيابة عنك. لا تقلق، إنهم بين يدي، هؤلاء الحيوانات القذرة. سننصرف عند الظهيرة والغابة في جيبنا.. هيا يا صديقي زكريا.

توجها خفية نحو الدير. وانصرفت بدوري لأتجول تحت أشجار الصنوبر. كانت الشمس قد صارت في كبد السماء، ونقط الندى تلمع فوق أوراق الشجر، وبقربي طار شحرور، وحط على شجرة كمثرى، ثم هز ذيله وفتح منقاره، والتفت نحوي وصفّر مرتين أو ثلاثة بازدراء.

كنت أرى عبر أشجار الصنوبر، الرهبان وهم يخرجون من الكنيسة صفوفًا، واضعين على أكتافهم أوشحة سوداء بعدما انتهت صلاة الصباح، ويتجهون الآن نحو قاعة الطعام. خاطبت نفسي: «**يا للخسارة.. أن يكون مثل هذا التقشف، ومثل هذا الإخلاص، بلا دافع أو روح**».

كنت مُنهك القُوى؛ إذ لم أنم طوال الليل، اضطجعت على العشب الأخضر، حيث تعبق الأزهار البرية في المكان، والحشرات تصيح جائعة وهي تنقض على الأزهار تمتص رحيقها. وفي البعيد كانت الجبال تنتصب غاضبة، ولكن دون دمدمة، كأنها كُتَل من الأبخرة المتحركة في أشعة الشمس المحرقة.

أغمضت عيني بتعب، وملأني فرح عظيم غامض، كأن المعجزة التي تحيط بي هي الفردوس بعينه. كأن هذا الانتعاش، وهذه العذوبة وهذه النشوة الغامرة، هي الرب بذاته. إن الرب يغير وجهه في كل ثانية. وكل مَن يتعرف عليه تحت أقنعته يكون سعيدًا جدًّا. فهو مرة كوب ماء بارد، ومرة أخرى طفل يلهو على ركبتيك، أو امرأة فاتنة، أو بكل بساطة نزهة صغيرة في الصباح.

رويدًا رويدًا، اختلط كل شيء حولي، ولكن دون أن يتغير شكله. فقد أصبح كل شيء حلمًا. كنت مسرورًا، فالأرض والجنة قد امتزجتا فأصبحتا قطعة واحدة. وظهرت لي الحياة، كما لو أنها وردة تحمل في قلبها نقطة من العسل، وبدت لي روحي كما لو أنها نحلة ترتشف هذا الرحيق بلذة وسرور.

وفجأة اندفعت بعنف خارج هذا الحلم اللذيذ، فقد سمعت خلفي وقع أقدام. وسمعت صوتًا يقول بفرح:

- أيها الرئيس.. إننا راحلون.

وجدتُ زوربا أمامي، وعيناه الصغيرتان تلمعان ببريق شيطاني. سألته باطمئنان:

- هل انتهى كل شيء؟

ردَّ زوربا وهو يضرب على جيب سترته الأعلى:

- أجل كل شيء قد انتهى.. إنها هنا. تلك الغابة. وها هي ذي السبع الآلاف ليرة. التي أخذَتْها لولا.

وتناول من جيبه رزمة أوراق نقدية قائلًا:

- تفضّل.. إني الآن أردُّ جميع ديوني، ولن أشعر بالخجل بعد ذلك أبدًا، إني أدفع لك ثمن الجوارب، والحقائب، والعطور، وحتى مظلة السيدة بوبولينا، وفستق الببغاء والحلوى التي جلبتها لك.

- هي لك هديةً يا زوربا.. هيا اذهب، وأشعل شمعةً للسيدة العذراء التي أهنتها.

التفت زوربا نحو الأب زكريا الذي كان يتقدم بقلنسوته الوسخة الخضراء ونعليه الباليين، وهو يسحب بغليْن من رسنهما، وأشار زوربا إليه برزمة النقود قائلًا:

- سنتقاسم هذا المبلغ.. يا يوسف. وستشتري بها مائة كيلو من السمك وتشبع نفسك يا صاحبي المسكين حتى تتقيأ.. هيا افتح يديك.

وأمسك الراهب برزمة المال ودسها في صدره قائلًا:

- سأشتري بنزينًا!

فهمس زوربا في أذن الراهب:

- يجب أن يكون الوقت ليلًا.. الجميع نيام.. والريح قوية. وعندها تصب البنزين على الجدران الأربعة، ولا تنسَ أن تكثر من البنزين فوق القماش والمسّاحات، وكل ما يقع تحت يدك، ثم تضرم النار.

كان الراهب يرتجف. وأردف زوربا:

- لا ترتجف هكذا يا صاحبي، إن القديس قد أمركَ بهذا. فما عليك إلا أن تصدع لأمره. عليك بالبنزين. وليوفقك الله.

اعتلينا المطيتين، والتفتُّ لألقي نظرة أخيرة على الدير، وسألت:

- هل استطعت أن تعرف ما الذي حدثَ يا زوربا؟

- تعني طلقة النار؟ لا تقلق، كان زكريا محقًّا.. سَدوم وعَمورة. لقد قتل ديمتيوس الراهب الصغير.. هذا كل ما في الأمر.

- ديمتيوس! لماذا؟

- لا تهتم للأمر أيها الرئيس، فهنا ليس إلا أوساخ وعفونة.

التفتُّ نحو الدير، كان الكهنة قد بدؤوا يخرجون من قاعة الطعام. أيديهم فوق صدورهم متجهين نحو غرفهم ليحبسوا أنفسهم فيها. فصاح زوربا:

- لتحلّ لعنتكم عليَّ أيها الآباء المقدسون.

١٩

وصلنا إلى الشاطئ ليلًا، وكانت السيدة هورتنس هي أول وجه نراه عند وصولنا، واقفةً أمام عتبة الكوخ تمسك قنديلًا. عندما نظرت إليها ارتجف جسدي. وسألتها:

- ماذا بك سيدة هورتنس؟ هل تشعرين بالمرض؟

فقد تخلت العجوز عن زينتها المزيفة وإغرائها المصطنع منذ اللحظة التي داعبتها فيها فكرة الزواج، وراودها ذاك الأمل الجميل، فراحت تبذل جهدها لتتخلص من الريش الملون الذي تبرجت به، والذي اغتنمته قديمًا من الباشوات والبكوات والأميرالات. لم تَعُد تريد إلا أن تصبح زوجة صالحة مستقيمة، فزهدت في تبرجها، وتركت نفسها على ما هي عليه.

لم يتفوه زوربا بكلمة، وراح يداعب شاربه بعصبية وانفعال، ثم ركع وأضرم النار في الموقد وأَعدَّ الماء لتحضير القهوة.

وفجأة علا صوت العجوز بقسوة:

- وحشٌ.. يا لك من فظ!

رفع زوربا رأسه، ونظر إليها وقد رقّت عيناه. كان لا يستطيع أن يقاوم صوت المرأة البائس وهي تكلمه. فتبدل بسرعة. إن دمعةً من امرأة قد تغرقه.

لكنه ظل صامتًا لا يتفوه بكلمة، وضع السكر والبُن وحرّك الماء، وهمست العجوز:

- لماذا تدعني أنتظر طويلًا ولم تتزوجني؟ أنا لم أَعُد أستطيع الظهور في القرية.. لقد فقدت كرامتي.. أشعر بالخزي والعار. سأقتل نفسي.

كنت قد اضطجعت مُتعبًا فوق السرير، وقد استندت إلى وسادتي لأتابع بمتعةٍ هذا المشهد الهزلي. وتابعتْ العجوز كلامها:

- لماذا لم تُحضِر أكاليل الزواج؟

أحسَّ زوربا بيد بوبولينا الثقيلة ترتاح على ركبتيه. لقد كانت هذه الركبة هي آخر مكان في الأرض تتعلق به هذه اليد، إنها البقعة الصلبة الأخيرة لهذه

الإنسانة المسكينة التي غرقت لها ألف سفينة وسفينة.

لا بد وأن زوربا قد أدرك هذا. لذلك فقد حنَّ قلبه. لم يتفوه بكلمة، وصب القهوة في فناجين ثلاثة لكنها كررت بصوت مرتعش:

- لماذا لم تُحضِر الأكاليل يا حبيبي؟

- لم أجد في كانديا أكاليل تليق بك.

وقَدَّم لكل منا فنجانه وجلس في الزاوية وأردف:

- لقد أرسلتُ إلى أثينا، ليبعثوا إلينا أكاليل رائعة، وكذلك بعض الشموع البيضاء، وملبسًا مُغطى بالشوكولا ومحشوًّا باللوز.

كان كلما ازداد في الكلام، ازدادت مخيلته اتساعًا. مأخوذًا وعيناه تلمعان كأنه شاعر يستقبل الوحي، يحلق في الأفق الرحب الذي تمتزج فيه الخيالات والحقائق كأنهما أختان. كان جالسًا مستريحًا في الزاوية يشرب قهوته بصوت مسموع، تناول سيجارة ثانية وأشعلها مسترخيًا، فقد كان اليوم رائعًا بالنسبة إليه؛ إذ حصل على الغابة، وسدد ديونه. أرخى العنان لخياله قائلًا:

- يجب أن يصبح زواجنا حديث الدنيا.. انتظري حتى تَرِي فستانَ العُرس الذي أعددته لك! لهذا السبب تأخرت في كانديا كثيرًا يا حبيبتي، فقد أحضرتُ خياطتيْن مشهورتيْن من أثينا، وقلت لهما: «**إن السيدة التي سأتخذها زوجة لي، لا شبيه لها، لا في الشرق ولا في الغرب. لقد كانت ملكة الدول الأربع، لكنها الآن أرملة؛ إذ إن هذه الدول جميعها قد ماتت، ولهذا فقد قبلتني زوجًا لها. أريد لفستان الزفاف أن يكون مذهلًا لا مثيل له، يجب أن تسعد برؤيته، أريده مصنوعًا من الحرير، تزينه اللآلئ، ونجوم ذهبية تبرق!**». فصاحت الخياطتان بصوت مرتفع: «**إن هذا سيجعل الثوب رائعًا حقًّا، لكنه سيعمي عيون جميع المدعوين**». فقلت: «**لتُعمَى عيونهم، لا يهمني.. لكن بشرط أن تكون حبيبتي مسرورة**».

كانت السيدة العجوز تستمع، مُتكئة إلى الحائط، تعلو شفتيها ابتسامةٌ عريضة زادت من تجعُّد وجهها، حتى إن الشريط الذي يلف عنقها كاد ينقطع من شدة انفعالها. وهمست وهي ترمي زوربا بنظرة أتعبها الانفعال:

- أودُّ أن أقول لك شيئًا في أذنك.

غمز لي زوربا بطرف عينه وانحنى لها. فدفعت العجوز بلسانها في أذنه المغطاة بشعر كثيف:

- لقد أحضرتُ لك شيئًا هذا المساء.

وأخرجت من صدرها منديلًا قد عقدت إحدى زواياه وقدمته لزوربا. تناول زوربا المنديل ووضعه على ركبته، ثم التفت نحو الباب وراح يحدق إلى البحر، لكنها استعجلته قائلة:

- ألن تفك العقدة؟ ألا تتعجل معرفة ما فيه؟

- اتركيني أولًا أكمل قهوتي وسيجارتي، لقد حزرت ما بداخله.

- أرجوك فك العقدة.. فك العقدة.

- سأنتهي من سيجارتي.. كما قلت لك أولًا.

وحدجني بنظرة توبيخ كأنه يقول لي: «**كل هذا بسبب فِعلتك**».

كان يمج سيجارته بهدوءٍ وبطءٍ، وينفث الدخان من منخريْه محدقًا إلى البحر. وأخيرًا قال:

- غدًا ستهب ريحٌ قوية، لقد تغير الطقس، ستمتلئ الأشجار، وكذلك صدور الفتيات، ستمتلئ وتفيض داخل مشداتها، أيها الربيع فلتذهب إلى الجحيم، فالشيطان هو الذي صنعك.

وسكت وبعد قليل أردف:

- إن كلَّ شيءٍ جميلٌ ورائعٌ في هذه الدنيا قد خلقه الشيطان: الفتيات الجميلات، الربيع، الخنازير المشوية، والخمر، كل هؤلاء خلقهم الشيطان. أما الرب الطيب فقد خلق الرهبان، والصوم، وشاي البابونج، والفتيات القبيحات.. أف. أف.

وبينما كان يقول هذا، حدجَ السيدة هورتنس التي كانت تستمع إليه بنظرة حادة، وهي جالسة في الزاوية. وفي كل لحظة كانت تتضرع إليه:

- زوربا.. زوربا..

لكنه أشعل سيجارة ثانية، وراح يتأمل البحر مرة أخرى، ثم قال:

- تصبح للشيطان السيادة في الربيع، تُرخى الأحزمة، وتُفك أزرار القمصان، وتُطلِق النساء التنهيدات.. ايه.. أبعدي يديك يا بوبولينا!

فتضرعت العجوز من جديد:

- زوربا.. زوربا.

ألقى بسيجارته، فانحنت السيدة وتناولت المنديل ودسته في يد زوربا. فأمسك بالعقدة وحلّها. وراح يحدق إلى يده بازدراء وقال:

- ما هذا يا سيدتي؟

- خاتمان صغيران يا حبيبي.. خاتما الخطبة، والشاهد موجود، والليل ناعم، والرب الطيب ينظر إلينا، فلنعقد خطبتنا يا زوربا.

كان زوربا ينقل نظره بيني وبينها، وبين الخاتمين. والشياطين بأجمعها تتعارك داخله، دونَ أن يحسم أحدها المعركة. بينما العجوز المسكينة تحدق إلى وجهه مرتعدة وتتمتم:

- زوربا.. زوربا.

نهضت من رقدتي، ورحت أنتظر بفارغ الصبر، تُرى أي الشياطين سينتصر، وأي طريق سيختار. وفجأة حرّك زوربا رأسه بقوة. لقد قرر أخيرًا، ولمعت عيناه وصفق بيديه وقفز:

- لنخرج، هناك تحت الكواكب. كي يشاهدنا الرب الطيب. أيها الرئيس، خذ الخاتمين. هل تعرف كيف تُنشد؟

فأجبته بسرور:

- كلا. لكن سأحاول.

وثبتُ من سريري، وساعدت السيدة هورتنس على القيام. وقال زوربا:

- لا بأس، أنا أعرف، لقد نسيت أن أخبرك أني كنت في كورس الكنيسة. كنت أسير خلف الكاهن في حفلات الزفاف والعماد، ومراسيم الموتى وقد حفظت أناشيد الكنيسة. تعالي يا عزيزتي، تعالي يا حبيبتي، ارفعي أشرعتك يا بارجتي الفرنسية، هيا إلى يميني.

من بين كل شياطين زوربا، انتصرَ الشيطان المهرج طيب القلب ذو النفس الصافية أخيرًا. شعر زوربا بالعطف نحو العجوز. وكاد قلبه يتمزق عند رؤية نظرتها المتوسلة الواهنة. وتمتم حاسمًا أمره:

- إلى الجحيم، فأنا ما زلت قادرًا على إدخال السعادة إلى قلب الجنس اللطيف.

وأسرع نحو البحر، ممسكًا بذراع السيدة العجوز، وناولني الخاتمين. والتفت نحو البحر وهو ينشد:

- ليتبارك إلهنا إلى أبد الآبدين. آمين.

ونظر إليَّ قائلًا:

- قُم بعملك أيها الرئيس.

- أنا لست الرئيس هذه الليلة. أنا عرّابك.

- حسنًا انتبه أيها الرئيس عندما أصيح: «**هو هي. هو هي**» تضع في إصبعينا الخاتمين.

وراح ينشد بصوته الغليظ الذي يشبه نهيق الحمار:

- لأجل عبد الرب، ألكسيس، ولأجل أَمَة الرب هورتنس، اللذين عُقِدَت خطبتهما، ولأجل سلام نفسيهما. نتوسل الرحمة أيها السيد.

ورحت أتمتم خلفه وأنا أجاهد ضحكي ودموعي:

- ارحم يا رب.. ارحم يا رب...

وقطع زوربا صلاته قائلًا:

- لا شك بأن هناك أناشيد أخرى، ولكن لتُنصب مشنقتي إن كنت أذكرها، لكن أظن بأن هذا يكفي.

ووثب في الهواء بشكل دائري وصرخ:

- هو هي. هو هي.

والتفت نحو العجوز:

- مُدِّي يدكِ أنت أيضًا يا سيدة قلبي.

وامتدت اليد الثقيلة، التي شققتها كثرة الأعمال المنزلية والغسيل، مرتعشة. وألبستهما الخاتمين، بينما صرخ زوربا مأخوذًا بلا شعور:

- عبدُ الله ألكسيس عقدَ خطبته على أَمَة الله هورتنس، باسم الآب والابن والروح القدس. آمين. أَمَة الله هورتنس عقدت خطبتها على عبد الله ألكسيس.

ومِن ثَم قال:

- لقد تمّ كل شيء يا عزيزتي. تعالي كي أُقبّلك أول قُبلة شريفة في حياتك.

لكنّ السيدة هورتنس كانت قد أنهكها التعب. فارتمت على ركبتيها وأمسكت بساقيْ زوربا، وأجهشت بالبكاء. وحرّك زوربا رأسه مشفقًا وهمس:

- يا للنساء المسكينات!

وقفت السيدة هورتنس وأصلحت من شأنها. ومدت ذراعيها. فصاح زوربا:

- هي..هي.. إنه الثلاثاء المقدس.. احتشمي وتعقّلي.. إنه الصوم.

فهمستْ بشوق وانفعال:

- زوربا.. زوربا.

- كوني صبورًا يا حبيبتي، يجب أن تنتظري حتى عيد الفصح، حتى نستطيع أن نأكل اللحم والبيض. أما الآن فقد حان الوقت لكي تعودي إلى البيت. فما الذي سيقوله الناس إن رأوكِ تتسكعين في مثل هذا الوقت!

ونظرت إليه متوسلة، متضرعة. لكنّ زوربا أردف:

- قلت لكِ اصبري حتى الفصح.. هيا.. تعالَ معنا أيها الرئيس.

واقترب من أذني وقال:

- لا تتركنا وحدنا، كرامةً للرب، فأنا على غير استعداد.

رحنا نمشي في طريق القرية، كانت السماء غاضبة، ورائحة البحر عابقة، وطيور الليل تصرخ، بينما استسلمت السيدة العجوز لزوربا، يقودها من

ذراعها. سعيدة، وحزينة.

لقد وصلت أخيرًا إلى المرفأ الذي طالما تمنت الوصول إليه، لقد غنّت ورقصت وتعهّرت طوال حياتها. كانت تهزأ من النسوة الشريفات، لكنها لم تكُن مسرورة قط. عندما كانت تسير في شوارع بيروت والإسكندرية والقسطنطينية، وتشاهد النسوة ترضعن أطفالهن، كانت تشعر بالخدر يسري في صدرها، فهي تريد أيضًا فمَ طفلٍ صغير. كانت طوال حياتها تفكر وتتمنى: «**أريد أن أتزوج.. أن أنجب طفلًا**». لكنها لم تبُح بآلامها ولم تُطلع أحدًا على سرها الدفين. أما الآن، وبإرادة الله، وبعد وقت طويل، وصلَت إلى مينائها الأخير، مُحطمة، مُهمشة، وقد خَلَّعَتهَا الأمواج المتلاحقة التي علتها ألف ألف مرة. كانت، من وقت لوقت ترفع رأسها لتنظر إلى ذلك المارد القوي، الذي يقودها بيده، وتخاطب نفسها قائلة: إنه ليس باشا ثريًّا، ولا يضع على رأسه طربوشًا ذا شرابة ذهبية، وهو ليس واحدًا من أبناء البكوات، لكنه على كل حال، أفضل من لا شيء، ليتبارك الله، سيكون زوجي، زوجًا حقيقيًّا!

كان زوربا يحس أنها تُلقي بكل ثقلها عليه، وهو يسحبها مستعجلًا الوصول إلى القرية ليتخلص منها. كادت العجوز تهوي أكثر من مرة فوق الحصى، وأظافر رجلها تكاد تغرز في لحمها، لكنها لم تتفوه بكلمة. ولماذا تتكلم أو تشتكي، فقد تحقق ما تمنته طيلة عمرها.

كنا قد تجاوزنا شجرة الآنسة وحديقة الأرملة، وبدا لنا أول بيت في القرية وتوقفنا عن السير، وانتصبت العجوز على أطراف قدميها بغنج ودلال محاولة الوصول إلى شفاه خطيبها قائلة:

- ليلة طيبة، يا حبيبي.

لكنّ زوربا لم يتجاوب معها. فهتفتْ، وهي مستعدة للركوع على ركبتيها:

- هل أرتمي على قدميك لأقبلهما يا حبيبي؟

فردَّ زوربا مستنكرًا، وقد تناولها بين ذراعيه:

- لا.. لا، بل أنا مَن يجب عليَّ أن أرتمي على قدميك يا عزيزتي، ولكني أشعر بتعب الليلة. ليلة طيبة.

تركناها هناك، وعدنا أدراجنا بسكون، محاولين جهدنا استنشاق هواء الليل الرطب العبق. وفجأة نظر إليَّ زوربا قائلًا:

- ما الذي أفعله الآن؟ هل أقهقه أم أبكي؟ أخبرني.

لكني لم أرد عليه، فقد كنت بدوري أشعر بجفاف في حلقي، ولا أدري سببًا، أهو البكاء أم الضحك؟

وفجأة تكلم زوربا:

- أيها الرئيس، هل تذكر ماذا كان يُسمَّى ذلك الإله النذل الذي كان لا يترك امرأةً تحزن؟ لقد سمعت عنه شيئًا. أظن أنه أيضًا كان يصبغ لحيته وشاربه، وينقش على ذراعيه وشومًا من القلوب والسهام، والعاهرات، ويستطيع أن يختفي تحت أي قناع يريده، ثور، خروف، طير أو حتى حمار. هل تذكر ماذا كان يُسمَّى؟

- أظن أنك تتكلم عن زيوس. ما الذي جعلك تفكر فيه؟

فرفع زوربا ذراعيه نحو السماء وقال:

- لتكن الأرض خفيفة عليه! لكم تعبَ وقاسَى كثيرًا، إنه ضحية كبيرة. لك أن تصدقني أيها الرئيس! فأنا عندي فكرة حول هذا الموضوع. أنت تلتهم كل ما تقوله كتبك، إلا أن الذين يؤلفونها منافقون.. فما الذي يعرفونه عن النسوة، وعن الرجال الذين يسعون خلفهن؟ يا لهم من أغبياء!

فأجبته هازئًا:

- لماذا لا تؤلف أنت كتابًا يا زوربا، وتشرح لنا حقيقة هذا العالم؟

- أكتب؟! لا. لأني قد عرفت سرَّ هذا العالم، فليس لديَّ الوقت لأكتب عنه. أنا أعيشه.. مرة النساء، ومرة الحرب، وأخرى الخمر، السانتوري. فأين لي بالوقت الكافي لأمسك بالقلم لأكتب أشياء ليست لها معنى؟ الكُتّاب الفارغون الذين لديهم كل الوقت هُم مَن يقومون بمثل هذا. مَن يعيش الحياة وأسرارها، لا وقت لديه ليكتب عنها. ومَن عنده الوقت، لا يعيش مثل هذه الأسرار. هل تفهم ما أعنيه؟!

- دعنا نعود لموضوعنا، ما قضية زيوس؟

تنهد زوربا قائلًا:

- آه المسكين! أنا أشعر فقط بقدر معاناته، وكم قاسى. النساء سر معاناته.. لقد كان مغرمًا بهن. ولكن ليس كما تتخيلون أنتم الكتاب والمؤلفون، أبدًا. فقد كان يشاركهن آلامهن، يعطف عليهن، ويُضحِّي بنفسه من أجل سعادتهن. فعندما كان يسمع، بامرأة في أي جحر من جحور الأرض، عانس تعاني الرغبة والندم على فوات عمرها، أو فتاة صبية، أو عروس جميلة، تشعر بالرغبة القاتلة، بسبب غياب زوجها، وربّي، حتى ولو كانت قبيحة، أو وحشًا.. كان يرسم علامة الصليب ذلك الرجل العظيم، ويغير ثيابه ويتنكر بالشكل الذي تحبه تلك المرأة، ويدخل إلى غرفة نومها. بالطبع لم يكُن دائمًا في حالة تسمح له بالحب، وكان غالبًا ما يفشل. فكيف يكفي مثل هذا التيس لكل هذا العدد من النعاج؟! فقد كان مُستنزفًا، لا يقدر أن يقوم بأي شيء. هل شاهدت مرة تيسًا ضاجع عدة نعاج، فيصبح بعدها منهكًا، يسيل اللعاب من بين شفتيه، يلهث، وعيناه سوداوان بائستان، يكح من التعب، حتى لا يكاد يستطيع الوقوف على رجليه. هو كان غالبًا ما يكون على مثل هذه الحال المحزنة.. مسكين زيوس. وعند الصباح كان يعود إلى بيته وهو يقول: «**آه يا رب متى سيكون لديَّ الوقت الكافي لأنام ملء جفوني. فأنا لم أَعُد قادرًا على الوقوف**». ويتابع مسح الريق عن شفتيه، لكنه فجأة يتناهى لمسمعه صوت بكاء وأنين، وغالبًا ما يكون آتيًا من الأرض. امرأة طرحت أغطية فراشها وخرجت للشرفة نصف عارية، تزفر بتنهيدة يمكنها أن تحرك شراع سفينة، فيشفق العجوز زيوس عليها ويهمس بتعب: «**يا لشقائي، عليَّ أن أهبط ثانية إلى الأرض. فهناك امرأة تندب حظها، ويجب أن أواسيها**». وظل هكذا حتى أفرغته النساء تمامًا، وتهشم صلبه فلا يستطيع أن يقيم ظهره، وبدأ يتقيأ، وأصيب بالشلل ومات. ثم جاء بعده وريثه الإلهي: المسيح. وعلم بما آل إليه حال العجوز زيوس المسكين. فصاحَ «**تجنبوا النساء**».

أعجبت جدًّا بروح زوربا المرحة، وانفجرت ضحكًا. فقال:

- لك أن تضحك أيها الرئيس، ولكن إذا قدر الرحمن أو الشيطان، أن ننجح في عملنا، وأظن أن هذا صعب، هل تعلم ما الذي سأفعل؟ سأفتح دكانًا، وكالة زواج، عندها ستهرع النساء إليَّ بكثرة، تحديدًا

المسكينات منهن.. العوانس، البشعات، والمعقدات، وذوات العين الواحدة، والحدباوات. وسأرحب بهن في صالة استقبال صغيرة، جدرانها مزينة بصور شبان وسيمي الطلعة، وأقول لهن: «**اخترن يا سيداتي المحترمات، هيا اخترن، وسأقوم أنا باللازم ليصبح فعلًا زوجًا لكُنّ**». وبعد ذلك سأحاول أن أجد أيَّ شابٍّ، يشبهه قليلًا، وأجعله يرتدي الثياب التي في الصورة، وأنفحه مبلغًا من المال وأزوده بالمعلومات اللازمة: الشارع، رقم المنزل. ثم أقول له: «**اسأل عن هذه السيدة، وعرّفها بنفسك. ولا تتقزز منها فأنا مَن يدفع، ضاجِعها، وغازلها بكلمات لم تسمعها قط، تلك المخلوقة التعيسة، واحلف لها بأنك ستتزوجها. اجعلها تشعر باللذة، تلك اللذة التي تحظى بها النعاج وحتى الحشرات ذوات الأرجُل العشرة!**». وإذا حضرت يومًا ما، سيدة عجوز، من نوع بوبولينا، ولم يقبل أي إنسان أن يواسيها، فسأضطر إلى أن آخذ الأمر على عاتقي، فأرسم علامة الصليب، أنا مدير الوكالة وصاحبها بنفسي. وقد يقول بعض الأغبياء: «**انظروا إلى هذا العجوز الخسيس. أليست له عينان لينظر؟ أليس له أنف ليشم؟**». أجل يا معشر الحمير، لي أعين ولي أنف، لكنّ لي أيضًا قلبًا. وإني أعطف عليها. فعندما يكون لدى الإنسان قلبٌ، تصبح لديه كل العيون والأنوف التي يتمناها، لكنه يرمي بها جميعًا في الهواء.

وعندما أفرغ أنا أيضًا ويتحطم صلبي، وأصبح عاجزًا ومشلولًا. فإن القديس بطرس، الذي يحمل مفاتيح الفردوس، سوف يرحب بي قائلًا: «**هيّا أيها التعيس ادخل، ادخل أيها الضحية الكبرى زوربا. اذهب لتجلس بجوار أخيك زيوس، خُذ قليلًا من الراحة أيها البطل. فقد أجهدت نفسك كثيرًا فوق الأرض، فلتتبارك روحك**».

واصل زوربا كلامه، تاركًا مخيلته تنصب له فخاخًا يسقط فيها، فقد أصبح يعتقد بالقصص التي يرويها ويصدق نفسه. وعندما اقتربنا من تينة الآنسة أرسل زفرة عميقة، مادًّا يديه كأنه يقسم وهو يقول:

- لا تخافي يا عزيزتي، يا بوبولينتي، يا سفينتي المتهالكة العجوز، لا تقلقي سأواسيك ولن أتخلى عنك، فإن كانت الدول الأربع الكبرى قد تخلت عنكِ، وهجرك الشباب وحتى الرب الرحيم نفسه، فإن زوربا لن يتخلى عنكِ أبدًا.

أخيرًا وصلنا إلى الشاطئ، كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، والرياح تعصف من بعيد، من هناك، من إفريقيا، حيث تأتي رياح الجنوب الدافئة، التي تجعل الكرمة تنضج، وتجعل أثداء كريت تمتلئ وتفيض، دبت الحياة في الجزيرة بأجمعها وهي ترقد بجوار البحر تستقبل الرياح الدافئة، التي تحرك الجذور. وامتزج زوربا مع زيوس ورياح الجنوب. ورأيت بوضوح عظيم، من خلال الظلام، وجهًا ضخمًا، ذا لحية سوداء، وشعرًا أسود يتلألأ كالزيت، يقترب بشفاه حمراء دافئة إلى السيدة هورتنس، الأرض.

٢٠

وصلنا إلى الكوخ، ارتمينا فوق فراشينا مباشرةً، وفرك زوربا يديه بسرور قائلًا:

- لقد كان يومنا موفقًا أيها الرئيس، وأظنك ستسألني ماذا أقصد بموفق؟ تأمَّل قليلًا: ففي الصباح كنا هناك في الدير، عند الشيطان، وخدعنا رئيسه، لعله يلعننا الآن! وبعد رجوعنا، وجدنا السيدة هورتنس فخطبتها، ألقِ نظرة على هذا الخاتم، كانت تقول إنها تمتلك ليرتيْن من الذهب، أعطاها لها الأميرال الإنكليزي قبل رحيله في نهاية القرن الماضي، وكانت تحتفظ بهما من أجل مراسم دفنها، فإنها وجدت من الأحسن أن تعطيهما للصائغ ليصنع منهما الخاتمين، إنهما من الذهب الجيد. يا لهذا الإنسان مِن سرٍّ مُحيِّر.

- حاول أن تنام يا زوربا. هدِّئ نفسك. يكفي ما لاقينا اليوم، فغدًا عندنا عمل واحتفال كبير، سنضع أول عمود من المصعد. وقد طلبتُ من الأب إسطفان أن يحضر تدشين المصعد.

- حسنًا فعلتَ، فهذا مفيد جدًّا. أجل يجب أن يحضر الكاهن، ذو اللحية التي تشبه إلى حد بعيد لحية التيوس. وليحضر أيضًا أشراف القرية ووجهاؤها. ويجب أن توزع عليهم بعض الشموع الصغيرة ليشعلوها، فهذه المظاهر ستترك أثرًا طيبًا، وسيكون ذلك لصالحنا. لا تكترث بما أقوم به، فأنا لي شيطانٌ وربٌّ خاصَّان بي. إلا أن الناس...

وغرق في الضحك. ولم يغمض له جفنٌ، كان رأسه يغلي بأفكاره. وبعد قليل قال:

- آه يا جدي الشيخ.. طيّب الرب ثراك، لقد كان عاهرًا، هو الآخر، مثلي تمامًا.. ومع ذلك فقد ذهب إلى القبر المقدس وأصبح «**حاجًّا**». وغيرُ الله لا يعلم لماذا. بعدما رجع إلى القرية، قال له أحد أصدقائه، وكان صديقه هذا لصًا للغنم، لم يقم بعمل شريف في حياته: «**هل جئت لي بقطعة من الصليب المقدس**». فأجابه جدي: «**بالتأكيد. هل تظن أني نسيتك أيها الصديق. تعالَ هذا المساء إلى منزلي وأحضِر معك الكاهن، وبعض**

الخمر، وخنزيرًا مُحمرًا. لنحتفل بقطعة الصليب المقدس». وفي المساء، رجع جدي إلى منزله وقطع من أحد الأبواب القديمة التي نخرها السوس، قطعة صغيرة جدًّا من الخشب بحجم حبة الأرز، وصب عليها قليلًا من الزيت، ولفها بالقطن وقطعة من القماش، وجلس ينتظر. وبعد قليل حضر صديقه والكاهن ومعهما الخمر والخنزير، وقام جدي بمراسم تسليم القطعة المقدسة، ثم انهالوا على الخنزير، يلتهمونه. لك ألا تصدقني أيها الرئيس، ولكن الشريك خرَّ ساجدًا أمام القطعة الخشبية وعلقها بعنقه. ومنذ ذلك اليوم تغير وأصبح إنسانًا آخر.. ذهب إلى الجبل وانضم إلى الثوار وشارك في إحراق قرى الأتراك، وكان يخوض المعارك ويهاجم بشجاعة وبسالة، تحت وابل من الرصاص. فمِّمَ يخاف وفي عنقه قطعة من الصليب المقدس؟ فلن يستطيع الرصاص أن يخترق جسده.

وانفجر زوربا في الضحك من جديد، وأردف:

- إن كل شيء يكمُن فيما تعتقد، إذا كنتَ مؤمنًا، فإن قطعة خشب من باب قديم تصبح حجابًا مُقدسًا. وإن لم يكُن لديك هذا الإيمان، فإن الصليب المقدس كله يصبح إطارًا لبابٍ خشبي قديم!

كم دُهِشتُ من هذا الرجل! الذي يُعمِل عقله بهذه الثقة والجرأة، والذي تقدح نفسه شررًا حيثما لمسها أي شيء. سألته:

- هل اشتركت في الحرب يا زوربا؟

- أي حرب تقصد؟

- أقصد هل قاتلت من أجل الوطن؟

- أرجو أن تغير هذا الموضوع. هذه السخافات المنسية، هراء!

- هراء؟ ألا تستحي؟ أهكذا تتكلم عن الوطن؟

نهض زوربا رافعًا رأسه. وفتّل شاربيه، كان قنديل الزيت يشتعل فوقي، فحدق إلى وجهي مليًّا بفظاظة وقال:

- اعذرني أيها الرئيس، رغم أني أحترمك كثيرًا، فإنك لا تزال ساذجًا ومدّعيًا، وكل ما أقصه عليك تأخذه على سبيل المزاح، وقد أندم على

كل ما أخبرتك به.

- لا.. لا، كيف هذا. أنا أفهمك تمامًا يا زوربا.

- أجل. إنك تفهم بعقلك فقط. فأنت تقول: «**هذا عادل وهذا ظالم، هذا هكذا. وذاكَ هكذا.. صحيح أو خطأ**». ولكن ما الذي نستفيده من هذا؟ فعندما تتكلم انظر إلى يديك وصدرك فأجدهما ساكنيْن لا يتحركان، كأنه لا يوجد بهما نقطة من دم واحدة. إذن فبأي شيء تفهم؟ بعقلك؟! هه؟

فصرخت محاولًا إثارة أعصابه:

- هيا تكلم يا زوربا، ولكن بوضوح، فإنك تحاول التهرُّب أظن بأنك لا تهتم كثيرًا بالوطن، أيها الجبان!

فاستشاط غضبًا وضرب الحائط برجله، حتى اهتزت الصفائح المعدنية لضربته، وقال بغضب:

- أنا؟! لقد جدّلت بشعري، صورة القديسة صوفيا فوق قطعة من قماش.. أنا، بيديّ هاتين الضخمتين. وعلقتها برقبتي متدليةً حتى صدري، كحجاب، جدلتها من شعري الأسود الفاحم، كنت أطوف الجبال مع «**بافلوس ميلاس**» الذي حارب البلغاريين في جبال مقدونيا، يومها كنت ماردًا ضخمًا يزيد ارتفاعي على هذا الكوخ. كنت أرتدي الزي الوطني، والطربوش الأحمر، وسلسلة الساعة الفضية، وأسلحتي، وسيفي، وأمشاط الذخيرة، ومسدساتي. يغطيني، الفولاذ، والفضة، والمسامير، وعندما أسير تنبعث الضجة من خطواتي، كأن جيشًا كاملًا يتحرك. انظر.. انظر.

وفتح قميصه وفك سرواله وقال بلهجة قاسية:

- قرِّب القنديل!

قربت القنديل من الجسد النحيل.. ندبات عميقة، آثار رصاص، ضربات سيوف. لقد كان جسده كأنه مصفاة معدنية.

- والآن انظر إلى ظهري.

وأدار ظهره.

- انظر إلى ظهري، دَقِّق، حتى ولا خدش بسيط. تدرك ما أعنيه! أبعِد القنديل الآن.

وهمهم بغضب وانفعال:

- هراء.. سخافات يا صديقي، إلى متى سيبقى الإنسان هكذا؟ متى يصبح الإنسان إنسانًا حقًّا؟! فنحن نرتدي السراويل والقمصان الأنيقة، والقبعات، لكننا نظل حيوانات.. بغالًا، ذئابًا، خنازير. ثم نزعم أننا على صورة الرب. مَن؟ نحن؟! يا للهراء!

كان يتكلم والذكريات القاسية المخيفة تجتاح ذاكرته، فيثور، ويتملكه الغضب، ويصر على أسنانه الفارغة بكلمات غير مفهومة.

ووقف، وتناول جرة الماء، وأخذ جرعات طويلة، مما أطفأ قليلًا ظمأه وغضبه. فعاد الهدوء إليه قليلًا، وقال:

- إذا لمستني.. فإني أصرخ. فجسدي مغطى بالجروح والندبات. ستسألني عن ولعي بالنساء! أنا عندما أحسست بأني رجلًا حقًّا، تركت ملاحقة النساء. ألمسهن، لوقت، ومِن ثَم أتخلى عنهن تمامًا. وأحدث نفسي: «**يا للخادعات الفاسقات. فهنّ يأملن أن يمتصصن صلبي، أفٍ لهنّ. الأجدر أن تعلق مشانقهن**». إذن، فقد حملت أسلحتي، وتطوعت في المقاومة كجندي غير انتظامي. وفي أحد الأيام، وصلت إلى إحدى القرى البلغارية، واختفيت في إسطبل بمنزل راهب هناك، وكان هو أيضًا من رجال العصابات الأشداء، وحشًا كاسرًا. فقد كان خلال الليل يخلع ثوبه الكهنوتي ويرتدي ثياب الرعاة، ويتمنطق بسلاحه ويتوجه نحو القرى اليونانية. ويعود قبل الفجر، ملوثًا بالدم والوحل، ليقوم بصلاته، وكان قبل مجيئي إليه قد قتل مُعلمَ مدرسة يوناني وهو نائم في فراشه. دخلت إلى إسطبل الراهب، وفي المساء دخل الراهب الإسطبل ليعلف بقرتيْه، فهاجمته.. ذبحته من الوريد إلى الوريد، وبترت أذنه ووضعتها في جيبي؛ إذ إني كنت وقتها أجمع الآذان البلغارية. وبعد أيام قليلة، تركت سلاحي في الجبل، ونزلت إلى القرية نفسها، متنكرًا بثياب بائع جوّال، لأبتاع بعض المؤن والأحذية لزملائي. وقرب أحد المنازل، شاهدت خمسة أولاد، في ثياب الحِداد، يمسكون أيدي بعضهم ويتسولون، ثلاث بنات وولدان.

أكبرهم لم يتجاوز العاشرة، وأصغرهم كان لا يزال رضيعًا، تحمله أخته الكبيرة على صدرها وتداعبه كيلا يبكي. لا أدري كيف سألتهم، ولا شك بأنه كان وحيًا ربانيًّا: «**أولاد مَن أنتم يا صغاري؟**» فقالوا: «**نحن أولاد الراهب الذي ذبحوه منذ أيام في الإسطبل**». ملأت الدموع عيني، ودارت بي الأرض، فاتكأت على الجدار، حتى لا أسقط. ثم دعوتهم: «**اقتربوا يا صغاري**». اقتربوا مني، فتناولت محفظة نقودي، كانت منتفخة بالليرات التركية والذهبية، فركعت على ركبتي وأفرغتها على الأرض قائلًا: «**هيا.. خذوها.. خذوها كلها**». وألقى الأطفال بأنفسهم على الأرض، يلملمون الليرات وأنا أهتف: «**إنها لكم جميعًا**» وتركت لهم أيضًا السلّة الملآنة بالطعام وأنا أقول: «**هذا أيضًا لكم**». وعدت لنفسي وتمالكت أعصابي، وتركت القرية، وخلعت حجاب القديسة صوفيا ومزقته وطوّحتُ به في الهواء ـ ورحت أركض ـ ولا أزال أركض حتى الآن.

واتكأ زوربا إلى الجدار، ونظر إليَّ مستطردًا:

- وهكذا تحررت.

- تحررت من الوطن؟!

- أجل من الوطن.

وبعد قليل قال:

- تحررت من الوطن، ومن الراهب، ومن المال. فأنا أغربل نفسي كلما تقدم بي السن، أنظف نفسي. كيف أشرح لك؟! فأنا أتحرر لأصبح إنسانًا من جديد.

كان بريق غريب يكتنف زوربا، وشفتاه الواسعتان تنمان عن ابتسامة صامتة. وبعد وقت من الصمت، عاد للكلام. قلبه مليء بالشجن، فلم تَعُد لديه قدرة على مكابدة الصمت:

- لقد مر عليَّ وقت، كنت أقول فيه، هذا تركي، يوناني، بلغاري. ومن أجل الوطن قمت بأعمال شنيعة، مخيفة. أحرقت القرى، اغتصبت النساء، وذبحت عائلات بأكملها. ولماذا؟ فقط لأنهم بُلغار أو أتراك! كنتُ كثيرًا ما أُحدِّث نفسي وأنا أذبحهم قائلًا: «**فلتذهبي إلى جهنم أيتها**

النفس الخسيسة، أيتها الغبية». أما الآن فأقول: «**هذا شجاع وذاك جبان**» ربما كان بلغاريًّا أو تركيًّا، إني لا أفرق بينهما فكل ما أسأل عنه اليوم: هل هو طيب أم شرير؟ بل وأكثر من هذا، فأنا اليوم لم يَعُد يهمني إن كان طيبًا أو شريرًا. فأنا أشفق عليهم جميعًا. فعندما أرى أي رجل، ولو نظرت إليه بعدم اهتمام، فأنا أشفق عليه. هل تعرف ما أقوله لنفسي؟ أقول: «**إن هذا التعيس يأكل ويشرب أيضًا، ويحب ويكره ويخاف، وله أيضًا إله أو شيطان. فهو يومًا ما سيهجر سلاحه، وينام تحت التراب جثة هامدة، وسيأكله الدود، يا للتعيس. فكلنا إخوة.. إخوة في لحم الدود**». هذا إن كان رجلًا أما إذا كانت امرأة، آه، أقسم لك إني أكاد أن أبكي بمجرد رؤيتها.. حضرتك تضحك وتسخر مني، لأني أُحب النساء. وكيف لا أحبهن وأعطف عليهن؟! فهنّ مخلوقات ضعيفة، لا يعرفن ما يقمن به، ويقدمن لك أنفسهن لقمة سائغة بمجرد أن تمس نهودهن! مرة أخرى دخلت إحدى القرى البلغارية، فرآني عُمدتها، وكان يونانيًّا خائنًا، فاجرًا، فأفشى سري. فطوقوا المنزل الذي كنت أنزل فيه. فأسرعت إلى سطح البيت، وقفزت من سطح لآخر، وثبًا على ضوء القمر كأني قطة. لكنهم شاهدوا خيالي، ولحقوا بي فوق السطح، وأخذوا يطلقون النار. عند ذلك هل تعرف ماذا فعلت؟ رميت بنفسي في ساحة أحد المنازل، فوجدت امرأة بلغارية، نائمة في سريرها، رأتني وفتحت فمها لتصرخ، لكني مددت يدي إلى صدرها، وقلت لها بصوت خافت: «**الرحمة.. الرحمة.. اسكتي**» وحركتُ يدي على جسدها، فخارت قواها، وقالت بصوت يشبه الهمس: «**هيا ادخل.. ادخل حتى لا يشاهدونا**». دخلت، وشدّت على يدي قائلة: «**هل أنت يوناني؟**». أجبتها: «**أجل يوناني.. فلا تفضحي أمري**». وأحطتُ خصرها بذارعي.. فلم تتفوّه بكلمة. ضاجعتها.. وكاد قلبي يثب من شدة متعتي. وقلت لنفسي: «**انظر.. انظر يا زوربا الخبيث. إنها امرأة. مخلوق إنساني. مَن هي؟ بلغارية.. يونانية.. إفريقية؟ لا يوجد فرق أيها الشيخ. فهي مخلوق بشري، له فم، وعينان، وثديان، وهي تحب. ألا تشفق عليها من القتل أيها اللعين؟**». هذا ما كنت دائمًا أردده طوال نومي معها، ووجودي في كنف دفئها.. لكن الوطن لم يتركني بهدوء. تنكّرتُ في الصباح بثياب قدمتها لي البلغارية التي كانت أرملة، أخرَجَتْ من صندوق الثياب، بعض ملابس زوجها الميت، وقدمتها لي، متوسلة بأن أعود إليها. قلت لها: «**أجل.. أجل..**

سوف أعود». وعدت في الليلة التالية. كنت وقتها وطنيًّا إلى أبعد الحدود. أي كنتُ وحشًا كاسرًا. عدت حاملًا صفيحة بنزين وأضرمت النار في القرية، ولا شك بأنها قد احترقت هي أيضًا مع أهل القرية. بالمناسبة كانت تُدعى «**لودميلا**».

سكت زوربا وزفر زفرة حادة، وأشعل سيجارة وأخذ مجتيْن أو ثلاثة ورماها. ثم عاد للكلام:

- إنك تتحدث عن الوطن. أما زلت تؤمن بهذا الهراء الذي تتكلم عنه كتبك؟ يجب أن تصدقني أنا. فما دامت هناك أوطان فسيبقى الإنسان حيوانًا.. حيوانًا كاسرًا، أجل. وربّي لقد تحررت.. وهذا كل ما في الأمر! وأنت؟

لم أرد عليه. شعرت أني أحسد هذا الرجل على الحياة التي خبرها، حياة من لحم ودم. يقاتل ويُقَبِّل. كل ما كنت أبذل جهدي لأعرفه من الورق والحبر، وجميع القضايا التي كنت أحاول حلها في وحدتي وانزوائي فوق مقعدي، قد حلها هذا الرجل، عمليًّا وفي الهواء الطلق بسلاحه وسيفه.

أغمضت عيني، بعدما أدركت أني لا أستطيع جوابه. فسألني ضجرًا:

- أتغفو أيها الرئيس، وأنا الغبي أقف هنا وأثرثر.

واضطجع وهو يتمتم بكلمات غير واضحة، وبعد قليل علا شخيره. لم يغمض لي جفنٌ طوال الليل، وملأ وحدتي بلبل كنت أسمعه للمرة الأولى، يشدو بحزن وألم شديديْن. ولم أشعر إلا ودموعي تنهمر فوق وجنتيَّ.

شعرتُ بضيق شديد. وعند الفجر نهضت ورحت أتأمل البحر والجبال من فتحة الباب، وقد بدا لي أن العالم قد تغير خلال ليلة واحدة. وبقربي فوق الرمال، كانت نبتة صغيرة نمت لها عدة زهرات بيضاء، بعد أن كانت بالأمس نبتة حقيرة دون أي زهرة. وعبق الجو برائحة زهر الليمون المنبعث من البساتين البعيدة. اقتربت، ومشيتُ بضع خطوات، لأرتوي من المعجزة المتجددة أبدًا.

وفجأة سمعت خلفي صوتًا فرحًا، نظرت فوجدت زوربا قد نهض بدوره شبه عارٍ. وثب نحو الباب، وراح يحدق باضطراب إلى الربيع الجديد. وأسرع يقول مذهولًا:

- ما هذا، ما هذه المعجزة أيها الرئيس؟ انظر إلى صاحب اللون الأزرق الذي يتماوج هناك. ماذا يُسمَّى؟ البحر.. البحر؟ وهذه التي يلفها حزام أخضر مزهر، الأرض؟ من هو الفنان العظيم الذي خلقهما؟ أقسم لك أيها الرئيس بأني أراهما للمرة الأولى.

وامتلأت عيناه بالدموع، فصحت به:

- أوه زوربا، هل مسّكَ الجنون؟

- لمَ تضحك أيها الرئيس؟ ألا ترى؟ هناك سحر وراء هذا الجمال.

وأسرع خارجًا، وأخذ يرقص ويتقلب فوق العشب، وأخذت البراعم تتفتح، والصدور تكبر، والروح تتفتح كأنها زهرة، واتحدت الروح والجسد كأنهما جُبِلتا من مادة واحدة.

وقف زوربا، وقد غطى التراب والندى شعره، وصرخ بي:

- هيا أيها الرئيس، لنسرع ونلبس ونتزين، فاليوم موعد البركة. الوجهاء والكاهن سيأتون بعد قليل، ولو شاهدونا متسخين بالتراب، فسيكون عارًا كبيرًا بالنسبة إلى الشركة. يجب أن نلبس الياقات والكرافتات. لنتنكر تحت الأقنعة، ليس من المهم أن يكون للإنسان رأس، بل تكفيه قبعة فقط. أيها الرئيس، إن العالم لا يستحق إلا أن نبصق عليه.

ارتدينا ثيابنا، وحضر العمال والوجهاء. وأمامهم جميعًا كان يسير الكاهن إسطفان بثوبه الكهنوتي القذر بجيوبه الواسعة التي يلقي فيها كلَّ ما يُقدَّم إليه في مراسم العماد والزواج والدفن
ـ زبيب وحلوى وجبن وخيار وقطع لحم ـ وفي المساء يعود إلى زوجته العجوز، التي تضع نظارتها وتفرز ما جاء به زوجها وهي لا تتوقف عن قضم كل شيء في أثناء الفرز. وخلفه كان يسير الوجهاء، وكوندو مانوليو صاحب المقهى الذي يتباهى بأنه يعرف العالم لأنه سافر إلى كانيا ورأى الأمير جورج بأم عينه، ثم العم أناغنوستي يسير هادئًا مبتسمًا، ومدير المدرسة وأهالي القرية، وتقدم زوربا وسار في مقدمتهم، بعد أن قال بلهجة دينية:

- باسم السيد المسيح.

تقدمهم زوربا في موكب مهيب وهم يسيرون خلفه في خشوع. وفي هذا الجو، كانت تسيطر على الفلاحين أجواء ذكريات الماضي، كانت أعينهم معلقة على الكاهن، وأجواء الاحتفال تبعث فيهم ذكريات السحرة، والشياطين والعفاريت، والتعويذات، عندما كان يقف الكاهن في الزمن الغابر وهو يواجه الأرواح الشريرة ويرش الهواء بالماء المقدس ويتمتم بالتعاويذ المقدسة ليطرد القوى الخفية، بينما تخرج من الأرض الأرواح الطيبة لتقدم مساعدتها له.

وصلنا إلى الحفرة التي كانت قد هُيِّئت لزرع أول وتد من أوتاد المصعد.

حمل العمال جذع شجرة كبير، ودقُّوه بشكل عمودي في الحفرة. ووضع الكاهن ثيابه الكهنوتية، وتناول مبخرته. وراح يحدق إلى الوتد، ويرتل ويصلي: «**ليكون قويًّا كوتدٍ فوق صخرة، لا تقلعه الرياح ولا يجرفه الماء. آمين**». وتمتم زوربا: آمين. وردد الأعيان: آمين. وعلت أصوات الجميع: آمين.

وهمس الكاهن:

- ليبارككم الله ويبارك أعمالكم، ويسبغ عليكم خيرات إبراهيم وإسحق.

رجعنا إلى الكوخ حيث قدّم زوربا النبيذ وأطعمة الصوم.. جمبري مشويًّا، وفولًا وزيتونًا. وبعد قليل غادر جميع المحتفلين المكان عائدين إلى بيوتهم بعد أن أنهوا الاحتفال.

وهمس زوربا بعد انصرافهم:

- لقد قمنا بعمل حسن!

وارتدى ملابس العمل وتناول رفشًا صائحًا بالعمال:

- إلى الأمام أيها النعال، وارسموا إشارة الصليب.

كان يعمل طوال النهار بقوة وحماس. حيث راح العمال يحفرون حفرة كل خمسين مترًا، وزوربا يصدر الأوامر، بعد أن يقيس ويحسب. لم يتناول طعامه طيلة النهار، ولا دخّن سيجارة واحدة. كان منصرفًا للعمل بكل كيانه. أتذكر عندما قال لي ذات مرة: «**إن الإنسان لا يُعبِّر إلا عن نصف أفكاره، ولا يقوم إلا بنصف ما يستطيع القيام به، وهذا ما يجعل العالم بائسًا، لأن الإنسان دومًا نصف فاضل أو**

نصف شرير. يجب أن تدق المسمار حتى نهايته وعندئذ ستفوز. إن الله يكره نصف الشيطان أكثر عشر مرات مما يكره كبير الشياطين».

عندما حلّ المساء، توقف زوربا عن عمله، وتمدد على الرمل متعبًا وقال:

- سأضطجع الليلة هنا. وعند الفجر سنعود للعمل. سأنظم فريقًا ليعمل خلال الليل.

- ولكن لماذا كل هذه العجلة؟

- لماذا؟! أريد أن أتأكد إن كنت قد وجدت الميل الصحيح. فلو أخطأت فنحن هالكون لا ريب. فكلما عجلت بمعرفته، كانت فائدتنا أكبر.

ثم تناول طعامه وشرابه بشراهة، وبعد قليل كان الشاطئ يردد صدى شخيره. وبقيت أنا غير قادر على النوم مدة ليست بالقصيرة، أحدق إلى النجوم، كنت أشعر بأن السماء تسير بكل أبراجها وتغير مواقعها، وأن رأسي يسير معها كيفما سارت، كأنها قبة مرصد. «**راقب حركة النجوم كما لو كنت تدور معها...**» هذه الجملة التي قالها الإمبراطور الروماني القديم ماركوس أوريليوس، ملأت قلبي بالانسجام والنغم.

٢١

جاء عيد الفصح. ارتدى زوربا أجمل ثيابه، ولبس جوربًا صوفيًّا ذا لونٍ داكن، صنعته له، كما ادَّعَى، فتاة من بلدته ماسيدونيا، وراح يتمشى بقلقٍ وارتباك ظاهرين واضعًا يده فوق عينيه ليتقي أشعة الشمس، ناظرًا باتجاه القرية، وهو يقول:

- لقد تأخرت العجوز، الفقمة القذرة، تأخرت الفاسقة، المركب المخلع البالي.

كنا بانتظار السيدة هورتنس، لتشاركنا الاحتفال بعيد الفصح، وقد أعددنا حملًا صغيرًا شويناه على السفود، وفرشنا مائدة بيضاء فوق الرمال، كما سلقنا بيضًا مصبوغًا، كنا قد قررنا في ذلك اليوم بشيء من المرح والجدية أن نُعِد لها احتفالًا رقيقًا. لقد كان لهذه العجوز تأثيرٌ غريب بنا كأنه السحر، فعندما لا تكون معنا نشعر أنه ينقصنا شيء قيّم.. رائحة العطر القوية، تمايل الردفين، اهتزازها، صوتها المبحوح، وعيناها القويتان.

كنا قد هيّأنا قوس نصر من أغصان الغار والآس لتمُرَّ العجوز من تحته، ووضعنا فوقه أعلام الدول الأربع، إنكلترا، فرنسا، إيطاليا وروسيا. وفي الوسط وضعنا علمًا أبيض وأزرق، لم يكُن لدينا أي مدفع بالتأكيد، لكننا هيّأنا بندقيتيْن كُنا قد استعرناهما، لكي نطلق النار على سبيل التحية عندما تظهر العجوز وهي تتبختر على رمال الشاطئ.

أردنا أن نعيد لها على هذا الشاطئ أمجادها الماضية، لتشعر بأنها قد عادت شابة، جميلة، عامرة الصدر من جديد. فما قيمة ذكرى بعث المسيح إن لم تبعث في الناس روحَ بعثٍ جديدٍ يعودون معه شبابًا؟ كان زوربا لا يزال يذرع الشاطئ ذهابًا وإيابًا هامسًاً:

- لقد تأخرت العجوز القذرة، المركب المخلع البالي.

فناديته:

- تعال هنا وأَشعِل سيجارة، وهدِّئ من روعك. لن تتأخر أكثر من هذا.

ورمى نظرة نحو القرية واقترب ليجلس تحت شجرة الخرنوب، كان الوقت قد أصبح ظهرًا. وكانت أجراس الفصح تسمع من بعيد. هز زوربا كتفيه قائلًا:

- لقد انتهى الوقت الذي كانت روحي تُبعث فيه كلما حلّ موعد بعث المسيح، نعم انتهى ولم يُبعث إلا جسدي. إن ما أدعوه اليوم بعثًا حقًّا هو أن يأتي مَن يدعوني للوليمة، فآكل وأشرب، ويقول هذا: خُذ لقمة أخرى. ويقول آخر: اشرب كأسًا. فأحشو نفسي بالطعام والشراب، ولا يتحول الطعام بداخلي إلى قاذورات فقط.. بل يُنقَذ جزء منه ويتحول إلى رقص وغناء ومرح وعراك. وهذا هو ما أُسمِّيه بعثًا.

ثم وقف وألقى نظرةً نحو القرية وقال عابسًا:

- هناك غلام يجري نحونا!

وركض بدوره لملاقاة الغلام. توقف الصبي، وهمس شيئًا في أذن زوربا الذي صاح:

- مريضة.. مريضة؟! هيا ابتعد عن نظري قبل أن أحطم رأسك.

ونظر إليَّ قائلًا:

- أيها الرئيس سأذهب إلى القرية لأرى ما الأمر، إن العجوز البالية مريضة، أعطِني بيضتيْن حمراوين لنكسرهما معًا.

تناول البيضتين ووضعهما في جيبه، وأصلح من وضع جواربه ومضى.

انحدرت من فوق التل لأتمدد على حصى الشاطئ، كان الهواء الخفيف يهب، والبحر يتماوج بهدوء وانتظام. بقيت هناك قرابة الساعة منتظرًا زوربا، الذي ظهر أخيرًا، يداعب شاربه، يبدو عليه السرور. اقترب مني وقال:

- لقد أصيبت بالبرد، لا تقلق الأمر بسيط، فقد كانت تذهب كل ليلة إلى القداس من أجلي، كما قالت، فأصيبت بالبرد. دهنت ظهرها بزيت القنديل الدافئ، غدًا ستتعافى. كم هي ممتعة! آه لو سمعتها تتأوه عندما دلكت لها ظهرها، كما لو كنت أداعبها.

جلسنا إلى مائدة الطعام، وقال زوربا مشفقًا:

- نخب صحتك وليتأخر الشيطان بأخذها قدر المستطاع.

أكلنا وشربنا، وجلسنا هادئين، بينما كانت الرياح تهب محملةً بأصوات مثل طنين النحل آتيةً من بعيد، ونحن صامتان، فالمسيح كان في طريقه إلى الحياة، وقد تحوّل الحمل المشوي والخمر وكل شيء من حولنا إلى أناشيد وتراتيل حب.

بعدما انتهى زوربا من الطعام والشراب، أنصتَ، فسمع صوت القيثارة آتيًا من القرية فقال:

- إنه صوت القيثارة، لا بد أنهم يرقصون في القرية.

ثم وثب وقد لعبت الخمر برأسه:

- قل لي، ما الذي نقوم به هنا؟ هيا لنرقص! ألا تهتم لهذا الحمل الذي أكلته؟ هل ستتركه ليضيع هكذا دون فائدة؟ هيا قم لنحول الحمل إلى رقص وغناء، فزوربا قد بُعث للحياة من جديد. فقلت له:

- انتظر أيها اللعين. هل مسّك شيءٌ من الجنون؟

- أنا لا أهتم أيها الرئيس، ولكني أشفق على الحمل، والبيض والكعك والجبن، فلو إني أكلت خبزًا وزيتونًا لنمت لتوي، لكن ما أكلناه يحتاج إلى الرقص والغناء.. هيا لنحتفل بالفصح.

- أشعر بأني لست على ما يرام، اذهب أنت وارقص نيابةً عني أيضًا.

مدَّ زوربا يده وأمسك بذراعي قائلًا:

- إنه الفصح أيها الرئيس.. آه لو كنت في مثل شبابك، لوجدتني في كل مكان لأغرف ملء كفي من الحب والخمر والنساء دون أن أخشى الله أو الشيطان!

- إنه الحَمَل الذي يصرخ في داخلك يا زوربا، ولا بد بأنه قد تحول إلى وحش في داخلك، صار ذئبًا.

- كلا، إن الحمل قد تحول إلى زوربا، وهو الذي يكلمك. أقسم لك. اسمعني واحكم عليَّ بعد ذلك. إني سندباد بحري، ليس هذا لأني شاهدت العالم بأجمعه، كلا. بل لأني سرقت وقتلت وضاجعت النساء، وخرقت جميع الوصايا. كم وصية هي؟ عشر؟! كم تمنيت لو كانت عشرين.. خمسين.. مائة، كي أخرقها جميعًا. ولأن الله كان

موجودًا حقًّا، لقمت بهذا أيضًا دون خوف. ما كنت لأخافه حين أقف أمامه.. لا أدري كيف أشرح لك، لكن هل تظن أن الله يكترث لهذا؟ هل تظن أن الله سيتنازل ويحاسب دودة أرض مثلي، ويستشيط غضبًا لأننا قمنا بخطوة خاطئة، أو لأن دودة ضاجعت دودة في البيت المجاور، أو لأننا تناولنا قطعة لحم في يوم صوم؟! لا أظن ذلك. أوفٍ.. انجوا بأنفسكم أيها الكهنة، يا مَن تطفح أجسادكم بالحساء!

فقلت له محاولًا إثارة حفيظته:

- لكن الله لا يسألك ما الذي أكلته، بل ما الذي فعلته؟

- وأنا أقول لك بأنه لا يسأل عن هذا أيضًا. وستسألني: كيف تعرف هذا يا زوربا أيها الجاهل؟ لكني أعرف هذا يقينًا، فأنا لو كان عندي ولدان، أحدهما طيب وديع ورع، والثاني رديء جشع نذل مهووس بالنساء، لكنت قد قبلت بهما وتركتهما يأكلان على مائدة واحدة، مائدتي. لكني لا أعلم لماذا أفضّل الثاني، ربما لأنه يشبهني. ألا تظن أني أشبه الرب؟ وماذا يمنع ذلك؟ فأنا أحسن من الأب إسطفان الذي يقضي لياليه بالسجود وجمع القروش.

إن الرب أيضًا، يحتفل بالأعياد، ومِن ثَم يمتّع نفسه، فيضاجع ويرتكب المظالم. ويعمل ما يريد، فهو يأكل ما يريد ويحصل على المرأة التي تعجبه مثلي تمامًا. فأنت عندما ترى فتاة جميلة عذبة وصافية كالماء، يميل قلبك نحوها، ولكن فجأة تبتلعها الأرض وتختفي الفتاة. ويسأل الجميع إلى أين ذهبت؟ فإذا كانت عاقلة طيبة، يقول الناس بأن الله قد أخذها، وإذا كانت سيئة يقولون بأن الشيطان أخذها. ولقد قلتها لك وأقول مرة أخرى: إن الله والشيطان واحد.

وسكت، وشددتُ على شفتيَّ محاولًا إمساك الصيحات التي كانت ستخرج من قلبي، ولكني لم أَعُد أذكر، ما علة هذه الصيحات، أهي للفرح، للغضب، للخلاص؟ لا أعلم!

ووضع زوربا قبعته على رأسه بكبرياء وأمسك بعصاه، وحاول أن يفتح شفتيه ليقول شيئًا ما، لكنه آثرَ الصمت. وسار نحو القرية بكبرياء وخيلاء.

رحت أتابع خُطاه وهو يبتعد، تحت أشعة الشمس الغاربة. كما لو أنه مارد يتحرك من بعيد. شعرت بأن الشاطئ كله قد دبّت فيه الحياة لدى مرور زوربا. كنت أصغي لوقع خُطاه وهي تخفت شيئًا فشيئًا. وما أن اختفى عن ناظري حتى وثبت وكأني سأذهب إلى مكان ما. ولكن أين؟ لا أدري؟ إن جسدي هو الذي وثب لا أنا، وثب عن غير إرادة مني وأخذ يأمرني: «**تحرك.. تحرك**».

ورحت أسير بحزم نحو القرية. كنت أقف من حين لآخر لأتنشق عبير النسيم، وقد ملأ عبقً الأزهار الجو من حولي. وفي أثناء سيرِي كنت أستعيد كلمات زوربا: «**البحر، المرأة، النبيذ، العمل، الحب، أن تُلقِي برأسك في التجربة دون أن تخشى الله ولا الشيطان. ذاك هو الشباب**».

كنت أردد كلماته وأنا أسير كأني أشجع بها نفسي.

وفجأة توقفت عن السير، كأني وصلت إلى المكان الذي أقصده، نظرت حولي فوجدتني قرب حديقة الأرملة. وسمعت من خلف السياج صوتًا أنثويًّا يترنم. نظرت من بين أغصان الشجر. فرأيت هناك تحت شجرة الليمون امرأة تقف متشحة بالسواد لا يظهر منها إلا عنقها العاجي، تجني أزهار الليمون وهي تغني. وتحت ظلال الغسق كنت أرى نصف صدرها الأبيض عاريًا يتلألأ.

تلاحقت أنفاسي وخاطبت نفسي: «**إنها وحشٌ مفترس.. أجل وحش مفترس. وهي تعلم هذا، يا لتعاسة الرجال، مخلوقات خانعة، ضعيفة، غبية، لا تقوى على المقاومة. فعندما يقف الرجال أمامها، فإنها تصبح مثل أنثى العنكبوت الجشعة التي لا يشبعها شيءٌ، تلكَ التي تقتل ذكورها بعد المضاجعة عند الصباح**».

لا شك بأنها قد شعرت بوجودي، لأنها توقفت فجأة عن الغناء، ونظرت ناحيتي، فالتقت أعيننا للحظة كالبرق. شعرت بركبتيَّ تتخاذلان وقوتي تخور كأني رأيت وحشًا. وسمعت صوتها آتيًا من بعيد:

- مَن هناك؟

ثم غطت ثدييها بمنديل وهي تقترب. كدت أهرب، لكن كلمات زوربا أوقفتني: «**البحر، الخمر، والنساء**». فأجبتها:

- هذا أنا.. افتحي الباب.

وما أن خرجت هذه الكلمات من بين شفتيَّ حتى سيطر عليَّ رعب شديد، وكدت أن ألوذ بالهرب ثانية. لكن الخجل من نفسي منعني. سألَتْ:

- مَن أنت؟

وتقدمَتْ خطوة نحوي بحذر، وأغلقَتْ نصف عينيها لتنظر نحوي بتركيز، واقتربَتْ خطوة ثانية. فلما رأتني لمعَتْ عيناها، وأضاء وجهها وقالت بصوت ناعم رنان:

- الرئيس؟!

واقتربَتْ أكثر وكررَتْ سؤالها:

- الرئيس؟!

- أجل.

- تعالَ، ادخل.

طلع الصبح، وقد رجعَ زوربا. كان جالسًا يدخن قرب الكوخ محدقًا إلى البحر وهو ينتظرني. وما أن رآني حتى أخذ يتفحصني بعينيه، ثم أخذ نفسًا عميقًا واختلج منخراه كأنف أرنب، وأضاء وجهه كأنه شم رائحة الأرملة على جسدي، فانتصب واقفًا ومدَّ يديه قائلًا:

- إني أباركك.

تمددتُ وأغلقتُ عينيَّ أستمعُ لهدير البحر المتناغم، وشعرتُ بروحي تعلو وتنخفض فوقه كطائر النورس، واستسلمتُ للنوم. راودتني الأحلام فرأيتُ فتاة سوداء عملاقة، تجلس متربعة فوق الأرض كالمارد، خُيِّل إليَّ بأنها معبد يوناني قديم، وأخذتُ أدور حولها أبحث عن المدخل. كنت بطولي أقصر من أصغر أصابع قدميها. وعلى حين غرة وبينما أنا خلفها، شاهدتُ بابًا أسود صغيرًا، كأنه مغارة وتناهى لمسامعي صوتٌ قوي قاسٍ يأمرني بالدخول، فدخلت.

استيقظت عند الظهيرة، حيث كانت أشعة الشمس تغطي الفراش، وترسل شعاعًا قويًّا مسلطًا على المرآة حتى لتكاد تحطمها إلى آلاف القطع. وتذكرت حلم الفتاة السوداء، كان البحر ما زال يتنهد، أغمضتُ عينيَّ، وشعرتُ بأني سعيدٌ جدًّا وأن جسدي قد ارتوى. كأني حيوان يلعق نفسه تحت أشعة

الشمس الدافئة، بعد أن روي ظمأه وشبع من فريسته، ومثله كان عقلي، كأنه قد أوجد حلًّا لجميع المسائل المعلقة.

كانت سعادة الليلة الماضية لا تزال تجتاحني، تزيد وتتضاعف لتروي الظمأ التُّرابي الذي خُلقت منه، وتصورت وأنا مستلقٍ هكذا، مغمض العينين.. بأن كياني يتمدد ويتسع، وأحسست للمرة الأولى بأن الروح مثل الجسد تمامًا لها متطلبات. قد تكون أخف وأكثر خلاصًا، لكنها مثل الجسد في النهاية. بل إن الجسد ما هو إلا روحٌ، ولكن أتعبه السير الطويل والحمل الثقيل.

أحسست بظل شخص يقترب، فتحت عيني، فرأيت زوربا يقف على مدخل الباب، يحدق إليَّ بسرور، ثم قال برقة وحنان مثل أم حريصة على طفلها:

- نم يا صغيري.. نم. استرح فاليوم عطلة أيضًا.

فقلت وأنا أنهض:

- كلا. لقد نمت بما فيه الكفاية.

فقال وهو يبتسم:

- سأسلق لك بيضة تستعيد بها قوتك المفقودة.

ودون أن أجيبه، توجهت إلى الشاطئ، وغطست في البحر، ثم جففت نفسي تحت أشعة الشمس، لكني لا أزال أشم رائحة عذبة تعبق في أنفي وشفتي وأطراف أصابعي، رائحة ماء البرتقال وزيت الغار الذي تدهن به نساء كريت شعرهن.

جاء زوربا إلى الشاطئ، ووضع بقربي طبقًا فوقه البيضة التي أعدّها وكذلك برتقالتيْن كبيرتيْن، وقطعة من كعك الفصح. قربها لي بهدوء، ونظر إليَّ مسرورًا، كالأم التي تخدم ولدها العائد من الحرب.

وقال قبل أن ينصرف:

- سأدق بعض الأوتاد اليوم.

تناولت الطعام بمتعة تحت أشعة الشمس، وأنا أتلذذ كأني أسبح في ماء البحر، لم أسمح لعقلي أن يستحوذ على تلك المتعة ويضعها في قوالبه

ويحولها إلى أفكار، بل تركت لجسدي الحرية ليتلذذ كحيوان من قمة رأسي حتى أخمص قدمي. ومع هذا فإن عقلي أخذ يتأمَّل في كل ما حولي، ويتساءل عن هذه المعجزة الإلهية التي جعلت أجسادنا تتناغم مع كل ما حولها.

ثم نهضت ودخلت الكوخ، أمسكت بمخطوط «بوذا» وفتحته. كنت قد وصلت إلى نهاية المخطوطة، وفي خاتمتها: رفع بوذا يده وهو مستلقٍ تحت شجرةٍ تفتحت براعمها، وأمر العناصر الخمسة التي جُبِلَ منها.. الترابَ والماء والنار والهواء والروح، أن تذوب وتنحلّ.

لم أَعُد بحاجة إلى هذه الصورة من عذابي أنا أيضًا، وحان لي أن أتحرر. لقد تجاوزته، انتهت رحلتي مع بوذا. فرفعت يدي أنا أيضًا وأمرت بوذا الذي في داخلي أن يذوب وينحَلّ.

وبقوة وشجاعة، وبسرعة كبيرة، استعنت بقوة الكلمة على التطهُّر وطرد الأرواح، فدمرت جسده وروحه وعقله، وبلا رحمة خططت الأسطر الأخيرة، وتركت العنان للصيحة الأخيرة، التي تشكل النهاية، ووضعت توقيعي، وانتهى كل شيء.

لففت المخطوطة وحزمتها بخيط متين، واجتاحتني سعادة غامرة، بعدما ربطتها كما يفعل المتوحشون الذين يربطون الموتى حتى لا يخرجوا من قبورهم ويصيروا أشباحًا.

ثم رأيت فتاة صغيرة حافية القدمين تقترب من الكوخ، ترتدي فستانًا، وتمسك بين أصابعها بيضة ملونة. توقفت ونظرت إليَّ بخوف. فسألتها مبتسمًا لأشجعها على الكلام:

- ماذا تريدين؟

- لقد أرسلتني السيدة تطلب حضورك، إنها راقدة في السرير. هل أنت مَن يسمونه زوربا؟

- حسنًا سأذهب!

نهضت واتجهت نحو القرية، تتناهى إلى سمعي في الطريق ضوضاء القرية، إطلاق نار، القيثارة، الصراخ، والأغاني البهيجة. وعندما وصلت إلى ساحة القرية كان الشبان والشابات قد بدؤوا يستعدون للرقص. بينما جلس الشيوخ

تحت الأشجار مسندين ذقونهم إلى عكازاتهم، والعجائز من خلفهم يترقبن البدء. وفي وسط الساحة كان عازف القيثارة «**فانريو**» يقف واضعًا خلف أذنه وردة جميلة، ممسكًا بيده اليسرى قيثارته، يجرب أوتارها بيده اليمنى. فقلت متابعًا سيرِي.

- قام المسيح!

فرد الجميع ببهجة: «**حقًّا قام**». تطلعت إليهم، كانوا شبانًا أقوياء يرتدون القمصان الواسعة وحول رؤوسهم قد ربطوا المناديل البيضاء التي تنسدل على أصداغهم، والفتيات طوقن أعناقهم بالعقود الذهبية، ووضعن على أكتافهن شالات بيضاء، وقد أخفضن عيونهن يرتعشن بترقُّب وانتظار.

وسألني بعضهم:

- ألا تتكرم وتشاركنا أيها الرئيس؟

فإني كنت قد ابتعدت. وعندما وصلت وجدت السيدة هورتنس مُمددة على سريرها، الذي كان هو القطعة الأخيرة التي بقيت لها من أثاث بيتها، كان خدّاها يحترقان بالحمى وتسعل بشدة. وما أن شاهدتني حتى شهقت قائلة:

- وزوربا أيها الصديق! أين زوربا؟

- هو أيضًا ليس على ما يرام، فقد سقط مريضًا هو الآخر منذ عرف بمرضك، وطيلة الوقت يمسك بصورتك ويتنهد كلما نظر إليها.

تنهدت الغانية العجوز وأغمضت عينيها وقالت:

- أكمل كلامك.. أكمل.

- لقد أرسلني إليك، لأسألك إن كنت بحاجة إلى شيء، كما أنه سيأتي لزيارتك هذا المساء رغم أنه لا يقوى على الحركة، ولكنه لا يطيق صبرًا ويريد أن يراك.

- تابع كلامك.. تابع.

- وقد استلم برقية من أثينا، يخبرونه إن فستان الزفاف قد اكتمل، وأصبحت أكاليل الزهور على المركب وأُعِدت الشموع البيضاء.

- أرجوك تابع.. تابع.

غلبها النعاس، وهي تتنفس بشكل غير منتظم وتهذي. قمت وخرجت من الغرفة، رأيت عند العتبة ميميتو، كان يلبس ثوبًا جديدًا وحذاء لامعًا، وقد تزين بوردة بيضاء وضعها خلف أذنه. قلت له:

- ميميتو. اركض نحو قرية «**كالو**» وأحضِر الطبيب.

خلع ميميتو حذاءيه لكيلا يهترئان من السير، ووضعهما تحت إبطه. وأردفت مؤكدًا عليه:

- اذهب واطلب من الطبيب الحضور. وأخبره بأن يسرع وأن يركب حصانه، فالسيدة مريضة جدًّا، قل له إنها أصيبت بالبرد، وضربتها الحمى، وإنها ربما تحتضر.

- هاي.. هوب.. إني ذاهب.

وبصق في كفيه، وصفق بسرور، لكنه بقيَ مكانه ولم يتحرك. فقلت له:

- ماذا تنتظر؟ هيا اركض.

فنظر إليَّ نظرة خبث وغمز بعينه وقال:

- أيها الرئيس لقد تركت هدية لك في الكوخ، زجاجة من ماء الزهر.

وصمت لحظة لكي أسأله عن المرسل، لكني التزمت الصمت، فأردف:

- ألا تريد أن تعرف مَن أرسلها؟ إنها تقول إنك يجب أن تضعها على شعرك لكي تصبح رائحة رأسك طيبة.

- اركض. وأغلق فمك.

ضحك وبصق في كفيه مرة أخرى، وصاح:

- هوب.. قام المسيح.

واختفى.

٢٢

كان الرقص قد بلغ ذروته تحت أشجار الصفصاف احتفالًا بالفصح. يقود الراقصين، شابٌّ وسيم أسمر في العشرين من عمره، صدغاه مكسوان بشعر خفيف لم يعرف شفرة الحلاقة، مرتديًا قميصًا مفتوحًا، يكشف بقعة في صدره مكسوة بالشعر المجعد. رأسه منتصب للوراء، وقدماه تضربان الأرض وترتفعان كأجنحة الطيور، بين وقت وآخر يرمي الفتيات بنظرة، فيتلألأ بياض عينيه في سُمرة وجهه.

كنت عائدًا من منزل السيدة هورتنس. شعرت بشيء من الراحة بعد أن طلبت امرأة لتعتني بالعجوز. ثم جئتُ أشارك الكريتيين احتفالهم بالعيد. شاهدت العم أناغنوستي فاقتربت منه وسألته بصوت خافت.

- مَن هو هذا الشاب الذي يقود الراقصين؟

- كالملاك يسلبك روحك، يا له من لعين، إنه سيفاكاس الراعي، يختفي في الجبل طوال السنة ليرعى غنمه، وفي الفصح يأتي إلى القرية ليرقص ويخالط الناس.

كان يتكلم عنه بإعجاب شديد وبعد قليل أردف متنهدًا:

- آهٍ لو كان لي مثل شبابه! أقسم لك بشرفي لكنت غزوتُ القسطنطينية.

وهنا حرّك الشاب رأسه بعصبية، وعلت منه صيحة متوحشة، كأنه كبش لمح أنثاه، وقال:

- هيا اعزف يا فانوريو، اعزف حتى يموت الموت!

الموت يحتضر في كل لحظة ثم يولد ليعود من جديد إلى الحياة، فمنذ آلاف السنين، كان الشبان والشابات يرقصون تحت الأوراق الصفراء، في المكان نفسه تحت أشجار الصفصاف والسنديان والبلوط وتحت أشجار النخيل الباسقة. وسيرقصون لآلاف أخرى من السنين، وجوههم مفعمة بالشهوة والحياة، تسقط الأوجه وتعود إلى الأرض، لتصعد وجوه جديدة وتحل مكانها. وليس هناك سوى راقص واحد، له ألف قناع، لا يفنى شبابه، ويظل في العشرين من عمره إلى الأبد!

ورفع الشاب يده ليفتل شاربه رغم أنه لا شارب له. وصاح قائلًا:

- هيا اعزف يا فانوريو ثانيةً.. اعزف وإلا سأنفجر!

لعبَتْ أوتار القيثارة وتلوّت، ووثب الشاب في الهواء لثلاث مرات على ارتفاع مترين، حتى سحبَ بطرفي حذائه المنديل من فوق رأس حارس الغابة مانولاكاس الذي كان يقف بجواره، فارتفعت الصيحات مشجعة مستحسنة:

- سيفاكاس.. سيفاكاس.

وارتعشت الفتيات وكففن عن التحديق. وتابع الشاب الرقص واضعًا يده على خصره النحيف، وعيناه تحدق إلى الأرض حياءً.

وفجأة كف الجميع عن الرقص، بعدما ظهر العجوز أندروليو، صائحًا وهو بالكاد يستطيع أن يلتقط أنفاسه:

- الأرملة! لقد ظهرت الأرملة!

كان مانولاكاس أول من اندفع بين الراقصين فتوقف الرقص. احتقنت الوجوه بالغضب، وانتصب الجميع مترقبين، وترك فانرويو قيثارته، وتناول الوردة من خلف أذنه ليشتم رحيقها، وتردد الصياح من كل الجنبات:

- أين هي؟ أين الأرملة؟

- إنها هناك في الكنيسة.. اللعينة ذهبت إلى هناك ومعها باقة من زهر البرتقال.

فصاح مانولاكاس شاقًّا طريقه بينهم:

- هيا أيها الأصدقاء.

وفي تلك اللحظة ظهرت الأرملة على عتبة الكنيسة، وقد عقدت رأسها بعصابة سوداء.. فلما رأتهم قادمين نحوها، رسمت علامة الصليب.

وعلت الأصوات من الساحة:

- مجرمة.. فاسقة.. كيف تجرؤ على المجيء.. لقد ألبست القرية ثوب العار.

هرع بعضهم نحو الكنيسة يلحقون بمانولاكاس. وبدأ بعضٌ آخر يقذفها بالحجارة، أصابتها ضربة حجر، فأطلقت صرخة مؤلمة، وخبأت وجهها

بيديها، وأحنت رأسها محاولة الهروب. لكنّ الشبان كانوا قد وصلوا إلى باب الكنيسة، ورفع مانولاكاس سكينه. فحاولت أن تحتمي بالكنيسة، لكنّ العجوز مافراندوني كان قد سبقَ إلى عتبة الكنيسة واضعًا يديه فوق مصراعيْ الباب ليمنعها من الدخول. فهرولت لتحتمي بشجرة السرو، لكنّ حجرًا قد شق طريقه إلى وجهها، وانحل منديلها عن رأسها وانسل شعرها الفاحم فوق كتفيها وعلا صوتها حادًّا، قويًّا، موجعًا:

- إكرامًا للرب.. إكرامًا للرب..

وقفت الفتيات صفًّا واحدًا، يعضضن على مناديلهن البيضاء وهن ينتظرن حدوث شيء وحشي، بينما العجائز يصرخن بحقد:

- اقتلوها.. اقتلوها.

هجم عليها شابان وأمسكا بها، فتمزقت سترتها، واندلق صدرها العاجي خارجًا، كانت الدماء تغطي وجهها وعنقها، وهي لا تزال تصيح برعب:

- إكرامًا للرب.. إكرامًا للرب..

صرخ مانولاكاس:

- اتركاها.. إنها لي!

ورفع مافراندوني يده، فتوقف الجميع وخيم السكون. وقال بصوت جليل:

- مانولاكاس.. إن دماء ابن عمك ما زالت تصرخ، فامنحه الراحة.

حينئذ هرعتُ من فوق السياج نحو الكنيسة لكني تعثرت وانكفأت على وجهي، وفي هذه اللحظة مرَّ سيفاكاس بقربي فأمسكني من جلد ظهري مثلما تُمسك القطط، وأوقفني، وهو يسألني ساخرًا:

- ما الذي تريد فعله أيها الأرستقراطي الساذج؟ ابتعد من هنا.

- ألا تعطف عليها؟ ارحمها.

فضحك الراعي الجبلي بوحشية، وقال:

- أنا لستُ امرأةً حتى أعطف. أنا رجل!

وبوثبة واحدة وصل إلى ساحة الكنيسة، فأسرعتُ خلفه. كان الجميع قد شكلوا حلقة حول الأرملة، وقد خيّم سكون ثقيل مرعب على المكان، فلم

يكُن يُسمَع إلا أنفاس الضحية المتلاحقة.

رسم مانولاكاس علامة الصليب، ورفع سكينه، فحدقت العجائز إليه بفرح، بينما أخفضت الفتيات رؤوسهن وغطين وجوههن بالمناديل.

رفعت الأرملة رأسها، فلمعت السكين أمام أعينها، فأنَّتْ بصوت يشبه خوار البقرة قبل الذبح. وانهارت أسفل الشجرة، وأدخلت رأسها بين كفيها، فمسح شعرها الأرض، وظهر بياض عنقها الناصع.

وصاح العجوز مافراندوني، راسمًا إشارة الصليب:

- إني أطلب قصاص الرب.

وفي تلك اللحظة ارتفع من خلفنا صوت قوي خشن:

- اترك سكينك أيها المجرم.

ونظر الجميع نحو مصدر الصوت.. كان زوربا. رافعًا يديه، غاضبًا. وصاح متابعًا:

- ألا تخجل من نفسك؟! يا للشجاعة.. قرية كاملة لقتل امرأة! ستجلبون العار على كريت كلها.

فصاح مافراندوني:

- لا تحشر أنفك في شؤوننا يا زوربا.. اهتم بأمورك الخاصة!

والتفت نحو مانولاكاس مستطردًا:

- مانولاكاس.. باسم المسيح الحي، اضرب ضربتك.

أمسك مانولاكاس الأرملة، وطرحها أرضًا وبركَ فوق بطنها، ورفع سكينه.. لكن زوربا، وبلمح البصر أمسك بذراع مانولاكاس، وراح يحاول بيده التي لفها بمنديل أن ينتزع منه السكين.

نهضت الأرملة على ركبتيها، وراحت تنظر حولها باحثة عن طريقة للهرب. لكن القرويين كانوا قد سدوا جميع المنافذ، وعندما شعروا بنظرتها الباحثة، تقدموا خطوة أخرى، فضيقوا الدائرة.

كان زوربا يقاتل بخفة وقوة وبأعصاب هادئة، وأنا أراقب سير القتال بخوف وقلق. ازرقَّ وجه مانولاكاس من الغضب، واقترب رجلان، أحدهما

سيفاكاس والثاني شاب ضخم لمساعدته، لكنّ مانولاكاس أشار إليهما بعينيه أن يبتعدا صائحًا:

- ارجعا.. لا أحد يقترب.

وهاجم زوربا ثانية، نطحه برأسه كالثور. كاد زوربا يقضم شفتيه من شدة الألم، لكنه لم يقل شيئًا أو يصرخ، وظل ممسكًا بيد حارس الغابة بقوة، يتحرك يمينًا ويسارًا بخفة ليتجنب نطحات خصمه، فعض مانولاكاس على أذن زوربا بأسنانه، وراح يشدها بكل قوته. وبدأ الدم ينزف.

فاندفعت محاولًا إنقاذ زوربا، لكنه صاح بي:

- لا تقترب أيها الرئيس.. دع الأمر لي!

جمع قبضته ولكَمَ خصمه لَكْمَة قوية أسفل بطنه فتهاوى مانولاكاس فجأة وسقط أرضًا. وتناول زوربا السكين وكسرها ورمى بها إلى الأرض، وأخرج منديله ووضعه على أذنه ليوقف الدم، ثم مسح العرق عن وجهه، فتخضبت ملامحه بالدماء، ونظر إلى الأرملة المذعورة قائلًا:

- قفي.. وتعالي معي.

سار زوربا باتجاه باب الساحة، ووقفت الأرملة المرتعبة على قدميها، بعد أن جمعت ما تبقى من قواها، وهمت بالسير، لكنها لم تجد الوقت لذلك؛ إذ اندفع نحوها مافراندوني كالصقر وانقض عليها، فارتمت على الأرض فأمسك بشعرها ولفه على يده ثلاث مرات، وأطاح برأسها بضربة سكين واحدة. وهو يصيح:

- لتكن هذه الخطيئة على ذمتي!

ثم تناول رأس الأرملة وألقى به على عتبة باب الكنيسة، ورسم الصليب. التفتَ زوربا، غاضبًا مزمجرًا، شادًّا على شاربه، حتى نتف كثيرًا من شعره من شدة الغضب، فأسرعت نحوه وأمسكت بذراعه. رماني بنظرة قاسية، واغرورقت عيناه بالدموع وقال بصوت مخنوق:

- لنذهب من هنا أيها الرئيس.

في تلك الليلة لم يأكل زوربا شيئًا، وعندما طلبت منه ذلك قال: «**إن حلقي جافٌّ لن يمر منه الطعام**». ثم نظّف أذنه وضمد الجرح بعد أن مسحه بقطنة مبللة

بالخمر. جلس على سريره واضعًا رأسه بين يديه، وغرق في أفكاره الحزينة. واستلقيت أنا أيضًا على الأرض، متكئًا على الجدار، وملكني الحزن، فسالت الدموع على خدي غزيرة ساخنة. كنت ذاهلًا عاجزًا عن التفكير بأي شيء. ثم رفع زوربا رأسه فجأة وصاحَ بصوت وحشي، خرج من أعماق أحزانه:

- كم قلت لك بأن كل ما يجري على الأرض هو ظلمٌ لا عدل فيه.. أنا دودة الأرض زوربا، لا أقر بهذا، ولا أوافق عليه. لماذا يجب أن يموت الشبّان ويظل العجائز الحطام أحياءً؟ بل ولماذا يموت الأطفال؟ كان لي طفلٌ صغيرٌ، ولدي ديمتري، مات وهو لا يزال في الثالثة من عمره، لن أغفر هذا للرب أبدًا.. هل تسمعني؟ أبدًا.. أبدًا! وعندما أموت.. وإن كان الرب له الشجاعة ليقابلني، وإن كان ربًّا حقًّا.. فسوف يخجل من نفسه ويستحي من لقائي. سأخجله أنا زوربا دودة الأرض!

وشد على أسنانه، كأنه أصيب بألم مفاجئ.. وبدأ الدم ينزف من جرحه مرة أخرى. فقلت متوترًا:

- اقترب يا زوربا. سأضمد لك الجرح!

نظفتُ الجرح بالخمر ثانية، وتناولت ماء زهر الليمون، الذي أرسلته الأرملة، والذي وجدته فوق فراشي، وبللت به قطعة القطن. عندما شم زوربا رائحة زهر الليمون قال:

- ما هذا، زهر الليمون؟! صب منه فوق رأسي.. هكذا.. أجل هكذا.. وقليلًا على يدي.. حسنًا.

شعرت بأن الحياة قد دبّت فيه من جديد، فنظرت إليه مستغربًا، فقال:

- أشعر بأني داخل حديقة الأرملة.

وعاد للكلام المؤلم، الحزين وهو يرثي الأرملة:

- كم من الوقت.. كم من الوقت أخذت الأرض حتى استطاعت أن تُنضج مثل هذا الجسد؟ إن كلَّ مَن رآها كان يحدث نفسه: «**ليتني كنت في العشرين، أنا وهي وحدنا على الأرض، لننجب أطفالًا كثيرين.. لا، ليسوا أطفالًا.. بل آلهة حقيقيين**». أما الآن...

وقفز على قدميه، وقد ملأت الدموع عينيه:

- لا أحتمل هذا أيها الرئيس، يجب أن أقطع الجبل صعودًا وهبوطًا مرتين أو ثلاثة لأتعب، وتهدأ نفسي. أيتها الأرملة اللعينة.. إن نفسي تحدثني أن أنشد لك قصيدة!

ثم أسرع خارجًا نحو الجبل، واختفى في العتمة. استلقيتُ على سريري، ورحت كعادتي المخزية، أُقطِّر الواقع، لأسحب منه الدم واللحم والعظم، وأحوّله إلى فكرة مجردة، أُخضعه لقوانين الطبيعة، لأخرج بنتيجة واحدة: «**إن كل ما حدث، كان يجب أن يحدث**». توصلت أخيرًا إلى هذا العزاء البغيض بأن هذا كان هو العدل. وجاء دور قتل الأرملة ليدخل إلى خلية عقلي، حيث يتحوّل هناك كل ما يدخل من سمّ يهدد طمأنينتي إلى عسل طيب. تأهبت مخيلتي لهذا التهديد المرعب وشكّلت حوله طبقة كثيفة من الصور والأفكار لتجعله عاجزًا عن الحركة، مثلما تضع النحلة غلافًا من الشمع حول عسلها حتى لا تلتهمه الدبابير. وبعد ساعات قلائل كانت الأرملة ترقد في عقلي هادئة مبتسمة، بعد أن تحولت إلى مجرد فكرة في عقلي. جعلتُها قطعة من قلبي مغلّفة بالشمع، كيلا تبث الرعب والخوف في روعي.

ودارت طواحين عقلي تستعيد الماضي وتخلطه بالحاضر، إن جُرمًا كبيرًا ارتُكِب في أحد الأيام، كان يكبر ويتسع عبر الزمان والمكان، ويمتزج بالحضارات الغابرة، وتمتزج الحضارات بمصير الأرض، والأرض تمتزج بالكون، وهكذا عندما رجعتُ للأرملة ألفيتها قد خضعت لنظم الطبيعة القاسية، وقد تصالحت مع ذابحها، وجلست هادئة، ساكنة. لقد عاد الزمن ليرى في نفسي كنهه الحقيقي. فالأرملة قد ماتت منذ آلاف الأعوام، في أيام حضارة بحر إيجه، وماتت أيضًا فتيات «**كنوسوس**» عاصمة كريت القديمة، وماتت الصبايا ذوات الشعر المُجعد هذا الصباح على الشاطئ نفسه!

وغلبني النعاس كما سيغلبني الموت ذات يوم، فما من شيء مؤكد الوقوع أكثر من الموت، غبت في متاهات الظلمات بهدوء وبطء. لم أعلم متى رجع زوربا أو متى دخل! فعند الصباح وجدته فوق الجبل يصيح بالعمال ويحثهم على العمل.

لم يكُن راضيًا عما فعله العمال. فطرد ثلاثة منهم لأنهم فقط حاولوا مجادلته، وتناول المعول بيده وبدأ يحفر الطريق الذي حدده من أجل الأوتاد

الخشبية، وارتقى منحدرات الجبل فشاهد الحطابين الذين يقطعون أشجار الغابة، فصاح بهم ليسرعوا، فتمتم أحدهم وابتسم، فانقض عليه زوربا يعنفه بغضب. ورجع في المساء متعبًا، منهك القوى، ملطخ الثياب، ثم جلس على رمل الشاطئ بقربي، يكاد لا يستطيع أن يحرك شفتيه، وعندما تكلم أخيرًا، حدثني عن الخشب والعمال والبناء والفحم. كأنه مقاول حريص يحاول أن يكسب من هذه العملية أكبر قدر ممكن بأقل وقت ليسرع بالهرب. وبينما يسيطر الحزن على كل حواسي وأعصابي، حاولت أن أفتح فمي لأكلمه عن الأرملة، فمد يده الضخمة وأطبق على فمي قائلًا:

- لا تتكلم!

أذعنت له حياءً، وخاطبت نفسي وأنا أشعر بالغيرة من زوربا على صدق حزنه وألمه: «**إنه الإنسان الحقيقي، إنسان تجري الدماء حارةً في عروقه، عظامه صلبة وقاسية. حين يشعر بالحزن والألم تتسلل دموعه غزيرة ودافئة. وعندما يشعر بالسعادة لا يفسد نضارة بهجته بوضعها في منخال الأفكار الكبرى ذي الفتحات الدقيقة**».

قضى زوربا ثلاثة أيام يعمل بجهد، دون كلل، ممتنعًا عن الطعام والشراب والكلام. كان يذوبُ ألمًا. وفي إحدى الأمسيات قلت له بأن السيدة هورتنس تحتضر وتُردد اسمه، وأنها في أنفاسها الأخيرة، كما أن الطبيب لم يحضر. فقال:

- حسنًا.

في صباح اليوم التالي توجه إلى القرية وعاد سريعًا. فسألته:

- هل شاهدتها؟ أخبرني كيف حالها؟

- لا تُحسُّ بما يدور حولها، سوف تموت.

وأسرع نحو الجبل بخُطى واسعة. وفي ذلك المساء أخذ عصاه دون أن يتناول طعامه وخرج، فصحت به:

- هل ستذهب إلى القرية؟

- لا.. سأقوم بجولة، ثم أعود!

اتجه نحو القرية بعزم وخُطى واسعة. أما أنا فقد كنت متعبًا فاستلقيت على السرير، أجتر صورة الأرض الحزينة والذكريات الأليمة، وراح عقلي يطير

بعيدًا فوق أبعد الاحتمالات، وعاد ليحط فوق رأس زوربا.

ثم انتبهت وخاطبت نفسي بجزع: «**لو قابل زوربا مانولاكاس في طريقه، فإن هذا المجنون سوف ينقض على زوربا، فقد حبس نفسه عدة أيام يتألم في بيته، ولم يخرج خجلًا من الظهور في القرية، وهدد أكثر من مرة بأنه لو صادف زوربا فسيمزقه إربًا، حتى إن أحد العمال قد شاهده مرة وهو يحوم مسلحًا حول الكوخ. إذا التقيا هذا المساء، سوف تحدث مقتلة**».

قفزت من سريري ووضعت عليَّ ثيابي وخرجت مسرعًا نحو طريق القرية، كانت رائحة القرنفل البري تعبق في جو الليل الهادئ العذب وأنا أسير، وبعد قليل شاهدت زوربا وسط الظلام وهو يسير ببطء، يتوقف من وقت لآخر لينظر إلى النجوم ثم يسير مسرعًا، فأسمع وقع أقدامه الممتزج بصوت عصاه فوق الحصى. حتى اقتربَ من حديقة الأرملة، حيث كان الجو يعبق برائحة زهر الليمون وأزهار العسل، وفي هذه اللحظة علا من بين الأشجار صوت بلبل كئيب حزين، يشدو في العتمة فيجعل أنفاس مَن يسمعه تضطرب شجنًا. توقف زوربا فجأة، فقد شعر بهذا الألم وتلك العذوبة في صوت البلبل. وفجأة تحركت قضبان القصب وعلا صوت أحدهم وهو يصيح:

- مرحًا أيها العجوز الخَرِف، التقيت بك أخيرًا!

جمدتُ في مكاني، فقد عرفت صاحب هذا الصوت، وعلى ضوء النجوم الشاحب رأيت زوربا يتقدم خطوة نحو القصب، وقد رفع عصاه، ثم توقف.

وحينها وثب شاب ضخم الجثة، مبتعدًا عن القصب، وصاح زوربا:

- مَن أنت؟

- أنا مانولاكاس.

- اذهب في طريقك يا مانولاكاس.

- لقد ألحقتَ بي العار يا زوربا.

- لست أنا مَن فعل بك هذا. نصحتك بأن تذهب في طريقك، لا عار عليك فأنت شاب قوي، لكنّ الحظ هو مَن فعل هذا، والحظ دومًا أعمى لو كنت تعلم ذلك!

فشدَّ مانولاكاس على أسنانه صائحًا:

- حظ أو غير حظ، أعمى أو بصير، لا يعنيني. سأغسلُ عاري.. وفي هذه الليلة تحديدًا.. هل معك سكين؟

- لا.. ليس معي إلا العصا!

- اذهب وائتِ بسكينك إذن، وسوف أنتظرك.

لكن زوربا ظل واقفًا، فصاح مانولاكاس ساخرًا:

- يبدو أنك خائف! هيا اذهب.

تملك الغضب زوربا، ورد عليه قائلًا:

- وماذا أفعل بالسكين؟! هل نسيت.. هناك في الكنيسة.. كانت معكَ سكينٌ أيضًا.. بينما كنتُ أعزل.. ومع هذا استطعتُ أن أتدبر الأمر جيدًا!

فصاح مانولاكاس غاضبًا:

- أتهزأ مني أيضًا؟ لقد اخترت الوقت المناسب لمثل هذا، فأنا مسلح وأنت لا. هيا اذهب وأحضر سكينك أيها المقدوني القذر.

- ارمِ بسكينك، وسأرمي عصاي، وعندها نرى من الأقوى، هيا ألقِ بها أيهَا الكريتي القذر!

ألقى زوربا بعصاه، فسمعت سقطتها فوق الحصى، وصرخ ثانية:

- هيا ألقِ بسكينك.

فتقدمتُ على أطراف أصابعي، ببطء وسكون، وتحت بريق النجوم استطعت أن أشاهد بريق نصل السكين التي سقطت على الأرض. بصق زوربا بين يديه وصاح وهو يثب:

- هيا تشجع!

وقبل أن يلتحم الاثنان، وبقفزة واحدة استطعت أن أقف بينهما صائحًا:

- توقفا! اقترِب يا مانولاكاس، وأنت أيضًا يا زوربا. ألا تستحيان؟

اقترب الخصمان بخُطى وئيدة حذرة. أمسكت باليد اليمنى لكل منهما:

- هيا ضعا أيديكما بأيدي بعض، أنتما شجاعان.

حاول مانولاكاس أن يسحب يده قائلًا:

- ولكنه لوّث شرفي.

- ليس من السهولة أن يلوّث شرفك يا صديقي فالقرية بأجمعها تشهد بشجاعتك. لا تهتم لما حدث في الكنيسة، فقد كان يومًا نحسًا، وقد حدث ما حدث. ولا تنسَ أن زوربا غريب، مقدوني، وإنه من العيب علينا نحن الكريتيون، أن نقاتل ضيوفنا، هيا قرِّب يدك، هذه هي الشجاعة الحقة. ولنذهب معًا إلى الكوخ، لنحتسي كأسًا من النبيذ ونشوي اللحم احتفالًا بالصلح والصداقة. هيا يا مانولاكاس!

طوّقتُ خصر مانولاكاس بذراعي وسحبته بعيدًا قليلًا، وهمست في أذنه:

- إنه عجوز، مسكين. ولا يجوز أن يقاتله شاب في مثل قوتك!

هدأ مانولاكاس قليلًا وقال:

- هذا من أجلك أنت.

واقترب خطوة نحو زوربا ومدّ يده الضخمة قائلًا:

- هيا أيها الرفيق زوربا.. إنها وقائع قديمة وأشياء منسية. اُمْدُد يدك.

- لقد كدت تقطع أذني.. خُذ هذه يدي.

التقت اليدان طويلًا وبقسوة، وشدًّا بقوة فظيعة، كأن كلًّا منهما يختبر قوة الآخر. فخشيت أن يلتحما من جديد. وقال زوربا أخيرًا:

- أنت قوي جدًّا يا مانولاكاس، وقبضتك متينة.

- وأنت أيضًا تشد بقوة. هيا شدّ أكثر، لنرى مَن يصرخ أولًا.

فصحت بهما:

- هذا يكفي.. هيا لنعزز صداقتنا.

توسطتُهما، زوربا على يميني ومانولاكاس على يساري. واستدرنا عائدين إلى الكوخ. وقلت محاولًا تلطيف الجو:

- إن المحاصيل ستكون جيدة هذا العام.. فقد أمطرت بغزارة.

لكنّ أحدًا منهما لم يُجب، كان الغضب لا يزال كامنًا في صدريهما. وكان أملي الأخير هو النبيذ. وصلنا أخيرًا إلى الكوخ، فقلت مُرحِّبًا بمانولاكاس:

- أهلًا بك في كوخنا يا مانولاكس. زوربا حَضِّر لنا شيئًا نأكله، واملأ ثلاثة أقداح من الخمر.

ورفعت كأسي قائلًا:

- في نخبكما.. نخب صحتك يا مانولاكاس. نخب صحتك يا زوربا. هيا اقرعا الكؤوس.

قُرِعَت الكؤوس، وصب مانولاكاس بضع قطرات من الخمر على الأرض وقال:

- لينزف دمي مثل هذا الخمر، إذا رفعت يدي عليك يا زوربا.

وفعل زوربا مثله وقال:

- لينزف دمي أنا أيضًا، إن كنت أذكر بأن أذني قد قطعت يا مانولاكاس.

٢٣

في الصباح الباكر جلس زوربا على فراشه وناداني:

- هل ما زلت نائمًا أيها الرئيس؟

- هل حدث شيء يا زوربا؟!

- لقد رأيت حلمًا غريبًا. وأعتقد بأني سوف أقوم برحلة قريبًا جداً. اِسمع ما شاهدت وستضحك.. رأيتُ هنا في الميناء باخرة كبيرة، تطلق صفارتها إيذانًا بالرحيل، وأنا أركض لألحق بها حاملًا بيدي قفصَ ببغاء، حتى وصلت وصعدت الباخرة. لكنّ القبطان اعترضني قائلًا: تذكرتك! فأخرجت محفظتي وسألته وأنا أخرج رزمة من النقود: «**كم سعرها؟**» فأجاب بأنه يريد ألف دراخما. حاولت مساومته على دفع ثمانمائة فقط. فأصرّ على الألف وقال: «**ألفٌ لا تنقص منها دراخما واحدة**». عندها قلت له: «**اسمع أيها الشيخ، خذ ثمانمائة من أجل مصلحتك، وإلا سأستيقظ وتخسر كل المبلغ**».

وانقلب زوربا مقهقهًا وصاح بذهول:

- يا لهذا الإنسان من آلةٍ مضحكة! تملؤها بالخبز والفجل والسمك فتتحول جميعها إليَّ تنهدات وضحك وأحلام.. إنه مصنع.

ثم قفز عن فراشه صائحًا بقلق:

- ولكن لماذا كنت أحمل الببغاء؟ أخشى أن...

وقبل أن ينهي جملته اقتحم الباب ولد صغير شعره أحمر كشيطان صغير صائحًا:

- إن السيدة المسكينة ترجوكما أن تسرعا بإحضار الطبيب، فهي تقول إنها على وشك الموت.

غمرني خجل فظيع ففي هذا الخضم الذي وضعتنا فيه الأرملة نسينا تمامًا السيدة هورتنس. وتابع الولد بمرح:

- إنها تسعل بشدة، وهذا يجعل فندقها يهتز بأكمله، إنها تسعل كحمار.. كوح.. كوح. إن القرية كلها تهتز لسعالها.

فصرخت به: «**لا تضحك.. لا تهزأ. اصمت**». وتناولت ورقة وكتبت ملاحظة وقلت له:

- خذ هذه الورقة وأَسرِع إلى الطبيب، لا تتركه قبل أن تراه يمتطي بغله.. هل فهمت؟

تناول الولد الرسالة ووضعها في جيبه وركض. كان زوربا قد نهض ووضع عليه ملابسه. طلبت منه أن ينتظر لأذهب معه. فأجاب بأنه مستعجل، وأسرع مهرولًا. وبعد قليل كنت بدوري أتجه نحو القرية.

مررت قرب حديقة الأرملة فوجدت ميميتو جالسًا على السور مستوحشًا ككلبٍ مُنهك، قد نحف كثيرًا وغارت عيناه في محجريهما، التفتَ بعين ملتهبة فرآني. سألته وأنا أنظر إلى الحديقة بألم: «**ما الذي تفعله هنا؟**».

أعادت الحديقة لذاكرتي دفء ذراعيها، وخيّمت على المكان رائحة الليمون، تخيلتُ عينيْ الأرملة المتوقدتين بالشهوة. وأجاب ميميتو:

- لماذا تسأل؟ انصرف لشأنك!

- هل تريد سيجارة؟

- كلا.. فأنا لم أَعُد أدخن مثلكم.. جميع الرجال أنذال.. جميعكم.. جميعكم.

وأخذ يلهث كأنما يبحث عن كلمات لا يجدها:

- أنذال محتقرون.. كذبة.. مجرمون...

وفرك يديه كأنه وجد التعبير الذي كان يبحث عنه أخيرًا، وراح يكرر بصوت عالٍ:

- سفّاحون.. سفّاحون.

وانفجر مقهقهًا. شعرت بانقباض وأسرعت الخُطى متمتمًا:

- كل الحق معك يا ميميتو.. كل الحق.

وفي أول مدخل للقرية شاهدت العم أناغنوستي، منحنيًا على عصاه يراقب فراشتين صفراوين تتلاحقان فوق عشب الحقل، قد أصبح هرمًا لا يعبأ بحقله ولا زوجته ولا أولاده، يزجي الوقت بنقل ناظريه وهو يراقب العالم بغير اكتراث. وما أن لمح ظلي على الأرض حتى قال:

- ما الذي جاء بك في هذا الوقت المبكر؟

لكنه شعر بنظرتي القلقة فأردف قائلًا:

- يجب أن تسرع يا ولدي، مَن يدري هل ستجدها حية أم ميتة؟

كان السرير الكبير رفيق السيدة قد وُضع في وسط الغرفة، وفوقه الببغاء الأخضر بعينيه الخبيثتين، صديقها الوفي الذي رافقها منذ زمن بعيد، كان رأسه محنيًّا محاولًا التكهُّن. فالتنهدات التي تصل إلى آذانه لم تكُن تنهدات الحب والشهوة التي تعوَّد سماعها، لم يكُن هديل الحمامة.. العرق الذي يسيل على جبين سيدته، والشعر المنفوش غير الممشط الذي يلتصق على صدغيها، والتشنجات المتألمة فوق السرير، يرى هذا كله لأول مرة فيجتاحه القلق، إنها تشنجات الألم وزحف الموت البطيء، كانت عيناه تتسعان ويهم بالصياح: «**كانافارو.. كانافارو**» لكن صوته يختنق ولا يخرج من حلقه.

كانت سيدته التعيسة تتلوى وتتنهد متألمة، ترفع ذراعيها النحيفتين وترخيهما على الفراش، ورائحة العرق ولحمها الذي بدأ يتفسخ، تفوح في الغرفة. ومن تحت الأغطية بدا نعلاها الباليان المُشوّهان، فكان منظرهما باعثًا للحزن أكثر من صاحبتهما نفسها. كان زوربا جالسًا فوق رأسها محدقًا إلى النعليْن، يعض على شفتيه بين أسنانه ليمنع نفسه من البكاء. دخلتُ ووقفتُ خلفه لكنه لم يشعر بدخولي، كان ممسكًا بيده قبعة مزينة بالورد يحركها بيده الضخمة بسرعة وبطريقة خرقاء، ليخفف عنها الألم ويسهل عليها تنفسها الذي بدأ يخف رويدًا رويدًا، كأنه يُهوِّي على موقد لفحم مُنطفئ كي يشتعل وتدب فيه الحياة.

فتحَتْ عينيها برعب، ونظرَتْ حولها. فقد كان كل شيء مُظلمًا بالنسبة إليها حتى إنها لم تستطع أن تُميز أي شخص، ولا حتى زوربا الذي كان ممسكًا بقبعتها. كل من حولها يبعث على الخوف والقلق. غرزت أصابعها في الوسادة الملطخة بالدموع واللعاب والعرق، وعلت منها صيحة ألم يائسة:

- لا أريد أن أموت.. لا أريد أن أموت!

في هذا الوقت كانت نوَّاحتا القرية قد سمعتا بحالتها وجاءتا وجلستا على الأرض مستندتين إلى الجدار. شاهدهما الببغاء فمدَّ عنقه وصاح غاضبًا «**كاناف...**» لكن زوربا أشاح له بيده، فصمت الببغاء واختنق بصوته من جديد، وعاد الهدوء. ومرة أخرى تعَالَى الأنين مع صيحة يائسة:

- لا أريد أن أموت.. لا أريد!

وفي هذه اللحظة مدَّ شابان أسمران رأسيهما من باب الغرفة ونظرا إلى العجوز وتهامسا، وبدا أنهما قد اتفقا على شيء ثم اختفيا. وبعد بُرهة علا صوت الدجاج كأن هناك مَن يطارده.

نظرت إحدى الندّابتيْن نحو رفيقتها قائلة بصوت خافت:

- أرأيتِ أيها الأخت لينيو؟ إنهم مستعجلون كأنهم سيموتون جوعًا، سوف يلتهمون الدجاجات. إن كل فقراء القرية قد تجمعوا في ساحة الحديقة، وبعد قليل سيبدؤون بجمع ما يستطيعون جمعه.

ونظرَتْ نحو السيدة العجوز المُمددة وقالت بنفاد صبر:

- هيّا موتي أيتها العجوز. لنستطيع أن نأخذ شيئًا نحن أيضًا.

فأجابتها الثانية، بعد أن زمّت فمها الذي اختفت أسنانه:

- لأقول لك الحقيقة إنهم غير مخطئين.. «**إذا كنتِ تريدين أن تأكلي، فتناولي، وإذا كنتِ تريدين أن تتملكي، فاسرقي**». هكذا كانت تنصحني المرحومة أمي. هيّا ليس علينا إلا أن نسرع بالندب لنحصل على قبضة من الأرز وقبضة من السكر، ثم نبارك ذكراها بعد ذلك. ليس لها أطفال ولا أهل، إذن مَن الذي سيأكل الدجاج والأرانب؟ ومَن سيشرب خمرها ويرث أوانيها، وأمشاطها وسكاكرها؟ إني أُقر لكِ وليغفر الله لي أني أودُّ أن آخذ قدر ما أستطيع.

- انتظري قليلًا. فأنا عندي الفكرة نفسها. ولكن دعيها تموت أولًا.

في هذا الوقت كانت السيدة العجوز تتقلب وتئن وهي تنبش تحت وسادتها، تناوَلَت صليبًا كبيرًا من تحت الوسادة عندما أحست بدنو أجلها. قد نسيت الصليب طوال عمرها، أما الآن! وكأن المسيح دواءٌ يعيد الحياة، ولا

يؤخذ إلا في حالة المرض والخطر، ولا قيمة له ما دام الإنسان بخير يأكل ويشرب ويحب. أمسكت بالصليب وشدته نحو صدرها متوسلة، وراحت تدمدم ضامة حبيبها الأخير إلى صدرها:

- حبيبي يا يسوع.. يا حبيبي يسوع..

سمعها الببغاء وشعر بأن الأحداث قد تغيرت وتذكر الليالي السابقة فانتفض صائحًا:

- كانافارو... كانافارو..

لم يتحرك هذه المرة زوربا ليسكته، بل حدج السيدة التي كانت تبكي وتلثم الإله المصلوب وقد كست العذوبة وجهها المنهك.

ثم فُتِحَ الباب ودخل العم أناغنوستي بوقار واقترب من سرير المريضة وركع بقرِبها قائلًا:

- أرجو أن تغفري لي أيتها السيدة. قد أكون وجهت لك كلامًا فظًّا ذات مرة.. ولكن الله يغفر.

لكنّ العجوز كانت مُمددة غارقة في استسلام مكتمل، لا تسمعه. قد محت الآلام ذاكرتها كلها.. شيخوختها البائسة، الكلمات الهازئة، والليالي التعيسة التي كانت تضطرها فيها الحاجة إلى الجلوس على بابها تحوك للفلاحين جواربهم كأي امرأة بسيطة، وهي الباريسية المترفّعة ملكة الإغراء التي ركعت عند قدميها الدول الأربع الكبرى، وحيّتها أربعة أساطيل! ذبلت ذاكرتها ومعها كل أيامها الغابرة. شدّت الصليب إلى صدرها وهمست:

- كانافارو.. يا صغيري كانافارو.

فهمست الندّابة لينيو:

- لقد بدأت تهذي. لا شك بأنها قد شاهدت الملائكة. لنرفع مناديلنا ونقترب.

فقالت الندّابة الأخرى الأم مالاماتينيا:

- ألا تخافي الله! أتريدين أن نندبها قبل أن تموت؟

- ماذا أيتها الأم مالاماتينيا! بدلًا من التفكير في صناديقها وثيابها والدجاج والأرانب، تتحدثين عن الموت وأنها يجب أن تموت أولًا؟! لنسرق ما نستطيع الآن.

وما أن أنهت كلامها حتى وقفت وبدأت تلوّح بيديها، فانضمت لها رفيقتها وشعّثتا شعريهما وبدأتا بالندب والعويل «**ولي.. يي.. يي..**».

فأسرع زوربا فأمسكهما ورمى بهما خارجًا وهو يصيح:

- اخرسا.. أيتها العجوزتان.. ألا تريان أنها لا تزال على قيد الحياة؟

فهمستا بحقد وألم:

- يا لهذا الشيخ القذر. من أين جاء.. يا له من مزعج!

وسمعت المحتضرة الصيحة الحادة، فطارت جميع تخيلاتها.. سقطت المراكب، واللحم المشوي، واللحى المعطرة، لتعود من جديد إلى سريرها العفن. حاولت النهوض فلم تفلح. حاولت الصياح فخرج صوتها واهنًا تعسًا:

- لا أريد أن أموت.. لا...

اقترب زوربا منها محاولًا تهدئتها، وأزاح بيده شعرها عن جبينها الملتهب، واغرورقت عيناه بالدموع:

- تمددي.. تمددي يا عزيزتي.. زوربا هنا، لا تخافي.

فعادت لها تخيلاتها ثانية، وتناولت يد زوربا، وعانقت عنقه المحني قائلة:

- كانافارو.. يا عزيزي كانافارو.

ووقع الصليب فوق الوسادة، وسقط على الأرض وانكسر. وسُمِعَ صوت من الخارج:

- أجل أيها الرفيق. لنضع الدجاجة فوق النار.

كنت منزويًا في ركن الغرفة، وقد ملأت الدموع مقلتي. ورحت أخاطب نفسي: «**يا لهذه الحياة القاسية، حياة منحطة بلا رحمة أو شفقة. كل هؤلاء الكريتيين يجلسون بسرورٍ وحشي بانتظار موت السيدة التي أتت إليهم من آخر العالم. كأنها طائر أسطوري عجيب الألوان سقط فوق الجزيرة فاجتمعوا حوله ليتأملوه.. طاووس هرم.. قطة عجوز طويلة الشعر.. فقمة تحتضر..**». أبعدَ زوربا عنقه من بين ذراعيْ السيدة

ووقف ماسحًا دموعه بظهر يده، ثم نظر إليها، لكنه لم يستطع أن يميز شيئًا، فمسح عينيه ثانية، فرآها تحرك قدميها المنتفختين وتتلوى. ارتعشت.. وارتعشت ثانية. وسقطت الأغطية.. فبدا جسدها المتهدل نصف عارٍ.. يغطيه العرق.. وعلت منها صرخة صغيرة حادة ومؤلمة، كأنها طيرٌ يُذبَح. وسكنت دون حراك، وعيناها جاحظتان.. مرعوبتان.. مطفأتان.

ووثب الببغاء إلى الجزء السفلي من القفص وتشبث بقضبانه لينظر إلى سيدته، فشاهد زوربا يطبق عينيْ السيدة برفق وحنان لا نهائي. وصرخت الندابتان:

- هيا ساعدانا، لقد ماتت.

وعلا عويلهما وندبهما وشعّثتا شعريهما، تلطمان صدريهما وخدودهما. وقليلًا قليلًا أصابتهما هزة من الحزن القديم الكئيب الذي تسرّب إليهما كالسم، فانفجرت قشرة القلب بالنواح، وصاحتا:

- أنتِ لا تستحقين أن تُواري تحت التراب.

وخرج زوربا إلى الساحة. كان يريد أن يبكي، أن يصرخ. لكنه خجل أن يبكي أمام المرأتين. ما زلت أذكر حين قال لي في أحد الأيام: «**أنا لا أستحي من البكاء أمام الرجال، ولكن أمام النساء أبدًا، لا أبكي أبدًا. البكاء أمام الرجال ليس عارًا، بينما يجب أن نبدو شجعانَ أمام النساء، فإذا بكينا نحن فماذا ستفعل هذه التعيسات؟ ستكون نهاية العالم**».

غسلوا الميتة بالنبيذ، وتناولت إحدى العجائز ثوبًا نظيفًا عطرته بماء الكولونيا وغيرت ثياب المتوفاة، وسدت منخريها ومحجريها.

كانت الشمس قد مالت نحو المغيب، وتمايلت سحابات ملونة في السماء، وأخذت تتحول إلى سفن وطيور ووحوش من القطن، بينما ظل البحر هائجًا يتلاطم، وظهر في السماء غرابان سوداوان وحطًّا على شجرة التين في الحديقة، فأمسك زوربا بحجر وألقاها نحوهما ليطردهما.

كان فقراء القرية قد اجتمعوا في الباحة، وقد بدؤوا احتفالهم محطمين كل شيء، سرقوا الآنية والملاعق وأحضروا النبيذ من القبو، وطبخوا الدجاج. وبدؤوا الأكل والشرب بعدما كاد الجوع أن يقضي عليهم وهم يرددون: «**رحمها الله.. وليغفر لها خطاياها.. ليدخل عشاقها إلى الجنة. ليحملوا روحها**».

وصاح مانولاكاس:

- انظروا إلى زوربا العجوز لقد ترّمل وها هو ذا يرمي الغربان بالحجارة.. لنعزّيه وليتناول كأسًا معنا على روح المرحومة.. ايه أيها الأخ زوربا.

نظر زوربا نحوه، فشاهد المائدة، والكؤوس المتلألئة والشبان الذين لوحتهم الشمس وقد عقدوا رؤوسهم بالمناديل حولها. فهمس مانولاكاس: «**زوربا.. زوربا كُن صبورًا. فأنا بانتظارك**».

اقترب زوربا وعبّ كأسًا من الخمر، وثانيةً، وثالثةً، وتناول فخذَ دجاجة. وهم يحدثونه فلا يجيب، كان يأكل بجشع ويشرب بنهم، ويلقي بنظره إلى الغرفة التي ترقد فيها صديقته العجوز. ينصت من وقت لآخر إلى صرخات الندب، والتراتيل الجنائزية، وأبواب تُفتَح وتُغلَق، فقد كان فقراء القرية ينهبون كل ما تصل إليه أيديهم.

كانت الندابتان ترسلان صيحاتهما، وتركضان عبر الغرف مفتشتان عمَّا تريدانه، ملاعق، سكاكين، بن، سكر، أرز. فوجدتا بعض الحلوى فدسّتاها في فميهما فخرج الندب مختنقًا بالمعجنات: «**لتمطر عليك الأزهار.. والتفاح في مئزرك**». ودخلت أيضًا سيدتان عجوزتان إلى الغرفة وراحتا تبعثران محتويات أحد الصناديق، وجدتا مناديل وجوارب فاختطفتاها. ثم نظرتا نحو الميتة ورسمتا علامة الصليب.

اقترب أحد الرجال من الباب فهربت العجوزتان، وتعلقَتْ الندابتان بسرير الميتة وتابعتا عويلهما وندبهما. ثم دخل زوربا ينظر إلى الميتة. وراح يخاطب نفسه: «**حفنة مِن ترابٍ.. كانت تجوع، وتأكل، وتضاجع.. والآن! أيُّ شيطان يُحضرنا إلى هذه الأرض؟ وأيُّ شيطان يأخذنا منها؟**». ثم بصق على الأرض وجلس.

وفي الخارج كان الشبّان قد بدؤوا العزف والرقص. وأتى وجهاء القرية العم أناغنوستي. وكوندو مانوليو والمختار، وإن الأب مافراندوني كان غائبًا. فقد اختفى في الجبال بعد أن أصبح طريد العادلة.

قال الأب أناغنوستي:

- إني مسرور برؤيتكم تلهون أيها الشبان، ولكن يجب ألا تصيحوا فالميت يسمعكم، أجل يسمعكم!

وقال كوندو مانوليو:

- لقد جئنا لحصر أملاك المرحومة لنقوم بتوزيعها على الفقراء والمعوزين الذين في القرية. لقد أكلتم وشربتم بما فيه الكفاية، ولكن لا تأخذوا كل شيء.

قال هذا مهددًا بعصاه، وبرز من خلف الوجهاء نحو عشرٍ من النسوة المشعثة شعورهن، كل منهن تحمل كيسًا فارغًا وسلة، وأخذن يقتربن بهدوء وسكون. شاهدهن الأب أناغنوستي فصاح بهن:

- أيتها العجائز ارجعن إلى الوراء، سنحصي كل شيء وكل منكن ستأخذ نصيبها.

وتناول المختار من حزامه القلم والدواة واقترب من الدكان ليبدأ بالتسجيل، وفي الوقت نفسه علا صوت حاد لصفائح وعلب تتدحرج وأوانٍ ترتطم ببعض، كان الضجيج يغطي المكان بأكمله. أسرع أناغنوستي مهددًا بعصاه.

ولكن بمَن يبدأ؟ فقد انتشرت العجائز والفقراء في المكان، ينهبون كل ما تصل إليه أياديهم. أوانٍ منزلية، قلايات، وسائد، مناشف، أرانب، حتى الأبواب والشبابيك.. حتى إن ميميتو أيضًا تناول نعليْن من نعال السيدة الميتة وربطهما حول عنقه.

عبس المختار، وأعاد القلم والدواة إلى حزامه، ومزق الورقة الطويلة، شاعرًا بأن كرامته قد أهينت، واختفى من المكان. وصاح العم أناغنوستي:

- يا له من عار.. هذا عيب.. إنها تسمع قلت لكم!

فصاح ميميتو:

- هل أذهب لإحضار الكاهن؟!

- أيُّ كاهن أيها الأحمق! إنها فرنسية كاثوليكية. ألم تشاهدها كيف ترسم إشارة الصليب بأصابعها الأربع؟ لنبدأ بدفنها قبل أن ترتفع الروائح النتنة من جسدها.

فقال ميميتو:

- نعم.. لقد بدأ الدود يغزو جسدها.. انظروا.. أقسم لكم!

فهز الأب أناغنوستي رأسه قائلًا:

- أهذا يبدو لك غريبًا أيها الأبله! إن الإنسان يسكنه الدود منذ مولده، وعندما يموت ويبدأ الجسد بالعفونة تخرج الديدان من مخابئها بيضاء كدود الجبن.

سطعت النجوم في كبد السماء معلقةً مرتجفة، كأنها أجراس صغيرة. وتناول زوربا قفص الببغاء، حيث كان وحيدًا متربعًا في إحدى زوايا القفص خائفًا مرتعبًا. عندما شاهد الببغاء زوربا قفز من مكانه، وحاول أن يصيح لكنّ زوربا أشار عليه بالصمت. نظر زوربا إلى الميتة بأنفاس متلاحقة ودموع مسجونة. كاد أن يُقبّلها لكنه تمالك نفسه وتمتم: «**اذهبي.. ليرحمكِ الرب**». وخرج حاملًا القفص بيده. رآني في الباحة فأشار إليَّ قائلًا:

- هيا بنا. لنذهب.

كان يحاول قدر الإمكان أن يبدو هادئًا، لكن شفتيه كانتا ترتجفان.

فقلت معزيًا:

- كلنا سنسير على الدرب نفسه.

- يا له من عزاء جميل.

- انتظر لنرى مراسيم الدفن. ألستَ قادرًا على الوقوف للنهاية!

- أجل.. سأبقى.

ترك القفص على الأرض، وصلّب ذراعيه على صدره. وحينها خرج من الغرفة العم أناغنوستي وكوندو مانوليو ورسما إشارة الصليب، وخلفهما أربعة شبان يضعون ورودًا خلف آذانهم، سكارى يبدو عليهم السرور حاملين الباب الذي وُضِعَت فوقه الميتة. وخلفهم جميعًا كان عازف القيثارة ونحو عشرة رجال تهدّل شعرهم وهم لا يزالون يمضغون ما يأكلونه، ووراءهم بعض النسوة يحملن كل ما وصلت إليه أياديهن، وخلفهم جميعًا كان ميميتو يحمل النعليْن الباليَيْن حول رقبته ويصيح هازئًا:

- المجرمين.. المجرمين القتلة.

كان عازف القيثارة يعزف لحنًا هادئًا، ويشدو بصوت، ناعم، مرح، والريح تأتي دافئة عبر الليل الغامض:

- لماذا يا شمس قد غربتِ هكذا باكرًا؟

عندها قال زوربا:

- هيا.. لقد انتهى كل شيء.

٢٤

سرنا بسكون قاطعين أزقة القرية. حيث كانت المنازل مظلمة تبدو كأنها نقط سوداء. نسمع صوت كلب ينبح، وبقرة تخور، ومن بعيد كانت تصل إلينا مع صفير الرياح أصوات القيثارة المنسابة كأنها المياه العذبة.

قلت محطمًا جدار الصمت:

- زوربا، ما هذه الرياح؟ هل هي ريح الجنوب؟

لكنّ زوربا بقيَ صامتًا، يسير متقدمًا وهو يحمل القفص. عندما وصلنا إلى الشاطئ نظر إليَّ وسألني:

- هل أنت جائع أيها الرئيس؟

- كلا، لست جائعًا.

- هل أنت نعسان؟

- كلا.

- وكذلك أنا.. لنجلس فوق الحصى.. عندي شيء أريد أن أسألك عنه.

كنا كلانا تعبيْن، كلانا لم نكُن نشعر بالنعاس كأننا لا نريد أن نضيع حزن هذا اليوم، كأن النوم هرب وقت الخطر. كنا خجليْن من النوم.

جلسنا على الشاطئ، وضع زوربا القفص على ركبتيه، وبقيَ صامتًا لوقتٍ طويل. وهناك خلف الجبل برزت مجموعة قلقة من النجوم، وكأنها أسطورةٌ خرافية. ثم راحت النجوم تتساقط الواحدة تلو الأخرى.

نظر زوربا إلى السماء مذهولًا وكأنه يشاهدها للمرة الأولى، وهمس: «**ما الذي يمكن أن يكون هناك؟**». وبعد قليل بدا أنه قد قرر الكلام. قال بصوت ثابت وغاضب:

- هل تستطيع أن تقول لي أيها الرئيس مَن قام بصنع كل هذا؟ ولماذا؟ وخصوصًا لماذا نموت؟

- كلا، لست أدري.

أجبتُ مذهولًا، كأنه يسألني عن شيء بسيط لكن لا أعرف له تفسيرًا. فجحظت عينا زوربا قائلًا بخوف وانفعال:

- لا تدري؟! إذن فجميع هذه الكتب القذرة التي تقرأها لا نفع لها! ما نفعها، قل لي، لماذا تقرأها؟

- إنها تتكلم عن ارتباك الإنسان الذي يسأل ولا يستطيع أن يُجيب.

فضرب زوربا الأرض برجليه، وصاح بصوت مرعب:

- فلتذهب إلى الجحيم بارتباكها.

عندما سمع الببغاء صراخ زوربا. قفز من قفصه صائحًا:

- كانافارو.. كانافارو..

فصاح به زوربا ضاربًا القفص بقبضته: «**اخرس أنت**». ونظر إليَّ:

- أريدك أن تخبرني مِن أين نأتي؟ وإلى أين نذهب؟ لا شك بأنك بعد هذه السنوات الطويلة من القراءة والبحث، قد عصرت ألفين أو ثلاثة آلاف من الكتب.. أريدك أن تخبرني ما العصير الذي استخرجته منها؟

كان صوته لاهثًا قلقًا. تمنيت لو أستطيع أن أجيبه. كنت أشعر بعمق بأن أعلى قمة يمكن أن يصل إليها الإنسان، لن تكون: الفضيلة أو النصر أو المعرفة، بل شيئًا أكبر من هذا وأعمق، وأكثر بطولةً ويأسًا، إنه: الخوف الأبدي.

عندما رأى زوربا أني لا أجيب، صاح قائلًا:

- إذن أنت لا تعرف!

عندها انبريت له محاولًا شرح معنى الخوف الأبدي:

- زوربا اسمع.. نحن لسنا إلا ديدانًا صغيرةً، ديدان تقف على ورقة شجرة كبيرة. وهذه الورقة التي نقف عليها هي الأرض، أما الأوراق الأخرى فهي النجوم والكواكب التي تراها في الليل. نسير فوق ورقتنا باحثين متفحصين. نشمها فنحصل على رائحة عطرة أو نتنة، نتذوقها فنحصل على الغذاء. نثب فوقها فتئن وتصيح كأنها كائن حي.. قسمٌ

من البشر، وهؤلاء هم الشجعان، يصلون إلى نهاية الورقة، يحنون رؤوسهم بعيون مذهولة ليروا الأوراق الأخرى ويشعروا بالصمغ يصعد من جذع الشجرة، فتتفتح قلوبهم. وهكذا وهم ينظرون منحنين، يأخذهم الارتعاش ويغزو الخوف أرواحهم.. وعند ذلك الوقت يبدأ.

وصمت. كنت أريد أن أقول: «**يبدأ الشِعْر**» لكن زوربا لم يكُن ليفهم هذا. فسألني لاهثًا:

- يبدأ ماذا أيها الرئيس؟!

- يبدأ الخوف الكبير. الخطر العظيم.. يدوخ البعض فيصيحون رعبًا، ويحاولون إيجاد جوابٍ لتثبيت قلوبهم، فيقولون «**الرب**». وآخرون ينظرون من حافة الورقة إلى الهوة بهدوء وقوة، ويقولون بأنها تعجبهم.

تأمَّل زوربا للحظة. كان غير قادر على الفهم، وأخيرًا قال:

- إني أنظر إلى الموت بلا خوف، ولكن لا أقول بأنه يعجبني. كلا.. أبدًا، لا أوافق على هذا.

وصمت قليلًا، ثم تابع منفجرًا:

- كلا.. لست أنا مَن يمد عنقه للموت كأني نعجة وأقول: «**هيا اقطع عنقي لأذهب إلى الفردوس**».

كنت أستمع لكلمات زوربا قائلًا لنفسي مَن هو هذا الحكيم الذي كان يأمر تلاميذه بأن يطيعوا القوانين الطبيعية، وأن يجيبوا بالإيجاب ما لا يستطيعون تغييره؟ لا شك بأن هذا الدرب هو الوحيد نحو الخلاص. إنه يستدعي الشفقة، ولكن أيوجد هناك غيره؟!

إذن أهي الثورة؟ ثورة الإنسان الفاشلة لقهر الضرورة ولإخضاع القوانين، قوانين الروح الداخلية. لجعل كل ما هو كائن يختفي. ولخلق عالم جديد، أفضل وأكثر شقاءً. ليكون حسب القوانين الداخلية، والتي هي عكس قوانين الطبيعة المتوحشة.

نظر إليَّ زوربا، وعلم بأنه ليس لديَّ ما أزيده. أمسك القفص برفق لكيلا يزعج الببغاء ووضعه قرب رأسه واستلقى على الرمال قائلًا:

- ليلة سعيدة أيها الرئيس. أظن أن هذا كفاية.

كانت الرياح الجنوبية الحادة تأتي من إفريقيا، لتنضج زروعَ كريت وثمارها. كنت أشعر بها تحرق وجهي، بينما عقلي ينتفخ وينضج كأنه ثمرة.

لم أكُن قادرًا على النوم بل لم أكُن أريده. أشعر في هذه الليلة كما لو أن إنسانًا آخر ينمو بداخلي، أعيش هذا المشهد بوضوح غريب، إني أرى نفسي تتغير. فما كان يجري عادةً في سراديب بطوننا المظلمة، كان يجري الآن تحت نظري وكأنه في وضح النهار. وبينما أنا جالس على الشاطئ كنت أشاهد المعجزة العظيمة تتحقق.

سقطَتْ آخر نجمة، وبدا الليل صافيًا، وخلف هذه الأنوار برزت الجبال والأشجار وطيور البحر، كأنها لوحة متقنة، لقد كان الصباح ينبلج.

*

نضج القمح وانحنت سنابله مثقلة بالحبوب، والدوري فوق الأشجار يشق الفضاء بصوته، والحشرات تطن في الليل، والبحر يفور. مرت عدة أيام، وأصبح زوربا يتوجه عند الفجر إلى الجبل بسكون. أصبح المصعد في طور الانتهاء بعد أن دُقّت الأوتاد وعلقت الحبال، ويعود في الليل خائر القوى ليضرم النار ويحضّر الطعام لنأكل. أصبحنا نتجنب الكلام كيلا نوقظ شياطين الأفكار التي تضطرم داخلنا.. الحب، العطف، الموت. لا نتحدث عن الأرملة أو السيدة هورتنس أو الله، كنا فقط نحدق إلى البحر بصمت مطبق.

ومقابل صمت زوربا، كانت الأصوات الخالدة ترتفع داخلي، وعاد القلق ليملأ قلبي. أسأل نفسي كثيرًا: «**ما هذا العالم؟ ما الهدف من حياتنا الزائلة؟! زوربا يقول إن بعض الناس يسعدون بالمادة، وآخرون بالفكر. وكل هذا سواسية لو نظر إليه من زاوية أخرى. لكن لماذا؟ ومن أجل من؟ وعندما يخفت صوت الجسد هل يبقى ما نُسمِّيه الروح؟ أم أنه لا يبقى شيءٌ البتة؟ وهل يكون ظمؤنا الأبدي ناتجًا من كوننا خالدين؟ أم أننا في كل لحظة نتنفس فيها نخدم شيئًا خالدًا؟!**».

ذات يوم نهضت من النوم واغتسلت، شعرت بأن الأرض قد نهضت واغتسلت معي، كانت تلمع بقوة وحيوية، سِرت في طريق القرية، كان البحر الأزرق الهادئ إلى يساري، وحقول القمح الذهبية البعيدة عن يميني.

مررت بتينة الآنسة وبعض الأشجار الأخرى، وتخطيتها بسرعة دون أن أنظر إلى حديقة الأرملة. دخلت القرية، فوجدتُ الفندق الصغير مهجورًا فارغًا، بلا أبواب أو شبابيك. كل الغرف فارغة، لم يبقَ بها سوى نعليْن باليين. هذان النعلان الوفيّان اللذان لم ينسيَا بعد القدميْن اللتيْن كانتا تلبسهما.

تأخرت بالرجوع، وكان زوربا قد رجع بالفعل وبدأ بتحضير الطعام، وما أن شاهدني قادمًا حتى عرف أين كنت. وبعد تلك الأيام الطويلة من الصمت المطبق حرّك شفتيه، وقرر أن يتكلم محاولًا تبرير صمته:

- إن جميع الأحزان أيها الرئيس تقسم قلبي شطرين، لكنّ هذا القلب المليء بالجراح والندوب سرعان ما يلتئم وتختفي جراحه. أنا مُغطى بالجراح، إلا أنها كلها قد التأمت. وما زلتُ قادرًا على تلقِّي المزيد.

فأجبته بصوت بدا فظًّا رغمًا عني:

- إذن فالمسكينة بوبولينا لم تَعُد تخطر لك على بال!

فصاح غاضبًا:

- دروب جديدة، أعمال جديدة.. لقد تخلصت من التفكير بما حدث البارحة. كما لم أَعُد أفكر بالذي سيحدث غدًا. إن ما يجري اليوم وفي هذه اللحظة هو الذي أفكر به. فأنا أقول: «ما الذي ستفعله الآن يا زوربا، تنام؟ إذن نم جيدًا. ماذا تفعل الآن يا زوربا، تعمل؟ إذن اعمل بجد. ماذا تفعل الآن يا زوربا، تعانق امرأة؟ إذن عانقها بحرية. ولتنسَ كل شيء آخر. فالعالم لا يوجد فيه إلا هي وأنت.

وبعد قليل أضاف:

- إن أيَّ عشيقٍ آخر لم يستطع أن يمنح السيدة هورتنس ما قدمته لها أنا، أنا زوربا العجوز. سوف تسأل لماذا؟ لأن كلًّا منهم كان يفكر وقت معاشرتها، بالأسطول أو بكريت أو بزوجاته، إلا أنا، فإني كنت أنسى كل شيء. وكانت هي الفاجرة تعلم هذا جيدًا. يجب أن تعرف هذا أيها الحكيم. لا يوجد شيء يسعد المرأة أكثر من هذا، يجب أن تصغي لهذا جيدًا لتعرف كيف تتصرف: إن المرأة تستمتع باللذة التي تقدمها للرجل أكثر مما تستمتع باللذة التي تأخذها منه.

ثم قرب رأسه من النار ليضع بعض الحطب، وسكت. أخذتُ أنظر إليه مسرورًا، وأنا أشعر في هذه اللحظات بأن الطعام الذي يَعدُّه زوربا هو أعظم ما أستطيع الحصول عليه، إنه غذاء للروح قبل أن يكون للجسد. قلت له:

- هل ما زلت تذكر يا زوربا الفخ الذي أوقعتني فيه عندما التقينا لأول مرة؟ لقد قلت يومها بأنك تحسن طبخ الحساء. وقد خلقني الرب مغرمًا بالحساء. كيف عرفت هذا؟!

حرك زوربا رأسه بسخرية:

- لا أعلم أيها الرئيس، لكني عندما شاهدتك مُنكبًّا على تصفُّح الكتاب ذي الأطراف المُذهّبة. قلت لنفسي لا بد وأنك تحب الحساء. لقد خطر هذا على بالي فجأة، أؤكد لك. وليس ثمة ما يدعوك لتسأل عن السبب!

وصمت، وألقى سمعه، ثم قال:

- أظن بأن هناك شخصًا قادمًا!

وسمعنا خُطوات مسرعةً، وأنفاسًا مضطربةً، وفجأة ظهر بقربنا راهبٌ ممزق الثياب وقد احترقتْ لحيته وجزءٌ يسير من شاربه، تفوح منه رائحة البنزين. فصرخ زوربا:

- آه.. أهلًا بك أيها الأب زكريا. ما الذي أصابك؟

وقع الراهب أرضًا قرب النار مرتعدًا. فاقترب زوربا منه وغمز إليه بطرف عينه.. فأجاب الراهب:

- أجل.

- مرحى.. حسنًا أيها الراهب، الآن أصبح ذهابك إلى الفردوس مؤكدًا. ستدخله حاملًا صفيحة البنزين بيدك، ودون أن تلتفت إلى أحد.

فرسم الراهب علامة الصليب، وتمتم:

- آمين

- لكن كيف جرى الأمر؟ ومتى؟ هيا أخبرني.

- شاهدت الملاك ميخائيل، أيها الأخ كانافارو، وأشار عليَّ بشيء. كنتُ أسمع وأنظر، وأنا وحيد في المطبخ، كان الباب مغلقًا وأنا أقشر بعض حبوب الفاصولياء، بينما كان الآباء يؤدون الصلاة. كل شيء كان ساكنًا، وسمعت الطيور تزقزق وشعرت بأنها ملائكة. كنت واثقًا من كل شيء، وقد هيأت اللوازم، واشتريت صفيحة بنزين وخبأتها في قبو الكنيسة ليباركها الملاك ميخائيل. وأمس بعد الظهر تمامًا كنت أعمل في الطبخ، شاعرًا باقتراب الجنة. كنت أبتهل: «**أيها السيد المسيح.. اجعلني مستحقًا لملكوت السماء لأقوم بتحضير الخضار في الجنة إلى الأبد**». وكانت دموعي تنهمر. وفجأة شعرت بأصوات أجنحة فوق رأسي، وفهمت فورًا. طأطأت رأسي مرتعشًا، وعندها سمعت صوتًا يقول: «**زكريا.. ارفع عينيك لا تخشَ شيئًا**». لكني كنت أرتجف وسقطتُ على الأرض. وكرر الصوت ثانية: «**ارفع عينيك يا زكريا**». رفعت رأسي. كان الباب مفتوحًا وعلى العتبة وقف الملاك ميخائيل، حاملًا مشعلًا ملتهبًا بدلًا عن السيف. وقال لي: «**السلام يا زكريا**». فأجبته: «**إني عبدُ الرب.. وأنا رهن أمرك**». فقال: «**خُذ المشعل، وليكن المسيح معك**». مددت يدي وشعرت بها تحترق، وكان الملاك قد تلاشى حينها، فشاهدت عبر الباب وهجَ نارٍ من السماء، كأنه نجمة هاوية.

مسح الراهب العرق المُتصبب من جبينه. بعد أن تغير لونه، وكان وجهه يرتعش. وقال زوربا:

- ها؟ تشجّع، وبعد ذلك؟!

- في هذا الوقت كان الآباء قد بدؤوا يخرجون من الكنيسة ليدخلوا قاعة الطعام. وبينما كان رئيس الدير يمر من أمامي رفسني بقدمه كأني كلبٌ. وانفجر الآباء الباقون بالضحك. ولزمت أنا الصمت. كانت رائحة الكبريت ما زالت تعبق في الجو بعد اختفاء الملاك. لكنّ أحدًا لم يشعر بها. جلسوا إلى مائدة الطعام، وقال لي المشرف: «**ألن تأتي لتأكل؟**». لكني بقيتُ صامتًا. وقال ديميتيوس اللوطي ساخرًا: «**إن خبز الملائكة يكفيه**». وعاد الباقون ليضحكوا من جديد. عندها وقفت واتجهت نحو المقبرة وارتميت عند قدميْ الملاك، وشعرت لساعات طوال أن رجله تدوس على عنقي. مضى الوقت كأنه البرق. هكذا تمضي الساعات والأيام في الفردوس، وحلّ منتصف الليل.

كان السكون مخيّمًا بعد أن ذهب الرهبان للفراش. نهضت ورسمتُ الصليب وخاطبت الملاك: «**إذن فليكن ما أردت**». وتناولت صفيحةَ البنزين، وبعضَ الخرق البالية التي كنت قد خبأتها وخرجت. كان الظلام شديداً، ولم يكُن ثمة قمر بعد، والظلام يلف الدير كأنه جهنم. دخلت الباحة وصعدت الدرج حتى وصلت إلى غرفة رئيس الدير، صببت البنزين على الغرفة والشبابيك والأبواب والممر الخشبي، تمامًا كما قُلتَ لي أيها الأخ كانافارو. ثم دخلت الكنيسة وأشعلت شمعة من شمعات السيد المسيح وأضرمت النار في المكان.

صمت الراهب ليلتقط أنفاسه، ولمعت عيناه بوحشية وصرخ راسمًا إشارة الصليب:

- عندما رأيت النار تلتهم الدير صرخت: «**ليتمجد اسم الله.. ليتمجد اسم الله، إلى نار جهنم.. إلى نار جهنم**». ولذتُ بالفرار، ومن بعيد كنت أسمع أصوات الأجراس تُقرَع وصيحات الرعب ترتـفع. اختفيت في الغابة حتى طلعَ النهار، كان الخوف مسيطرًا عليَّ. والرهبان يبحثون عني في كل مكان، لكنهم لم يجدوني، ثم سمعت الملاك يناديني لأنزل إلى الشاطئ. وسرت دون أن أدري إلى أين! فقد كان هناك مَن يقودني.. حتى وصلت إلى هنا، ووجدتك أخيرًا أيها الأخ كانافارو.. حمدًا لله.

بقيَ زوربا صامتًا وعلى وجهه ابتسامة عريضة، ثم سأله:

- زكريا.. ما خبز الملائكة الذي تحدث عنه ديمتيوس؟

- الروح.

- الروح؟! هذا يعني الهواء.. وهو لا يغني من جوع. تعالَ.. اقترِب تناولْ خبزًا وشوربة وسمكًا وقطعةً من اللحم. لقد تعبت كثيرًا اليوم هيا كُلْ.

- لا أشعر بالجوع.

- زكريا ليس جائعًا.. أعرفُ هذا. ولكن يوسف؟!

فأجاب الراهب بصوت أشبه بالهمس. وكأنه يفشي سرًّا كبيرًا:

- إن يوسف اللعين قد احترق معهم.. ليتمجد اسم الله.

- احترق! كيف وأين؟ هل شاهدته؟

- أيها الأخ كانافارو لقد احترق في اللحظة نفسها التي أشعلت فيها الشمعة من قنديل السيد المسيح. شاهدته بأم عيني وهو يخرج من فمي كشريط حريري، عليه أحرف من نار، ثم سقط على لهيب الشمعة واحترق وتحول إلى رماد.. كم أشعر بالراحة الآن.. يخيل إليَّ أني في الجنة! سأذهب لأنام قرب البحر. هذا ما يجب أن أقوم به منفذًا الأمر الذي تلقيته.

وابتعد متجهًا نحو الشاطئ، ثم اختفى. فالتفتُّ نحو زوربا قائلًا:

- إنك تتحمل المسؤولية، إذا ما وجده الرهبان وفتكوا به.

- لا تقلق لن يجدوه. فأنا أعرف هذا النوع من اللصوص. غدًا صباحًا سألحق به وأعطيه ثيابًا مدنية وأجعله يركب باخرة، لا تقلق، فهو لا يستحق كل هذا الاهتمام. هل الحساء لذيذ؟ كُلْ جيدًا من خبز البشر ولا تهتم.

أكل زوربا بجشع، وشرب، ومسح شاربه بظهر يده وبدا راغبًا في الكلام. فقال:

- هل رأيت؟ إن شيطانه قد مات، وهو الآن فارغ، فارغ تمامًا كالآخرين، لا بد وأنه هالك. هل تظن أيها الرئيس أن هذا الشيطان كان...

- بالطبع.. لقد سيطرت عليه فكرة إضرام النار في الدير، فأحرقه وهدأت نفسه. هذه الفكرة كانت تريد أن تأكل اللحم وتشرب الخمر لتتقوى وتصبح فعلًا. أما زكريا الثاني فلم يكُن بحاجة إلى اللحم والخمر، فقد كان يتقوّى بالصوم.

تأمَّل زوربا ما قلته، وقلّبَه في رأسه مرتين أو ثلاثة ثم قال:

- وحق الشيطان، أظن بأنك على حق، فأنا في داخلي خمسة أو ستة شياطين!

- كلنا بداخلنا شياطين يا زوربا.. لا تقلق، وكلما كان عدد الشياطين أكبر، كان هذا أفضل. فيكفي أن يتجهوا جميعًا إلى الهدف نفسه

بطرق مختلفة.

أثارت هذه الكلمات حفيظة زوربا، فوضع رأسه بين ركبتيه مفكرًا، ثم رفع رأسه وسألني:

- أي هدف؟

- لا أدري يا زوربا؟! أنت تسألني عن أمور صعبة. فكيف تريدني أن أفسّر لك؟

- قُل ذلك بتبسيط، فأفهم. فأنا تركت العنان لجميع شياطيني لتفعل ما تريد، ولهذا يقول البعض بأني غير شريف، والبعض يخالفونهم، والبعض يراني مجنونًا، وآخرون يرونني سليمان الحكيم، وأنا كل هذا وبعض الأشياء الأخرى أيضًا. نوِّر عقلي إن كنت تستطيع هذا!

- أظن يا زوربا.. وقد أكون على خطأ، إن هناك ثلاثةَ أنواعٍ من البشر: الذين يقولون بأنهم يريدون أن يعيشوا حياتهم يأكلونَ ويشربون ويحبون ويصبحون أثرياء ومشاهير. والذين يرسمون لأنفسهم طريقًا من أجل سعادة البشر جميعًا. وهناك أخيرًا الذين يرسمون هدفًا لهم من أجل سعادة الكون بأجمعه، البشر، الحيوانات النباتات، ويشعرون بأن هؤلاء كلهم وحدة واحدة لا تتجزأ من أجل معركة عظيمة لتحويل المادة إلى روح.

فرك زوربا رأسه وقال:

- إن رأسي صلبٌ ولا أستطيع أن أفهم ببساطة. آه كم أتمنى لو أنك تستطيع أن ترقص ما تريد قوله، لكي أستطيع فهمه.

شددت على شفتي بذهول. آهٍ لو كنت أستطيع أن أرقص مثل هذه الأفكار! لكني عاجز عن هذا. لقد ضيعت حياتي وأسأت استخدامها. أردفَ زوربا:

- آهٍ لو كنتَ قادرًا على هذا أيها الرئيس.. كم أتمنى لو أنك تستطيع أن تقصه عليَّ كحكاية. كما كان يفعل جارنا حسين آغا. كان شيخًا تركيًّا عجوزًا تقيًّا، فقيرًا بلا زوجة ولا ولد، ملابسه بالية لكنها على الدوام نظيفة، كان يغسلها ويطبخ وينظف أرض غرفته بنفسه في النهار، وفي المساء يأتي إلى بيتنا فيجلس مع جدتي ورفيقاتها

العجائز، يحوك الجوارب ويحدثهن. وفي أحد الأيام حملني وأجلسني عل ركبتيه قائلًا: «**اسمع يا ألكسيس سوف أقول لك شيئًا ربما لن تستطيع أن تفهمه الآن لكنه سيأتي اليوم الذي تفهم فيه.. إن الله العظيم لا تستطيع السماوات السبع والأرضين السبع أن تسعه، ولكن قلب الإنسان يسعه، فاحذر أن تجرح قلب إنسان**».

كنت أستمع إلى كلمات زوربا بهدوءٍ وسكونٍ وأخاطب نفسي: ليتني أقدر أن أطبق فمي ولا أنطق إلا عندما تبلغ الفكرة المجردة ذروتها وتصبح حكاية، ولكن هذا ما لا يقدر عليه إلا شاعر مُلهم، أو شعب كامل. وقف زوربا قائلًا:

- سأذهب لأرى ماذا فعل راهبنا سيد الحرائق، سآخذ إليه بطانية حتى لا يصاب بالبرد، ومقصًا فقد يحتاج إليه.

أخذ هذه الأشياء واتجه نحو الشاطئ مقهقهًا، كان القمر قد ارتفع إلى كبد السماء، ونشر فوق الأرض نورًا شاحبًا حزينًا.

قبعت مكاني أسترجع في عقلي كلمات زوربا الغنية بالمعاني، والتي تفوح منها رائحة الأرض الدافئة، كأنها كلمات خرجت من أحشائه مفعمة بالحرارة الإنسانية، أما كلماتي أنا، فكانت من ورق، تخرج من رأسي باردة دون أن تلطخها نقطة دم واحدة. عندما عاد زوربا فجأة كنت ممددًا على بطني أنقب في بقايا الرماد لأتدفأ، دخلَ زوربا ويداه متدليتان مذهولًا وقال:

- أيها الرئيس.. لقد مات الراهب.

- مات؟!

- نعم. رأيته مُمددًا على صخرة.. كان القمر يُضيء المكان فركعت بجواره وقصصت له لحيته وشاربه وشعره، لكنه لم يتحرك حتى إني كدت أقص الجلد، وعندما وجدته حليقًا كخروف غرقت بالضحك وهززته صائحًا: «**أيها الأب زكريا.. هيا انهض كي تشاهد معجزة العذراء**»، لكنه بقيَ جامدًا. هززته ثانية دون أن يُبدي أي حركة. كشفت عن صدره وأصغيت السمع، لكنّ قلبه كان ساكتًا، لقد كفَّ المحرك عن الدوران.

كان زوربا كلما أوغل في الكلام ازداد سروره ومرحه، لقد جعله الموت يرتعش للحظة، ثم سرعان ما عاد إلى طبيعته، وقال:

- والآن ماذا سنفعل به أيها الرئيس؟ أقترح أن نضرم فيه النار، فمَن يَقتُل بالبنزين، بالبنزين يُقتَل. أليس هذا ما يقوله الرب في الإنجيل؟ هل تعلم أنه سيشتعل جيدًا لأن ثيابه مبللة بالدهن والبنزين. سيشتعل مثل يهوذا في اليوم المقدس.

- افعل ما يحلو لك.

- يا له من أمر مزعج.. لو أضرمنا فيه النار لاشتعلت ثيابه، إلا أن جسده ليس سوى جلد وعظام، وهذا سيأخذ منا وقتًا طويلًا كي يحترق. فهو ليس عليه أوقية واحدة من الشحم لتساعد النار. لو كان الله موجودًا كما يقال، ألم يكُن قد عرف هذا وخلقه سمينًا قليلًا. ما رأيك؟

- لا تسألني عن شيء. قلت لك افعل ما تريده، لكن بسرعة.

- الأفضل أن نصنع منه معجزة؛ إذ إن الرهبان سيعتقدون بأن الرب قد أصبح حلّاقًا، وبعد أن حلق له شعره قتله انتقامًا لحرق الدير.

كان القمر يحتضر وهو على وشك المغيب عند طرف الأفق، أرجوانيًّا كقطعة من معدن حمّرتها الشمس، فذهبت لأنام، وحين نهضت في الصباح شاهدت زوربا بقربي يُعِدُّ القهوة. كان يبدو تعبًا وعيناه حمراوان بسبب سهره طوال الليل، وقال وابتسامة خبيثة تعلو شفتيه:

- لم أستطع أن أنام طوال الليل أيها الرئيس، فقد كنت مشغولًا.

- مشغول بماذا أيها القذر؟

- كنت أصنع المعجزة.. كلا لن أقول لك.. غدًا سندشّن المصعد وسيأتي الكهنة المترهلون ليباركوا المصعد، وعندها سيعلم الجميع بالمعجزة التي قامت بها سيدة الانتقام. هل تعلم: يمكن أن أصبح رئيسًا للدير، وبهذا ستضطر جميع الأديرة إلى إغلاق أبوابها فلن يجدوا زبائن بعدي. إلى ماذا يحتاج الدير؟ أتريد الدموع؟ إسفنجة خلف الأيقونة تفي بالغرض ويبدأ القديسون بالبكاء. أصوات رعد؟ أضع تحت المائدة المقدسة آلة ميكانيكية تفرقع بهذه الأصوات. أشباحًا؟ اثنان من الرهبان الأوفياء يصعدان إلى سطح الدير ملتفيْن

بالبطانيات. وعندما يحل عيد نعمة السيدة العذراء كل سنة سأحضر بعض العميان والعرجان والمشلولين، ليعودوا لحياتهم ويقفون على أقدامهم ويرقصون بفضل معجزتها. لا تضحك أيها الرئيس. لي عمٌّ وجد يومًا بغلًا كان على وشك الموت، فأخذه وراح كل صباح يعلفه وعند المساء يعود به إلى البيت، وعندما سأله أهل القرية عمَّا يريد أن يفعله بالبغل المسن الذي لا ينفع لشيء، أجابهم عَمِّي: «**إني أستعمله كمصنع للروث والسماد**». وأنا أيها الرئيس سأستعمل الدير كمصنع للمعجزات.

٢٥

لن أنسى ما حييت مساء الأول من أيار. كانت الأوتاد قد دُقّت، والحبال قد رُبِطَت، والبكرات تلمع تحت أشعة الشمس، أصبح المصعد جاهزًا. وجذوع الأشجار مكومة في رأس الجبل، والعمال بقربها ينتظرون إشارتنا ليعلقوا الجذوع على الحبال لتتدحرج نحو البحر، بينما وُضِع علمٌ يوناني يرفرف أعلى وتد المصعد، وقد هيَّأ زوربا برميلًا من الخمر قرب الكوخ، وبقربه أحد العمال يشوي على النار خروفًا سمينًا، حيث كان المدعوون سيحضرون بعد الانتهاء من التدشين لتناولِ كأسٍ ويتمنوا لنا التوفيق. أنزلَ زوربا قفصَ الببغاء ووضعه على صخرة قربَ أول وتد، وهمسَ ناظرًا إليَّ برفق وحنان:

- كأني أرى سيدته مكانه!

وأخرج من جيبه حفنة من الفستق وقدمها له. استقبل زوربا الجميع كأنه سيد كبير وهو في أبهى ثيابه، وقد صبغ شاربه. شرح لهم أهمية المصعد، والفائدة التي ستعود منه على القرية، مؤكدًا أن العذراء هي مَن ألهمته بفكرة المصعد، ثم قال لهم:

- كان عملًا صعبًا.. لم يكُن هناك بُدٌّ من الوصول إلى الميل المناسب، إنها فكرة علمية بالأساس. أجهدت عقلي شهورًا بالتفكير، لكن بلا فائدة، إن عقل الإنسان لا يسعفه في مثل هذه المسائل الكبرى، ولا بُد مِن هبةٍ إلهية، وحينما رأتني العذراء المقدسة وأنا أكِد وأجتهد، أشفقت عليَّ، وقالت إن هذا المسكين زوربا رجلٌ شجاع وطيب، يعمل لخير القرية، سأساعده بطريقة ما، ويا للمعجزة...

توقف زوربا عن المتابعة قليلًا، وعلاه الوقار ورسم علامة الصليب ثم تابع كلامه:

- يا للمعجزة.. ذات ليلة وأنا نائم وقفَتْ أمامي امرأة في ثوب أسود، كانت هي العذراء المقدسة، تحمل في يدها تصميمًا حديديًّا صغيرًا، وقالت لي: «**زوربا.. إني أحمل لك التصميم، هذا هو الميل الصحيح فاتبعه، ولك بركتي**». قالت هذه الكلمات واختفت. عندئذ استيقظت ووثبت إلى

حيث كنت أَجرِي تجاربي. وماذا رأيت؟ لقد وجدت الحبل قد أخذ من نفسه الميل الصحيح اللازم! وكانت تفوح منه رائحة المسك دليلًا على أن يدَ العذراء قد لمسته.

وبينما زوربا يتحدث ظهرَ عند أقصى الدرب خمسة رهبان بثيابهم السوداء، يمتطون البغال، وأمامهم راهب سادس يحمل الصليب صائحًا:

- المعجزة أيها المسيحيون.. المعجزة. ها هم أولاء الرهبان يحملون العذراء المقدسة، اركعوا.. وصلّوا لها.

اقترب القرويون والعمال من الراهب مشدوهين، يرسمون علامة الصليب. وأنا أقف بعيدًا، فأشار لي زوربا وغمز بعينه قائلًا:

- اقترب لتشاهد معجزة العذراء المقدسة جدًّا!

ثم ركع الراهب وبدأ يقص لاهثًا حكاية زكريا:

- اركعوا أيها المسيحيون، واستمعوا لمعجزة العذراء.. استمعوا أيها المسيحيون الطيبون.. لقد أسرَ الشيطان روح زكريا الملعون، فأخذ يغمر الدير بالبنزين وأشعل فيه النار، وعند منتصف الليل شاهدنا ألسنة اللهب، ونهضنا بسرعة، كانت الكنيسة والممر والغرف، كلها تشتعل. فزعنا وقرعنا الأجراس ونحن نصرخ: «**النجدة يا سيدة الانتقام**». وأسرعنا نحمل الجرار والدلاء، وعند الفجر أُطفئت النار. وذهبنا إلى أيقونة العذراء العجيبة في الكنيسة، ركعنا أمامها وصرخنا عليها: «**يا عذراء الانتقام استلي رمحك واغمديه في المجرم**». ثم تجمَّع الرهبان في باحة الدير ولاحظنا غياب زكريا، يهوذا الدير، وأخذنا نصيح: «**هو.. زكريا هو مَن أحرقنا**»، وأخذنا نفتش عنه في كل مكان طيلة النهار والليل ولم نجده. واليوم عند طلوع النهار ذهبنا إلى الكنيسة.. فماذا رأينا يا إخوتي المسيحيين؟ معجزة خارقة! وجدنا زكريا ممددًا مصروعًا أمام الأيقونة المقدسة، ورأس رمح العذراء يَقطُر بنقطة دمٍ كبيرة!

عندها صاح أهل القرية «**ارحمنا يا رب**». وتابع الراهب:

- استمعوا إلى معجزة رهيبة أخرى: عندما اقتربنا لنرفع جثة زكريا الملعون، وجدنا شعره محلوقًا، حلقت العذراء رأسه ولحيته وشاربه.. كأنه كاهن كاثوليكي.

نظرت نحو زوربا متمالكًا نفسي كيلا أغرق بالضحك وهمست:

- أيها اللص.

فإنه لم ينتبه لي، فقد كان راكعًا يرسم إشارة الصليب أمام الكاهن بذهول وندم، وهو يتمتم:

- إنك عظيم أيها السيد.. إنك كبير أيها السيد، وعجيبة هي أعمالك!

في هذا الوقت كان الرهبان جميعهم قد وصلوا. وصعد أحدهم صخرة كبيرة وبدأ الصلاة والبركات راشًّا ماء الورد على جباه ورؤوس الفلاحين وأهل القرية، بينما الباقون يرتلون بأصوات عالية. واقترب ديميتيوس المترهل وقال:

- سنذهب إلى جولة في قرى كريت، حتى يرى القرويون نعمة العذراء ويقدمون عطاياهم، إننا بحاجة إلى المال.. لكثير من المال، كي نرمم الدير.

عندئذ تمتم زوربا:

- يا لذوي الكروش الكبيرة! إنهم سيخرجون من الكارثة رابحين!

وأخيرًا قال رئيس الكهنة:

- إن الاحتفال يجب أن يبدأ فقد انتهت البركة.

كانت الشمس قد ارتفعت إلى كبد السماء وأصبح الجو حارًّا، وتجمَّع الرهبان حول الوتد الذي يرتفع عليه العلم، وجففوا جباههم بأكمامهم وراحوا يرتلون من جديد.

وأخذوا يرشّون الأوتاد والحبال والكرات بالمياه المقدسة، ثم رشّوا العمال والفلاحين وأنا وزوربا، وحتى البحر. ثم رفعوا أيقونة العذراء بحذر ووضعوها قرب الببغاء، واجتمعوا حولها. ووقفت أنتظر.

كانت التجربة الأولى للمصعد ستتم بثلاثة جذوع كرمز للثالوث، ثم بجذع رابع كاعتراف بنعمة العذراء، ورسم الجميع إشارة الصليب وقالوا: «**باسم الثالوث المقدس والسيدة العذراء**». اقترب زوربا نحو الوتد وأنزل العلم، وكانت هذه الإشارة التي ينتظرها العمال، تراجع الجميع خطوتين إلى الوراء وراحوا ينظرون إلى أعلى الجبل، وهتف رئيس الدير:

- باسم الآب.

من الصعب جداً أن أصف ما حدث بعد ذلك، فقد كان الموت على بُعد خطوة واحدة من الجميع.. اهتز المصعد بأكمله، وانحدر جذع شجرة الصنوبر بسرعة هائلة، يقدح بالشرر وتتطاير منه الشظايا، وبعد لحظات تحوّل إلى حطبة تكاد تكون محروقة بالكامل. نظر زوربا نظرة بائسة، وتراجع الجميع إلى الخلف ليكونوا أبعد عن الموت، وسقط ديميتوس الراهب على الأرض متمتمًا «**ارحمنا يا رب**». فرفع زوربا يده قائلًا:

- لا تفزعوا، فإن هذا يحدث دائمًا بالنسبة إلى الجذع الأول، انظروا الآن.

وأعطى الإشارة الثانية للعمال، ووقف بعيدًا، وصاح رئيس الدير برعب:

- والابن.

انحدر الجذع الثاني، واهتزت الأوتاد، وراح يقفز كأنه وحشٌ بحري، لكنه لم يصل إلى نهاية المصعد، فقد انسحق عند منتصف الجبل. عندها تمتم زوربا عاضًّا على شفتيه قائلًا:

- ليذهب إلى الجحيم، إن الميل ليس دائمًا دقيقًا بما فيه الكفاية.

وأعطى الإشارة الثالثة وصاح الراهب:

- والروح القدس.

اختبأ الجميع، ووقف الرهبان خلف البغال يرسمون علامة الصليب بعيدًا عن المصعد، بينما الأعيان يضعون رِجلًا على الأرض والأخرى في الهواء متحفزين للهرب. كان الجذع الثالث ضخمًا، وما إن بدأ بالانحدار حتى تعَالَى صوت هدير مُخيف، وزعق زوربا صائحًا:

- ارتموا أرضًا، أيها الأشقياء.

انكفأ الرهبان على وجوههم، وخرّ القرويون على الأرض. كان جذع الشجرة يقفز فوق الجبل، مرسلًا حزمة من الشرر، وقبل أن نتمكّن من رؤيته اندفع الجذع متجاوزًا الجبل والشاطئ، وغاص في البحر مخلفًا وراءه بقعة من الزبد. كانت الأوتاد تهتز اهتزازًا مُقلقًا وتخلَّع بعضها، فارتعبت البغال وقطعت حبالها ولاذت بالفرار.

فصاح زوربا محاولًا التهدئة:

- كل هذا لا شيء. لقد تهيأ المصعد الآن.

وأعطى الإشارة الرابعة بيأس ورهبة. وتمتم رئيس الدير مُطلِقًا ساقيه للرياح لينفد بجلده:

- وسيدة الانتقام.

وانحدر الجذع الرابع، وارتفع صرير الأوتاد، وانهارت كلها مرة واحدة كأنها قصرٌ من الورق، وعلا صياح العمال والقرويين، ولاذ الجميع بالفرار وهم يصيحون:

- ارحمنا يا رب.. ارحمنا.

أصيب ديمتيوس بشظية في ساقه، وكاد رئيس الدير أن يفقد عينه بشظية أخرى، واختفى القرويون ولم يبقَ غير السيدة العذراء منتصبة ممسكة برمحها تحدق إلى الرجال الهاربين، وبقربها كان الببغاء يرتجف رعبًا وقد انتصب ريشه الأخضر. تناول الرهبان أيقونة العذراء، وحملوا ديمتيوس الذي يئن من الألم، وأحضروا بغالهم، فامتطوها وعادوا أدراجهم. كان الخروف قد بدأ يحترق بعد أن تُرِك فوق النار. أسرع زوربا نحوه صائحًا:

- إن الخروف سيحترق.

جلست بجانبه على الشاطئ وحدنا. نظر إليَّ بتردد وقلق، فلم يكُن يدري ما يقول بعد هذه الكارثة، أمسك بسكين واقترب من الخروف ورفعه عن النار وأسنده إلى جذع شجرة وقال:

- لقد نضج تمامًا أيها الرئيس.. هل تريد قطعة صغيرة.

- أجل، وائْتِ بالخمر والخبز أيضًا فأنا جائع.

تناول كل منا سكينًا ورحنا نأكل بشرَهٍ وسرعة. وقال زوربا:

- أوه.. كم أنه لذيذ، يذوب في الفم حتى إنه لا يحتاج إلى المضغ، لم آكل في حياتي مثل هذا اللحم إلا مرة واحدة، أظن أني قد قصصت هذا عليك.

- أُقْصُصْه ثانيةً.. هيا تكلم.

- حكايات قديمة أيها الرئيس، جنون يوناني وهوس.

- قلت، أُقْصُصْ عليَّ.. هذا ما أحبه.

- كان ذلك في ليلةٍ حاصرنا البلغاريون فيها من الجهات الأربع، كنا نراهم على منحدرات الجبال وهم يشعلون النيران، ولكي يزيدوا في رعبنا، راحوا يقرعون الطبول ويعوون كالذئاب، كان عددهم نحو الثلاثمائة، ونحن كنا ثمانية وعشرين فقط، وكان على رأسنا القائد «**روفاس**» رحمه الله، كان بطلًا، اقترب مني وقال: «**زوربا ضَع الخروف فوق النار**». فقلت له: «**ما رأيك لو شويناه في حفرة، سيكون ألذ**». فقال: «**حسنًا افعل ما تريد.. ولكن بسرعة فنحن جائعون**». وهذا ما كان، شوينا الخروف في حفرة، واجتمعنا حول النار. وقال القائد: «**لعله يكون آخر خروف نأكله. هل يشعر أحدٌ منكم بالخوف؟**». فضحك الجميع ولم يجب أحد. يا له من خروف.. أوه، كم كان لذيذًا أيها الرئيس! بمجرد أن أذكره يسيل ريقي. أخذنا نأكل بنَهم، وقال القائد: «**إن الأقدار هناك يعوون كالذئاب لنغني نحن كالرجال أغاني كليفتية**». وعلت أصواتنا بالغناء جذلين مرحين.. كنا نشرب وننشد سعداء، حتى نسينا الخطر. واقتربت من النار لكي أرى بوضوح، ونظرت إلى ظهر الخروف فعلمت بأن الخطر سيزول، فهتفت فيهم: «**إني لا أرى قبورًا، ولا أرى جُثثًا، سننجو الليلة أيها الرفاق**». فقد كان هكذا مكتوبًا على ظهر الخروف. وقال القائد الذي كان قد تزوج حديثًا: «**نعم، سننجو حتى أنجب ولدًا واحدًا، وليكُن بعدها ما يكون**».

تناول زوربا قطعة كبيرة من الخروف قائلًا:

- كان لذيذًا جدًّا ذلك الخروف.

قلتُ:

- هات ولنشرب أيضًا.. املأ الكؤوس.. حتى تطفح بالخمر.. ودعنا نرى ماذا يقول ظهر الخروف هذا؟

سلخَ زوربا ظهر الخروف بمهارة فائقة، وقربه من النور قائلًا:

- أظن بأن كل شيء سيسير على ما يرام.. سنعيش ألف سنة.. وبقلب كالحديد. أرى رحلة طويلة.. وهناك في النهاية.. منزلًا عظيمًا له

أبواب كبيرة، لا شك بأنها عاصمة لمملكة عظيمة.. أو الدير الذي تحدثنا عنه.

- هيا صبّ الخمر ثانية، واترك هذا التنجيم. سأخبرك أنا ما هذا المنزل ذو الأبواب الكبيرة.. إنها قبور الأرض.. هذه نهاية رحلتك يا زوربا.. أيها اللص.

- نخب صحتك أيها الرئيس.. أظن بأن الحظ أعمى.. يسير خبط عَشْواء يرتطم هنا، ويصطدم هناك، ومَن يَمَسَسْه يَدعوه محظوظًا.. فليأخذ الشيطان هذا الحظ. فنحن لسنا بحاجة إليه، أليس كذلك أيها الرئيس؟

- بلى، لسنا بحاجة إليه يا زوربا.. نخب صحتك.

تابعنا الشرب والأكل حتى أتينا على الخروف. كان العالم يرتفع.. والبحر يقهقه والأرض تهتز كجسر السفن، وطائران من طيور النورس يسيران على الأرض ويتحدثان، وقفتُ قائلًا:

- هيا يا زوربا. علّمني الرقص.

وقفز زوربا في مكانه، وتوهجت ملامحه وطفحت بالشر، وهو يقول:

- الرقص؟ الرقص أيها الرئيس.. هيّا اقترب.

- هيا لنبدأ يا زوربا، فقد تغير مجرى حياتي.

- أولًا سأعلمك رقصة زيمبكيكو... إنها رقصة وحشية قاسية. رقصة حرب، كنا نرقصها قبل المعارك.

ورمى بحذائيْه وجوربيْه، ولم يترك عليه سوى قميصه. فإنه كان يضايقه أيضًا، فخلعه ورماه بعيدًا، وقال:

- انتبه لقدمي أيها الرئيس.

وقرب قدمه إلى الأمام ولمس الأرض بخفة.. ثم قرب القدم الثانية. واختلطت الخُطى، واهتزت الأرض بمرح وسرور. وأَمسَكَ بكتفي قائلًا:

- ابدأ يا بُني، لنرقص معًا.

وغرقنا بالرقص، كان زوربا يصحح أخطائي، بجدية وحنان وصبر. وهذا ما شجعني لأتابع. أحسست كما لو أن جناحيْن نبتا بقدمي الثقيلة. وراح زوربا يصيح مصفقًا بيديه ليضبط رقصنا:

- مرحى.. مرحى يا ولدي.. فلتذهب الدواة والأقلام إلى الجحيم.. ولتذهب معها الأملاك والأشغال.. الآن قد أصبحت تعرف لُغتي.. لهذا فلنتفاهم على كل شيء.

وقفز عاليًا مصفقًا بقدميْه صائحًا:

- أيها الرئيس، أريد أن أقول لك شيئًا: لم أحبَّ شخصًا في حياتي كما أحببتك.. إن لساني غير قادر على تعبير مدى محبتي لك، لذلك فسأرقص لك محبتي.. ابتعد قليلًا كيلا أصطدم بك.. هيا، هوب.. هوب...

ووثب.. وصارت له أجنحة قوية بيديْه وقدميْه، وبدا في هذه اللحظة بين السماء والأرض كأنه ملاكٌ عجوزٌ متمرد. قفز عموديًّا في الهواء. لقد كانت هذه الرقصة الزوربية كلها تحديًا وعنادًا وتمرُّدًا وثورةً على الرب والكون. وكأنه يصيح: «**ما الذي تقدر أن تفعله بي يا فائق القوة؟ إنك لا تستطيع أكثر من قتلي. هيّا فاقتلني، لست أبالي فقد أتيح لي الوقت لأرقص غضبي، وقلت كل ما أحتاج إلى قوله رقصًا، ولن أحتاج إليك بعد الآن**».

ورحت أنظر إلى زوربا وخِفَّته في رقصه، كنت مشدوهًا معجبًا بتجلده وصبره وحريته، وفهمت أخيرًا جهد الإنسان في التغلب على ثقله، وهو يرقص على الحصى بخفة محمومة ليكتب تاريخ الإنسان الشيطاني المتمرد. كانت الشمس قد صارت في طور الغروب. وتوقف زوربا فجأة ونظر إلى حطام المصعد واتسعت عيناه، كأنه قد تذكر شيئًا. والتفت إليَّ صائحًا وهو يغطي فمه في أثناء الضحك كعادته:

- ما الذي كان يقدحه كالشرر هذا المصعد اللعين؟!

وترك نفسه يرتمي عليَّ، واحتضنني.. وراح يُقبّلني قائلًا بحنان:

- أتضحك.. أتضحك أيها الرئيس أنت أيضًا؟ مرحى.. يا بني!

وغرقنا بالضحك متدحرجين فوق الحصى.. ورحنا نتدحرج ونتصارع، حتى أنهكنا التعب، وغفونا كلٌّ منا بين ذراعيْ صاحبه.

*

عند الصباح استيقظت واتجهت نحو القرية، كنت أشعر بقلبي يقفز، فأنا لم أشعر بمثل هذا السرور في حياتي.. لم يكُن سرورًا بل متعة عارمة، غير مفهومة ولا مبررة، بل تناقض كل تبرير. فقد خسرت كل شيء.. مالي، عُمالي، المصعد، العربات. قد أضعت كل شيء. ولكن في هذا الوقت تحديداً شعرت بأني تحررت.. شعرت بأني عثرت على الحرية أخيرًا. أي فرح وسعادة تتملك الإنسان عندما يسير كل شيء عكسًا، فيُعرِّض روحه لاختبارات قاسية ليرى إن كان لها قيمة حقًّا، وكأن عدوًّا جبارًا يتربص بنا ليصرعنا، بعضٌ يُسمِّيه الله، وبعضٌ يُسمِّيه الشيطان، وأيًّا كان فإننا نظل ثابتين، واقفين على أقدامنا، وفي كل مرة ينتصر فيها الإنسان داخليًّا، رغم قهره وخسارته خارجيًّا، فإنه حينها يشعر بكبرياء وفرح لا يمكن التعبير عنهما.

إني أذكر أن زوربا قصَّ لي ذات ليلة، إنه كان مرة فوق أحد جبال مقدونيا وكانت الريح عاصفة، والسماء ماطرة فاختبأ في كوخه. وأحكم غلق الأبواب والنوافذ. وراح يتحدى الرياح ضاحكًا وساخرًا: «**لن أدعك تدخلين كوخي، لن أفتح الباب لك، ناري ستبقى مشتعلة. سأتغلب عليكِ**». لقد فهمت حين تذكرت كلمات زوربا هذه كيف يجب على الإنسان أن يفعل، وبأي لغة يخاطب قُوى الكون الغاشمة العمياء. كنت أسير على الشاطئ أسرعُ الخُطى وأخاطب أنا أيضًا تلك القُوى غير المرئية: «**لن تدخلي روحي، لن أفتح لك الأبواب، لن تطفئي ناري، ولن تستطيعي قهري**».

لم تكُن الشمس قد تربعت على قمة الجبل، وألوان السماء تتماوج وتتلألأ في الجو وفوق البحر، والعصافير تزقزق فوق أغصان الزيتون وقد ثملت بالنور الجديد.

وأنا أسير على حافة البحر مودعًا الشاطئ بأكمله لأحتفظ به في ذاكرتي. لقد شعرت بمتع كثيرة فوق هذا الشاطئ، واتسع قلبي بمصاحبة زوربا، وبثت كلماته الهدوء في نفسي، كان هذا الإنسان بغريزته الفطرية، بنظراته البدائية الحاسمة، يسلك أقصر الطرق وأكثرها أمنًا، ليصل إلى ذروة الجهد دون أن تلهث أنفاسه، بل وإلى ما هو أعلى من الذروة.

مرّ بي بعض القرويين من الرجال والنساء يحملون السلاسل والقناني. كانوا متجهين نحو الحقول للاحتفال بأول أيار، عيد العمال. ومرت بقربي صبية جميلة، ذات صدرٍ نَهِدَ قبل أوانه، كانت تركض وتغني، ووراءها يجري رجلٌ ذو لحية سوداء، يستشيط غضبًا. فاختبأت فوق إحدى الصخور المرتفعة، وصاح الرجل بها:

- انزلي.. انزلي.

فإن الفتاة وضعت يدها خلف رأسها وراحت تواصل غناءها وهي تهز ردفيها بغنج ودلال:

- قُل هذا بمرح.. قله بدلال.. قل إنك لا تحبني.. قل فأنا لا أهتم أبدًا.

وعاد الرجل ليصيح بها بتوسُّل وتضرُّع وتهديد:

- انزلي.. انزلي.

وفجأة قفز وأمسك بقدمها بقسوة. فانحدرت الدموع من عينيْ الفتاة بسرعة كأنها كانت تنتظر هذه اللحظة لتبكي وتفرج عن حزنها.

تابعت سيرِي بخُطى سريعة، فقد كانت كل هذه المتع تهيج قلبي، وعادت السيدة العجوز إلى ذاكرتي، سمينة معطرة، وقد شفت غليلها من القُبل، متمددة على الأرض. حركتُ رأسي بتقزز. فالأرض بعض الأحيان تصبح شفافة، فنشاهد السلطان الكبير، الدود. ذاكَ الذي يعمل ليلًا نهارًا في مصانعه تحت الأرض، فإننا نبعد نظرنا بسرعة لدى مرآنا مجرد دودة صغيرة بيضاء. لا بد أنها الآن قد انتفخت واخضرت بشرتها وتفسّخت، وسالت منها أخلاط الجسد.

عند مدخل القرية التقيتُ ساعيَ البريد، الذي ناولني رسالة ذات غلاف أزرق قائلًا: «**رسالة لك أيها الرئيس**». غمرني سرور لا يقاوم وأنا أتعرف على الخط الجميل الناعم. عبرت القرية بسرعة. وفتحت الرسالة. كانت قصيرة وموجزة:

(لقد وصلنا إلى حدود جورجيا، بعد أن هربنا من الأكراد، كل شيء يسير سيرًا حسنًا، لقد شعرت أخيرًا بمعنى السعادة، واستطعت أن أفهم أخيرًا الحكمة القائلة: «**لكي تصل إلى سعادتك، قم بواجبك، وكلما كان هذا الواجب قاسيًا، كانت السعادة أكبر**».

بعد أيام ستصل هذه المخلوقات الهاربة إلى «**باتوم**» وقد استلمت منذ لحظة برقية تقول: «**لقد ظهرت البواخر الأولى**» إن هؤلاء اليونانيين الأقوياء مع زوجاتهم وأطفالهم، سوف يرحلون قريبًا إلى مقدونيا وتراسيا، وسوف تزداد قوة اليونان ونضخ فيه دمًا جديدًا.

لقد أصابني التعب قليلًا ولكن النتيجة كانت حسنة. فقد خضنا المعركة وانتصرنا، وهذا هو المهم فأنا سعيدٌ).

وضعت الرسالة في جيبي، وأسرعت الخُطى، كنت مسرورًا أنا أيضًا. كنت أسير في الطريق الجبلي الوعر، الشمس ترتفع وخيالي يمتد تحت أقدامي، كانت السعادة مسيطرة عليَّ، ولو استطعت لغنيت لأعيد الهدوء إلى نفسي، لكني لم أستطع إلا إطلاق صرخات مبهمة. وسألت نفسي: «**هل تحب صديقك كثيرًا هكذا؟ أم أنك وطني متحمس دون أن تعلم؟ ألا تستحي؟ هدِّئ من روعك**».

وتابعت سيرِي، أعوي، وقد أخذني الفرح بعيدًا، وتناهى لسمعي صوت أجراس حقيرة، وبدت بعض المواشي والعنزات تتقافز فوق صخور عالية، وعلت لظهورهن رائحة نتنة. وقفز راعٍ من بين الصخور قائلًا:

- لماذا تسرع هكذا أيها الصديق؟ هل تركض للحاق بأحد؟

- كلا، لديَّ عمل!

- اقترِب واشربْ كوبًا من اللبن ترطب به حلقك.

- أخبرتك أن لديَّ عملًا.

- أوه، لا تحب لبني! على كلٍّ وفقك الله.. سِر على مهلٍ!

وصفّر للمواشي فأسرعت كلها، وبعد لحظات اختفوا جميعًا، العنزات والكلاب والراعي، اختفوا جميعًا خلف الصخور. وأكملتُ صعودي حتى وصلت إلى قمة الجبل، شعرت أن انفعالي قد تلاشى، كأني وصلت إلى غايتي. استلقيت على إحدى الصخور وسرحت بنظري عبر السهل والبحر.

ثم انتصبت واقتطفت بعض الأزهار والنباتات، وجعلت منها وسادة، كنت منهك القوى أقاوم النعاس، أغمضت عيني وسرح عقلي للحظات، هناك عند قمم الجبال المغطاة بالثلج، متصورًا القطيع الكبير من الرجال والنساء

والأولاد، وهي تتجه جميعها شمالًا، وصديقي يقودهم، سائرًا في المقدمة كأنه التيس قائد القطيع. ولكن سرعان ما اختفت الرؤيا.. وغرقت في النوم.

حاولت مقاومة النعاس، لكنه أطبق على جفني بقوة لا تُقهَر، فاضطررت إلى الاستسلام. ولكني لم أغفُ سوى لحظات. فتحت عيني فرأيت غرابًا يحط ببطء على صخرة قريبة وينشر جناحيه، تأملت ريشه ومنقاره وملأني التشاؤم، فأمسكت بحجر وألقيته نحوه ليبتعد، وسقطتُ في يد النوم مرة أخرى، للحظاتٍ فقط، فقد أفلتت من بين شفتي صرخة هائلة، وفي اللحظة نفسها مرّ الغرابُ فوق رأسي، لقد كان حلمًا مرعبًا اخترقَ نومي بضربةٍ كالسيف، كنت أرتعش، شاهدت نفسي في أثينا، أسيرُ عبر شارع هرمس وحيدًا، كانت حمأة الشمس قوية والحوانيت مُغلقة، والمكان مُقفر، ولم يكُن في الشارع أحدٌ غيرى. وفي ميدان «**الدستور**» شاهدت صديقي يركض لاهثًا خلف رجل نحيف طويل القامة، وكان صديقي يرتدي لباسه الأرستقراطي الأنيق، عندما شاهدني صاح قائلًا:

- أوه أيها المُعلّم.. كيف أنت؟ منذ مائة سنة لم أرَك. تعالَ هذا المساء لنتكلم قليلًا!

- ولكن إلى أين؟!

- إلى ميدان الكونكورد في حانة «**نبع الفردوس**» الساعة السادسة.

- حسنًا سأكون هناك.

فصاح بي موبخًا.

- دائما تقول هذا.. ولكنك لن تأتي!

- بل سأحضر بالتأكيد. هات يدك.

- إني على عجلة من أمري!

- لماذا العجلة؟ هات يدك.

ومدَّ يده ولكنه كان بعيدًا، وفجأة انفصلت يده عن كتفه، وأسرعت نحوي لتمسك بيدي، ارتعبت من هذا، وأفلتت مني صيحة هائلة... واستيقظت والغراب يُحلّق فوقي، وشفتاي تقطران مُرًّا.

استدرت نحو الشرق، وحاولت أن أرى البعيد، محاولًا أن أتغلب على المسافات وأثقب المدى لأرى صديقي.. كنت متأكدًا أنه في خطر.. وصرخت بأعلى صوتي باسمه محذرًا:

- ستافرداكي.. ستافرداكي.. ستافرداكي!

حاولت أقصى جهدي أن يصل صوتي إليه.. لكنّ الصوت تلاشى على مبعدة خطوات.

وعدت لأنحدر عبر الجبل، وقد سيطر عليَّ الرعب. كنت أحاول أن أصل إلى فهم الرموز المبهمة، هذه الرسائل الروحية، التي تنجح بعض الأحيان في خرق قوانين الطبيعة فتخترق الجسد لتستقر في الروح. ففي أعماق كياني كان هناك يقين يستقر في مكان أبعد من العقل، ذلك اليقين البدائي الذي تمتلكه بعض الحيوانات كالجرذان والخراف قبل أن ينفجر بركان الأرض! عادت لنفسي روح الإنسان البدائي الأول، تلك التي تدرك الحقيقة مباشرةً بعيدًا عن أحكام العقل المشوهة والملتبسة، تلك الروح التي انفصلت منذ زمان بعيد عن الكون. وهمست بيقين:

- إنه في خطر.. في خطر وسوف يموت، لعلّه نفسه لا يعرف.. ولكني أنا أعرف.. بل أثق.

كنت أنحدر بسرعة كبيرة فانكفأت على وجهي وتدحرجت فوق الحصى.. ثم نهضتُ وقد غطت وجهي ويدي الخدوش، وتمزق قميصي، لكنّ السَكِينة عادت لنفسي. وظللت أهمس: «**سوف يموت.. سوف يموت**».

يدّعي الإنسان بأنه قد بنى حوله حصنًا منيعًا ليحتمي به من غدرات الزمان، لكنّ الموت، ذلك العدو الرهيب الأكيد، الذي يخشاه الإنسان حتى آخر لحظة، يتسلل بألف رِجلٍ ببطء في الخفاء، وقد اجتاز الآن الجدران العالية وانقضَّ على روحي...

وصلت إلى الشاطئ.. التقطت أنفاسي.. وفكّرت: «**إن هذه المخاوف كلها تتولد من داخلنا، فنراها في أحلامنا كرموز لامعة، والحق أننا نحن مَن خلقها**».

شعرت بالاطمئنان قليلًا بعدما ردّ العقل النظام إلى قلبي، وقصَّ أجنحة خفافيش مخاوفي المرعبة، وقلّم أظفارها، فصارت مثل فأرة وديعة.

وصلت إلى الكوخ.. وابتسمت وأنا أشعر بالسخرية من سذاجتي.. كنتُ خجلًا من أن يكون عقلي قد وقع بمثل هذه السرعة في أحضان الرعب. عدت إلى الواقع الحزين من جديد.. لأشعر بالجوع والعطش، وأحسست بالتعب، وبدأت الجروح التي خدشتني بها الصخور تحرقني.. ومع هذا كان الاطمئنان يسيطر على نفسي، فالعدو الرهيب الذي اجتاز الجدران قد تراجع أمام خطوط الدفاع الثانية لروحي.

٢٦

انقضى الأمر أخيرًا. كان زوربا قد جمع بقايا المصعد والخشب والبكرات، وكوّمها قرب الشاطئ بانتظار أن يأتي المركب ليحملها. فقلت له:

- إني أقدمها جميعًا هديةً لك يا زوربا. وليكُن حظك طيبًا.

فأجاب محاولًا بلع ريقه ليمنع نفسه من البكاء:

- هل نحن مفترقان أيها الرئيس؟ إلى أين ستذهب؟

- سأذهب إلى الخارج.. إن «**فأر الورق**» لا يزال في داخلي ليقضم بعض الأوراق الباقية.

- ألم تتخلص منه بعد أيها الرئيس؟

- بلى يا زوربا، لقد تخلصت منه بفضلك، ولكن سأفعل ما فعلته أنت بالكرز، سأتناول الكثير.. والكثير من الورق، حتى تتقزز نفسي.. وعندها سأتقيأ وأتحرر من الكتب نهائيًا.

- وأنا؟ ماذا سأفعل إن تركتني أيها الرئيس؟

- لا تحزن يا زوربا، سنتقابل. ومَن يدري، إن قوة الإنسان عجيبة. وقد يتحقق يومًا مشروعنا الكبير. ذلك الدير، ولكن دون الرب ودون الشيطان، رجال أحرار فقط. وأنت ستكون بواب الدير، تحمل المفاتيح الكبيرة. تمامًا مثل القديس بطرس.. لتفتح وتقفل.

كان زوربا جالسًا على الأرض مسندًا ظهره إلى حائط الكوخ، يملأ كأسه ويشرب دون توقف ودون أن يقول شيئًا، وقد خيّم الظلام على المكان ونفدَ طعامنا، ونحن نتبادل حديثنا الأخير ونشرب. نتأهب لصباح غدٍ، لنفترق. كان زوربا يكرر بين وقتٍ وآخر:

- أجل.. أجل.. أجل.

كانت السماء تتلألأ بالكواكب، والليل يهيمن على المكان، بينما قلبنا في كياننا الداخلي يريد أن يلتئم. إلا أن الجُرحَ يغلب دائمًا.

كنت أنظر إليه بجشع، فقد كانت هذه المرة الأخيرة التي سأراه فيها.. وأخذت أقول في نفسي: «**ودَّعه وداعك الأخير، انظر إليه وتأمَّله جيدًا، فعيناك لن تريا زوربا بعد الآن، مطلقًا.. مطلقاً**». شعرت برغبة قوية أن أرتمي على ذلك الصدر الهرِم لأرتاح وأبكي.. لكني خجلت.. حاولت أن أضحك لأخفي انفعالي.. ولكنني لم أقدر، فقد جف حلقي.

كان زوربا يشرب دون توقف.. أنظر إليه وقد اغرورقت الدموع في مقلتيَّ. ما هذا السر الغريب.. الحياة؟ البشر يتلاقون ويتآلفون، ومن ثَمّ يتبعثرون.. كأنهم أوراق الشجر.. يفترق الرفيق عن رفيقه وبلا أمل يحاول أن يحتفظ بوجه الحبيب وجسده وحركاته قدر الإمكان. فبعد سنوات قليلة لن يذكر ما كان لون عينيه، أزرقاوان أم سوداوان؟

وصحت في نفسي: «**إن النفس الإنسانية كان يجب أن تكون من الفولاذ.. من البرونز.. لا من لحم ودم**».

كان زوربا لا يزال يشرب. مُصغٍ لشيء غير مسموع، كأنه ينصت إلى خُطى تقترب، أو خُطى تبتعد داخل كيانهٍ. فسألته:

- بماذا تفكر يا زوربا؟

- بماذا تريدني أن أفكر أيها الرئيس؟ أفكر بلا شيء، لا شيء بالمرة! نخب صحتك أيها الرئيس!

قرعنا الكؤوس.. ونحن نشعر بأن مثل هذا الحزن الكئيب يجب ألا يبقى طويلًا. كان علينا أن نندفع في البكاء بكل جوارحنا، أو أن نشرب حتى نثمل، أو نرقص كالمجانين، وقلت:

- اِعزف يا زوربا.

- لقد سبق وقلت لك بأن السانتوري يحتاج إلى قلب سعيدٍ. ربما أعزف بعد شهرين أو سنتين.. أو ربما لن أعزف بالمرةً! ومَنٍ يعلم؟ ربما سأغني بعد ذلك كيف يفترق اثنان فراقًا أبديًّا.

فصحت برعب شديد:

- أبديًّا!

وراح صدى هذه الكلمة يتردد في داخلي دون توقف. فأنا لم أكُن أتصور بأنها ستُقال قط.. وكرر زوربا الكلمة، محاولًا أن يبلع ريقه بصعوبة:

- أجل أبديًّا.. أبديًّا. إن ما تقوله الآن بأننا سنجتمع ثانية.. وبأننا سنبني ذلك الدير ليس إلا عزاءً فظيعًا. وأنا لا أنوي قبوله. بل لا أريده. نحن لسنا نسوة لنكون بحاجة إلى مثل هذا العزاء. أجل أبديًّا. أبديًّا.

- ربما سآتي معكَ.. ربما سأبقى معك. مَن يعلم أنا حر!

- كلا، لستَ حُرًّا. الحبل الذي ربطت به نفسك أطول بقليل من حبل الآخرين. هذا كل ما في الأمر.. أيها الرئيس. حبلك كما قلت لك «طويل».. فأنت تذهب وتجيء معتقدًا بأنك حرٌّ.. ولكن دون أن تقطع الحبل.. وعندما تقطع الحبل فقط.

شعرت باحتقاري لنفسي فقد مسّت كلمات زوربا جرحًا قديمًا.. وقبلت التحدي:

- سأقطعه ذات يوم.

- هذا صعب جدًّا أيها الرئيس.. صعب جدًّا. كي يحدث هذا فلا بد بشيء من الجنون.. الجنون، هل تسمع؟ أن تخاطر بكل شيء. أما أنت فعقلك كبير، وسيتغلب عليك. العقل تاجر لديه دفاتر حسابات يسجل فيها كل شيء: دفعت كذا. وادخرت كذا.. وهذه أرباحي.. وهذه خسائري. كما قلت لك عنده دكان صغير، وهو لا يغامر بكل ما يملك، بل دائمًا يفكر ويحتاط. إنه لا يقطع الحبل، بل يمسك به بقوة.. الجبان. وإذا ما تركه.. فقد هلك المسكين. ولكن دون أن تقطع ذلك الحبل.. فأي معنى للحياة؟ ستكون كأنها بابونج.. بل عشب بلا طعم.. ليس كطعم الخمر الذي يجعلك ترى الدنيا بالمقلوب.

وسكت وسكب الخمر من جديد. فإنه غيّر رأيه قائلًا:

- اعذرني أيها الرئيس.. فأنا فظ قليلًا، تتعلق الكلمات بأسناني كما تتعلق الوحول بالأحذية. فأنا لا أحسن كلمات المجاملة والعزاء اللطيف. ولكنك.. أنتَ تفهم!

وعبَّ كأسه، ونظر إليَّ، وصاح كأن الغضب قد اجتاحه فجأة:

- أنت تفهم.. أجل تفهم، وهذا ما سيهلكك.. لو كنت دون فهم لكنت الآن سعيدًا. فأنت لا ينقصك شيء بالمرة، شاب، ذكي، عندك المال اللازم، وشجاع.. يا للشيطان ينقصك شيء واحد: الجنون. وعندما ينقص هذا الشيء أيها الرئيس...

وهز رأسه بعنف.. وعاد للسكون.

لم يكُن يفصلني عن البكاء سوى لحظات. فقد كان كل ما يتفوه به زوربا صحيحًا، عندما كنت طفلًا كنت أندفع بجنون، برغبات تجاوز قدرة الإنسان، وكأن جسدي الإنساني لا يستطيع أن يسعني، ورويدًا رويدًا، ومع مرور الزمن، كبر عقلي وأصبحت حكيمًا. أصبحت أضع حدودًا لقوتي، أميز بين الممكن والمستحيل، بين المخلوق والخالق.

وبدت نجمة كبيرة تهوي عبر السماء، فارتجف زوربا وبرقت عيناه كأنه يرى نجمة تهوي للمرة الأولى. وقال:

- هل شاهدت النجمة؟!

- أجل.

وعاد الصمت ليخيّم من جديد. وفجأة رفع زوربا رأسه، وأخذ نفسًا عميقًا وعلت منه صيحة وحشية وتحولت هذه الصرخة إلى كلمات عذبة إنسانية.

وارتفع من بين أحشاء زوربا لحنٌ تركي قديم، يكتنفه الحزن والكآبة. وتمزق قلب الأرض.. وانتشرت العذوبة الشرقية الحزينة، وشعرت بجميع الخيوط التي تربطني إلى الأمل والفضيلة تتقطع. وأخذ زوربا يدندن:

«جملان يغنيان فوق التل، لا تغنِّ أيها الجمل.. آمان.. آمان. الصحراء، والرمل الناعم البعيد، والهواء يرتعش، الجِلد يتفتح، والنفس تطلق صرختها الأليمة المجنونة، وتتمزق، لأن ما من صرخة أخرى تجيبها، فتمتلئ العين بالدموع».

اختنق صوتي.. وملأت الدموع مقلتيَّ.. وسكت زوربا ومسح العرق عن جبينه بظهر يده. وراح ينظر إلى الأرض. وسألته:

- ما هذه الأغنية التركية يا زوربا؟

- إنها أغنية راعي الجمال. ينشدها في الصحاري، تذكرتها مرة منذ سنوات. وهذا المساء أيضًا.

ونظر إليَّ، كان صوته قاسيًا، وقد جف حلقه، وقال:

- لقد آن لك أن تذهب لتنام، فستستيقظ غدًا باكرًا لتذهب إلى كانديا لتستقبل المركب.

- كلا.. لا أشعر برغبة في النوم. فهذه الليلة الأخيرة التي نقضيها معًا.

- ولهذا السبب يجب أن تنقضي الليلة بسرعة.

وقلب كأسه الفارغة، علامة على أنه لا يريد أن يشرب أكثر. لقد كفَّ عن الشراب مرة واحدة.. كما يفعل الرجال الحقيقيون حين يكفّون عن التدخين أو الشراب. ثم قال:

- يجب أن تعلم هذا، كان والدي رجلًا مقدامًا، لا يوازيه أحد شجاعة، لا تنظر إليَّ هكذا. فأنا لست جبانَ، ولست مثله أيضًا. لقد كان إذا شد على كفك حطَّم عظامك، ولم يكن يتكلم كثيرًا، كان يزمجر ويصهل ويغني. قد خبر جميع الأهواء. ولكنه كان يقلع عنها مرة واحدة. كان يدخن كمدفأة، وذات صباح، استيقظ، واتجه نحو الحقل ليزرع الأرض.. واستند إلى السياج وتناول كيس التبغ. فوجده فارغًا.. فاستشاط غضبًا، وراح يزمجر.. وأسرع راكضًا نحو القرية. كان الجنون قد سيطر عليه. وتوقف فجأة.. يا للإنسان من لغز. توقف وكله خجل. وتناول كيسَ التبغ ومزقه ورماه على الأرض. وبصق عليه وهو يردد: «**القذرة. القذرة.. الفاجرة**». ومنذ ذلك اليوم، وحتى آخر أيامه لم يدخن سيجارة واحدة.. هذا ما يفعله الرجال الحقيقيون. ليلة طيبة.

ونهضَ وعبر الفسحة التي بيننا بخطوات واسعة دونَ أن ينظر إليَّ. حتى وصل إلى أبعد مكان على الشاطئ. واستلقى على إحدى الصخور.

ولم أشاهده ثانية قط.

في الصباح امتطيت البغلة وذهبت. إني أتساءل وربما أكون على خطأ: ربما في ذلك الصباح كان زوربا مختبئًا في مكان ما ينظر إليَّ بينما أرحل. فهو لم يكُن فوق تلك الصخرة، لم يُرد أن يودعني، أو يعانقني لتنفطر قلوبنا ألمًا، ونلوّح لبعضنا بالمناديل من بعيد. افترقنا هكذا.. بضربة سيف.

عندما وصلت إلى كانديا استلمت برقية، كنت أعلم ما بداخلها، بل وأعلم بيقين عدد كلماتها وأحرفها. تملكتني رغبة حادة في أن أمزقها دون قراءتها،

لكني فتحت البرقية وقرأت بحلقٍ جافٍّ وعينٍ زائغة:

«أمس، بعد الظهر، على أثر التهاب رئوي، مات ستافرداكي».

٢٧

ومرت السنون، خمسُ سنوات طويلة مخيفة، كان الزمان يجري فيها بسرعة دون ملل. اشتركت جميع الدول بالرقص، فتقاربت وتباعدت. وشعرنا بالغضب، زوربا وأنا. كنت من وقت لآخر أستلم منه بطاقة مقتضبة.

مرة من جبل آتوس أرسل صورة للعذراء، وكتب تحتها بريشته الثقيلة المعهودة: «**هنا لا يوجد أي مجال للقيام بأعمال الكهنة، سوف أترك هذا المكان، إنهم يسجنون حتى البراغيث**». وبعد أيام قلائل استلمت بطاقة ثانية: «**لا أحتمل التنقل بين الأديرة، حاملًا الببغاء بيدي كبائع متجول، لذلك فقد قدمته هدية لكاهن علّم أحد طيوره أن ينشد كيرياليسون، إن اللعين يغني كأنه كاهن حقيقي. لذلك فهو سيُعلِّم ببغائنا ذلك الغناء أيضًا. وها هو ذا الآن أصبح «الأب ببغاء».. إني أُقبّلك بمودة.. الأب ألكسيس..الراهب القديس**».

وبعد ستة أشهر أو سبعة، استلمت بطاقة من رومانيا، عبارةً عن صورة لفتاة ممتلئة عارية الكتفين، كُتب عليها: «**ما زلت حيًّا، أتناول «المامالدليغا»** وأشرب البيرة، وأعمل في آبار النفط القذرة، كجرذٍ في بالوعة. ولكن كل هذا لا يهم ما دمت أجد كل ما أشتهيه، إنها فردوسٌ حقيقي للبحارة الطاعنين بالسن مثلي. تفهمني أيها الرئيس؟ دجاج ونساء. ليباركك الله. قبلات كثيرة من ألكسيس زوربيسكو جرذ الأقذار».

وبعد مُضي سنتيْن استلمت منه بطاقة أخرى، لكن هذه المرة من بلاد الصرب:

«**ما زلت أحيا، الجو هنا بارد إلى حدٍّ مرعب، لهذا فقد وجدت من الأفضل أن أتزوج، وزوجتي الآن حامل، ستأتي بزوربا صغير. الملابس التي تراها عليَّ هي مَن أهدتنيها، وهذا الخاتم الذي في إصبعي هو خاتم المسكينة بوبولينا، كل شيء يفيد، لترقد بسلام. زوجتي تُدعى «ليوبا» وقد قدمت لي مهرًا لا بأس به، فرسًا وسبعة خنازير. وكذلك طفلين من زوجها السابق، نعم لقد نسيت أن أخبرك إنها أرملة. لقد اكتشفت في جبل جديد مقلع حجارة بيضاء، واستطعت أن أغري ممولًا جديدًا.**

وإني الآن ألتهم أمواله ببطء، وأعيش مثل الباشا. أُقبّلك بإخلاص. ألكسيس زوربيتش».

وعلى ظهر البطاقة كانت صورة زوربا، قويًّا، بملابس الزواج يضع على رأسه قبعة من الفرو، وبقربه فتاة جميلة بالكاد في الخامسة والعشرين، بدت جميلة، مثيرة تنتعل حذاءً عاليًا، سلافية ممتلئة الأرداف ذات صدر عارم. وتحت الصورة كتب «**هذا أنا زوربا.. والقضية التي لا تُحلّ، المرأة. وهذه المرأة تُدعى ليوبا**».

كنت أنا خلال هذه السنوات أسافر، وعندي قضية، ولكنها بلا صدر عارم، ولا مهر لتقدمه لي، لا معاطف ولا خنازير. وفي أحد الأيام استلمت منه برقية، وكنت وقتها في ألمانيا: «**اكتشفت أحجارًا خضراء عظيمة، أَحضِر فورًا، زوربا**».

كان ذلك في أيام المجاعة المشهورة في ألمانيا. وكان المارك قد سقط سعره، حتى إنك إذا أردت أن تشتري شيئًا بسيطًا ـ طابع بريد ـ كان عليك أن تملأ حقيبة ملأى بالملايين! مجاعة، برد، ملابس بالية، وأحذية ممزقة. بهتت الوجنات الألمانية، الناس يموتون جوعًا في الشوارع، والأطفال الرضّع يمضغون قطعًا من المطاط بديلًا عن رضع الحليب. وخلال الليل كان رجال الشرطة يحرسون الجسور حتى لا تأتي الأمهات ويرمين بأطفالهن وينتحرن.

كان الشتاء قاسيًا، وفي الغرفة التي بجانب غرفتي يسكن مستشرق ألماني، ولكي يملأ فراغه كان يعيد نسخ قصائد صينية قديمة وبعض مقولات كونفوشيوس. يستخدم ريشة طويلة على الطريقة الشرقية، لكي يشعر بالدفء. كان يقول لي مسرورًا:

- بعد قليل سوف أتصبب عرقًا تحت إبطي، وهكذا سوف أشعر بالدفء.

وفي ذروة هذه الأيام العصيبة، استلمت البرقية. شعرت بالغضب في بادئ الأمر، فبينما كان ملايين الرجال يستذلهم الجوع، ويتساقطون صرعى من أجل كسرة خبز؛ إذ بي أستلم برقية تدعوني لأعبر آلاف الأميال لأشاهد حجرًا أخضر جميلًا! فليحترق الجمال في الجحيم، الجمال لا قلب له ولا يشعر بألم البشر.

لكني شعرت بالرهبة فجأة؛ فقد هدأت نفسي، وشعرت باحتقار واشمئزاز داخلي، فعلى نداء زوربا اللا إنساني كان هناك نداء لا إنساني آخر يتردد من داخلي. كما لو كنت مسكونًا بطائر كاسر. ومع هذا لم أحقق طلبه، لم أطع تلك الصرخة التي تجاوبت مع زوربا.

لقد أطعت صوت العقل ومنطقه البارد، وأخذت ريشتي فكتبت لزوربا وشرحت له الأمر. وبعدها أرسل إليَّ ردّه بما يلي:

«أنت مع كل احترامي لك، كاتب رديء، كنتَ تستطيع أيها التعيس أن ترى حجارة جميلة خضراء لمرة في حياتك، ولكنك لم تقبل! بعض الأحيان ـعندما لا أكون منشغلًا بعمل- أتساءل: «هل هناك جحيم حقًّا؟!» ولكن بعد أن استلمت رسالتك، تيقنت بأن الجحيم لا بد أن يكون موجودًا، لأجل الكُتّاب الأغبياء أمثالك».

ومنذ ذلك الوقت لم أستلم منه شيئًا، فصلتنا أحداثٌ أليمة، وعاد العالم ليترنح جريحًا كالسكران، تحت وطأة الحروب والمشكلات الكونية، واضمحلت الصداقات والمشكلات الشخصية.

كنت كثيرًا ما أكلم أصدقائي عن تلك الروح الكبيرة، وكنّا نتعجب لمثل هذه الخطوات المتكبرة لعقل هذا الرجل البدائي، فقد كانت القمم الفكرية التي نحتاج إلى سنوات لتسلقها، كان زوربا يصل إلى أعلى ذروتها بقفزة واحدة. كنا نصفه بقولنا: «**زوربا ذو النفس المتعالية**». وعندما كان يتجاوز هذه الذُرى كنا نقول: «**زوربا المجنون**».

وهكذا كانت الأيام تمر ممزوجة بالسم الحاضر وعذوبة الماضي. وكان خيال صديقي الآخر يُثقل روحي، لم يطلق سراحي، لأني أنا مَن كنت أتمسك به ولا أُفلت ذكراه.

ولكن هذا الخيال لم أكلم عنه أحدًا مطلقًا، كنت أخاطبه سرًّا، قد تصالحت مع الموت على يديه، وصار هو الجسر الذي يصلني بالحياة الأخرى. عندما كنت أشاهد روحه تمر فوق جسر الموت كنت أشعر بها متعبة منهكة، لم تَعُد فيها القوة الكافية حتى ولو لمصافحتي.

وبعض الأحيان، كنت أفكر مذعورًا: ربما أن صديقي لم تسنح له الفرصة ليتخلّص من عبودية جسده ويبلغ الحرية الكاملة لروحه، حتى لا ترعبه صورة الموت الأبدي فتسقط منه روحه وتتلاشى إلى الأبد.. لعلّه لم تسنح له الفرصة ليشعر بأبديةِ ما كان بداخله أبديًّا.

ولكن في بعض الأحيان كنت أشعر بأن قوته قد عادت إليه، بل لعلّي أنا كنت أمنحه حبًّا وحنانًا أكبر، فيعود وقد بدا عليه الشباب والنضارة والقوة، حتى إني أكاد أسمع خطاه فوق الدَرَج.

قد زرت في هذا الشتاء جبال آنغاوين، حيث كنا قد أمضينا أنا وصديقي أيامًا لا أحلى ولا أعذب بصحبة امرأة نحبها.

نزلت في الفندق نفسه، كنت ممددًا، وكان نور القمر ينساب بهدوء عبر النافذة المفتوحة، فأحسست عبر عقلي النائم بجبال وغابات مكسوة تدخل الغرفة على مهل مع نور القمر، شعرت بسرور عارم وكأن الحلم في خِضمٍ عميق شفاف، وكأني نائم بين أحضانه.. أحسست بغبطة لا توصف، وكأنَّ النوم بحر عميق أرقد في قاعهِ، كنت شديد الحساسية، حتى لو أن باخرة مرت على بُعد مئات الأمتار كانت قادرة على حزّ جسدي.

وعلى حين غرة وقع فوقي خيال آخر، عرفته بسرعة، ورن صوته في أذني موبخًا:

- أتغفو؟!

- لقد طال انتظاري لك، ولم أسمع رنين صوتك منذ مدة بعيدة، أين كنت؟

- إني دائمًا بجانبك، ولكنك أنت مَن تنساني، وأنا ليست لديَّ دائمًا القوة على النداء، وأنت دائما تبتعد. يا لهذا الضوء القمري الرائع.. وهذه الأشجار التي تغطيها الثلوج.. ويا للحياة على الأرض. أرجوك اذكرني!

- كلا.. أنا لا أنساك أبدًا، وأنت تعلم هذا، وفي الأيام الأولى التي تركتني فيها كنت أسير عبر الجبال القاسية لأتعب جسدي، وكنت أقضي الليالي صباحًا أفكر بك، بل لقد ألفت أشعارًا حتى لا أموت كمدًا، ولكنها خرجت أشعارًا حقيرة، لم تكُن قادرة على تحريري من ألمي. إحداها تبدأ هكذا:

«عندما كنت تمشي بقرب الموت..

كنت أُدهَش لقامتكما الفارعة..

كنت أعجب لمرونتكما كليكما على ذلك الدرب القاسي..

كنتما كصديقين مترافقين منذ الفجر».

وفي قصيدة ثانية لم تنتهِ أيضًا قلت:

«يا حبيبي شد على أسنانك كيلا تتلاشى روحك».

ابتسم وأبعد وجهه عني، وارتعشتُ عندما شاهدت التعب في وجهه.. نظر إليَّ بعينيه المتحجرتيْن بل بالكُرتيْن المجوفتين. فسألته:

- بماذا تفكر؟ لِمَ لا تتكلم؟

وعاد صوته كتنهيدة آتية من بعيد ليقول:

- أوه.. ماذا يتبقى لنفسٍ كان العالم بالنسبة إليها حقيرًا جدًّا وضيقًا. هذه الأشعار يجب أن تكون لشخص آخر، إنها مبتورة، لا تكتمل فيها حتى رباعية واحدة! لستُ بحاجةٍ إليها، فأنا أتجول في الأرض، وأحاول زيارة أحبابي، ولكن قلوبهم قد أُغلقت دوني. فكيف أدخل؟ كيف أعيد الحياة لجسدي؟ أدور في دائرة مقفلة، ككلب يدور حول منزل مغلق الأبواب، ليتني أستطيع أن أعيش حرًّا طليقًا، دون أن أتشبث، كغريق، بأجسادكم الدافئة الحية.

واغرورقت عيونه بالدموع، حتى ابتلت الأرض من كثرتها وصارت وحلًا. ثم عاد رنين صوته الواثق ليقول:

- آه كم أشعر بالسعادة عندما أتذكر ذلك اليوم في ميونيخ، لقد وهبتني السعادة العظمى عندما شربت نخبي يوم عيد مولدي، هل تذكر؟ حينها كان بصحبتنا شخص آخر.

- أذكر الشخص تمامًا.. كنا ندعوه سيدتنا.

وسكتنا، كم من سنين مرت على ذلك اليوم في ميونيخ. كانت تثلج في الخارج، وعلى المائدة بعض الأزهار، كنا ثلاثة. وعاد الخيال ليسأل من جديد:

- بماذا تفكر أيها المعلم العزيز؟

- بأشياء كثيرة. أفكر بجميع...

- أما أنا فما زلت أفكر بكلماتك الأخيرة. بعد أن رفعت كأسك وتفوهت بهذه الكلمات: **«رفيقي، عندما كنت طفلاً صغيرًا، كان جدك العجوز يضعك على ركبته، وعلى ركبته الثانية كان يضع قيثارة ليعزف ألحانًا يونانية.**

إني أشرب هذا المساء نخب صحتك. وليكن قدرك كريمًا لتجلس هكذا على ركبة الرب».

- ولقد استجاب الرب لدعائك بسرعة.

- وما يهم هذا، فإن الحب أعظم وأقوى من الموت.

ثم ابتسم بألم ومرارة، كنت أشعر بجسده النحيل الشاحب يتلاشى في العتمة ليتحول إلى بكاء وأنين وسخرية.

وبقي طعم الموت بين شفتيَّ لأيام عديدة. إلا أن قلبي هدأ. فقد تعرفت على الموت أخيرًا على شكل وجه حبيب مألوف. كرفيق جاء ليأخذنا، ولكنه ينتظر بصبر كبير أن ننتهي من أعمالنا.

كان خيال زوربا هو الآخر يحوم حولي بقوة وغيرة. وفي إحدى الليالي كنت وحدي في المنزل على شاطئ البحر، أشعر بالسعادة، والنافذة التي تطل على البحر مفتوحة كليةً، وقد تسلل القمر من خلالها، والبحر يتنهد بارتياح شاعرًا بالسعادة مثلي، وكان جسدي المتعب من السباحة الطويلة يغط في سبات عميق.. ووسط هذه السعادة العارمة ظهر زوربا في حلمي، لا أذكر ما قاله، أو لماذا جاء. ولكن عندما استيقظت شعرت أن قلبي يكاد أن ينفطر. امتلأتْ مقلتاي فجأة بالدموع. وتملكتني رغبة جامحة في أن أستعيد الحياة الجميلة التي عشناها معًا على الشاطئ الكريتي. أرغمت ذاكرتي على أن أسترجع الكلمات، الصرخات، الدموع، والرقصات التي رقصها زوربا. وكانت هذه الرغبة قوية جارفة إلى الحد الذي جعلني أخشى أن يكون زوربا في هذا الوقت يحتضر، لأني كنت أشعر بروحه وقد امتزجت بروحي، إلى حد استحالة أن تموت واحدة دون أن ترتعش الأخرى وتصرخ ألمًا.

ترددت لبرهة في استرجاع الذكريات التي خلّفها زوربا داخلي، وقاومت نفسي التي ترغب أن تصوغ ذكرياتنا إلى كلمات، وسيطر عليَّ رعب طفولي، كنت أخاطب نفسي: «**إذا فعلت هذا وصغتها كلمات، فهذا معناه أن زوربا يجابه خطر الموت. لذلك يجب أن أصارع اليد التي تدفع يدي**».

صارعت يومين، ثلاثةً، أسبوعًا. وغرقت في الكتابة بمواضيع أخرى، وقمت برحلات، وقرأت عدة كتب. كنت أحاول أن أخدع الفكرة المسيطرة عليَّ. لكنّ عقلي كان يرمي بثقله فوق زوربا.

وذات يوم كنت جالسًا على سطح غرفتي قرب البحر، وكان الوقت ظهرًا والشمس تشتعل، وأنا أحدق إلى سفوح جبال سالامين الجرداء، وعلى حين غرة أمسكت بقلمي مدفوعًا بالفكرة المقلقة واليد اللامرئية، واستلقيت على السطح المستعر وبدأت أدون أقوال وأفعال وحركات زوربا.

كنت أكتب بسرعة، وأعيش الماضي من جديد، أحاول أن أعيد لذاكرتي زوربا بكل ما فيه. وكأني أشعر أنه لو اختفى زوربا فسأكون مسؤولًا وحدي. لذلك فقد كنت أكتب ليلًا نهارًا لأكوّن وجهه كما هو.

وبعد بضعة أسابيع كانت أسطورة زوربا العظيمة قد انتهت. وفي أحد الأيام كنت جالسًا على السطح بعد الظهر، والرواية المنتهية فوق ركبتي، شاعرًا بالسرور والثقة، كأني امرأة ولدت طفلها ووضعته على ركبتها بثقة واطمئنان.

وخلف الجبال البعيدة كانت الشمس تغرب بهدوء وسكينة. اقتربت مني فلاحة صغيرة تحمل البريد من المدينة، أعطتني رسالة وأسرعت هاربة. أدركت ما فيها أو على الأقل خُيِّل إليَّ ذلك، لأني عندما انتهيت من قراءة الرسالة لم أصرخ ولم أنتحب، لقد كنت متأكدًا من هذا. ففي اللحظة نفسها التي انتهيت فيها من كتابة الذكريات كانت الرسالة في طريقها إليَّ.

بهدوء وبساطة قرأتها. إنها مكتوبة من قرية قرب سكوبليج، من بلاد الصرب، كُتِبت بلغة ألمانية ركيكة. وهنا أترجمها كما هي بكل أمانة:

(أنا عُمدة القرية. أكتب لك لأخبرك بالنبأ المؤلم. وهو أن ألكسيس زوربا الذي كان يملك مقلمًا للحجارة البيضاء، قد قَضَى نَحْبَه، في الساعة السادسة مساءً يوم الأحد الماضي، وقبل أن يموت أرسل في طلبي وقال:

- اقترب أيها العُمدة. لي صديقٌ يُدعَى كذا. في اليونان. عندما أموت اكتب له وأخبِره بأني كنت بكامل عقلي أذكره وأفكر به حتى آخر لحظة من عمري.. وأني لا أشعر بالأسف مطلقًا على الحياة.. وليعِش في صحة جيدة وحياة هانئة. وأعْلِمه بأنه قد آن الأوان بالنسبة إليه ليكون واقعيًّا – اسمع أيضًا.. إذا جاء الكاهن ليلقنني ويناولني القربان المقدس. فقل له أن يهرب ويمنحني لعنته. لقد قمت بأشياء كثيرة في حياتي، ومع ذلك أعتقد بأن كل ما قمت به ليس كافيًا.. إن الرجال أمثالي يجب أن يعيشوا ألف سنة.. ليلة سعيدة.

لقد كانت هذه هي كلماته الأخيرة، وبعدها اتكأ على وسادته، وألقى بالغطاء بعيداً وحاول النهوض. فاقتربنا لنساعده، زوجته ليوبا وأنا وبعض الجيران. لكنه أبعدنا وقام من الفراش، ومشى حتى وصل إلى النافذة.

وهناك تشبث بفرجتها وتعلق نظره في المسافات البعيدة نحو الجبال، وذهلت عيناه، وأخذ يضحك، ثم يصهل كحصان. وهكذا، وبينما هو منتصب، وأصابعه مغروزة في النافذة، أسلم الروح.

لقد كلفتني زوجته ليوبا، أن أكتب لك لأبلغك تحياتها، ولأخبرك أن المرحوم كان دائمًا يحدّثها عنك، وإنه أوصى بإعطائك السانتوري كذكرى بعد موته. لذلك فالأرملة ترجوك عندما تسنح لك الفرصة أن تمر على القرية، وأن تقضي الليل في بيتها، وفي الصباح، عند مغادرتك، أن تصطحب معك السانتوري).

عصير الكتب
للنشر و التوزيع